وبه نستعين، وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

قال الشيخ الفقيه الإمامُ العالمُ العاملُ العلامةُ المحدّثُ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسيّ ثم القرطبي، رضي الله عنه:

الحمد لله المبتدىء بحمد نفسه قبل أن يَحْمَده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربُّ الصّمَد الواحد، الحيّ القيوم الذي لا يموت؛ ذو الجلال والإكرام، والمواهب العظام؛ والمتكلمُ بالقرآن، والخالقُ للإنسان، والمنعمُ عليه بالإيمان، والمرسلُ رسولَه بالبيان، محمداً ﷺ ما ٱختلف الْمَلَـوان[1]، وتعاقب الجديدان؛ أرسله بكتابه المبين، الفارِق بين الشك واليقين؛ الذي أعجزت الفصحاءَ معارضتُه، وأعْيَت الألبّاءَ مناقضتُه، وأخرست البلغاءَ مشاكلتُه؛ فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهِيراً. جعل أمثاله عِبَراً لمن تدبّرها، وأوامره هُدًى لمن ٱستبصرها؛ وشرح فيه واجباتِ الأحكـام، وفرّق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعِظ والقصص للأفهام، وضـرب فيه الأمثال، وقصّ فيه غيب الأخبار؛ فقال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2]. خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مراده فعلموا. فَقَرأَةُ القرآنِ حَمَلَةُ سِرّ الله المكنـون، وحَفَظَةُ علمـه المخـزون، وخلفاءُ أنبيائه وأمناؤه، وهـم أهلـه وخاصّته وخِيرته وأصفياؤه؛ قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهلِين مِنّا[3]» قالوا: يا رسول الله، مَن هم؟ قال: «هم أهلُ القرآن أهلُ الله وخاصّته» أخرجه ٱبن ماجـه في سننـه، وأبـو بكر البَزّار في مُسنده. فما أَحَقَّ مَن عَلِم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكّر

(١) الملوان: الليل والنهار.

(٢) سورة الأنعام آية: ٣٨.

(٣) في «سنن ٱبن ماجه»: «من الناس».

ما شُرِح له فيه، ويخشى الله ويتّقيه، ويراقبه ويستحييه. فإنه قد حُمِّل أعباء الرسل، وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل الملل؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(١). ألا وإنّ الحجة على من علِمه فأغفله، أوكد منها على من قصر عنه وجَهِله. ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع؛ وأرتكب من المآثم قبيحاً، ومن الجرائم فضوحاً؛ كان القرآن حجةً عليه، وخَصْماً لديه، قال رسول الله ﷺ: «القرآن حجة لك أو عليك» خرّجه مسلم. فالواجب على مَن خَصّه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبّر حقائق عبارته؛ ويتفهّم عجائبه، ويتبيّن غرائبه؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾(٢). وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٣). جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبّره حق تدبّره؛ ويقوم بقسطه، ويوفي بشرطه، ولا يلتمس الهُدَى في غيره؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة. ثم جعل إلى رسوله ﷺ بيان ما كان منه مجملاً، وتفسير ما كان منه مُشْكِلاً، وتحقيقَ ما كان منه محتملاً؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(٤). ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله ﷺ أستنباط ما نبّه على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد؛ فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم؛ قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٥). فصار الكتاب أصلاً والسنة له بياناً، واستنباط العلماء له إيضاحاً وتبياناً. فالحمد لله الذي جعل صدورنا أوْعِيَةَ كتابه، وآذاننا مواردَ سننِ نبيّه؛ وهِمَمنا مصروفةً إلى تعلّمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما؛ طالبين بذلك رِضَا رب العالمين، ومتدرّجين به إلى علم المِلّة والدِّين.

(وبعد) فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذي أستقل بالسُّنّة والفَرْض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض؛ رأيتُ أن أشتغل به مَدَى عمري، وأستفرِغَ

(١) سورة البقرة آية: ١٤٣. (٢) سورة ص آية: ٢٩. (٣) سورة القتال آية: ٢٤.
(٤) سورة النحل آية: ٤٤. (٥) سورة المجادلة آية: ١١.

فيه مُنّتي[١]؛ بأن أكتب فيه تعليقاً وجيزاً، يتضمّن نُكَتاً من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات؛ والردّ على أهل الزَّيْغ والضلالات، وأحاديثَ كثيرةً شاهدةً لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات؛ جامعاً بين معانيهما، ومُبَيّناً ما أشكل منهما؛ بأقاويل السلف، ومَن تبعهم من الخَلَف. وعَمِلتُه تذكرةً لنفسي، وذخيرةً ليوم رَمْسي، وعملاً صالحاً بعد موتي. قال الله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ ٱلْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[٣]. وقال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثٍ صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ ينتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له».

وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنّفيها؛ فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله. وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مُبْهَماً، لا يَعرف مَن أخرجه إلا من اطّلع على كتب الحديث، فيبقى مَن لا خبرة له بذلك حائراً، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى مَن خرّجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام. ونحن نُشير إلى جُمَل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب. وأضرب عن كثير من قَصَص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بُدّ منه ولا غِنًى عنه للتبيين؛ واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام، بمسائلَ تُسْفِر عن معناها، وتُرشِد الطالب إلى مقتضاها؛ فضمّنت كل آية تتضمن حُكماً أو حكمين فما زاد، مسائلَ نبيّن فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم؛ فإن لم تتضمن حُكماً ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا إلى آخر الكتاب.

وسميته بـ (الجامع لأحكام القرآن، والمبيِّن لما تضمّنه من السُّنّة وآي الفرقان)، جعله الله خالصاً لوجهه، وأن ينفعني به ووالديّ ومن أراده بمنّه؛ إنه سميع الدعاء، قريب مجيب؛ آمين.

---

(١) المنة (بالضم): القوّة.

(٢) سورة القيامة آية: ١٣.

(٣) سورة الانفطار آية: ٥.

باب ذكر جُمَل من فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألّف فيه العلماء كتباً كثيرة، نذكر من ذلك نُكَتاً تدلّ على فضله، وما أعدّ الله لأهله، إذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به. فأوّل ذلك أن يستشْعِر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين، غير مخلوق، كلامُ مَن ليس كمثله شيء، وصفةُ من ليس له شبيه ولا نِدّ، فهو من نور ذاته جلّ وَعَزّ؛ وأن القراءة أصوات القُرّاء ونغماتهم، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حالٍ إيجاباً في بعض العبادات، ونَدْباً في كثير من الأوقات؛ ويُزْجَرون[1] عنها إذا أَجْنَبُوا، ويثابون عليها ويعاقبون على تركها. وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق، ونطقت به الآثار، ودلّ عليها المستفيض من الأخبار؛ ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتي بيانه. ولولا أنه ـ سبحانه ـ جعل في قلوب عباده من القوّة على حمله ما جعله؛ ليتدبروه وليعتبروا به؛ وليتذكّروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولاندكّت بثقله، أو لتضعضعت له وأنّى تطيقه؛ وهو يقول ـ تعالى جَدّه ـ وقوله الحق: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[2]. فأين قوّة القلوب من قوّة الجبال! ولكنّ الله تعالى رزق عباده من القوّة على حمله ما شاء أن يرزقهم؛ فضلاً منه ورحمة.

وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب ـ فأوّل ذلك ما خَرّجه الترمذيّ عن أبي سعيد قال قال رسول الله : «يقول الربّ تبارك وتعالى مَن شَغله القرآنُ وذِكْرِي عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أعطي السائلين ـ قال: ـ وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه». قال: هذا حديث حسن غريب. وروى أبو محمد الدّارميّ السَّمَرْقَنْدِيّ في مسنده عن عبد الله قال: السبع الطُّوَل مثل التوراة، والمِئون مثل الإنجيل، والمثاني مثل الزَّبور، وسائر القرآن بعدُ فضلٌ. وأسند عن الحارث

---

(١) في نسخة: ويؤجرون عنها إذا أجيبوا.
(٢) سورة الحشر آية: ٢١.

عن عليّ رضي الله عنه وخرّجه الترمذي قال: سمعت(١) رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فِتَنٌ كقِطع اللّيل المظلم. قلت يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: كتابُ الله تبارك وتعالى فيه نَبَأ من قبلكم وخبرُ ما بعدكم وحُكم ما بينكم هو الفَصْل ليس بالهَزْلَ من تركه مِن جبّار قصمه الله ومَن ٱبتغى الهُدَى في غيره أضلّه الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذّكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تَزِيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعّب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يَملّه الأتقياء ولا يَخلق على كثرة الردّ ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً مَن علِم عِلمه سَبَق ومن قال به صدق ومَن حكم به عدل ومَن عمل به أُجر ومن دعا إليه هُدِي إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعْوَر(٢)». «الحارث» رماه الشعبيّ بالكذب وليس بشيء، ولم يَبِنْ من الحارث كذب، وإنما نُقم عليه إفراطه في حب عليّ وتفضيله له على غيره. ومن هاهنا ـ والله أعلم ـ كذّبه الشعبيّ؛ لأن الشعبيّ يذهب إلى تفضيل أبي بكر، وإلى أنه أوّل من أسلم. قال أبو عمر بن عبد البر: وأظنّ الشعبيّ عوقب لقوله في الحارث الهَمْدانيّ: حدّثني الحارث وكان أحد الكذّابين.

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري النحويّ اللغويّ في كتاب «الردّ على من خالف مصحف عُثمان» عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن مأدُبة الله فتعلموا من مأدبته ما ٱستطعتم إن هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمةُ مَن تمسك به ونجاةُ مَن ٱتبعه لا يعوجّ فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلَق عن كثرة الردّ فٱتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول آلم حَرْفٌ ولا ألِفينّ أحدكم واضعاً إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فإن الشيطان يفرّ من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة وإن أصْفَر البيوت من الخير البيتُ الصّفِر من كتاب الله». وقال أبو عبيد في غريبه عن عبد الله قال: إن هذا القرآن مأدبة

---

(١) ورد هذا الحديث في «صحيح الترمذي» (٢/ ١٤٩ طبع بولاق) مع اختلاف في بعض كلماته وزيادة ونقص.

(٢) قوله: يا أعور. لقب الحارث بن عبد الله المذكور في سند هذا الحديث.

الله فمن دخل فيه فهو آمن. قال: وتأويل الحديث أنه مَثَلٌ، شَبّه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس، لهم فيه خير ومنافع، ثم دعاهم إليه. يقال: مأدُبة ومأدَبة؛ فمن قال: مأدُبة؛ أراد الصنيع يصنعه الإنسان فيدعو إليه الناس. ومن قال: مأدَبة؛ فإنه يذهب به إلى الأدب، يجعله مَفْعَلة من الأدب، ويحتج بحديثه الآخر: «إن هذا القرآن مأدَبة الله عزّ وجلّ فتعلّموا من مأدبته». وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنًى واحد، ولم أسمع أحداً يقول هذا غيره. [قال:] والتفسير الأوّل أعجب إليّ.

وروى البخاريّ عن عثمان بن عفّان عن النبيّ ﷺ قال: «خيركم من تعلّم القرآن وعَلّمه». وروى مسلم عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمِن الذي يقرأ القرآن مثل الأتْرُجّة رِيحُها طيّب وطعمها طيّب ومَثَلُ المؤمِن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومَثَلُ المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مُرّ ومَثَلُ المنافِق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحَنْظَلة لا ريح لها وطعمها مُر». وفي رواية: «مثل الفاجر» بدل «المنافق». وقال البخاريّ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجّة طعمها طيّب وريحها طيّب ومَثَل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة...» وذكر الحديث.

وذكر أبو بكر الأنباري: وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلوانيّ حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هشيم، ح[1]. وأنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام بن حَوْشب: أن أبا عبدالرحمن

(١) جرت العادة بالاقتصار على الرمز في حدّثنا وأخبرنا، وآستمر الاصطلاح عليه من قديم الأعصار إلى زماننا، واشتهر ذلك بحيث لا يخفى؛ فيكتبون من حدّثنا «ثنا» وهي الثاء والنون والألف، وربما حذفوا الثاء. ويكتبون من أخبرنا «أنا» ولا تحسن زيادة الباء قبل «نا»؛ وإذا كان للحديث إسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من إسناد إلى إسناد « ح » وهي حاء مهملة ؛ والمختار أنها مأخوذة من التحوّل، لتحوّله من إسناد إلى إسناد، وأنه يقول القارىء إذا أنتهى إليها: «ح» ويستمر في قراءة ما بعدها. وقيل: إنها من حال بين الشيئين إذا حجز، لكونها حالت بين الإسنادين وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشيء؛ بل وليست من الرواية. وقيل: إنها رمز إلى قوله: «الحديث». وأن أهل المغرب كلهم يقولون إذا وصلوا إليها: الحديث. ثم هذه الحاء توجد في كتب المتأخرين كثيراً، وهي كثيرة في «صحيح مسلم»، قليلة في «صحيح البخاري». (عن مقدّمة النووي على «صحيح مسلم»).

السُّلَميّ كان إذا ختم عليه الخاتِمُ القرآنَ أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه وقال له: يا هذا، اتق الله! فما أعرف أحداً خيراً منك إن عَمِلتَ بالذي عَلِمت. وروى الدارميّ عن وهب الذماريّ قال: من آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة، بعثه الله يوم القيامة مع السَّفَرة والأحكام. قال سعيد[١]: السَّفَرة الملائكة، والأحكامُ[٢] الأنبياء.

وروى مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البَرَرَة والذي يقرأ القرآن ويَتَتَعتع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران». التتعتع: التردّد في الكلام عِيًّا وصعوبة؛ وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة؛ ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متعتعاً عليه، ثم ترقّى عن ذلك إلى أن شبّه بالملائكة. والله أعلم. وروى الترمذيّ عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الٓمٓ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف». قال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد رُوِيَ موقوفاً. وروى مسلم عن عُقبة بن عامر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفّة؛ فقال: «أيكم يُحِبّ أن يغدو كل يوم إلى بُطْحانَ أو إلى العَقِيق فيأتيَ منه بناقتين كَوْمَاوَيْن[٣] في غير إثم ولا قطع رَحم» فقلنا: يا رسول الله، كلنا نحب ذلك؛ قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم[٤] أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خيرٌ له من ناقتين وثلاثٌ خير له من ثلاثٍ وأربعٌ خير له من أربع ومِن أعدادهنّ من الإبل».

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مَن نَفَّس عن مسلم كُرْبَة من كُرَب الدنيا نَفَّس الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم القيامة ومَن يَسّر على مُعْسِر يَسّر الله عليه

(١) سعيد هذا، هو سعيد بن عبد العزيز بن أبي يحيى التنوخي، أحد رجال سند هذا الحديث. وفي «الأصول»: «سعد» وهو تحريف.

(٢) هكذا في «نسخ الأصل وسنن الدارمي». ولعل الغرض وذوو الأحكام، أو هو جمع حكيم كشريف وأشراف أو حكم كبطل وأبطال.

(٣) «كوماوين» تثنية كوماء؛ أي مشرفة السنام عاليته.

(٤) قوله: فيعلم. ضبط بنصب الفعل ورفعه وبتشديد اللام من التعليم، وبتخفيفها من العلم.

في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عَوْن العبد ما كان العبد في عَوْن أخيه ومن سلك طريقاً يلتمس فيه عِلْماً سَهَّل الله له طريقاً إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذَكَرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نَسَبه».

وروى أبو داود والنّسائي والدارميّ والترمذي عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمُسِرّ بالقرآن كالمُسِرّ بالصدقة». قال الترمذيّ: حديث حسن غريب. وروى الترمذيّ عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «يجيء القرآن[1] يوم القيامة فيقول يا رَبّ حُلّةً فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يا رب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب ارض عنه فيرضى عنه فيقال له اقرأ وارق ويزاد بكل آية حسنة». قال: حديث صحيح. وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتّل كما كنت ترتّل في الدينا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها». وأخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه».

وأسند أبو بكر الأنباري عن أبي أمامة الحمصي قال رسول الله ﷺ: «من أعطي ثلث القرآن فقد أعطي ثلث النبوّة ومن أعطي ثلثي القرآن فقد أعطي ثلثي النبوّة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطي النبوّة كلها غير أنه لا يوحى إليه ويقال له يوم القيامة اقرأ وارق فيقرأ آية ويصعد درجة حتى ينجز ما معه من القرآن ثم يقال له اقبض فيقبض ثم يقال له أتدري ما في يديك فإذا في يده اليمنى الخلد وفي اليسرى النعيم».

حدّثنا إدريس بن خلف حدّثنا إسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: « من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوّة ومن أخذ

(١) الذي في نسخ الأصل: «يجيء صاحب القرآن». والتصويب عن «سنن الترمذي».

نصف القرآن وعمل به فقد أخذ أمر نصف النبوّة ومن أخذ القرآن كلّه فقد أخذ النبوّة كلها». قال: وحدّثنا محمد بن يحيى المَرْوَزيّ أنبأنا محمد وهو ٱبن سعدان حدّثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضَمْرة عن عليّ رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفّعه في عشرة من أهل بيته كلٌّ قد وَجَبت له النار». وقالت أم الدَّرْدَاء: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها: ما فَضْلُ مَن قرأ القرآن على مَن لم يقرأه ممن دخل الجنة؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: إن عدد آي القرآن على عدد دَرَج الجنة، فليس أحد دخل الجنة أفضلَ ممن قرأ القرآن. ذكره أبو محمد مكيّ. وقال ٱبن عباس: من قرأ القرآن وٱتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب؛ وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1]. قال ٱبن عباس: فضمِن الله لمن ٱتبع القرآن ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. ذكره مكيّ أيضاً. وقال الليث: يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن؛ لقول الله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2]. و ﴿لَعَلّ﴾ من الله واجبة.

وفي «مُسْنَد أبي داود الطَّيَالسيّ» ـ وهو أوّل مُسْنَد[3] أُلِّفَ في الإسلام ـ عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ قال: «من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كُتب من القانتين ومن قام بألف آية كُتب من المقنْطِرِين». والآثار في معنى هذا الباب كثيرة، وفيما ذكرنا كفاية، والله الموفق للهداية.

---

(١) سورة طه آية: ١٢٣.

(٢) سورة الأعراف آية: ٢٠٤.

(٣) قوله: «وهو أوّل مسند...» الخ. قال صاحب «كشف الظنون»: «والذي حمل قائل هذا القول تقدم عصره على أعصار من صنف المسانيد، وظن أنه هو الذي صنفه وليس كذلك، فإنه ليس من تصنيف أبي داود، وإنما بعض الحفاظ الخراسانيين جمع فيه ما رواه يوسف بن حبيب خاصة عن أبي داود. ولأبي داود من الأحاديث التي لم تدخل هذا المسند قدره أو أكثر؛ كما ذكره البقاعي في «حاشية الألفيّة»». وقد توفي الطيالسي سنة ٢٠٤ هـ.

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، وما يكره منها وما يحرم، واختلاف الناس في ذلك

روى البُخَارِيّ عن قتادة قال: سألت أنساً عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كان يَمُدّ مَدًّا [إذا] قرأ بِسم الله الرحمن الرحِيم، يمدّ بسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم.

وروى الترمذيّ عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يُقَطِّع قراءته يقول: ﴿الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِين﴾ ثم يقف ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيم﴾ ثم يقف، وكان يقرؤها ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. قال: حديث غريب. وأخرجه أبو داود بنحوه.

ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «أحسن الناس صَوْتاً مَن إذا قرأ رأيته(١) يخشى الله تعالى». وروي عن زياد النُّمَيْرِيّ أنه جاء مع القرّاء إلى أنس بن مالك فقيل له: ٱقرأ. فرفع صوته وطَرّب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنسٌ عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون! وكان إذا رأى شيئاً ينكره كشف الخِرقة عن وجهه. وروي عن قيس بن عُبَاد أنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند الذكر. وممن روي عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن سعيد بن المُسيّب وسعيد بن جُبير والقاسم بن محمد والحسن وٱبن سِيرِين والنَّخَعِيّ وغيرهم، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل؛ كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتّطريب فيه. روي عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤمّ الناس فطرّب في قراءته؛ فأرسل إليه سعيد يقول: أصلحك الله! إن الأئمة لا تقرأ هكذا. فترك عمر التّطريب بعدُ. وروي عن القاسم بن محمد: أن رجلاً قرأ في مسجد النبيّ ﷺ فطرّب؛ فأنكر ذلك القاسم وقال يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾(٢) الآية.

وروي عن مالك أنه سئل عن النَّبْر في قراءة القرآن في الصلاة؛ فأنكر ذلك وكرهه كراهة شديدة، وأنكر رفع الصوت به. وروى ٱبن القاسم عنه أنه سئل عن الألحان في الصلاة

---

(١) رأى هنا بمعنى علم، وفي بعض النسخ: «رئيته» بالبناء للمجهول؛ ومعناه الظن.
(٢) سورة فصلت آية: ٤١، ٤٢.

فقال: لا يعجبني، وقال: إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم. وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتّطريب به؛ وذلك لأنه إذا حَسّن الصوتَ به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب، وآحتجّوا بقوله عليه السلام: «زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم» رواه البَرَاء بن عازب. أخرجه أبو داود والنَّسائي. وبقوله عليه السلام: «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن» أخرجه مسلم. وبقول أبي موسى للنبيّ ﷺ: لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبّرته لك تحبيراً. وبما رواه عبد الله بن مُغَفَّل قال: قرأ رسول الله ﷺ عامَ الفَتْح في مسير له سورة «الفتح» على راحلته فرجّع في قراءته. وممن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعيّ وأبن المبارك والنَّضْر بن شُمَيْل، وهو آختيار أبي جعفر الطبريّ وأبي الحسن بن بَطّال والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم.

قلت: القول الأوّل أصح لما ذكرناه ويأتي. وأما ما آحتجّوا به من الحديث الأوّل فليس على ظاهره، وإنما هو من باب المقلوب؛ أي زَيّنُوا أصواتكم بالقرآن. قال الخَطّابيّ: وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث: زَيّنُوا أصواتكم بالقرآن؛ وقالوا هو من باب المقلوب؛ كما قالوا: عَرَضْتُ الحَوْضَ على الناقة، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض. قال: ورواه مَعْمَر عن منصور عن طلحة؛ فقدّم الأصوات على القرآن، وهو الصحيح.

قال الخطابيّ: ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عَوْسَجة عن البَرَاء أن رسول الله ﷺ قال: «زينوا القرآن بأصواتكم». أي الْهَجُوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعاراً وزينة؛ وقيل: معناه الحض على قراءة القرآن والدُّؤوب عليه. وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «زيّنوا أصواتكم بالقرآن». وروي عن عمر أنه قال: «حَسّنُوا أصواتكم بالقرآن».

قلت: وإلى هذا المعنى يرجع قولُه عليه السلام: «ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن» أي ليس منا من لم يحسّن صوته بالقرآن؛ كذلك تأوّله عبد الله بن أبي مليكة. قال عبد الجبار بن الورد: سمعت آبن أبي مليكة يقول: قال عبد الله بن أبي يزيد: مرّ بنا أبو لُبَابة فآتبعناه

حتى دخل بيته، فإذا رجل رَثّ الهيئة، فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن». قال فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حَسَنَ الصوت؟ قال: يحسّنه ما ٱستطاع. ذكره أبو داود، وإليه يرجع أيضاً قول أبي موسى للنبيّ ﷺ: إنّي لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحسّنت صوتي بالقرآن، وزيّنته ورتّلته. وهذا يدل [على] أنه كان يَهُذّ[١] في قراءته مع حُسْن الصوت الذي جُبل عليه. والتحبير: التزيين والتحسين؛ فلو علم أن النبيّ ﷺ كان يسمعه لمدّ في قراءته ورتّلها؛ كما كان يقرأ على النبيّ ﷺ؛ فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة. ومعاذ الله أن يتأوّل على رسول الله ﷺ أن يقول: إن القرآن يُزَيّن بالأصوات أو بغيرها؛ فمن تأوّل هذا فقد واقع أمراً عظيماً أن يُحْوِج القرآن إلى من يزيّنه، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته وٱستنار بضيائه. وقد قيل: إن الأمر بالتزيين ٱكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك، أي زينوا القراءة بأصواتكم؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾[٢] أي قراءة الفجر، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[٣] أي قراءته. وكما جاء في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو قال: إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآناً؛ أي قراءة. وقال الشاعر[٤] في عثمان رضي الله عنه:

ضَحُّوا بأشْمَطَ[٥] عُنوانُ السجودِ به ... يقطّع الليلَ تسبيحاً وقرآنا

أي قراءة. فيكون معناه على هذا التأويل صحيحاً إلا أن يخرج القراءة التي هي التلاوة عن حدّها ـ على ما نبيّنه ـ فيمتنع. وقد قيل: إن معنى يتغنّى به، يستغني به من الاستغناء الذي هو ضدّ الافتقار، لا من الغناء؛ يقال: تغنّيت وتغانيت بمعنى ٱستغنيت. وفي «الصحاح»: تغنى

(١) الهذ والهذذ: سرعة القطع وسرعة القراءة.

(٢) سورة الإسراء آية: ٧٨.

(٣) سورة القيامة آية: ١٨.

(٤) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه.

(٥) الشمط بالتحريك: بياض شعر الرأس يخالطه سواده. وقيل: الشمط في الرجل شيب اللحية.

الرجل بمعنى ٱستغنى، وأغناه الله. وتغانوا أي ٱستغنى بعضهم عن بعض. قال المغيرة بن حَبْناء التّمِيميّ:

كـلانَـا غَنِـيٌّ عـن أخيـه حَيـاتَـه ونحـن إذا مِتْنَـا أشَـدُّ تغـانِيَـا

وإلى هذا التأويل ذهب سفيان بن عُيَيْنة ووَكِيع بن الجَرّاح، ورواه سفيان عن سعد بن أبي وَقّاص. وقد رُوي عن سفيان أيضاً وجه آخر، ذكره إسحاق بن رَاهْوَيْه، أي يستغني به عما سواه من الأحاديث. وإلى هذا التأويل ذهب البخاريّ محمد بن إسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾[1]. والمراد الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم؛ قاله أهل التأويل. وقيل: إن معنى يتغنّى به، يتحزّن به؛ أي يظهر على قارئه الحزن الذي هو ضدّ السرور عند قراءته وتلاوته، وليس من الغنية؛ لأنه لو كان من الغنية لقال: يتغانى به، ولم يقل يتغنّى به. ذهب إلى هذا جماعة من العلماء: منهم الإمام أبو محمد بن حِبّان البُسْتِيّ، وٱحتجوا بما رواه مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي ولصدره أَزِيز كأَزِيز المِرْجَل من البكاء. الأزيز (بزايين): صوت الرعد وغَلَيان القِدْر. قالوا: ففي هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزّن؛ وعَضُدوا هذا أيضاً بما رواه الأئمة عن عبد الله قال قال النبيّ ﷺ: «أقرأ عليّ» فقرأت عليه سورة «النساء» حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً﴾[2] فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان. فهذه أربع تأويلات، ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها. وقال أبو سعيد بن الأعرابيّ في قوله ﷺ: «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن» قال: كانت العرب تُولَع بالغناء والنشيد في أكثر أقوالها، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هِجِّيراهم[3] مكان الغناء؛ فقال: «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن».

التأويل الخامس ـ ما تأوّله مَن ٱستدلّ به على الترجيع والتطريب؛ فذكر عمر بن شَبّة قال: ذكرت لأبي عاصم النبيل تأويل ٱبن عُيَيْنَة في قوله: «يتغنّ» يستغني؛ فقال:

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٥١. (٢) سورة النساء آية: ٤١.

(٣) هجيراهم: دأبهم وعادتهم.

لم يصنع ٱبن عُيَيْنَة شيئاً. وسُئل الشافعيّ عن تأويل ٱبن عُيينة فقال: نحن أعلم بهذا، لو أراد النبيّ ﷺ الاستغناء لقال: من لم يستغن، ولكن لما قال: «يتغنّ» علمنا أنه أراد التغنّي. قال الطبريّ: المعروف عندنا في «كلام العرب» أن التغنّي إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوتْ بالترجيع. وقال الشاعر:

تَغَنّ بالشّعرِ مهما كنتَ قائلَه ... إن الغِناء بهذا الشعر مِضمارُ

قال: وأما ٱدّعاء الزاعم أن تغنّيت بمعنى ٱستغنيت فليس في «كلام العرب وأشعارها»، ولا نعلم أحداً من أهل العلم قاله؛ وأما احتجاجه بقول الأعشى:

وكنتُ ٱمرأً زَمَناً بالعِراق ... عفيفَ المُناخ طَوِيلَ التَّغَنْ

وزعم أنه أراد الاستغناء فإنه غلط منه، وإنما عنى الأعشى في هذا الموضع الإقامة، من قول العرب: غنِيَ فلان بمكان كذا أي أقام؛ ومنه قوله تعالى: ﴿كأَن لمْ يَغْنَوْا فيهَا﴾[1] وأما ٱستشهاده بقوله:

ونحن إذا متْنَا أشدُّ تغانِيَا

فإنه إغفال منه؛ وذلك أن التغاني تفاعل من نفسين إذا ٱستغنى كل واحد منهما عن صاحبه؛ كما يقال: تضارب الرجلان، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه. ومن قال هذا في فعل الاثنين لم يجز أن يقول مثله في الواحد؛ فغير جائز أن يقال: تغانى زيد وتضارب عمرو؛ وكذلك غير جائز أن يقال: تغنّى بمعنى ٱستغنى.

قلت: ما ٱدّعاه الطبري من أنه لم يَرد في «كلام العرب» تغنى بمعنى ٱستغنى، فقد ذكره الجوهريّ كما ذكرنا، وذكره الهَرَوِيّ أيضاً. وأما قوله: إن صيغة فاعل إنما تكون من ٱثنين فقد جاءت من واحد في مواضع كثيرة؛ منها قول ٱبن عمر: وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام. وتقول العرب: طارقتُ النعلَ وعاقبت اللصَّ ودَاوَيْت العَلِيل، وهو كثير؛ فيكون تغانى منها. وإذا ٱحتمل قوله عليه الصلاة والسلام: «يتغنّ» الغناء والاستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر، بل حمله على الاستغناء أوْلَى لو لم يكن لنا تأويل غيره، لأنه مرويّ عن

---

(١) سورة الأعراف آية: ٩٢.

صحابيّ كبير كما ذكر سفيان. وقد قال ٱبن وهب في حق سفيان: ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عُيَيْنة، ومعلوم أنه رأى الشافعيّ وعاصره.

وتأويل سادس ـ وهو ما جاء من الزيادة في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما أذِن الله[١] لشيء ما أذن لنبيّ حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به». قال الطبريّ: ولو كان كما قال ٱبن عُيَيْنة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنًى. قلنا قوله: «يجهر به» لا يخلو أن يكون من قول النبيّ ﷺ، أو من قول أبي هريرة أو غيره، فإن كان الأوّل وفيه بُعْدٌ، فهو دليل على عدم التطريب والترجيع، لأنه لم يقل: يطرب به، وإنما قال: يجهر به، أي يسمع نفسه ومن يليه؛ بدليل قوله عليه السلام للذي سمعه وقد رفع صوته بالتهليل: «أيها الناس أربعوا[٢] على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائباً...» الحديث، وسيأتي. وكذلك إن كان من صحابيّ أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه؛ وقد ٱختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال: وهذا أشبه، لأن العرب تسمّي كل من رفع صوته ووالى به غانياً، وفعله ذلك غِناء وإن لم يلحنه بتلحين الغناء. قال: وعلى هذا فسره الصحابيّ، وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال.

وقد ٱحتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعيّ فقال: وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه ٱبن أبي شيبة قال حدّثنا زيد بن الحُبَاب قال حدّثنا موسى بن عليّ بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ: «تعلّموا القرآن وغَنّوا به وٱكتبوه فوالذي نفسي بيده لهو أشد تَفَصِّياً[٣] من المخاض من العُقُل». قال علماؤنا: وهذا الحديث وإن صح سنده فيردّه ما يعلم على القطع والبتات من أن قراءة القرآن بلغتنا متواترة عن كافة المشايخ، جِيلاً فجيلاً إلى العصر الكريم إلى رسول الله ﷺ وليس فيها تلحين

---

(١) قوله: ما أذن... الخ. قال المناوي: يعني ما رضي الله من المسموعات شيئاً هو أرضى عنده ولا أحبّ إليه من قول نبيّ يتغنى بالقرآن، أي يجهر به ويحسن صوته بالقراءة بخشوع وترقيق وتحزن، وأراد بالقرآن ما يقرأ من الكتب المنزلة.

(٢) قوله: «أربعوا» أي كفّوا وارفقوا.

(٣) التفصي: التفلّت والخروج.

ولا تطريب، مع كثرة المتعمقين في مخارج الحروف وفي المدّ والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفية القراءات. ثم إن في الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز ومدّ ما ليس بممدود؛ فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبهة[1] الواحدة شبهات، فيؤدّي ذلك إلى زيادة في القرآن وذلك ممنوع، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيّروها نبرات وهمزات، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هي همزة واحدة لا غير؛ إما ممدودة وإمّا مقصورة. فإن قيل: فقد روى عبد الله بن مُغَفَّل قال: قرأ رسول الله ﷺ في مسير له سورة «الفتح» على راحلته فرجّع في قراءته، وذكره البخاريّ وقال في صفة الترجيع: آءآءآء، ثلاث مرات.

قلنا: ذلك محمول على إشباع المدّ في موضعه، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هزّ الراحلة؛ كما يعتري رافع صوته إذا كان راكباً من ٱنضغاط صوته وتقطيعه لأجل هز المركوب؛ وإذا ٱحتمل هذا فلا حجة فيه. وقد خرّج أبو محمد عبد الغنيّ بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: كانت قراءة رسول الله ﷺ المدّ ليس فيها ترجيع. وروى ٱبن جُريج عن عطاء عن ٱبن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذن يُطرّب، فقال رسول الله ﷺ: «إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحاً سهلاً وإلا فلا تؤذّن». أخرجه الدّارَقُطْنيّ في سُنَنه. فإذا كان النبيّ ﷺ قد منع ذلك في الأذان فأحْرَى ألاّ يجوّزه في القرآن الذي حفظه الرحمن، فقال وقوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3].

قلت: وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق؛ كما يفعل القرّاء بالدّيار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز؛ ضلّ سعْيُهم، وخاب

(١) سيذكر المؤلف في باب (ذكر معنى السورة والآية) الخ: أن الشبهات هي الحروف؛ ولم أر هذا التعبير لغيره.
(٢) سورة الحجر آية: ٩.
(٣) سورة فصلت آية: ٤٢.

عملهم، فيستحلّون بذلك تغيير كتاب الله، ويهوّنون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه؛ جهلاً بدينهم، ومُرُوقاً عن سُنّة نبيّهم، ورَفْضاً لِسيَر الصالحين فيه من سَلَفهم، ونزوعاً إلى ما يُزيّن لهم الشيطان من أعمالهم؛ وهم يَحْسَبُون أنهم يُحْسِنون صُنْعاً؛ فهم في غَيّهم يتردّدون، وبكتاب الله يتلاعبون، فإنّا لله وإنا إليه راجعون! لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون، فكان كما أخبر ﷺ.

ذكر الإمام الحافظ أبو الحسين رَزِين وأبو عبد الله الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث حُذَيفة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرءوا القرآن بلُحُون العرب وأصواتها وإياكم ولُحُون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدي قوم يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنَّوْح لا يجاوِز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم». اللحون: جمع لَحْن، وهو التّطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء.

قال علماؤنا: ويشبه أن يكون هذا الذي يفعله قرّاء زماننا بين يدي الوعاظ وفي المجالس من اللحون الأعجمية التي يقرءون بها، ما نهى عنه رسول الله ﷺ. والترجيع في القراءة: ترديد الحروف كقراءة النصارى. والترتيل في القراءة هو التأنّي فيها والتمهّل وتبيين الحروف والحركات تشبيهاً بالثَّغْر المرتَّل، وهو المشبَّه بنَوْر الأقحوان، وهو المطلوب في قراءة القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ القرآن ترتيلا﴾[1]. وسُئلت أمُّ سَلَمة عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاتِه؛ فقالت: ما لكم وصلاتَه! [كان يصلّي ثم ينام قدر ما صَلّى، ثم يصلي قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلّى حتى يُصبح[2]،] ثم نعتت قراءته، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حَرْفاً حرفاً. أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾[3]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[4]. روى مسلم عن أبي هريرة

---

(١) سورة المزمل آية: ٤. (٢) الزيادة عن «سنن الترمذي وأبي داود».
(٣) سورة النساء آية: ٣٦. (٤) سورة الكهف آية: ١١٠.

قال : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « إنّ أوّل الناس يُقْضَى عليه يوم القيامة رجلٌ ٱسْتُشْهِد فأُتِيَ به فعرّفه نِعَمَه فعرفها قال فما عمِلت فيهـا قال قاتلتُ فيـك حتـى ٱستشهِـدت قال كذبتَ ولكنك قاتلتَ لأن يقال جريء فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار ورجلٌ تعلّم العلم وعلّمه وقـرأ القرآن فأُتِيَ به فعرّفه نِعمـه فعرفها قال فما عمِلتَ فيها قال تعلّمت العلم وعلّمته وقرأتُ فيك القرآن قال كذبتَ ولكنك تعلمتَ العلم ليقال عالم وقرأتَ القرآن ليقـال هو قارىء فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقيَ في النار ورجـلٌ وَسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلّه فَأُتِيَ به فعرّفه نِعَمه فعرفها قال فما عمِلتَ فيها قـال ما تركتُ من سبيل تُحِبّ أن يُنفق فيهـا إلا أنفقتُ فيها لك قال كذبتَ ولكنك فعلتَ ليقال هو جواد فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم ألقي في النار». وقال الترمذي في هذا الحديث: ثم ضرب رسول الله ﷺ على رُكْبَتِيّ فقال: «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعّر بهم النار يوم القيامة». أبو هريرة ٱسمه عبد الله، وقيل: عبد الرحمن، وقال: كُنِّيتُ أبا هريرة لأني حملت هِرّة في كُمّي، فرآني رسول الله ﷺ فقال: «ما هذه»؟ قلت: هرّة فقال: «يا أبا هريرة». قال ابن عبد البر: وهذا الحديث فيمن لم يُرِد بعمله وعلمه وجهَ الله تعالى. وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوّأ مقعده من النار».

وخرّج ٱبن المبارك في رقائقه عن العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله ﷺ: «يظهر هذا الدِّين حتى يجاوز البحار وحتى يخاض البحار بالخيل في سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتي أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا مَن أقرأ منا مَن أعلم منا» ثم التفت إلى أصحابه فقال: «هل ترون في أولئكم من خير» قالوا: لا. قال: «أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار». وروى أبو داود والترمذيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من تعلّم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة». يعني ريحها. قال الترمذيّ: حديث

حسن. وروي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « تعوّذا بالله من جُبّ الحَزَن » قالوا : يا رسول الله وما جب الحَزَن ؟ قال : « وادٍ في جهنم تتعوّذ منه جهنم في كل يوم مائة مرة » قيل : يا رسول الله ومن يدخله ؟ قال : « القرّاء المراءون بأعمالهم » قال : هذا حديث غريب . وفي كتاب أسد بن موسى أنّ النبيّ ﷺ قال: «إن في جهنم لوادياً إن جهنم لتتعوّذ من شرّ ذلك الوادي كل يوم سبع مَرّات وإن في ذلك الوادي لَجُبّاً إن جهنم وذلك الوادي ليتعوّذان بالله مِن شرّ ذلك الجُبّ وإن في الجُبّ لحَيّةً وإن جهنم والوادي والجبّ ليتعوّذون بالله من شر تلك الحية سبع مرات أعدّها الله للأشقياء من حَمَلة القرآن الذين يعصون الله » . فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقي الله في نفسه ويُخْلِص العمل لله؛ فإن كان تقدّم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة ، وليبتدىء الإخلاص في الطلب وعمله . فالّذي يلزم حامل القرآن من التّحفظ أكثر مما يلزم غيره، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره. روى الترمذي عن أبي الدَّرْداء قال قال رسول الله ﷺ : « أنزل الله في بعض الكتب ـ أو أَوْحى ـ إلى بعض الأنبياء قُلْ للذين يتفقّهون لغير الدِّين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مُسُوك[1] الكِباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحْلَى من العسل وقلوبهم أمَرّ من الصبر إياي يخادعون وبي يستهزئون لأُتِيحنّ لهم فتنةً تذَر الحليم فيهم حَيْرَان».

وخرّج الطبريّ في كتاب «آداب النفوس»: حدّثنا أبو كُرَيب محمد بن العلاء حدّثنا المُحاربيّ عن عمرو بن عامر البَجَليّ عن أبن صَدَقة عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ أو مَن حدّثه قال قال رسول الله ﷺ: «لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونَفْسَه يخدع لو يَشْعُر». قالوا: يا رسول الله، وكيف يخادع الله؟ قال: «تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره وأتقوا الرياء فإنه الشرك وإن المُرَائي يُدعَى يوم القيامة على رءوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يا خاسر يا غادر يا فاجر ضَلّ عَمَلُك وبَطَل

(١) المسوك (جمع مسك، بفتح ثم سكون): الجلد.

أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع». وروى عَلْقَمة عن عبد الله بن مسعود قال: كيف أنتم! إذا لَبِستكم فتنةٌ يَرْبُو فيها الصغير، ويَهْرَم الكبير، وتُتَّخذ سُنَّة مُبْتَدَعة يجري عليها الناس فإذا غُيِّر منها شيء قيل: قد غُيِّرت السُّنة. قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كَثُر قرّاؤكم، وقَلّ فقهاؤكم، وكَثُرَ أمراؤكم، وقلّ أمناؤكم، وٱلْتُمِست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقّه لغير الدِّين. وقال سفيان بن عُيَيْنَة: بلغنا عن ٱبن عباس أنه قال: لو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغي لأحبهم الله، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله، وهانوا على الناس. ورُوي عن أبي جعفر محمد بن عليّ في قول الله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا[1] فِيها هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ قال: قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلى غيره. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى.

باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأوّل ذلك أن يُخلص في طلبه لله جلّ وعزّ كما ذكرنا، وأن يأخذ نفسه بقراءة القرآن في ليله ونهاره، في الصلاة أو في غير الصلاة لئلا ينساه. روى مسلم عن ٱبن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مَثَلُ صاحِب القرآن كَمَثل صاحب الإبل المعقّلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذَكَره وإذا لم يقم به نَسِيَه». وينبغي له أن يكون لله حامداً، ولنعمه شاكراً، وله ذاكراً، وعليه متوكلاً، وبه مستعيناً، وإليه راغباً، وبه معتصماً؛ وللموت ذاكراً، وله مستعدّاً. وينبغي له أن يكون خائفاً من ذنبه، راجياً عَفْوَ ربه؛ ويكون الخوف في صحته أغلب عليه، إذ لا يَعلم بما يُختم له؛ ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى في نفسه، لحسن الظن بالله؛ قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن بالله الظن». أي أنه يرحمه ويغفر له. وينبغي له أن يكون عالماً بأهل زمانه، متحفّظاً من سلطانه، ساعياً في خلاص نفسه، ونجاة مُهْجَته، مقدّماً بين يديه ما يقدر عليه من عَرَض دنياه، مجاهداً لنفسه في ذلك ما ٱستطاع. وينبغي له أن يكون أهم أموره عنده الوَرَع في دينه، وٱستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه.

---

(١) سورة الشعراء آية: ٩٤.

وقال ٱبن مسعود: ينبغي لقارىء القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مستيقظون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخضوعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون. وقال عبد الله بن عمرو: لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن؛ لأن في جوفه كلام الله تعالى. وينبغي له أن يأخذ نفسه بالتّصاون عن طُرق الشُّبهات، ويقل الضحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار. وينبغي له أن يتواضع للفقراء، ويتجنّب التّكبّر والإعجاب، ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، ويترك الجدال والمِراء، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب. وينبغي له أن يكون ممن يؤمَن شرّه، ويُرْجَى خيره ويُسلم من ضرّه، وألا يسمع ممن نَمّ عنده؛ ويصاحب مَن يعاونه على الخير ويدلّه على الصدق ومكارم الأخلاق، ويَزِينه ولا يَشِينه، وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو؛ فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه؛ فما مَثَل من هذه حالته إلاّ كَمَثل الحمار يحمل أسفاراً. وينبغي له أن يعرف المكيّ من المَدَنِيّ ليفرّق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أوّل الإسلام، وما ندبهم إليه في آخر الإسلام، وما ٱفترض الله في أوّل الإسلام، وما زاد عليه من الفرائض في آخره. فالمدنيّ هو الناسخ للمكيّ في أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكيُّ المَدَنِيَّ؛ لأن المنسوخ هو المتقدّم في النزول قبل الناسخ له. ومِن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يسهّل عليه معرفة ما يقرأ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو. وقد قال أبو جعفر الطبريّ سمعت الجَرْمِيّ يقول: أنا منذ ثلاثين سنة أُفتِي الناس في الفقه من كتاب «سيبويه». قال محمد بن يزيد: وذلك أن أبا عمر الجَرْمِيّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب «سيبويه» تفقه في الحديث، إذ كان كتاب «سيبويه» يتعلم منه النظر والتفسير. ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله ﷺ،

فبها يصل الطالب إلى مراد الله عزّ وجل في كتابه وهي تفتح له أحكام القرآن فتحاً؛ وقد قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾(١). قال: حَقٌّ على كل مَن تعلّم القرآن أن يكون فقيهاً.

وذكر ٱبن أبي الحواريّ قال: أتينا فُضيل بن عِيَاض سنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول؛ فقال بعض القوم: إن كان خارجاً لشيء فسيخرج لتلاوة القرآن؛ فأمرنا قارئاً فقرأ فأطّلع علينا من كُوّة؛ فقلنا: السلام عليك ورحمة الله؛ فقال: وعليكم السلام؛ فقلنا: كيف أنت يا أبا عليّ، وكيف حالك؟ فقال: أنا مِن الله في عافية ومنكم في أذًى، وإن ما أنتم فيه حَدَثٌ في الإسلام، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ما هكذا كنا نطلب العلم، ولكنا كنا نأتي المَشْيخة فلا نرى أنفسنا أهلاً للجلوس معهم، فنجلس دونهم ونسترق السمع، فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه، وأنتم تطلبون العلم بالجهل، وقد ضيعتم كتاب الله، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون؛ قال: قلنا قد تعلمنا القرآن؛ قال: إن في تعلّمكم القرآن شغلاً لأعماركم وأعمار أولادكم؛ قلنا: كيف يا أبا عليّ؟ قال: لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه، ومُحْكَمه من مُتَشابهه، وناسخه من منسوخه؛ إذا عرفتم ذلك ٱستغنيتم عن كلام فُضَيْلٍ وٱبنِ عُيَيْنة، ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يا أيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٢).

قلت: فإذا حصلت هذه المراتب لقارىء القرآن كان ماهراً بالقرآن، وعالماً بالفُرْقان؛ وهو قريب على مَن قرّبه عليه، ولا ينتفع بشيء مما ذكرنا حتى يُخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدّم. فقد يبتدىء الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف في الدنيا، فلا يزال به فهم العلم حتى يتبيّن أنه على خطأ في ٱعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى فينتفع بذلك ويحسن حاله. قال الحسن: كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا إلى الآخرة. وقاله سفيان الثَّوْريّ. وقال حبيب بن أبي ثابت: طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نِيّة ثم جاءت النية بعد.

---

(١) سورة آل عمران آية: ٧٩. (٢) سورة يونس آية: ٥٧، ٥٨.

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحَثّ عليه، وثواب من قرأ القرآن مُعْرباً

قال أبو بكر بن الأنباريّ: جاء عن النبيّ ﷺ وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم ـ من تفضيل إعراب القرآن، والحَضّ على تعليمه، وذمّ اللحن وكراهيته ـ ما وجب به على قرّاء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه.

من ذلك ما حدّثنا يحيى بن سليمان الضّبيّ قال حدّثنا محمد ـ يعني ٱبن سعيد ـ قال حدّثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المَقْبُرِيّ عن أبيه عن جدّه عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «أعربوا القرآن وٱلتمسوا غرائبه». حدّثني أبي قال حدّثنا إبراهيم بن الهَيْثَم قال حدّثنا آدم ـ يعني ٱبن أبي إياس ـ قال حدّثنا أبو الطيب المَرْوَزِيّ قال حدّثنا عبد العزيز بن أبي روّاد عن نافع عن ٱبن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فلم يُعْرِبه وُكِّل به مَلَك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وُكّل به مَلَكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فإن أعربه وُكّل به أربعة أملاك يكتبون له بكلّ حرف سبعين حسنة». وروى جُوَيْبِر عن الضحاك قال قال عبد الله بن مسعود: جوّدوا القرآن وزيّنوه بأحسن الأصوات، وأعربوه فإنّه عربيّ، والله يحب أن يُعْرَب به. وعن مجاهد عن ٱبن عمر قال: أعربوا القرآن. وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد قال قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: لَبَعْضُ إعراب القرآن أحبّ إلينا من حفظ حروفه. وعن الشعبيّ قال قال عمر رحمه الله: من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد. وقال مكحول: بلغني أن من قرأ بإعرابٍ كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب. وروى ٱبن جُرَيْج عن عطاء عن ٱبن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «أحبّوا العرب لثلاث لأني عربيّ والقرآن عربيّ وكلام أهل الجنة عربيّ». وروى سفيان عن أبي حمزة قال: قيل للحسن في قوم يتعلمون العربية قال: أحْسَنُوا، يتعلّمون لغة نبيّهم ﷺ. وقيل للحسن: إن لنا إماماً يَلحن، قال: أخّروه.

وعن ٱبن أبي مليكة قال: قدم أعرابيّ في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: مَن يُقرئني مما أنزل على محمد ﷺ؟ قال: فأقرأه رجل «براءة»؛ فقال: «إن الله بريء من المشركين ورسولِه». بالجرّ، فقال الأعرابيّ: أوَ قد بَرِىء الله من رسوله؟ فإن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابيّ فدعاه فقال: يا أعرابيّ أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إني قدِمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يُقرئني، فأقرأني هذا سورة «براءة» فقال: «إن الله بريء من المشركين ورسولِه»؛ فقلت: أوَ قد بريء الله من رسوله، إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابيّ؛ قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: «إن الله بريء من المشرِكين ورسولُه» فقال الأعرابيّ: وأنا والله أبرأ مما بريء الله ورسوله منه؛ فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألاّ يُقرىء الناس إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود[١] فوضع النحو.

وعن عليّ بن الجَعد قال سمعت شُعبة يقول: مَثَلُ صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية مَثَلُ الحمار عليه مِخلاة لا عَلَف فيها. وقال حماد بن سَلَمة: من طلب الحديث ولم يتعلم النحو ـ أو قال العربية ـ فهو كمثل الحمار تُعَلَّق عليه مِخلاة ليس فيها شعير. قال ٱبن عطية: إعراب القرآن أصل في الشريعة؛ لأن بذلك تقوّم معانيه التي هي الشرع.

قال ٱبن الأنباريّ: وجاء عن أصحاب النبيّ ﷺ وتابعيهم رضوان الله عليهم، من الاحتجاج على غريب القرآن ومُشْكله باللغة والشعر ما بيّن صحة مذهب النحويين في ذلك، وأوضح فساد مذهب من أنكر ذلك عليهم. من ذلك ما حدّثنا عُبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدّثنا ٱبن أبي مريم قال: أنبأنا ٱبن فَرّوخ قال أخبرني أسامة قال أخبرني عكرمة أن ٱبن عباس قال: إذا سألتموني عن غريب القرآن فٱلتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب. وحدّثنا إدريس بن عبد الكريم قال حدّثنا خلف قال حدّثنا حماد بن زيد عن عليّ بن زيد بن جُدعان قال سمعت سعيد بن جُبير ويوسف بن مِهْران يقولان: سمعنا ٱبن عباس يُسأل عن الشيء بالقرآن؛ فيقول فيه هكذا وهكذا، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا. وعن عكرمة

(١) يجوز أن يكون أمر أبي الأسود بوضع النحو تكرر من عمر ومن علي.

عن ابن عباس، وسأله رجل عن قول الله جلّ وعزّ: ﴿وثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[١] قال: لا تلبس ثيابك على غَدْر؛ وتمثّل بقول غَيْلان الثقفيّ:

فإنّي بحمد الله لا ثوبَ غادِرٍ ... لبِستُ ولا من سَوْءةٍ أتقنّع[٢]

وسأل رجل عكرمة عن الزَّنِيم قال: هو ولد الزِّنَى؛ وتمثّل ببيت شعر:

زَنِيم ليس يُعرف من أبوه ... بَغِيّ الأمّ ذو حسَبٍ لئيم

وعنه أيضاً الزنيم: الدعيّ الفاحش اللئيم، ثم قال:

زَنِيم تداعاه الرجال زيادةً ... كما زِيد في عَرْض الأدِيم الأكارعُ[٣]

وعنه في قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾[٤] قال: ذواتا ظِلّ وأغصان؛ ألم تسمع إلى قول الشاعر:

ما هاج شوقك من هَدِيل حمامةٍ ... تدعو على فَنَنِ الغصون حماما
تدعو أبا فرخينِ صادف طائرا ... ذا مِخْلبين من الصقور قطاما

وعن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾[٥] قال: الأرض؛ قاله ابن عباس. وقال أُمَيّة بن أبي الصَّلْت: «عندهم[٦] لحم بحر ولحم ساهرة». قال ابن الأنباريّ: والرواة يروون هذا البيت:

وفيها لحم ساهِرةٍ وبَحْرٍ ... وما فاهُوا به لهُم مُقيم

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس: أخبرني عن قول الله جلّ وعزّ: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ ما السِّنَةَ؟ قال: النُّعاس؛ قال زُهير بن أبي سُلْمَى:

لا سِنَةٌ في طَوالِ الليل تأخذه ... ولا ينام ولا في أمره فَنَدُ[٧]

---

(١) سورة المدّثر آية: ٤. (٢) أورد المؤلف في تفسير سورة المدّثر ١٩/ ٦٢ هذا البيت برواية أخرى هكذا:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر ... لبست ولا من غدرة أتقنع

(٣) كذا في «اللسان والكامل» للمبرد. وفي «الأصول»: «أكارعه». (٤) سورة الرحمن آية: ٤٨.
(٥) سورة النازعات آية: ١٤. (٦) كذا في «الأصول»، ولعل ابن عباس يريد ما تضمنه البيت الذي قاله أمية والذي ذكره ابن الأنباري فيما يلي، وسيأتي للمصنف في تفسير سورة النازعات ١٩/ ١٩٧ هذا البيت. (٧) الفند (بالتحريك): ضعف الرأي من الكبر، وقد يستعمل في غير الكبر.

باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين، فمن ذلك: أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم؛ فقال له رجل: جُعلت فداءك! تصف جابراً بالعلم وأنت أنت! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعادٍ﴾(١). وقال مجاهد: أحَبّ الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل. وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أحبّ أن يعلم فيما أنزلت وما يعني بها. وقال الشعبيّ: رَحَل مسروق إلى البصرة في تفسير آية، فقيل له: إن الذي يفسّرها رحل إلى الشأم؛ فتجهّز ورَحَل إلى الشأم حتى علم تفسيرها. وقال عكرمة في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾(٢) طَلبتُ اسم هذا الرجل [الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله](٣) أربع عشرة سنة حتى وجدته. وقال ابن عبد البر: هو ضمرة بن حبيب، وسيأتي. وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللّتَيْن تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ما يمنعني إلا مهابته، فسألته فقال: هي حفصة وعائشة. وقال إياس بن معاوية: مَثَلُ الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمَثَل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم رَوْعة ولا يدرون ما في الكتاب؛ ومَثَل الذي يعرف التفسير كمَثَل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما في الكتاب.

باب ما جاء في حامل القرآن ومن هو، وفيمن عاداه

قال أبو عمر: روي من وجوه فيها لِين عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مِن تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة: الإمام المُقْسط وذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه». وقال أبو عمر: وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه، وحلاله وحرامه، والعاملون بما فيه. وروى أنس أن النبيّ ﷺ قال: «القرآن أفضل من كل شيء فمن وَقّر القرآن فقد وقّر الله ومن استخف بالقرآن استخف بحق الله تعالى حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله فمَن وَالاهم فقد والىَ الله ومن عاداهم فقد استخفّ بحق الله تعالى».

(١) سورة القصص آية: ٨٥. (٢) سورة النساء آية: ١٠٠.
(٣) الزيادة من تفسير قطب الدين الشيرازي.

باب ما يلزم قارىء القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»: «فمن حُرمة القرآن ألا يمسّه إلا طاهراً». ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة. ومن حرمته أن يستاك ويتحلل فيطيب فاه، إذ هو طريقه. ـ قال يزيد بن أبي مالك: إن أفواهكم طُرُقٌ من طرق القرآن، فطهّروها ونظّفوها ما ٱستطعتم. ـ ومن حرمته أن يتلبّس[١] كما يتلبس للدخول على الأمير لأنه مناج. ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته. ـ وكان أبو العالية إذا قرأ ٱعتمّ ولبس وٱرتدى وٱستقبل القبلة. ـ ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع[٢]. روى شعبة عن أبي حمزة عن ٱبن عباس: أنه كان يكون بين يديه تَوْر[٣] إذا تنخع مضمض، ثم أخذ في الذكر، وكان كلما تنخع مضمض. ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج، والتثاؤب من الشيطان. ـ قال مجاهد: إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيماً حتى يذهب تثاؤبك. وقاله عكرمة. يريد أن في ذلك الفعل إجلالاً للقرآن. ـ ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند ابتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم، ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ٱبتدأ قراءته من أوّل السورة أو من حيث بلغ. ومن حرمته إذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة. ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه؛ لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذي ٱستعاذ في البدء. ومن حرمته أن يقرأه على تُؤَدة وترسيل وترتيل. ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به. ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه. ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيمتثلها. ومن حرمته أن يلتمس غرائبه[٤]. ومن حرمته أن يؤدّي لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماماً، فإن له بكل حرف عشر حسنات. ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدّق ربه، ويشهد بالبلاغ

---

(١) يقال: تلبَّس بالثوب بمعنى لبسه. (٢) تنخع كتنخم وزنا ومعنى.

(٣) التور: إناء يشرب فيه.

(٤) في «نوادر الأصول»: «إعرابه». وكلاهما مروي عن رسول الله ﷺ فقد روى أبو هريرة عنه ﷺ أنه قال: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه» رواه الحاكم والبيهقي.

لرسوله ﷺ، ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول: صدقتَ ربَّنا وبلّغتْ رسلُك، ونحن على ذلك من الشاهدين؛ اللهم ٱجعلنا من شهداء الحق، القائمين بالقسط؛ ثم يدعو بدعوات. ومن حرمته إذا قرأه ألا يلتقط الآي من كل سورة فيقرأها؛ فإنه روي لنا عن رسول الله ﷺ: أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئاً؛ فأمره أن يقرأ السورة كلها أو كما قال عليه السلام . ومن حرمته إذا وضع المصحف ألا يتركه منشوراً، وألا يضع فوقه شيئاً من الكتب حتى يكون أبداً عالياً لسائر الكتب، عِلماً كان أو غيره. ومن حرمته أن يضعه في حِجره إذا قرأه أو على شيء بين يديه ولا يضعه بالأرض . ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالماء. ومن حرمته إذا غسله بالماء أن يتوقّى النجاسات من المواضع ، والمواقع التي تُوطأ، فإن لتلك الغسالة حرمة، وكان مَن قبلنا من السلف منهم من يستشفي بغسالته. ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالماء. ومن حرمته ألا يخلي يوماً من أيامه من النظر في المصحف مرّة؛ وكان أبو موسى يقول: إني لأستحيي ألا أنظر كل يوم في عهد ربي مرّة. ومن حرمته أن يعطي عينيه حظهما منه، فإن العين تؤدّي إلى النفس ، وبين النفس والصّدر حجاب، والقرآن في الصدر؛ فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤدّي إلى النفس، فإذا نظر في الخط كانت العين والأذن قد ٱشتركتا في الأداء وذلك أوفر للأداء؛ وكان قد أخذت العين حظها كالأذن. روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يَسار عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله ﷺ : « أعطوا أعينكم حظّها من العبادة » قالوا : يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : « النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه». وروى مكحول عن عُبَادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن نظراً » . ومن حرمته ألا يتأوّله عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا. ـ حدّثنا عمرو بن زياد الحنظليّ قال حدّثنا هشيم بن بشير عن المغيرة عن إبراهيم قال: كان يكره أن يتأوّل شيء من القرآن عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا، ـ والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك: جِئتَ على قَدَرٍ

يا موسى؛ ومثل قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾(١) هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا. ومن حرمته ألا يقال: سورة كذا؛ كقولك: سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء، ولكن يقال: السورة التي يُذكر فيها كذا.

قلت: هذا يعارضه قوله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرةَ من قرأ بهما في ليلة كفَتَاه» خرّجه البخاريّ ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود. ـ ومن حرمته ألا يُتْلَى منكوساً كفعل معلمي الصبيان، يلتمس أحدهم بذلك أن يُرِيَ الحِذق من نفسه والمهارة، فإن تلك مخالفة. ومن حرمته ألا يُقَعِّر في قراءته كفعل هؤلاء الهمزيين المبتدعين المتنطعين في إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلُّفاً، فإن ذلك محدَث ألقاه إليهم الشيطان فقبلوه عنه. ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق، ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدّم. ومن حرمته أن يُجلّل تخطيطه إذا خطه. وعن أبي حُكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة، فمرّ عليّ رضي الله عنه فنظر إلى كتابته فقال له: أجِلّ قلمك؛ فأخذت القلم فقططته من طرفه قَطًّا، ثم كتبت وعليّ رضي الله عنه قائم ينظر إلى كتابتي؛ فقال: هكذا، نَوِّرْه كما نوّره الله عزّ وجلّ. ومن حرمته ألا يجهر بعض على بعض في القراءة فيفسد عليه حتى يبغّض إليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة. ومن حرمته ألاّ يُمارِي ولا يجادل فيه في القراءات، ولا يقول لصاحبه: ليس هكذا هو، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن؛ فيكون قد جحد كتاب الله. ومن حرمته ألاّ يقرأ في الأسواق ولا في مواطن اللغط واللّغو ومجمع السفهاء؛ ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مَرُّوا باللّغْو مرّوا كراماً، هذا لمروره بنفسه، فكيف إذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهراني أهل اللغو ومجمع السفهاء. ومن حرمته ألاّ يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه، ولا يرمي به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله. ومن حرمته ألا يصغِّر المصحف؛ روى الأعمش عن إبراهيم عن عليّ رضي الله عنه قال: لا يصغّر المصحف.

قلت: وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رأى مصحفاً صغيراً في يد رجل فقال: من كتبه؟ قال: أنا؛ فضربه بالدِّرّة، وقال: عظّموا القرآن. وروي عن رسول

(١) سورة الحاقة آية: ٢٤.

الله ﷺ أنه نهى أن يقال : مُسَيْجد أو مُصَيْحف. ـ ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمته ألا يحلَّى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينة الدنيا؛ وروى مغيرة عن إبراهيم: أنه كان يكره أن يحلّى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عند رءوس الآي أو يصغّر . وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدبار[1] عليكم » . وقال ابن عباس وقد رأى مصحفاً زُيّن بفضة: تُغرون به السارق وزِينته في جوفه. ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل به في المساجد المحدثة . حدّثنا محمد بن علي الشقيقيّ عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدّث قال : مرّ رسول الله ﷺ بكتاب في أرض ، فقال لشاب من هُذَيل: « ما هذا» قال : من كتاب الله كتبه يهوديّ ؛ فقال : « لعن الله من فعل هذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه». قال محمد بن الزبير: رأى عمر بن عبد العزيز ابناً له يكتب القرآن على حائط فضربه. ومن حرمته أنه إذا اغتسل بكتابته مستشفياً من سَقم ألا يصبّه على كُنَاسة، ولا في موضع نجاسة، ولا على موضع يُوطأ، ولكن ناحية من الأرض في بُقعة لا يطؤه الناس، أو يحفر حفيرة في موضع طاهر حتى ينصبَّ من جسده في تلك الحفيرة ثم يكبسها، أو في نهر كبير يختلط بمائه فيجري. ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا ختم يقرأ من أوّل القرآن قدر خمس آيات؛ لئلا يكون في هيئة المهجور. وروى ابن عباس قال جاء رجل فقال: يا رسول الله ، أيّ العمل أفضل؟ قال: «عليك بالحالّ المرتحل» قال: وما الحالّ المرتحل؟ قال: «صاحب القرآن يضرب من أوّله حتى يبلغ آخره ثم يضرب في أوّله كلما حلّ ارتحل» .

قلت: ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله. ذكر أبو بكر الأنباري أنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا وكيع عن مِسْعَر عن قتادة: أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع

(١) الدبار: الهلاك. وفي «نوادر الأصول»: «فالدمار» بالميم بدل الباء الموحدة.

أهله ودعا . وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعَبْدة بن أبي لُبَابة وقوم يعرضون المصاحف ، فإذا أرادوا أن يختموا وجّهوا إلينا : أحضرونا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن . وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام عن إبراهيم التّيْمي قال: من ختم القرآن أوّل النهار صلّت عليه الملائكة حتى يُمسي، ومن ختم أوّل الليل صلّت عليه الملائكة حتى يُصبح؛ قال: فكانوا يستحبّون أن يختموا أوّلَ الليل وأوّلَ النهار. ـ ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به في الخلاء، إلا أن يكون في غلاف من أَدَم أو فضة أو غيره؛ فيكون كأنه في صدرك . ومن حرمته إذا كتبه وشربه سَمَّى الله على كل نَفَس وعَظَّم النية فيه فإن الله يؤتيه على قدر نيّته. روى لَيْث عن مجاهد قال: لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض. وعن أبي جعفر قال: من وجد في قلبه قساوةً فليكتب «يس» في جام بزعفران ثم يشربه.

قلت: ومن حرمته ألاّ يقال: سورة صغيرة. وكَره أبو العالية أن يقال: سورة صغيرة أو كبيرة؛ وقال لمن سمعه قالها: أنت أصغر منها؛ وأما القرآن فكله عظيم؛ ذكره مكيّ رحمه الله.

قلت: وقد روى أبو داود ما يعارض هذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنه قال: ما مِن المفصّل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله ﷺ يؤمّ بها الناس في الصلاة.

باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي، والجرأة على ذلك، ومراتب المفسرين

روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله ﷺ يفسّر من كتاب الله إلا آياً بعددٍ، علّمه إياهنّ جبريل. قال ابن عطية: ومعنى هذا الحديث في مُغيَّبات القرآن، وتفسير مجمله ونحو هذا، مما لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله تعالى؛ ومن جملة مغيَّباته ما لم يُعْلِم الله به، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألفاظه، كعدد

النَّفَخات في الصُّور، وكرتبة خلق السموات والأرض. روى الترمذيّ عن ٱبن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «ٱتّقوا الحديث عليّ إلا ما علمتم فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار ومن قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار» . ورُوي أيضاً عن جُنْدب قال قال رسول الله ﷺ : «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» . قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود ، وتُكُلِّم في أحد رواته[١]. وزاد رَزِين: ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر . قال أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباريّ النحوي اللغوي في كتاب الردّ : فُسِّر حديث ٱبن عباس تفسيرين : **أحدهما** ـ من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرّض لسخط الله. **والجواب الآخر** ـ وهو أثبت القولين وأصحهما معنًى ـ : من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوّأ مقعده من النار. ومعنى يتبوّأ: ينزل ويحل؛ قال الشاعر:

وبُـوِّئَـتْ فـي صَميـم مَعْشِـرهـا فتَـمّ فـي قَـوْمِهـا مُبَـوَّؤهـا[٢]

وقال في حديث جُنْدب: فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأي معنيّ به الهوى؛ من قال في القرآن قولاً يوافق هواه، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه. وقال ٱبن عطية: «ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنًى في كتاب الله عز وجل فيتسوّر[٣] عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، وٱقتضته قوانين العلم «كالنحو والأصول»؛ وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد بٱجتهاده المبنيّ على قوانين علمٍ ونظر؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرّد رأيه».

(١) قوله: أحد رواته. هو سهيل بن أبي حزم وٱسمه مهران، ويقال: عبد الله.

(٢) جاء في «لسان العرب» مادّة بوّأ تفسيراً لهذا البيت: «أي نزلت من الكرم في صميم النسب».

(٣) قوله: فيتسوّر عليه. تسوّر الحائط. هجم مثل اللص. ويعني به هنا التهجم والإقدام بغير بصيرة ولا تدبر.

قلت : هذا صحيح وهو الذي ٱختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سنح في وَهْمه وخطر على باله من غير ٱستدلال عليه بالأصول فهو مخطىء، وإن من ٱستنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح.

وقال بعض العلماء: إن التفسير موقوف على السماع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسولِ﴾[1]. وهذا فاسد؛ لأن النهي عن تفسير القرآن لا يخلو: إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط، أو المراد به أمراً آخر. وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم قد قرءوا القرآن وٱختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبيّ ﷺ؛ فإن النبيّ ﷺ دعا لابن عباس وقال: «اللّٰهُمّ فَقِّهه في الدِّينِ وعَلِّمه التأوِيل». فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك! وهذا بيّن لا إشكال فيه؛ وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «النساء» إن شاء الله تعالى. وإنما النهي يحمل على أحد وجهين:

أحدهما ـ أن يكون له في الشيء رأي ، وإليه ميل من طبعه وهواه ؛ فيتأوّل القرآن على وَفْق رأيه وهواه، ليحتجّ على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك، ولكن مقصوده أن يُلَبِّس على خصمه؛ وتارة يكون مع الجهل، وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسّر برأيه، أي رأيه حَمَله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه. وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول قال الله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّه طَغَى﴾[2] ويشير إلى قلبه، ويومىء إلى أنه المراد بفرعون؛ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع، وهو ممنوع لأنه قياس في اللغة، وذلك غير جائز. وقد تستعمله

---

(١) سورة النساء آية: ٥٩. (٢) سورة طه آية: ٢٤.

الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة، فينزِّلون القرآن على وَفْق رأيهم ومذهبهم على أمورٍ يعلمون قطعاً أنها غير مرادة. فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي.

الوجه الثاني ـ أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير ٱستظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة[1]، وما فيه من ٱلاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير؛ فمن لم يحكِم ظاهر التفسير وبادر إلى ٱستنباط المعاني بمجرّد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زُمْرة من فسَّر القرآن بالرأي؛ والنقلُ والسماع لا بُدّ له منه في ظاهر التفسير أوّلاً ليتّقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط. والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر؛ ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾[2] معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها؛ فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة، ولا يدري بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار؛ وأمثال هذا في القرآن كثير، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرّق النهي إليه. والله أعلم.

قال ٱبن عطية: «وكان جِلّةٌ من السلف الصالح كسعيدِ بن المسيّب وعامر الشعبيّ وغيرهما يعظّمون تفسير القرآن ويتوقّفون عنه تورّعاً وٱحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدّمهم». قال أبو بكر الأنباريّ: وقد كان الأئمة من السلف الماضي يتورّعون عن تفسير المُشْكِل من القرآن؛ فبعضٌ يقدّر أن الذي يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحْجِم عن القول. وبعضٌ يُشْفق من أن يجعل في التفسير إماماً يبني على مذهبه ويقتفي طريقه. فلعلّ متأخّراً أن يفسر حرفاً برأيه ويخطىء فيه ويقول: إمامي في تفسير القرآن بالرأي فلان الإمام من السلف. وعن ٱبن أبي مليكة قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير حرف من القرآن فقال: أيّ سماء تُظلّني، وأيّ أرض تُقِلّني! وأين أذهب! وكيف أصنع! إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى.

(١) هكذا في كل النسخ التي بأيدينا. (٢) سورة الإسراء آية: ٥٩.

قال ابن عطية: «وكان جِلّةٌ من السلف كثير عددهم يفسّرون القرآن وهم أبقوا[١] على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم؛ فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرّد للأمر وكمّله، وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن عليّ». وقال ابن عباس: ما أخذت من تفسير القرآن فعن عليّ بن أبي طالب. وكان عليّ رضي الله عنه يثني على تفسير ابن عباس ويحضّ على الأخذ عنه، وكان ابن عباس يقول: نِعْم تَرْجُمان القرآن عبد الله بن عباس. وقال عنه عليّ رضي الله عنه: ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من سِتْر رقيق. ويتلوه عبد الله بن مسعود وأُبَيّ بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص. وكل ما أخذ عن الصحابة فحَسَن مقدم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم.

وعن عامر بن واثلة قال: شهدت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يخطب فسمعته يقول في خطبته: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلاّ حدّثتكم به، سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبِليل نزلتْ أم بنهار، أم في سهل نزلتْ أم في جبل؛ فقام إليه ابن[٢] الكوّاء فقال: يا أمير المؤمنين، ما الذاريات ذَرْواً؟ وذكر الحديث. وعن المِنْهال بن عمرو قال قال عبد الله بن مسعود: لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلُغه المَطِيُّ لأتيته؛ فقال له رجل: أما لقيت عليّ بن أبي طالب؟ فقال: بلى، قد لقيته. وعن مسروق قال: وجدت أصحاب محمد ﷺ مِثْل الإخاذ يُرْوِي الواحد والإخاذ يُرْوِي الاثنين، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصْدرهم، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ[٣]. ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنباريّ في كتاب الردّ، وقال: الإخاذ عند العرب: الموضع الذي يحبس الماء كالغدير. قال أبو بكر: حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدّثنا سلام عن

(١) من قولهم: أبقيت على فلان إذا أشفقت عليه ورحمته.

(٢) اسمه عبد الله بن أبي أوفى اليشكري كما في «تاريخ الطبري» في عدّة مواضع.

(٣) قوله: من تلك الآخاذ. يعني أن فيهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم.

زيد العَمّي[١] عن أبي الصدّيق الناجي عن أبي سعيد الخُدْريّ قال قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بها أبو بكر وأقواهم في دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم عليّ وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عزّ وجلّ أُبَيّ بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جَبَل وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح وأبو هريرة وِعَاءٌ من العلم وسَلْمانُ بَحْرٌ من علم لا يُدْرَك وما أظَلّت الخضراء ولا أقَلّت الغبراء ـ أو قال البطحاء ـ من ذي لهجة أصدق من أبي ذَرّ».

قال ٱبن عطية: «ومن المبرِّزين في التابعين الحسن البصريّ ومجاهد وسعيد بن جُبير وعلقمة. قرأ مجاهد على ٱبن عباس قراءةَ تَفَهّم ووقوف عند كل آية؛ ويتلوهم عكرمة والضحاك وإن كان لم يلق ٱبن عباس، وإنما أخذ عن ٱبن جبير؛ وأما السُّدِّيّ فكان عامر الشَّعْبِيّ يطعن عليه وعلى أبي صالح؛ لأنه كان يراهما مقصِّرين في النظر».

قلت: وقال يحيى بن مَعين: الكلبيّ ليس بشيء. وعن يحيى بن سعيد القَطّان عن سفيان قال قال الكلبي قال أبو صالح: كل ما حدّثتك كذب. وقال حبيب بن أبي ثابت: كنا نسميه الدّروَغ زَنْ[٢] ـ يعني أبا صالح مولى أم هانىء ـ والدروغ زن: هو الكذاب بلغة الفُرْس. ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف، كما قال ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وٱنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين». خرّجه أبو عمر وغيره. قال الخطيب أبو بكر أحمد بن عليّ البغدادي: وهذه شهادة من رسول الله ﷺ بأنهم أعلام الدِّين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف، والانتحال للباطل، وردّ تأويل الأبله الجاهل؛ وأنه يجب الرجوع إليهم، والمعوّل في أمر الدِّين عليهم، رضي الله عنهم.

---

(١) جاء في حاشية بهامش الأصل: أنه سمى زيداً العمي لأنه كان ينادي من رآه بيا عم. وجاء في «تهذيب التهذيب» عند الكلام على ٱسم زيد المذكور: أنه زيد بن الحواري أبو الحواري العمي، وهو مولى زياد بن أبيه. ولقب بذلك لأنه كان إذا سئل عن الشيء يقول: حتى أسأل عمي.

(٢) ٱسمه باذام، وقيل: باذان، بمعجمة بين ألفين. يروى عن علي وابن عباس ومولاته أم هانىء؛ كما في «تهذيب التهذيب».

قال ابن عطية: «وألّف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضّل وعليّ بن أبي طلحة والبخاري وغيرهم. ثم إن محمد بن جرير ـ رحمه الله ـ جَمع على الناس أشتات التفسير، وقرّب البعيد منها وشفى في الإسناد. ومن المبرِّزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو عليّ الفارسيّ؛ وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيراً ما استدرك الناس عليهما. وعلى سَنَنهما مكيّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وأبو العباس المهدَوِيّ متقن التأليف، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله، ونَضّر وجوههم.

باب تبيين الكتاب بالسنة، وما جاء في ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِمْ﴾(١). وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٣) وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(٤). ذكر ابن عبد البر في كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد: أنه رأى مُحْرِماً عليه ثيابه فنهى المحرم؛ فقال: ائتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي؛ قال: فقرأ عليه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾. وعن هشام بن حُجَير قال: كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر، فقال ابن عباس: اتركهما؛ فقال: إنما نهى عنهما أن تُتخذا سنة؛ فقال ابن عباس: قد نهى رسول الله ﷺ عن صلاة بعد العصر، فلا أدري أتُعَذّب عليهما أم تُؤجر، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم﴾(٥). وروى أبو داود عن المِقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشِك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه

(١) سورة النحل آية: ٤٤.
(٢) سورة النور آية: ٦٣.
(٣) سورة الشورى آية: ٥٢.
(٤) سورة الحشر آية: ٧.
(٥) سورة الأحزاب آية: ٣٦.

ألاَ لا يحل لكم الحمار الأهليّ ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قِراه».

قال الخطابي: قوله «أوتيت الكتاب ومثله معه» يحتمل وجهين من التأويل: أحدهما ـ أن معناه أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلوّ، مثل ما أعطي من الظاهر المتلوّ. والثاني ـ أنه أوتي الكتاب وَحْياً يُتْلَى، وأوتي من البيان مثله، أي أذن له أن يبين ما في الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما في الكتاب؛ فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلوّ من القرآن. وقوله: «يوشك رجل شبعان» الحديث. يحذّر بهذا القول من مخالفة السنن التي سنّها مما ليس له في القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض، فإنهم تعلّقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي قد ضمنت بيان الكتاب؛ قال: فتحيّروا وضلّوا؛ قال والأريكة: السرير، ويقال: إنه لا يسمى أريكة حتى يكون في حَجَلَة[1]، قال: وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفُّه والدَّعَة الذين لزموا البيوت لم يطلبوا العلم من مَظانّه. وقوله: «إلا أن يستغني عنها صاحبها» معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها ٱستغناء عنها؛ كقوله: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾[2] معناه تركهم الله ٱستغناء عنهم. وقوله: «فله أن يعقبهم بمثل قراه» هذا في حال المضطر الذي لا يجد طعاماً ويخاف التلف على نفسه، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قِراه عوض ما حرَموه من قِراه. و «يعقبهم» يروى مشدّداً ومخففاً من المعاقبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وإن عاقبْتُمْ﴾[3] أي فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قِراه. قال: وفي الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يعرض على الكِتاب، فإنه مهما ثبت عن رسول الله ﷺ كان حجة بنفسه؛ قال فأما ما رواه بعضهم أنه قال: «إذا جاءكم الحديث فٱعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فردّوه» فإنه حديث باطل لا أصل له.

ثم البيان منه ﷺ على ضربين: بيان لمجملٍ في الكتاب، كبيانه للصلوات الخمس في مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذي

---

(١) الحجلة: مثل القبة. (٢) سورة التغابن آية: ٦. (٣) سورة النحل آية: ١٢٦.

تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج؛ قال ﷺ إذ حج بالناس: «خذوا عني مناسككم». وقال: «صلُّوا كما رأيتموني أصلّي». أخرجه البخاري. وروى ابن المبارك عن عمران بن حُصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظُّهْر في كتاب الله أربعاً لا يُجهر فيها بالقراءة! ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مفسراً! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السُّنة تفسّر هذا.

وروى الأوزاعيّ عن حسان بن عطية قال: كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك. وروى سعيد بن منصور: حدّثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعيّ عن مكحول قال: القرآن أحوج إلى السُّنة من السنة إلى القرآن. وبه عن الأوزاعيّ قال قال يحيى بن أبي كثير: السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاضٍ على السنة. قال الفضل بن زياد: سمعت أبا عبد الله ـ يعني أحمد بن حنبل ـ وسئل عن هذا الحديث الذي روي أن السُّنة قاضية على الكتاب فقال: ما أجْسُر على هذا أن أقوله، ولكني أقول: إن السنة تفسّر الكتاب وتبينه.

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وتحريم الحُمُر الأهلية وكل ذي ناب من السباع، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

باب كيفية التعلّم والفقه لكتاب الله تعالى، وسنة نبيّه ﷺ، وما جاء أنه سُهّل على من تقدّم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الدّاني في كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأُبَيّ: أن رسول الله ﷺ كان يُقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعاً. وذكر عبد الرزاق عن معمر عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلميّ قال: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلّم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها. وفي موطأ مالك: أنه بلغه أن عبد الله

ابن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلّمها. وذكر أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الحافظ في كتابه المسمى[١] «أسماء من روى عن مالك»: عن مرداس بن محمد أبي بلال الأشعري قال: حدّثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال: تعلّم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نَحَر جزوراً. وذكر أبو بكر الأنباريّ: حدّثني محمد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا عبيد الله بن موسى عن زياد بن أبي مسلم أبي عمرو عن زياد بن مخْراق قال قال عبد الله بن مسعود: إنا صَعُب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسَهُل علينا العمل به، وإن من بَعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به.

حدّثنا إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا الفضل بن دُكين حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم بن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن ابن عمر قال: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورُزقوا العمل بالقرآن؛ وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يُرزقون العمل به. حدّثني حسن بن عبد الوهاب أبو محمد بن أبي العنبر حدّثنا أبو بكر بن حماد المقرىء قال: سمعت خلف بن هشام البزار يقول: ما أظن القرآن إلا عارية في أيدينا، وذلك إنا رَوَيْنا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة في بضع عشرة سنة، فلما حفظها نَحَر جزوراً شكراً لله، وإن الغلام في دهرنا هذا يجلس بين يديّ فيقرأ ثلث القرآن لا يُسقط منه حرفاً، فما أحسب القرآن إلا عارية في أيدينا. وقال أهل العلم بالحديث: لا ينبغي لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكَتْبه، دون معرفته وفهمه، فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل، وليكن تحفّظه للحديث على التدريج قليلاً قليلاً مع الليالي والأيام. وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وابن عُلَيّة ومَعْمر، قال معمر: سمعت الزُهريّ يقول: من طلب العلم جُمْلَةً فاته جملة، وإنما يدرك العلم حديثاً وحديثين، والله أعلم. وقال معاذ بن جبل: اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا. وقال ابن عبد البر: وروي عن النبيّ ﷺ

(١) في «الأصول»: «المسمى في ذكر أسماء... الخ».

مثل قول معاذ من رواية عبّاد بن عبد الصمد، وفيه زيادة: أن العلماء همّتهم الدراية، وأن السفهاء همّتهم الرواية. وروي موقوفاً وهو أولى من رواية من رواه مرفوعاً؛ وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يُحتج به. ولقد أحسن القائل في نظمه في فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسُّنّة الغرّاء:

إن العلـوم وإن جلّـت محـاسنهـا ... فتـاجُهـا مـا بـه الإيمـان قـد وَجَبَـا
هـو الكتـاب العـزيـز ألله يحفظـه ... وبعـد ذلـك علـم فـرّج الكُـرَبَـا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه ... نـور النبـوّة سـنّ الشـرع والأدبـا
وبعـد هـذا علـوم لا أنتهـاء لهـا ... فـأختـر لنفسـك يـا مـن آثـر الطلبـا
والعلـم كنـز نجـده فـي معـادنـه ... ياأيها الطالب أبحث وأنظر الكتبا
وأتـل بفهـم كتـاب الله فيـه أتـت ... كـلّ العلـوم تـدبّـره تـر العجبـا
وأقرأ هُديت حديث المصطفى وسَلَنْ ... مولاك ما تشتهي يقضي لك الأربا
من ذاق طعماً لعلم الدين سُرّ به ... إذا تـزيّـد منـه قـال واطـربـا

باب معنى قول النبيّ ﷺ: «إن هذا القرآن أُنزِل على سبعة أحرف فأقرءوا ما تيَسّر منه»

روى مسلم عن أُبيّ بن كعب: أن النبيّ ﷺ كان عند أضاة[١] بني غفار، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمّتُك القرآن على حَرْف؛ فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تُطيق ذلك». ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين؛ فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك». ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف؛ فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك». ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك

---

(١) الأضاة (كحصاة): غدير صغير. وقيل: هو مسيل الماء إلى الغدير وهو موضع قريب من مكة فوق سرف. وغفار: قبيلة من كنانة.

أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيّما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا. وروى الترمذيّ عنه قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل فقال: «يا جبريل إني بُعثت إلى أمة أُمِّيَة منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتاباً قَطُّ فقال لي يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف». قال هذا: حديث صحيح. وثبت في الأمهات: البخاري ومسلم والموطأ وأبي داود والنسائي وغيرها من المصنَّفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم، وسيأتي بكماله في آخر الباب مبيناً إن شاء الله تعالى.

وقد ٱختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً ذكرها أبو حاتم محمد بن حِبّان البُسْتِيّ، نذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال:

الأوّل - وهو الذي عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عُيَيْنة وعبد الله بن وهب والطبري والطحاوي وغيرهم: أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو أَقْبِل وتعال وهَلُمّ. قال الطحاويّ: وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكرة قال: جاء جبريل إلى النبيّ ﷺ فقال ٱقرأ على حرف؛ فقال ميكائيل: ٱستزده؛ فقال: ٱقرأ على حرفين؛ فقال ميكائيل: ٱستزده، حتى بلغ إلى سبعة أحرف؛ فقال: ٱقرأ فكُلٌّ شافٍ كافٍ إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة؛ على نحو هَلُمَّ وتعالَ وأقبِل وٱذهب وأسرع وعَجِّل. وروى ورقاء عن ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد عن ٱبن عباس عن أُبَيّ بن كعب أنه كان يقرأ ﴿لِلَّذين آمَنُوا ٱنْظُرُونا﴾[1]: للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخّرونا، للذين آمنوا ٱرقبونا. وبهذا الإسناد عن أُبَيّ أنه كان يقرأ ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾[2]: مَرّوا فيه، سَعَوْا فيه. وفي البخاريّ ومسلم قال الزهري: إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام.

قال الطحاوي: إنما كانت السَّعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم، لأنهم كانوا أُمِّيين لا يكتب إلا القليل منهم؛ فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحوّل إلى غيرها من اللغات؛ ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة، فوُسِّع لهم

(١) سورة الحديد آية: ١٣.
(٢) سورة البقرة آية: ٢٠.

في آختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقاً، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ، فقدروا بذلك على تحفُّظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها. قال آبن عبد البر: فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم آرتفعت تلك الضرورة فآرتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد.

روى أبو داود عن أُبَيّ قال قال لي رسول الله ﷺ: «يا أُبَيّ إني أقرئت القرآن فقيل لي على حرف أو حرفين فقال المَلَك الذي معي قل على حرفين فقيل لي على حرفين أو ثلاثة فقال المَلَك الذي معي قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها إلا شافٍ كافٍ إن قلت سميعاً عليماً عزيزاً حكيماً ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب». وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ، وذكر من كلام آبن مسعود نحوه. قال القاضي آبن الطيب[١]: وإذا ثبتت هذه الرواية ـ يريد حديث أُبَيّ ـ حمل على أن هذا كان مطلقاً ثم نُسخ، فلا يجوز للناس أن يبدّلوا آسماً لله تعالى في موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف.

القول الثاني ـ قال قوم: هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها؛ يَمَنها ونِزارها، لأن رسول الله ﷺ لم يجهل شيئاً منها، وكان قد أوتي جوامع الكَلِم؛ وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هُذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن. قال الخطابي: على أن في القرآن ما قد قرىء بسبعة أوجه، وهو قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[٢]. وقوله: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[٣] وذكر وجوهاً، كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله. وإلى هذا القول ـ بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، على سبع لغات ـ ذهب أبو عبيد القاسم بن سلاّم وآختاره آبن عطية. قال أبو عبيد: وبعض الأحياء

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاضي أبو بكر الباقلاني.

(٢) سورة المائدة آية: ٦٠.

(٣) سورة يوسف آية: ١٢.

أسعد بها وأكثر حظاً فيها من بعض، وذكر حديث ابن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف: ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش، فإنه نزل بلغتهم. ذكره البخاري وذكر حديث ابن عباس قال: نزل القرآن بلغة الكَعْبَيْن؛ كعب قريش وكعب خُزاعة. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن الدار واحدة. قال أبو عبيد: يعني أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم.

قال القاضي ابن الطيب رضي الله عنه: معنى قول عثمان فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط، إذ فيه كلمات وحروف هي خلاف لغة قريش، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾(١) ولم يقل قرشيًّا؛ وهذا يدل على أنه منزل بجميع «لسان العرب»، وليس لأحد أن يقول: إنه أراد قريشاً من العرب دون غيرها، كما أنه ليس له أن يقول: أراد لغة عَدْنان دون قَحْطان، أو ربيعة دون مُضَر؛ لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولاً واحداً.

وقال ابن عبد البر: قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندي في الأغلب والله أعلم؛ لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها، وقريش لا تهمز. وقال ابن عطية: معنى قول النبيّ ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي فيه عبارة سبع قبائل بلغة جملتها نزل القرآن، فيعبّر عن المعنى فيه مَرّة بعبارة قريش، ومرة بعبارة هُذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز في اللفظ، ألا ترى أن «فطر» معناه عند غير قريش: ابتدأ [خلق الشيء وعمله(٢)] فجاءت في القرآن فلم تَتَّجِه لابن عباس؛ حتى اختصم إليه أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتها؛ قال ابن عباس: ففهمت حينئذ موضع قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأرْض﴾. وقال أيضاً: ما كنت أدري معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وبيْنَ قَوْمِنا بالحَقِّ﴾(٣) حتى سمعت بنت ذِي يَزَنٍ تقول لزوجها: تعالَ أُفاتِحْكَ؛ أي أحاكمك. وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾(٤) أي على تنقص لهم. وكذلك اتفق لقطبة بن مالك إذ

---

(١) سورة الزخرف آية: ٣. (٢) زيادة عن ابن عطية. (٣) سورة الأعراف آية: ٨٩.
(٤) سورة النحل آية: ٤٧.

سمع النبيّ ﷺ يقرأ في الصلاة: ﴿والنَّخْلَ باسِقاتٍ﴾[١] ذكره مسلم في باب (القراءة في صلاة الفجر) إلى غير ذلك من الأمثلة.

القول الثالث ـ أن هذه اللغات السبع إنما تكون في مُضَر؛ قاله قوم، وٱحتجوا بقول عثمان: نزل القرآن بلغة مُضَر، وقالوا: جائز أن يكون منها لقريش، ومنها لِكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهُذَيل، ومنها لتَيم، ومنها لضَبّة، ومنها لقَيْس؛ قالوا: هذه قبائل مُضَر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب؛ وقد كان ٱبن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر. وأنكر آخرون أن تكون كلها من مضر، وقالوا: في مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها، مثل كَشْكَشة قَيس وتَمْتَمة تميم؛ فأما كشكشة قيس فإنهم يجعلون كاف المؤنث شيناً، فيقولون في ﴿جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[٢]: جعل رَبُّشِ تحتِش سَرِيًّا؛ وأما تمتمة تميم فيقولون في الناس: النات، وفي أكياس: أكيات. قالوا: وهذه لغات يرغب عن القرآن بها، ولا يحفظ عن السلف فيها شيء.

وقال آخرون: أما إبدال الهمزة عيناً وإبدال حروف الحَلْق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء، وقد قرأ به الجِلّة، وٱحتجوا بقراءة ٱبن مسعود: لَيَسْجُنُنَّه عتى حين؛ ذكرها أبو داود؛ وبقول ذي الرُّمَّة:

فعيناكِ عيناها وجيدُك جيدُها ... ولَونُكِ إلا عَنّها غيرُ طائِل

يريد إلا أنها.

القول الرابع ـ ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء، وحكى نحوه القاضي ابن الطيب قال: تدبرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعاً: منها ما تتغيّر حركته، ولا يزول معناه ولا صورته، مثل: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ وأطْهَرَ، ﴿ويَضِيقُ صَدْرِي﴾ ويضيقَ. ومنها ما لا تتغيّر صورته ويتغيّر معناه بالإعراب، مثل: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وباعَد. ومنها ما تبقى صورته ويتغيّر معناه باختلاف الحروف، مثل قوله: ﴿نُنْشِزُهَا﴾ وننشرها. ومنها ما تتغيّر صورته ويبقى معناه: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ وكالصوف المنفوش.

---

(١) سورة ق آية: ١٠.
(٢) سورة مريم آية: ٢٤.

ومنها ما تتغير صورته ومعناه، مثل: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ وطلع منضود. ومنها بالتقديم والتأخير كقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وجاءت [سكرة] الحق بالموت. ومنها بالزيادة والنقصان، مثل قوله: تسع وتسعون نعجة أنثى، وقوله: وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين، وقوله: فإن الله من بعد إكراههنّ لهنّ غفور رحيم.

القول الخامس ـ أن المراد بالأحرف السبعة معاني كتاب الله تعالى، وهي أمرٌ ونَهْيٌ ووعد ووعيد وقَصَصٌ ومجادلة وأمثال. قال ٱبن عطية. وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفاً، وأيضاً فالإجماع على أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال ولا في تغيير شيء من المعاني. وذكر القاضي ٱبن الطيب في هذا المعنى حديثاً عن النبيّ ﷺ، ثم قال: ولكن ليست هذه هي التي أجاز لهم القراءة بها، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾[1] فكذلك معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك. وقد قيل: إن المراد بقوله عليه السلام: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» القراءات السبع التي قرأ بها القرّاء السبعة؛ لأنها كلها صحت عن رسول الله ﷺ، وهذا ليس بشيء لظهور بطلانه على ما يأتي.

(**فصل**) قال كثير من علمائنا كالدّاوُدِي وٱبن أبي صُفْرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القرّاء السبعة، ليست هي الأحرف السبعة التي ٱتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف، ذكره ٱبن النحاس وغيره. وهذه القراءات المشهورة هي ٱختيارات أولئك الأئمة القرّاء، وذلك أن كل واحد منهم ٱختار فيما رَوى وعلِم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به وٱشتهر عنه، وعُرف به ونُسب إليه، فقيل: حرف نافع، وحرف ٱبن كَثِير؛ ولم يمنع واحد منهم ٱختيار الآخر ولا أنكره بل سوّغه وجوّزه، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه ٱختياران أو أكثر، وكلٌّ صحيح. وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا

---

(١) سورة الحج آية: ١١.

في ذلك مصنفات، فأستمرّ الإجماع على الصواب، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب ، وعلى هذا الأئمة المتقدّمون والفضلاء المحققون كالقاضي أبي بكر بن الطيب والطبري وغيرهما . قال أبن عطية : ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلّى لأنها ثبتت بالإجماع؛ وأما شاذّ القراءات فلا يصلَّى به لأنه لم يجمع الناس عليه، أما أن المرويّ منه عن الصحابة رضي الله عنهم وعن علماء التابعين فلا يعتقد فيه إلا أنهم رووه ، وأما ما يؤثر عن أبي السَّمّال[1] ومن قارنه فإنه لا يوثق به . قال غيره : أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن ، ولا يُعمل بها على أنها منه ، وأحسنُ محاملها أن تكون بيانَ تأويل مذهب من نُسبت إليه كقراءة أبن مسعود: فصيام ثلاثة أيام متتابعات. فأما لو صَرّح الراوي بسماعها من رسول الله ﷺ فاختلف العلماء في العمل بذلك على قولين : النفي والإثبات ؛ وجه النفي أن الراوي لم يروه في معرض الخبر بل في معرض القرآن ، ولم يثبت فلا يثبت . والوجه الثاني أنه وإن لم يثبت كونه قرآناً فقد ثبت كونه سنة ، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد.

فصل في ذكر معنى حديث عمر وهشام. قال أبن عطية: أباح الله تعالى لنبيّه عليه السلام هذه الحروف السبعة، وعارضه بها جبريل عليه السلام في عرضاته على الوجه الذي فيه الإعجاز وجودةِ الرصف، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام: «فأقرءوا ما تيسّر منه» بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدّل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرّضاً أن يبدّل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبيّ ﷺ ليوسّع بها على أمته، فأقرأ مَرّة لأبَيّ بما عارضه به جبريل، ومَرّة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً؛ وعلى هذا تجيء قراءة عمر بن الخطاب لسورة «الفرقان»، وقراءة

---

(١) أبو السمال (بفتح السين وتشديد الميم وباللام): هو قعنب بن أبي قعنب العدوي البصري، له اختيار في القراءات شاذ عن العامة. وقد ذكر في الطبعة الأولى في هذا الموضع وفي ص ٣٦٨ محرّفاً، والتصويب عن طبقات القرّاء.

هشام بن حَكيم لها، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبيّ ﷺ في كل قراءة منهما وقد اختلفا: «هكذا أقرأني جبريل» هل ذلك إلا أنه أقرأه مَرّة بهذه ومَرّة بهذه، وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ: «إنّ ناشِئة اللّيلِ هي أشدّ وَطْأً وأصْوَب قِيلاً» فقيل له: إنما نقرأ «وأقوَمُ قِيلا». فقال أنس: وأصْوَب قِيلاً، وأقْوَم قِيلاً وأهيأ، واحد؛ فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبيّ ﷺ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى: ﴿إنّا نَحْنُ نَزّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾[1]. روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة «الفُرْقان» على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقْرأنِيها، فكِدت أن أَعْجَل عليه، ثم أمهلته حتى أنصرف ثم لَبّبته[2] بردائه، فجئت به رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ سورة «الفرقان» على غير ما أقرأتنيها! فقال رسول الله ﷺ: «أرسِلْه[3] اقْرأ» فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ؛ فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت» ثم قال لي: «اقرأ» فقرأت فقال: «هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه».

قلت: وفي معنى حديث عمر هذا، ما رواه مسلم عن أُبَيّ بن كعب قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلّي، فقرأ قراءة أنكرتُها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سِوَى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سِوَى قراءة صاحبه؛ فأمرهما النبيّ ﷺ فقرآ، فحسّن النبيّ ﷺ شأنهما؛ فسُقِط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى النبيّ ﷺ ما قد غشيني، ضرب في صدري ففِضت عَرَقاً، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فَرَقاً، فقال لي: «يا أُبَيّ أُرْسِلَ إليّ أنِ اقرأ القرآن على حرفٍ فرددت إليه أن هوّن على أمّتي فردّ إليّ الثانيةَ اقرأه على حرفين فرددت إليه أن هوّن على أمّتي

(١) سورة الحجر آية: ٩.

(٢) قوله: لببته بردائه. أي جمعت ثيابه عند صدره ونحره ثم جررته.

(٣) أرسل الشيء: أطلقه.

فردّ إليّ الثالثة أقرأه على سبعة أحرف فَلَكَ بكل رَدّة رَدَدْتُكَها مسألة تسألنيها فقلت اللّهمّ اغفر لأمتي اللهم اغفر لأمتي وأخّرت الثالثة ليوم يَرغبُ إليّ فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام».

قول أُبيّ رضي الله عنه : « فسقط في نفسي » معناه اعترتني حَيْرة ودهشة؛ أي أصابته نزغة من الشيطان ليشوّش عليه حاله، ويكدّر عليه وقته؛ فإنه عظّم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيماً في نفسه ؛ وإلا فأيّ شيء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات، ولم يلزم ذلك والحمد لله في النَّسخ الذي هو أعظم، فكيف بالقراءة!

ولمّا رأى النبيّ ﷺ ما أصابه من ذلك الخاطر نبّهه بأن ضربه في صدره، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتنوّر باطنه، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة؛ ولما ظهر له قُبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبيّ ﷺ ـ حين سألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظَمُ أحدُنا أن يَتكلّم به ـ قال: «وقد وجدتموه»؟ قالوا: نعم، قال: «ذلك صريح الإيمان». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. وسيأتي الكلام عليه في سورة «الأعراف» إن شاء الله تعالى.

باب ذكرِ جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقِه ما سواها، وذِكرِ من حفظ القرآن من الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبيّ ﷺ

كان القرآن في مدّة النبيّ ﷺ متفرقاً في صدور الرجال، وقد كتب الناس منه في صُحُف وفي جَريدٍ وفي لِخافٍ وظُرَر وفي خَزَف وغير ذلك ـ قال الأصمعي: اللِّخاف: حجارة بيض رِقاق، واحدتها لَخفة. والظُّرَر: حجر له حدّ كحد السكين، والجمع ظِرار؛ مثل رُطَب ورِطاب، ورُبَع ورِباع، وظِرّان أيضاً مثل صُرَد وصِردان ـ فلما استَحرّ[1] القتلُ

(١) استحر، أي اشتد وكثر.

بالقـراء يوم اليمامـة في زمن الصديق رضي الله عنه ، وقُتل منهم في ذلـك اليوم فيمـا قيـل سبعمائة ، أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمـع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القرّاء، كأُبيّ وأبن مسعود وزيد؛ فندبا زيد بن ثابت إلى ذلك، فجمعه غير مرتب السُّوَر، بعد تعب شديد، رضي الله عنه. روى البخاريّ عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليّ أبو بكر مقتلَ أهلِ اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال إن القتل قد اُستَحَرّ يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهبَ كثير من القرآن إلاّ أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن ، قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال : هو والله خير ؛ فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري ، ورأيتُ الذي رأى عمـر . قال زيد: وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتّهمك، كنتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلّفني نقلَ جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ؛ قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؛ فقال أبو بكر : هو والله خير ؛ فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر؛ فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف[١] والعُسُب[٢] وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة «التوبة» آيتين مع خُزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره ﴿لَقَد جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخرها. فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفّاه الله ثم عند عمر حتى توفّاه الله ثم عند حفصة بنت عمر. وقال الليث حدثني عبد الرحمن بن غالب عن أبن شهاب وقال : مع أبي خزيمة الأنصاري . وقال أبو ثابت حدثنا إبراهيم وقال : مع خزيمـة أو أبي خزيمة ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

---

(١) الأكتاف: جمع كتف وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم.

(٢) العسب: جمع عسيب وهو جريد النخل إذا نزع منه خوصه.

وقال الترمذي في حديثه عنه: فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت ﴿لقد جاءكم رسول مِن أنفسِكم عَزِيز عليهِ ما عَنِتم حَرِيص عليكم بِالمؤمِنِين رءوف رحِيم. فإن تَوَلّوْا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليهِ توكلت وهو رب العرش العظيم﴾. قال: حديث حسن صحيح.

وفي البخاري عن زيد بن ثابت قال: لما نسخنا الصُّحف في المصاحف فَقَدْتُ آيَةً من سورة «الأحزاب» كنت أسمع رسولَ الله ﷺ يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري[١] ـ الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ـ ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾. وقال الترمذي عنه: فقدتُ آية من سورة «الأحزاب» كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ فألتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة، فألحقتها في سورتها.

قلت: فسقطت الآية الأولى من آخر «براءة» في الجمع الأوّل، على ما قاله البخاري والترمذي؛ وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة «الأحزاب». وحكى الطبري: أن آية «براءة» سقطت في الجمع الأخير، والأوّل أصح والله أعلم. فإن قيل: فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه؛ قيل له: إن عثمان رضي الله عنه لم يَقْصِد بما صنع جَمْعَ الناس على تأليف المصحف، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك؛ على ما يأتي. وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس أختلفوا في القراءات بسبب تفرق الصحابة في البلدان وأشتد الأمر في ذلك وعظم أختلافهم وتشبثهم؛ ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه. وذلك أنهم أجتمعوا في غَزْوة أرْمِينِيَة فقرأت كل طائفة بما رُوِي لها؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا؛ فأشفق حذيفة مما رأى منهم؛ فلما قدم حُذيفة المدينة ـ فيما ذكر البخاريّ والترمذيّ ـ دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته، فقال: أدرك هذه الأمة قبل أن تَهْلك! قال: فيماذا؟ قال: في كتاب الله، إني حضرت

(١) خزيمة ذو الشهادتين غير أبي خزيمة بالكنية (القسطلاني).

هذه الغزوة، وجَمَعتْ ناساً من العراق والشام والحجاز؛ فوصف له ما تقدّم وقال: إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما ٱختلف اليهود والنصارى.

قلت: وهذا أدل دليل على بطلان من قال: إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة، لأن الحق لا يختلف فيه، وقد روى سُوَيد بن غَفَلة عن عليّ بن أبي طالب أن عثمان قال: ما ترون في المصاحف؟ فإن الناس قد ٱختلفوا في القراءة حتى إن الرجل ليقول: قراءتي خير من قراءتك، وقراءتي أفضل من قراءتك. وهذا شبيه بالكفر؛ قلنا: ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين؟ قال: الرأي عندي أن يجتمع الناس على قراءة، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشد ٱختلافاً؛ قلنا: الرأي رأيك يا أمير المؤمنين؛ فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك؛ فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصي وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين: إذا ٱختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم؛ ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجِلّة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك؛ فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت في القراءات المشهورة عن النبيّ ﷺ واطّراح ما سواها، وٱستصوبوا رأيه وكان رأياً سديداً موفَّقاً؛ رحمة الله عليه وعليهم أجمعين. وقالَ الطبري فيما روي: أن عثمان قَرَن بزيد أَبَانَ بن سعيد بن العاصي وحده؛ وهذا ضعيف. وما ذكره البخاري والترمذيّ وغيرهما أصح. وقال الطبري أيضاً: إن الصحف التي كانت عند حفصة جُعلت إماماً في هذا الجمع الأخير؛ وهذا صحيح.

وقال ٱبن شهاب: وأخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف، وقال: يا معشر المسلمين، أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولاّه رجل،

والله لقد أسلمت وإنه لفي صُلب رجل كافر! يريد زيد بن ثابت. ولذلك قال عبد الله بن مسعود: يا أهل العراق، أكتموا المصاحف التي عندكم وغُلُّوها، فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فألقوا الله بالمصاحف، خرّجه الترمذي. وسيأتي الكلام في هذا في سورة «آل عمران»(١) إن شاء الله تعالى.

قال أبو بكر الأنباريّ: ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمان على عبد الله بن مسعود في جمع القرآن، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم في الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل، إلا لأن زيداً كان أحفظ للقرآن من عبد الله، إذ وَعاه كلّه ورسول الله ﷺ حيّ، والذي حفظ منه عبد الله في حياة رسول الله ﷺ نيّف وسبعون سورة، ثم تعلّم الباقي بعد وفاة الرسول ﷺ؛ فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله ﷺ حيّ أوْلى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار. ولا ينبغي أن يظنّ جاهل أن في هذا طعناً على عبد الله بن مسعود؛ لأن زيداً إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجباً لتقدمته عليه، لأنّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيراً منهما ولا مساوياً لهما في الفضائل والمناقب. قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشيء نَتَجه الغضب، ولا يُعمل به ولا يؤخذ به، ولا يُشك في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن أختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ، وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم. فالشائع الذائع المتعالَم عند أهل الرواية والنقل: أن عبد الله بن مسعود تعلم بقيّة القرآن بعد وفاة رسول الله ﷺ. وقد قال بعض الأئمة: مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن. قال يزيد بن هارون: المعوِّذتان بمنزلة البقرة وآل عمران، من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم؛ فقيل له: فقول عبد الله بن مسعود فيهما؟ فقال: لا خلاف بين المسلمين في أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله.

قلت: هذا فيه نظر، وسيأتي. وروى إسماعيل بن إسحاق وغيره قال حماد ـ أظنه عن أنس بن مالك، قال: كانوا يختلفون في الآية فيقولون أقرأها رسول الله ﷺ

(١) في آية: ١٦١ راجع ٤/٢٥٦.

فلان بن فلان؛ فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيُرسَل إليه فيُجاء به، فيقال: كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا؟ فيكتبون كما قال. قال ٱبن شهاب: وٱختلفوا يومئذ في التابوت، فقال زيد: التابوه. وقال ٱبن الزبير وسعيد بن العاصي: التابوت؛ فرُفع ٱختلافهم إلى عثمان فقال: ٱكتبوه بالتاء؛ فإنه نزل بلسان قريش. أخرجه البخاري والترمذي. قال ٱبن عطية: قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء، فأثبتوه بالتاء؛ وكتبت المصاحف على ما هو عليه غابر الدهر، ونسخ منها عثمان نسخاً. قال غيره: قيل سبعة، وقيل أربعة وهو الأكثر، ووجّه بها إلى الآفاق، فوجّه للعراق والشام ومصر بأمّهات، فٱتخذها قرّاء الأمصار معتمد ٱختياراتهم، ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذي بلغه، وما وجد بين هؤلاء القرّاء السبعة من الاختلاف في حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلاً منهم ٱعتمد على ما بلغه في مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع في بعض النسخ ولم يكتبها في بعض إشعاراً بأن كل ذلك صحيح، وأن القراءة بكل منها جائزة. قال ٱبن عطية: ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تُحرَق أو تُخرق، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن، ورواية الحاء غير منقوطة أحسن.

وذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الردّ عن سُوَيد بن غَفَلة قال: سمعت عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه يقول: يا معشر الناس، اتقوا الله! وإيّاكم والغُلُو في عثمان، وقولكم: حرّاق المصاحف؛ فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ﷺ. وعن عُمير بن سعيد قال قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان. قال أبو الحسن بن بطّال: وفي أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام، وطرحها في ضياع من الأرض. روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه: أنه كان يحرق الصحف إذا ٱجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم. وحرق عروة بن الزبير كتب فقه كانت عنده يوم الحَرّة، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف إذا كان فيها

ذكر الله تعالى؛ وقول من حرقها أولى بالصواب، وقد فعله عثمان. وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة: جائز للإمام تحريق الصحف التي فيها القرآن، إذا أدّاه الاجتهاد إلى ذلك.

فصل ـ قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وفي فعل عثمان رضي الله عنه ردٌّ على الحُلولية[1] والحَشْوِيّة القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الإيمان قديم، والروح قديم؛ وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كلّ ملحد وموحد أن القديم لا يُفْعَل ولا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير مُحْدَثاً، والمحدَث لا يصير قديماً، وأن القديم ما لا أوّل لوجوده، وأن المحدَث هو ما كان بعد أن لم يكن؛ وهذه الطائفة خرقت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم؛ فقالوا: يجوز أن يصير المحدث قديماً، وأن العبد إذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاماً لله قديماً، وكذلك إذا نحت حروفاً من الآجُرّ والخشب، أو صاغ أحرفاً من الذهب والفضة، أو نسج ثوباً فنقش عليه آيةً من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديماً، وصار كلامه منسوجاً قديماً ومنحوتاً قديماً ومصوغاً قديماً؛ فيقال لهم: ما تقولون في كلام الله تعالى، أيجوز أن يذاب ويمحى ويحرق؟ فإن قالوا: نعم، فارقوا الدّين، وإن قالوا: لا، قيل لهم: فما قولكم في حروف مصوّرة آية من كتاب الله تعالى من شمع، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت في النار فذابت وٱحترقت، فهل تقولون: إن كلام الله ٱحترق؟ فإن قالوا: نعم، تركوا قولهم؛ وإن قالوا: لا، قيل لهم أليس قلتم: إن هذه الكتابة كلام الله وقد ٱحترقت! وقلتم: إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت؛ فإن قالوا: ٱحترقت الحروف وكلامه تعالى باقٍ، رجعوا إلى الحق والصواب ودانوا بالجواب؛ وهو الذي قاله النبيّ ﷺ، منبّهاً على ما يقول أهل الحق. ولو كان القرآن في إهاب ثم وقع في النار ما ٱحترق. وقال الله عزّ وجلّ: «أنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان» الحديث، أخرجه مسلم. فثبت بهذا

---

(١) الحلولية: فرقة من المتصوّفة تقول: إن الله حالٌّ في كل شيء وفي كل جزء منه متحد به حتى جوّزوا أن يطلق على كل شيء أنه الله. والحشوية: طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا إلى التجسيم وغيره.

أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف. والكلام في هذه المسألة يطول، وتتميمها في كتب «الأصول»، وقد بيناها في (الكتاب «الأسنى»، في شرح أسماء الله الحسنى).

فصل - وقد طعن الرافضة - قبحهم الله تعالى - في القرآن، وقالوا: إن الواحد يكفي في نقل الآية والحرف كما فعلتم ، فإنكم أثبتم بقول رجل واحد وهو خزيمة بن ثابت وحده آخر سورة «براءة» وقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾. فالجواب أن خزيمة رضي الله عنه لما جاء بهما تذكّرهما كثير من الصحابة، وقد كان زيد يعرفهما، ولذلك قال: فقدت آيتين من آخر سورة «التوبة». ولو لم يعرفهما لم يدر هل فَقَدَ شيئاً أوْ لا ، فالآية إنما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده . جواب ثانٍ - إنما ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها في صفة النبيّ ﷺ، فهي قرينة تغني عن طلب شاهد آخر بخلاف آية «الأحزاب» فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وأبي خزيمة لسماعهما إياها من النبيّ ﷺ. قال معناه المهلب ، وذكر أن خزيمة غير أبي خزيمة ، وأن أبا خزيمة الذي وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار، وقد عرفه أنس وقال: نحن ورثناه، والتي في الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت فلا تعارض ؛ والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ابن عبد البر : « أبو خزيمة لا يوقف على صحة اسمه وهو مشهور بكنيته؛ وهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أصْرم بن ثعلبة بن غُنْم بن مالك بن النجار ، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد ، وتوفّي في خلافة عثمان بن عفان، وهو أخو مسعود بن أوس. قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر ﴿ التوبة ﴾ مع أبي خزيمة الأنصاري وهو هذا، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمة أبي خزيمة نسب إلا اجتماعهما في الأنصار ، أحدهما أوْسيّ والآخر خَزْرَجِيّ » . وفي مسلم والبخاري عن أنس بن مالك قال : جمع القرآنَ على عهد النبيّ ﷺ أربعةٌ كلهم من الأنصار: أُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قلت لأنس: مَن أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتي . وفي البخاريّ أيضاً عن أنس قال: مات النبيّ ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل،

وزيد، وأبو زيد؛ [قال][1]: ونحن ورثناه. وفي أخرى قال: مات أبو زيد ولم يترك عَقِباً، وكان بَدْرِيًّا، وأسم أبي زيد سعد بن عُبيد. قال أبن الطَّيب رضي الله عنه: لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه في حياة النبيّ ﷺ ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعليّ وتميم الداريّ وعُبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص. فقول أنس: لم يجمع القرآن غير أربعة، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً مِن في رسول الله ﷺ غير تلك الجماعة؛ فإن أكثرهم أخذ بعضَه عنه وبعضه عن غيره، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبيّ ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول ﷺ لهم.

قلت: لم يذكر القاضي، عبدَ الله بن مسعود وسالماً مولى أبي حُذيفة رضي الله عنهما فيما رأيت ، وهما ممن جمع القرآن . روى جرير عن عبد الله بن يزيد الصهباني عن كُميل قال قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر ومن شاء الله، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلي، فقال رسول الله ﷺ: «من هذا الذي يقرأ القرآن» . فقيل له : هذا عبد الله بن أُمّ عَبْد ؛ فقال : « إن عَبْد الله يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل » الحديث . قال بعض العلماء : معنى قوله : « غضًّا كما أنزل » أي إنه كان يقرأ الحرف الأوّل الذي أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التي رُخّص لرسول الله ﷺ في قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه في كل رمضان . وقد روى وكيع وجماعة معه عن الأعمش عن أبي ظبيان قال قال لي عبد الله بن عباس: أيّ القراءتين تقرأ؟ قلت: القراءة الأولى قراءة أبنِ أُمّ عَبْدٍ؛ فقال لي: بل هي الآخرة، إن رسول الله ﷺ كان يعرض القرآن على جبريل في كل عام مرّة، فلما كان العام الذي قبض فيه رسول الله ﷺ عرضه عليه مرتين، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نُسخ من

(١) زيادة عن البخاري. وقوله: ونحن ورثناه. أي أبا زيد.

ذلك وما بُدّل. وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة من ٱبن أمّ عبدٍ ـ فبدأ به ـ ومعاذ بن جبل وأُبَيّ بن كعب وسالم مَوْلى أبي حُذيفة».

قلت: هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن في حياة رسول الله ﷺ خلاف ما تقدّم، والله أعلم. وقد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب «الردّ»: حدّثنا محمد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا يحيى بن آدم عن أبي بكر عن أبي إسحاق قال قال عبد الله بن مسعود: قرأت مِن فِي رسول الله ﷺ ٱثنتين وسبعين سورة ـ أو ثلاثاً وسبعين سورة ـ وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[١]. قال أبو إسحاق: وتعلّم عبد الله بقيّة القرآن من مُجَمِّع بن جارية الأنصاري.

قلت: فإن صح هذا، صح الإجماع الذي ذكره يزيد بن هارون، فلذلك لم يذكره القاضي أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه في حياة النبي ﷺ، والله أعلم.

قال أبو بكر الأنباري: حدّثني إبراهيم بن موسى[٢] الخُوزي حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا مالك بن إسماعيل حدّثنا زهير عن أبي إسحاق قال: سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف؟ فقال: ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة؛ قال وقد قال بعض أهل العلم: مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوّذتين؛ فلهذه العلة لم توجدا في مصحفه، وقيل غير هذا على ما يأتي بيانه آخر الكتاب عند ذكر «المعوّذتينِ» إن شاء الله تعالى.

قال أبو بكر: والحديث الذي حدّثناه إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عمر بن هارون الخراساني عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال: كان ممن ختم القرآن ورسول الله ﷺ حيّ عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم، إنما هو مقصور على محمد بن كعب؛ فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعوّل عليه.

(١) آية: ٢٢٢ من السورة المذكورة.
(٢) كذا في الأصول. والذي في «التهذيب» وغيره: ٱبن يزيد.

قلت: قوله عليه السلام: «خذوا القرآن من أربعة من ابن أُمّ عَبْدٍ» يدل على صحته، ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشأم والعراق كلٌّ منهم عَزَا قراءته التي ٱختارها إلى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله ﷺ، لم يستثن من جملة القرآن شيئاً؛ فأسند عاصم قراءته إلى عليّ وٱبن مسعود، وأسند ٱبن كَثير قراءته إلى أُبيّ، وكذلك أبو عمرو بن العلاء أسند قراءته إلى أُبيّ، وأما عبد الله بن عامر فإنه أسند قراءته إلى عثمان، وهؤلاء كلهم يقولون: قرأنا على رسول الله ﷺ، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات. قاله الخَطّابي.

باب ما جاء في ترتيب سُوَر القرآن وآياته، وشكله ونقطه، وتحزيبه وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال ٱبن الطَّيب: إن قال قائل قد ٱختلف السلف في ترتيب سور القرآن، فمنهم من كتب في مصحفه السور على تاريخ نزولها، وقدّم المكيّ على المدنيّ، ومنهم من جعل في أوّل مصحفه الحمد، ومنهم من جعل في أوّله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وهذا أوّل مصحف عَليّ رضي الله عنه. وأما مصحف ٱبن مسعود فإن أوّله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ثم البقرة ثم النساء؛ على ترتيب مختلف. ومصحف أُبيّ كان أوّله: الحمد لله، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة؛ ثم كذلك على ٱختلاف شديد. قال القاضي أبو بكر بن الطيب: فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة. وذكر ذلك مكيّ رحمه الله في تفسير سورة «براءة» وذكر أن ترتيب الآيات في السوَر ووضع البسملة في الأوائل هو من النبيّ ﷺ، ولمّا لم يأمر بذلك في أوّل سورة «براءة» تُركت بلا بسملة؛ هذا أصح ما قيل في ذلك، وسيأتي[1].

وذكر ٱبن وهب في جامعه قال: سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل: لم قُدّمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال

(١) راجع ٨/ ٦١.

ربيعة : قد قُدّمتا وأُلّف القرآن على علم ممن ألّفه ، وقد ٱجتمعوا على العلم بذلك ، فهـذا مما ننتهي إليه، ولا نسأل عنه. وقد ذكر سُنيد قال حدّثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال قال ٱبن مسعود: من كان منكم متأسّياً فليتأسّ بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلُّفاً، وأقومها هَدْياً، وأحسنها حالاً ؛ ٱختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ وإقامة دينه، فٱعرفوا لهم فضلهم، وٱتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهُدَى المستقيم. وقال قوم من أهل العلم: إن تأليف سُوَر القرآن على ما هو عليه في مصحفنا كان عن توقيف من النبيّ ﷺ، وأما ما روي من ٱختلاف مصحف أُبيّ وعليّ وعبد الله فإنما كان قبل العرض الأخير ، وأن رسول الله ﷺ رتّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن ٱبن وهب قال سمعت مالكاً يقول : إنما أُلِّف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ. وذكر أبو بكر الأنباري في كتاب «الردّ»: أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ثم فُرّق على النبيّ ﷺ في عشرين سنة، وكانت السورة تنزل في أمر يحدث، والآية جواباً لمستخبر يسأل، ويوقف جبريلُ رسولَ الله ﷺ على موضع السورة والآية؛ فاتّساق السور كاتّساق الآيات والحروف، فكلّه عن محمد خاتم النبيين عليه السلام، عن ربّ العالمين؛ فمن أخر سورة مقدّمة أو قدّم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات، وغيّر الحروف والكلمات، ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الأنعام، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله ﷺ أخِذ عنه هذا الترتيب، وهو كان يقول: «ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن». وكان جبريل عليه السلام يقف على مكان الآيات.

حدّثنا حسن بن الحباب حدّثنا أبو هشام حدّثنا أبو بكر بن عيّاش عن أبي إسحاق عن البراء قال: آخر ما نزل من القرآن: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾[1] . قال أبو بكر بن عياش: وأخطأ أبو إسحاق، لأن محمد بن السائب حدّثنا عن أبي السائب عن ٱبن عباس قال: آخر ما نزل من القرآن: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُم

(١) آخر سورة «النساء».

لا يُظْلَمُونَ﴾. فقال جبريل للنبيّ عليهما السلام: يا محمد ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة.

قال أبو الحسن بن بَطال: ومن قال بهذا القول لا يقول إن تلاوة القرآن في الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقَّف عليه في المصحف، بل إنما يجب تأليف سوره في الرسم والخط خاصة، ولا يُعلم أن أحداً منهم قال: إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يتلقّن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف؛ ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها للذي سألها: لا يضرك أيّة قرأت قبلُ؛ وقد كان النبيّ ﷺ يقرأ في الصلاة السورة في ركعة، ثم يقرأ في ركعة أخرى بغير السورة التي تليها. وأما ما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوساً، وقالا: ذلك منكوس القلب؛ فإنما عَنِيَا بذلك من يقرأ السورة منكوسة، ويبتدىء من آخرها إلى أوّلها لأن ذلك حرام محظور؛ ومن الناس من يتعاطى هذا في القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك ويقدر على الحفظ، وهذا حظّره الله تعالى ومنعه في القرآن، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لما قصد بها.

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته في المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع في السورة المكية، ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها: وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده ـ تعني بالمدينة ـ وقد قدّمتا في المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة، ولو ألّفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السُّوَر.

قال أبو بكر الأنباري: حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي حدّثنا حجاج بن مِنهال حدّثنا همام عن قتادة قال: نزل بالمدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق،

ويأأيها النبيّ لم تُحَرّم إلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله. هؤلاء السُّوَر نزلن بالمدينة؛ وسائر القرآن نزل بمكة.

قال أبو بكر: فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السُّوَر على منازلها بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة، لاختلاف الناس في موضع نزولها، ويضطرّ إلى تأخير الآية التي في رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به، وردّ على محمد ﷺ ما حكاه عن ربه تعالى. وقد قيل إن علة تقديم المدنيّ على المكيّ هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها، وما تعرف من أفانين خطابها ومحاورتها؛ فلما كان فنٌّ من كلامهم مبنياً على تقديم المؤخر وتأخير المقدّم خوطبوا بهذا المعنى في كتاب الله تعالى الذي لو فقدوه من القرآن لقالوا: ما باله عَرِي من هذا الباب الموجود في كلامنا المستحْلَى من نظامنا. قال عَبيد بن الأبرص:

أن بُـدّلـتْ منهـمُ وحـوشـاً وغيّـرتْ حـالَهـا الخطـوبُ
عينـاكَ دَمْعُهمـا سَـرُوبُ كـأنّ شَـأْنَيْهمـا شَعيـب

أراد عيناك دمعهما سَروب لأن تبدّلت من أهلها وحوشاً، فقدّم المؤخر وأخر المقدّم؛ ومعنى سَروب: منصبّ على وجه الأرض. ومنه السارب، للذاهب على وجهه في الأرض؛ قال الشاعر[1]:

أنّى سَرَبتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ

وقوله: شأنيهما، الشأن واحد الشئون، وهي مَوَاصِلُ قبائل الرأس وملتقاها، ومنها يجيء الدمع. شعيب: متفرّق.

---

(١) هو قيس بن الخطيم. وتمام البيت:

وتقرب الأحلام غير قريب

وفي «اللسان» مادة «سرب»: «قال ابن بريّ: رواه ابن دريد «سَربت» بباء موحدة لقوله: وكنت غير سروب. ومن رواه «سريت» بالياء باثنتين فمعناه: كيف سريت ليلاً، وأنت لا تسربين نهاراً».

(فصل) - وأما شَكْل المصحف ونَقْطه فرُوِي أن عبد الملك بن مَرْوان أمر به وعمله، فتجرّد لذلك الحجاج بواسط وجدّ فيه وزاد تحزيبه، وأمر وهو والي العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك، وألّف إثر ذلك بواسط كتاباً في القراءات جمع فيه ما روي من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زماناً طويلاً، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه في القراءات.

وأسند الزَّبيدي في كتاب الطبقات إلى المبرد أن أوّل من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي؛ وذكر أيضاً أن ابن سِيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر.

(فصل) - وأما وضع الأعشار فقال ابن عطية: مرّ بي في بعض التواريخ أن المأمون العباسي أمر بذلك، وقيل: إن الحجاج فعل ذلك. وذكر أبو عمرو الدّانِي في كتاب البيان له عن عبد الله بن مسعود أنه كَرِه التّعشير في المصحف، وأنه كان يَحُكّه. وعن مجاهد أن كره التعشير والطِّيب في المصحف. وقال أشهب: سمعت مالكاً وسُئل عن العُشُور التي تكون في الصحف بالحمرة وغيرها من الألوان، فكره ذلك وقال: تعشير المصحف بالحبر لا بأس به؛ وسُئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السُّوَر في كل سورة ما فيها من آية، قال: إني أكره ذلك في أمهات المصاحف أن يُكتب فيها شيء أو يشكل، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأساً. قال أشهب: ثم أخرج إلينا مصحفاً لجَدّه، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة في طول السطر، ورأيته معجوم الآي بالحبر. وقال قتادة: بدءوا فنقطوا ثم خمّسوا ثم عشّروا. وقال يحيى بن أبي كثير: كان القرآن مجرّداً في المصاحف، فأوّل ما أحدثوا فيه النّقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، ثم أحدثوا نقطاً عند منتهى الآي، ثم أحدثوا الفواتح والخواتيم. وعن أبي حمزة قال: رأى إبراهيم النَّخَعِيّ في مصحفي فاتحة سورة كذا وكذا، فقال لي: أمحه فإن عبد الله بن مسعود قال: لا تخلطوا في كتاب الله ما ليس فيه. وعن أبي بكر السراج قال قلت لأبي رزين: أأكتب في مصحفي سورة كذا وكذا؟ قال: إني أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن.

قال الدّاني رضي الله عنه: وهذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآي من عمل الصحابة رضي الله عنهم، قادهم إلى عمله الاجتهاد؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمرة والصفرة وغيرهما؛ على أن المسلمين في سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك وٱستعماله في الأمهات وغيرها، والحرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله.

(فصل) ـ وأما عدد حروفه وأجزائه فروى سلام أبو محمد الحِماني أن الحجاج بن يوسف جمع القرّاء والحفاظ والكُتّاب، فقال: أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو؟. قال: وكنت فيهم، فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفاً. قال: فأخبروني إلى أيّ حرف ينتهي نصف القرآن؟ فإذا هو الكهف «وَلْيَتَلَطَّفْ» في الفاء. قال: فأخبروني بأثلاثه؛ فإذا الثلث الأوّل رأس مائة من براءة، والثلث الثاني رأس مائة أو إحدى ومائة من طسم الشعراء، والثلث الثالث ما بقي من القرآن. قال: فأخبروني بأسباعه على الحروف؛ فإذا أوّل سبع في النساء ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ﴾ في الدال، والسبع الثاني في الأعراف ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ﴾ في التاء، والسبع الثالث في الرعد ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ في الألف من آخر أكلها، والسبع الرابع في الحج ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً﴾ في الألف، والسبع الخامس في الأحزاب ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ﴾ في الهاء، والسبع السادس في الفتح ﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ في الواو، والسبع السابع ما بقي من القرآن.

قال سلام أبو محمد: عملناه في أربعة أشهر، وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربعاً، فأوّل ربعه خاتمة الأنعام. والربع الثاني في الكهف ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، والربع الثالث خاتمة الزُّمَر، والربع الرابع ما بقي من القرآن. وفي هذه الجملة خلاف مذكور في كتاب البيان لأبي عمرو الدّاني، من أراد الوقوف عليه وجده هناك.

(فصل) ـ وأما عدد آي القرآن في المدنيّ الأوّل، فقال محمد بن عيسى: جميع عدد آي القرآن في المدني الأوّل ستة آلاف آية. قال أبو عمرو: وهو العدد الذي رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة، ولم يسمّوا في ذلك أحداً بعينه يسندونه إليه.

وأما المدنيّ الأخير فهو في قول إسماعيل بن جعفر: ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية. وقال الفضل: عدد آي القرآن في قول المكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية. قال محمد بن عيسى: وجميع عدد آي القرآن في قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات، وهو العدد الذي رواه سليم[1] والكسائي عن حمزة، وأسنده الكسائي إلى عليّ رضي الله عنه. قال محمد: وجميع عدد آي القرآن في عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات، وهو العدد الذي مضى عليه سلفهم حتى الآن. وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الذِّمَاري: ستة آلاف ومائتان وست وعشرون. في رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون؛ نقص آية. قال ٱبن ذَكْوان: فظننت أن يحيى لم يعدّ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. قال أبو عمرو: فهذه الأعداد التي يتداولها الناس تأليفاً، ويعدّون بها في سائر الآفاق قديماً وحديثاً.

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان: جميع كلمات القرآن ـ في قول عطاء بن يسار ـ سبعة وسبعون ألفاً وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً.

قلت: هذا يخالف ما تقدّم عن الحماني قبل هذا. وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال: هذا ما أحصينا من القرآن، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفاً، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحماني من عدّ حروفه.

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة في «كلام العرب» الإبانة لها من سورة أخرى وٱنفصالها عنها، وسُمِّيت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة. قال النابغة:

ألـم تـر أنّ الله أعطـاكَ سُـورةً ... تـرى كـلّ مَلْـك دونهـا يَتَـذبـذَبُ

أي منزلة شرف ٱرتفعت إليها عن منزل الملوك. وقيل: سُمّيت بذلك لشرفها وٱرتفاعها كما يقال لما ٱرتفع من الأرض سور. وقيل: سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن

(١) في «الأصول»: «مسلم» والراوي عن حمزة هو سليم بن عيسى الكوفي وهو أخص أصحاب حمزة به. (طبقات القرّاء).

عنده كسُور البناء؛ كله بغير همز. وقيل: سُمّيت بذلك؛ لأنها قطعت من القرآن على حِدَة، من قول السرب للبقيّة: سُؤر، وجاء في أسآر الناس أي بقاياهم؛ فعلى هذا يكون الأصل سؤرة بالهمزة ثم خُفّفت فأبدلت واواً لانضمام ما قبلها. وقيل: سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة: سورة، وجمع سُورة سُوَر بفتح الواو. وقال الشاعر(١):

سُودُ المحاجرِ لا يَقرأنَ بالسُّوَر

ويجوز أن يجمع على سُورات وسُوَرات.

وأما الآية فهي العلامة، بمعنى أنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها من الذي بعدها وانفصاله، أي هي بائنة من أختها ومنفردة. وتقول العرب: بيني وبين فلان آية؛ أي علامة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾(٢). وقال النابغة:

توهّمتُ آياتٍ لها فعرفتُها ... لستة أعوام وذا العامُ سابعُ

وقيل: سُمّيت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه؛ كما يقال: خرج القوم بآياتهم أي بجماعتهم. قال بُرْج بن مُسْهر الطائي:

خَرجنا من النَّقْبَيْن لا حَيَّ مثلُنا ... بآياتنا نُزجي اللِّقاحَ المَطافلا

وقيل: سُميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها. واختلف النحويون في أصل آية؛ فقال سيبويه: أَيَيَة على فَعَلَة مثل أكمة وشجرة، فلما تحرّكت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفاً فصارت آية بهمزة بعدها مدّة. وقال الكسائي: أصلها آيِيَة على وزن فاعلة مثل آمنة فقلبت الياء ألفاً لتحرّكها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتباسها بالجمع. وقال الفرّاء: أصلها أيّية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفاً كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آي وآيات وآياء(٣). وأنشد أبو زيد:

لم يُبق هذا الدهر من آيائه ... غيرَ أثافيهِ وأرمِدائِه

(١) هو الراعي. وصدر البيت: هنّ الحرائر لا ربات أخمرة

(٢) سورة البقرة آية: ٢٤٨.

(٣) قال في «اللسان مادة» (أيا): أياء جمع الجمع نادر.

وأما الكلمة فهي الصورة القائمة بجميع ما يختلط بها من الشُّبهات[١] أي الحروف، وأطول الكلم في كتاب الله عزّ وجلّ ما بلغ عشرة أحرف، نحو قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾[٢]. و ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾[٣] وشبههما؛ فأما قوله: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾[٤] فهو عشرة أحرف[٥] في الرسم وأحد عشر في اللفظ. وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله، وما أشبه ذلك. ومن حروف المعاني ما هو على كلمة واحدة، مثل همزة الاستفهام وواو العطف، إلا أنه لا ينطق به مفرداً. وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾. ﴿وَالضُّحَى﴾. ﴿وَالْعَصْرِ﴾. وكذلك ﴿الٓمٓ﴾. و ﴿الٓمٓصٓ﴾. و ﴿طه﴾. و ﴿يسٓ﴾. و ﴿حمٓ﴾ في قول الكوفيين، وذلك في فواتح السور، فأما في حشوهن فلا. قال أبو عمرو الدّاني: ولا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله في الرّحمن: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾[٦] لا غير. وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان، وذلك في قوله: ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ على قول الكوفيين لا غير. وقد تكون الكلمة في غير هذا: الآية التامة، والكلام القائم بنفسه، وإن كان أكثر أو أقل، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[٧] قيل: إنما يعني بالكلمة هاهنا قوله تبارك وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾[٨] إلى آخر الآيتين، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[٩]. قال مجاهد: لا إله إلا الله. وقال النبيّ ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم». وقد تسمّي العرب القصيدة بأسرها، والقصة كلها، كلمة فيقولون: قال قُسٌّ في كلمته كذا، أي في خطبته؛ وقال زُهير في كلمته كذا، أي في قصيدته؛ وقال فلان في كلمته يعني في رسالته؛ فتسمي جملة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منها، على عادتهم في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قاربه وجاوره، وكان بسبب منه، مجازاً واتساعاً.

وأما الحرف فهو الشُّبهة القائمة وحدها من الكلمة، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفاً على ما بيناه من الاتساع والمجاز. قال أبو عمرو الداني: فإن قيل فكيف يسمّى ما جاء من

---

(١) لم نر هذا التعبير لغير المؤلف، وقد سبق التعبير به في ص ١٦ من هذا الجزء.

(٢) سورة النور آية: ٥٥. (٣) سورة هود آية: ٢٨. (٤) سورة الحجر آية: ٢٢.

(٥) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى في الرسم فقط. (٦) سورة الرحمن آية: ٦٤.

(٧) سورة الأعراف آية: ١٣٧. (٨) سورة القصص آية: ٥. (٩) سورة الفتح آية: ٢٦.

حروف الهجاء في الفواتح على حرف واحد نحو «ص» و «ق» و «ن» حرفاً أو كلمة؟ قلت: كلمة لا حرفاً، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليه، ولا ينفرد وحده في الصورة ولا ينفصل مما يختلط به؛ وهذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصلة كانفراد الكلم وانفصالها، فلذلك سُمّيت كلمات لا حروفاً. قال أبو عمرو: وقد يكون الحرف في غير هذا: المذهبَ والوجهَ، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أي على وجه ومذهب، ومن ذلك قول النبيّ ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي سبعة أوجه من اللغات، والله أعلم.

باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلاماً لمن لسانه غير لسان العرب؛ كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط.

واختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب؛ فذهب القاضي أبو بكر بن الطيب والطبريّ وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه، وأن القرآن عربيّ صريح، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تُخرج القرآن عن كونه عربيًّا مبيناً، ولا رسولَ الله عن كونه متكلماً بلسان قومه. فالمشكاة: الكُوّة. ونشأ: قام من الليل؛ ومنه ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ و ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي ضعفين. و ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أي الأسد؛ كله بلسان الحبشة. والغَساق: البارد المُنْتن بلسان الترك. والقسطاس: الميزان؛ بلغة الروم. والسِّجيل: الحجارة والطين بلسان الفرس. والطُّور الجبل. واليَمّ: البحر بالسريانية. والتَّنُّور: وجه الأرض بالعجمية.

قال ابن عطية: «فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعرّبتها فهي عربية بهذا الوجه». وقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتي قريش، وكسفر مُسافر بن أبي عمرو إلى الشام،

وكسفر عمر بن الخطاب وكسفر عمرو بن العاصي وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، وكسفر الأعشى إلى الحِيرَة، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة؛ فعَلِقت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية غيّرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العُجْمة، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربيّ الصحيح، ووقع بها البيان؛ وعلى هذا الحدّ نزل بها القرآن. فإن جهلها عربيٌّ مّا فكجهله الصريح بما في لغة غيره، كما لم يَعرف آبن عباس معنى «فاطر» إلى غير ذلك. قال آبن عطية: «وما ذهب إليه الطبري رحمه آلله من أن اللغتين آتفقتا في لفظة لفظةٍ فذلك بعيد؛ بل إحداهما أصل والأخرى فرع في الأكثر[1]؛ لأنا لا ندفع أيضاً جواز الاتفاق قليلاً شاذاً».

قال غيره: والأوّل أصحّ. وقوله: هي أصل في كلام غيرهم دَخِيلة في كلامهم، ليس بأولى من العكس. فإن العرب لا يخلوا أن تكون تخاطبت بها أو لا، فإن كان الأوّل فهي من كلامهم، إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة.

فإن قيل: ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه. قلنا: ومن سلّم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها؛ فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب وردّ هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها آستحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون، وحينئذ لا يكون القرآن عربياً مبيناً، ولا يكون الرسول مخاطباً لقومه بلسانهم، والله أعلم.

باب ذكر نكت في إعجاز القرآن، وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم، وسُمّيت معجزة لأنّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، وشرائطها خمسة، فإن آختل منها شرط لا تكون معجزة.

(١) في «الأصول»: «والأخرى فرع، لا أنا ندفع... الخ». والزيادة والتصويب عن آبن عطية.

فالشرط الأوّل من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه . وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آتٍ في زمان يصح فيه مجيء الرسل وأدّعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرّك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذي أدّعاه معجزة له ، ولا دالاً على صدقه لقدرة الخلق على مثله ، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفَلْق البحر ، وأنشقاق القمر ، وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر.

والشرط الثاني هو أن تخرق العادة. وإنما وجب أشتراط ذلك لأنه لو قال المدّعي للرسالة: آيتي مجيء الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها؛ لم يكن فيما أدّعاه معجزة، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تفعل من أجله، وقد كانت قبل دعواه على ما هي عليه في حين دعواه، ودعواه في دلالتها على نبوّته كدعوى غيره؛ فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه، والذي يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول: الدليل على صدقي أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواي عليه الرسالة، فيقلب هذه العصا ثعباناً، ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة، أو ينبع الماء من بين أصابعي كما ينبعه من العين، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التي ينفرد بها جبار الأرض والسموات؛ فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه، لو أسمعنا كلامه العزيز وقال: صدق، أنا بعثته. ومثال هذه المسألة ـ ولله ولرسوله المثل الأعلى ـ ما لو كانت جماعة بحضرة ملك من ملوك الأرض، وقال أحد رجاله وهو بمرأى منه والملك يسمعه: الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا، ودليل ذلك أن الملك يصدّقني بفعل من أفعاله، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصداً بذلك تصديقي ؛ فإذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ، ثم عمل ما أستشهد به على صدقه ، قام ذلك مقام قوله لو قال : صدق فيما أدّعاه عليّ . فكذلك إذا عمل الله عملاً لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يد الرسول، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه وقال: صدق عبدي في دعوى الرسالة، وأنا أرسلته إليكم فاسمعوا له وأطيعوا.

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدّعي الرسالة على الله عزّ وجلّ؛ فيقول: آيتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتاً أو يحرّك الأرض عند قولي لها: تزلزلي؛ فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدَّى به.

الشرط الرابع هو أن تقع على وَفْق دعوى المتحدِّي بها المستشهد بكونها معجزة له، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدّعي للرسالة: آية نبوّتي ودليل حجتي أن تنطق يدي أو هذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت: كذب وليس هو نبيّ، فإن هذا الكلام الذي خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدّعي للرسالة، لأن ما فعله الله لم يقع على وَفْق دعواه. وكذلك ما يروى أن مُسَيْلِمة الكذاب لعنه الله تفل في بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من الماء، فما فعل الله سبحانه من هذا، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبىء الكذاب.

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتي أحد بمثل ما أتـى به المتحدّي على وجه المعارضة، فإن تم الأمر المتحدّى به المستشهد به على النبوّة على هذا الشرط مع الشروط المتقدّمة، فهي معجزة دالة على نبوّة من ظهرت على يده، فإن أقام الله تعالى من يعارضه حتى يأتي بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيًّا، وخرج عن كونه معجزاً ولم يدلَّ على صدقه، ولهذا قال المولى سبحانه: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾. كأنه يقول: إن ادّعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد ﷺ وعمله فاعملوا عشر سُوَر من جنس نظمه، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله.

لا يقال: إن المعجزات المقيّدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدي الصادقين، وهذا المسيخ الدّجال فيما رويتم عن نبيّكم ﷺ يظهر على يديه من الآيات العظام، والأمور الجسام، ما هو معروف مشهور؛ فإنا نقول: ذلك يدّعي الرسالة، وهذا يدّعي الربوبيّة وبينهما من الفرقان ما بين البصراء والعميان، وقد قام الدليل العقلي على أن بعثة بعض الخلق

إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والمِلّة.

ودلت الأدلة العقلية أيضاً على أن المسيخ الدّجال فيه التصوير والتغيير من حال إلى حال ، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدَثات ، تعالى ربّ البريّات عن أن يشبه شيئاً أو يشبهه شيء ، ليس كمثله شيء هو السميع البصير.

فصل - إذا ثبت هذا فأعلم أن المعجزات على ضربين: **الأوّل** - ما أشتهر نقله وأنقرض عصره بموت النبيّ ﷺ. **والثاني** - ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله، وأستفاضت بثبوته ووجوده، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة؛ ومن شرطه أن يكون الناقلون له خَلْقاً كثيراً وجَمًّا غفيراً، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علماً ضرورياً، وأن يستوي في النقل أوّلهم وآخرهم ووسطهم في كثرة العدد، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب؛ وهذه صفة نقل القرآن، ونقل وجود النبيّ عليه الصلاة والسلام، لأن الأمة رضي الله عنها لم تزل تنقل القرآن خَلَفاً عن سَلَف والسّلفُ عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبيّ عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة، وصدقه بالأدلة المعجزات؛ والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عزّ وجلّ، فنقَلَ القرآن في الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان، ونقله إلينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه، لكثرة العدد، ولذلك وقع لنا العلم الضروريّ بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد ﷺ، ومن ظهور القرآن على يديه وتحدّيه به. ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل إليه من وجود البلدان؛ كالبصرة والشام والعراق وخُراسان والمدينة ومكة، وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة؛ فالقرآن معجزة نبيّنا ﷺ الباقية بعده إلى يوم القيامة، ومُعجزة كلّ نبيّ أنقرضت بأنقراضه، أو دخلها التبديل والتغيير، كالتوراة والإنجيل.

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة:

منها: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها؛ لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء، وكذلك قال رب العزة الذي تَوَلَّى نظمه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾. وفي «صحيح مسلم» أن أُنيساً أخا أبي ذَرّ قال لأبي ذَرّ: لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله؛ قلت: فما يقول الناس؟ قال يقولون: شاعر، كاهن، ساحر؛ وكان أُنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أَقْراء[1] الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون. وكذلك أَقَرّ عُتْبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لمّا قرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ﴾ فُصِّلت، على ما يأتي بيانه هنالك[2]؛ فإذا اعترف عُتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القرآن قَطّ كان في هذا القول مُقِرّاً بإعجاز القرآن له ولضُرَبائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه.

ومنها: الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

ومنها: الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، وتأمّل ذلك في سورة ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[3] إلى آخرها، وقوله سبحانه: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[4] إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[5] إلى آخر السورة. قال ابن الحصار: فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره؛ ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[6]، ولا أن يقول: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾[7].

قال ابن الحصار: وهذه الثلاثة من النَّظم، والأسلوب، والجزالة، لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية؛ وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدّي والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن

---

(١) أقراء الشعر: أنواعه وطرقه وبحوره وأنحاؤه. (٢) راجع ١٥/ ٣٣٧.
(٣) راجع ١٧/ ١. (٤) راجع ١٥/ ٢٧٧. (٥) راجع ٩/ ٣٧٦.
(٦) راجع ١٥/ ٣٠٠. (٧) راجع ٩/ ٢٩٦.

ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة؛ فهذه سورة «الكوثر» ثلاث آيات قصار، وهي أقصر سورة في القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن مُغيّبَيْن: أحدهما ـ الإخبار عن الكَوْثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أن المصدّقين به أكثر من أتباع سائر الرسل. والثاني ـ الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد، على ما يقتضيه قوله الحق: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً. وَبَنِينَ شُهُوداً. وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾(١) ثم أهلك اللهُ ـ سبحانه ـ ماله وولده؛ وانقطع نسله.

ومنها: التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي؛ حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه.

ومنها: الإخبار عن الأمور التي تقدّمت في أوّل الدنيا إلى وقت نزوله من أمِّيّ ما كان يَتْلُو من قبله من كتاب، ولا يَخُطّه بيمينه؛ فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية في دهرها؛ وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه، وتحدّوه به من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليهما السلام، وحال ذي القرنين؛ فجاءهم ـ وهو أميّ من أمة أُمِّية، ليس لها بذلك علم ـ بما عرفوا من الكتب السالفة صحته؛ فتحققوا صدقه.

قال القاضي ابن الطيب: ـ ونحن نعلم ضرورة ـ أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلّم؛ وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا متردّداً إلى المتعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه؛ عُلِم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوَحْي.

ومنها: الوفاء بالوعد، المدرك بالحس في العِيان، في كل ما وعد الله سبحانه؛ وينقسم: إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه. وإلى وعد مقيّد بشرط، كقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(٢) ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾(٣) ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾(٤) و ﴿إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾(٥)، وشبه ذلك.

ومنها: الإخبار عن المغيّبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي؛ فمن ذلك:

---

(١) راجع ١٩/ ٧٠. (٢) راجع ١٨/ ١٦١. (٣) راجع ١٨/ ١٣٩.
(٤) ١٨/ ١٥٧. (٥) راجع ٨/ ٤٤.

ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾(١) الآية. ففعل ذلك. وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزى جيوشَه عرَّفهم ما وعدهم الله في إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنُّجح، وكان عمر يفعل ذلك؛ فلم يزل الفتح يتوالى شرقاً وغرباً، براً وبحراً، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾(٢) وقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾(٣). وقال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾(٤) وقال: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾(٥). فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لا يقف عليها إلا رَبُّ العالمين، أو مَن أوقفه عليها رب العالمين، فدلّ على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صِدقه.

ومنها: ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام، في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام.

ومنها: الحِكَم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدميّ.

ومنها: التناسب في جميع ما تضمّنه ظاهراً وباطناً من غير ٱختلاف، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً﴾(٦).

قلت: فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم، ووجه حادي عشر قاله النَّظّام وبعض القَدرية: أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته، والصَّرْفَةُ عند التحدّي بمثله. وأن المنع والصَّرْفة هو المعجزة دون ذات القرآن، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله. وهذا فاسد، لأن إجماع الأمة قبل حدوثِ المخالف أن القرآن هو المعجز؛ فلو قلنا إن المنع والصَّرْفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزاً، وذلك خلاف الإجماع، وإذا كان كذلك عُلِم أن نفس القرآن هو المُعْجِز، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة، إذ لم يوجد قطّ كلامٌ على هذا الوجه، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفاً معتاداً منهم، دلّ على أن المنع والصّرفة لم يكن معجزاً. وٱختلف من قال بهذه الصّرْفة

---

(١) راجع ٨/ ١٢١. (٢) راجع ١٢/ ٢٩٧. (٣) راجع ١٦/ ٢٨٩.
(٤) راجع ٧/ ٣٦٩. (٥) راجع ١٤/ ١. (٦) راجع ٥/ ٢٩٠.

على قولين: أحدهما - أنهم صُرِفوا عن القدرة عليه؛ ولو تعرّضوا له لعجزوا عنه. الثاني - أنهم صرِفوا عن التعرّض له مع كونه في مقدورهم؛ ولو تعرّضوا له لجاز أن يقدِروا عليه.

قال ٱبن عطية: «وجه التحدّي في القرآن إنما هو بنظمه وصحةِ معانيه، وتوالي فصاحةِ ألفاظه. ووجه إعجازه: أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علْماً، وأحاط بالكلام كله علماً، فعلم بإحاطته أيّ لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبيّن المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أوّل القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلومٌ ضرورةً أنّ بَشَراً لم يكن محيطاً قطّ؛ فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة. وبهذا النظر يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، فلما جاء محمد ﷺ صُرِفوا عن ذلك، وعجزوا عنه. والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قَطّ في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولاً كاملاً، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامّة فيبدّل فيها وينقّح، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل، وكتاب الله تعالى لو نُزِعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب أن يوجِد أحسن منها لم يوجد».

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلّ ذكره، ذكر في آية واحدة أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[1] الآية. وكذلك فاتحة سورة المائدة: أمر بالوفاء ونهي عن النكث، وحلل تحليلاً عاماً، ثم ٱستثنى ٱستثناء بعد ٱستثناء، ثم أخبر عن حِكمته وقدرته، وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وأنبأ سبحانه عن الموت، وحسرةِ الفوت، والدارِ الآخرة وثوابِها وعقابِها، وفوز الفائزين، وتردّي المجرمين، والتحذير من الاغترار بالدنيا، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2] الآية. وأنبأ أيضاً عن قصص الأوّلين والآخرين ومآل المترفين، وعواقب المهلكين، في شطر آية وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ

(١) سورة القصص آية: ٧. (٢) سورة آل عمران آية: ١٨٥.

مَنْ أَغْرَقْنَا﴾[١]. وأنبأ جَلّ وعزّ عن أمر السفينة وإجرائها وإهلاك الكفرة، وأستقرار السفينة وأستوائها، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظالِمِينَ﴾ إلى غير ذلك.

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله وقالت: إنّ النبيّ ﷺ تَقَوّله؛ أنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[٢]. ثم أنزل تعجيزاً أبلغ من ذلك فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[٣]. فلما عجزوا حطّهم عن هذا المقدار، إلى مثل سورة من السُّوَر القِصار؛ فقال جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[٤]. فأُفحموا عن الجواب، وتقطّعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد، وآثروا سَبْيَ الحريم والأولاد؛ ولو قدروا على المعارضة لكان أهْوَنَ كثيراً، وأبلغَ في الحجة وأشدّ تأثيراً. هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن[٥]، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن[٦].

فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان؛ بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة إلى حيّز الإرباء والزيادة. هذا رسول الله ﷺ مع ما أُوتي من جوامع الكلم، وأختص به من غرائب الحِكم؛ إذا تأمّلتَ قولَه ﷺ في صفة الجِنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وجدته منحطّاً عن رتبة القرآن؛ وذلك في قوله عليه السلام: «فيها ما لا عَيْنٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَر على قلب بَشَر» فأين ذلك من قوله عزّ وجلّ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾. وقوله: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. هذا أعدل وزناً، وأحسن تركيباً، وأعذب لفظاً، وأقل حروفاً؛ على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة أو أطول آية، لأن الكلام كلما طال أتسع فيه مجال المتصرف، وضاق المقال على القاصر المتكلف؛ وبهذا قامت الحجة على العرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة؛ كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء، ومعجزة موسى

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٤٠. (٢) سورة الطور آية: ٣٣، ٣٤.

(٣) سورة هود آية: ١٣. (٤) سورة البقرة آية: ٢٣.

(٥) اللحن (بالتحريك): الفطنة واللغة. (٦) اللسن (بالتحريك): الفصاحة.

عليه السلام على السحرة؛ فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمان النبيّ الذي أراد إظهاره؛ فكان السحر في زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته؛ وكذلك الطّب في زمن عيسى عليه السلام، والفصاحة في زمن محمد ﷺ.

باب التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سوَر القرآن وغيره

لا ٱلتفات لما وضعه الواضعون، وٱختلقه المختلقون، من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة، في فضل سُوَر القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال؛ قد ٱرتكبها جماعة كثيرة، ٱختلفت أغراضهم ومقاصدهم في ٱرتكابها؛ فمن قوم من الزنادقة مثل: المغيرة بن سعيد الكوفي، ومحمد بن سعيد الشامي المصلوب في الزندقة، وغيرهما، وضعوا أحاديث وحدّثوا بها ليُوقِعوا بذلك الشك في قلوب الناس؛ فمما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك في قوله ﷺ: «أنا خاتم الأنبياء لا نبيَّ بعدي إلا ما شاء الله»، فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة.

قلت: وقد ذكره ٱبن عبد البر في كتاب «التمهيد» ولم يتكلم عليه؛ بل تأوّل الاستثناء على الرؤيا؛ فالله أعلم.

ومنهم قوم وضعوا الحديث لِهَوًى يدعون الناس إليه؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: إن هذه الأحاديث دِين، فٱنظروا ممن تأخذون دينكم، فإنا كنا إذا هَوِينا أمْراً صَيّرناه حديثاً.

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حِسْبَةً كما زعموا، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال، كما رُوي عن أبي عِصمة نوح بن أبي مريم المَرْوَزِيّ، ومحمد بن عكاشة الكِرماني، وأحمد بن عبد الله الجُوَيبارِي، وغيرهم. قيل لأبي عصمة: من أين لك عن عِكرمة عن ٱبن عباس في فضل سُوَر القرآن سورة سورة؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن وٱشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومَغَازي محمد بن إسحاق؛ فوضعت هذا الحديث حسبة. قال أبو عمرو عثمان بن

الصلاح في كتاب «علوم الحديث» له: وهكذا الحديث الطويل الذي يروى عن أُبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ في فضل القرآن سورة سورة؛ وقد بحث باحث عن مخرجه حتى أنتهى إلى من أعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإنّ أثر الوضع عليه لبيّن. وقد أخطأ الواحديّ المفسّر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم.

ومنهم قوم من السؤّال والمُكْدِين يقفون في الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله ﷺ أحاديث بأسانيد صحاح قد حفِظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد؛ قال جعفر بن محمد الطيالسي: صلّى أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعِين، في مسجد الرُّصَافة ، فقام بين أيديهما قاصٌ فقال : حدّثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعين قالا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا مَعْمر عن قَتادة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله يُخلق من كل كلمةٍ منها طائر منقاره من ذهب وريشه مرجان». وأخذ في قصة نحوٍ من عشرين ورقة؛ فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد؛ فقال: أنت حدّثته بهذا؟ فقال: والله ما سمعت به إلا هذه الساعة؛ قال: فسكتا جميعاً حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى: من حدّثك بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ؛ فقال أنا أبن معين ، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ﷺ ، فإن كان ولا بدّ من الكذب فعلى غيرنا ، فقال له : أنت يحيى بن معين ؟ قال : نعم ، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق ، وما علمته إلا هذه الساعة؛ فقال له يحيى: وكيف علمت أني أحمق؟ قال: كأنه ليس في الدنيا يحيى بن مَعين وأحمد بن حنبل غيركما ، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا . قال: فوضع أحمد كُمّه على وجهه وقال : دعه يقوم ؛ فقام كالمستهزىء بهما . فهؤلاء الطوائف كَذَبة على رسول الله ﷺ . ومن يجري مجراهم . يُذكر أن الرشيد كان يعجبه الحمَام واللّهو به؛ فأُهْدي إليه حمام وعنده أبو البَخْتَرِيّ[1]

(١) أبو البختري: هو وهب بن وهب بن وهب بن كثير. انتقل من المدينة إلى بغداد في خلافة هارون الرشيد فولاه القضاء بعسكر المهدي (المحلة المعروفة بالرصافة بالجانب الشرقي من بغداد) ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول ﷺ بعد بكار الزبيري وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها إلى أن توفي سنة مائتين.

القاضي فقال: روى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا سَبَق إلا في خُفٍّ أو حافر أو جَناح» فزاد: أو جناح، وهي لفظة وضعها للرشيد، فأعطاه جائزة سَنِيّة؛ فلما خرج قال الرشيد: والله لقد علمت أنه كذاب، وأمر بالحمَام أن يذبح؛ فقيل له: وما ذنب الحمام؟ قال: من أجله كُذب على رسول الله ﷺ؛ فترك العلماء حديثه لذلك، ولغيره من موضوعاته، فلا يكتب العلماء حديثه بحال.

قلت: فلو ٱقتصر الناس على ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التي تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم في ذلك غُنْية، وخرجوا عن تحذيره ﷺ حيث قال: «ٱتقوا الحديث عنّي إلا ما علمتم فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار» الحديث. فتخويفه ﷺ أمته بالنار على الكذب، دليل على أنه كان يعلم أنه سيُكذب عليه. فحذارِ مما وضعه أعداء الدين، وزنادقة المسلمين، في باب الترغيب والترهيب وغير ذلك؛ وأعظمهم ضرراً أقوام من المنسوبين إلى الزهد، وضعوا الحديث حِسبة فيما زعموا، فتقبل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركوناً إليهم، فضلّوا وأضلّوا.

باب ما جاء من الحجة في الرّد على من طعن في القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة ولا بين الأئمة أهل السُّنّة، أن القرآن ٱسم لكلام الله تعالى الذي جاء به محمد ﷺ معجزةً له ـ على نحو ما تقدّم ـ وأنه محفوظ في الصدور، مقروءٌ بالألسنة، مكتوبٌ في المصاحف؛ معلومةٌ على الاضطرار سُوَرُه وآياته، مُبَرّأةٌ من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته؛ فلا يحتاج في تعريفه بحدّ، ولا في حصره بعدّ، فمن ٱدّعى زيادة عليه أو نقصاناً منه، فقد أبطل الإجماع، وبهَت الناس، وردّ ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن المنزل عليه، وردّ قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا﴾[1]، وأبطل آية رسوله

(١) راجع ٣٢٦/١٠.

عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدوراً عليه، حين شِيب بالباطل، ولمّا قدر عليه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزاً.

فالقائل بأن القرآن فيه زيادة ونقصان رادٌّ لكتاب الله ولمَا جاء به الرسول، وكان كمن قال: الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوُّجُ تسع من النساء حلال، وفرض الله أياماً مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يثبت في الدين، فإذا ردّ هذا بالإجماع، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب.

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري. ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلوّ منزلته، ما يوجبه الحق والإنصاف والديانة، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين، حتى نبع في زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التي لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أُسّها، وينمي فرعها، ويحرسها من معايب أُولِي الجَنَف والجَوْر، ومكايد أهل العداوة والكفر.

فزعم أن المصحف الذي جمعه عثمان رضي الله عنه ـ باتفاق أصحاب رسول الله ﷺ على تصويبه فيما فعل ـ لا يشتمل على جميع القرآن، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف، قد قرأت ببعضها وسأقرأ ببقيتها، فمنها: «والعصر ونوائب الدهر» فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين «ونوائب الدهر». ومنها: «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها». فادّعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن: «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها»، وذكر مما يدعي حروفاً كثيرة.

وادّعى أن عثمان والصحابة رضي الله عنهم زادوا في القرآن ما ليس فيه، فقرأ في صلاة الفرض والناس يسمعون: «الله الواحد الصمد» فأسقط من القرآن «قل هو» وغيّر لفظ

«أحد» وادّعى أن هذا هو الصواب والذي عليه الناس هو الباطل والمحال، وقرأ في صلاة الفرض: «قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون» وطعن في قراءة المسلمين.

وادّعى أن المصحف الذي في أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيّرة، منها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]؛ فادّعى أن الحكمة والعزة لا يشاكلان المغفرة، وأن الصواب: «وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم». وترامى به الغيّ في هذا وأشكاله حتى ادّعى أن المسلمين يصحّفون: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾ والصواب الذي لم يغيّر عنده: «وكان عبداً لله وجيهاً»، وحتى قرأ في صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه: «لا تحرّك به لسانك إن علينا جمعه وقراءته فإذا قرأناه فاتّبع قراءته ثم إن علينا نبأ به». وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ: «ولقد نصركم الله ببدر بسيف عليّ وأنتم أذلة». وروى هؤلاء أيضاً لنا عنه قال: «هذا صراط عليّ مستقيم». وأخبرونا أنه أدخل في آية من القرآن ما لا يضاهي فصاحة رسول الله ﷺ، ولا يدخل في لسان قومه الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ فقرأ: «أليس قلت للناس» في موضع: «أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ» وهذا لا يعرف في نحو المعربين، ولا يحمل على مذاهب النحويين؛ لأن العرب لم تقل: ليس قمت، فأما: لست قمت، بالتاء فشاذّ قبيح خبيث رديء؛ لأن ليس لا تجحد الفعل الماضي، ولم يوجد مثل هذا إلا في قولهم: أليس قد خلق الله مثلهم؛ وهو لغة شاذة لا يُحمل كتاب الله عليها.

وادّعى أن عثمان رضي الله عنه لما أسند جمع القرآن إلى زيد بن ثابت لم يُصب؛ لأن عبد الله بن مسعود وأُبيّ بن كعب كانا أوْلى بذلك من زيد لقول النبيّ ﷺ: «أقرأ أمّتي أُبيّ بن كعب» ولقوله عليه السلام: «مَن سَرّه أن يقرأ القرآن غضّاً كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أمّ عَبْد». وقال هذا القائل: لي أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ: «إنّ[2] هذيْن»، «فأصدق وأكون»، «وبشر عباديَ الذين» بفتح الياء، «فما أتانيَ الله» بفتح الياء. والذي في المصحف: ﴿إِنَّ هَذَانِ[2]﴾ بالألف،

(١) سورة المائدة آية: ١١٨. (٢) بتشديد النون، قراءة نافع.

﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ﴾ بغير واو، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، ﴿فَمَا آتَانِ اللهُ﴾ بغير ياءين في الموضعين. وكما خالف أبن كَثير ونافع وحمزة والكسائي مصحف عثمان فقرءوا: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بإثبات نونين، يفتح الثانية بعضهم ويسكنها بعضهم، وفي المصحف نون[1] واحدة؛ وكما خالف حمزة المصحف فقرأ: «أَتُمِدُّونِ بمال» بنون واحدة ووقف على الياء، وفي المصحف نونان ولا ياء بعدهما؛ وكما خالف حمزة أيضاً المصحف فقرأ: «ألا إنّ ثمودَا كفروا ربّهم» بغير تنوين، وإثبات الألف يوجب التنوين؛ وكل هذا الذي شنّع به على القرّاء ما يلزمهم به خلافٌ للمصحف.

قلت: قد أشرنا إلى العدّ فيما تقدّم مما أختلفت فيه المصاحف، وسيأتي بيان هذه المواضع في مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

قال أبو بكر: وذكر هذا الإنسان أن أُبيّ بن كعب هو الذي قرأ «كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها» وذلك باطل؛ لأن عبد الله بن كَثير قرأ على مجاهد، ومجاهد قرأ على أبن عباس، وأبن عباس قرأ القرآن على أُبيّ بن كعب ﴿حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾، في رواية وقرأ أُبيّ القرآن على رسول الله ﷺ؛ وهذا الإسناد متّصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العدالة والصّيانة، وإذا صحّ عن رسول الله ﷺ أمرٌ لم يؤخذ بحديث يخالفه. وقال يحيى بن المبارك اليزيدي: قرأت القرآن على أبي عمرو بن العلاء، وقرأ أبو عمرو على مجاهد، وقرأ مجاهد على أبن عباس، وقرأ أبن عباس على أُبيّ بن كعب، وقرأ أُبيّ على النبيّ ﷺ، وليس فيها «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها» فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيّه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم.

حدّثني أبيٌّ نبأنا نصر بن داود الصاغاني نبأنا أبو عبيد قال: ما يُروَى من الحروف التي تخالف المصحف الذي عليه الإجماع من الحروف التي يعرف أسانيدَها الخاصةُ دون العامة فيما نقلوا فيه عن أُبيّ: «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها»؛ وعن أبن عباس «ليس

---

(١) يلاحظ أن الذي في المصحف نونان.

عليكم جُناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج». ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ: «غير المغضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها تحلّ، ولا على أنها معارَض بها مصحف عثمان؛ لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافراً؛ والقرآن الذي جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافراً، حكمه حكم المرتد يُستتاب؛ فإن تاب وإلا ضُربت عنقه. وقال أبو عبيد: لم يزل صَنيع عثمان رضي الله عنه في جمعه القرآن يُعتدّ له بأنه من مناقبه العظام؛ وقد طعن عليه فيه بعض أهل الزَّيْغ فٱنكشف عواره، ووضحت فضائحه. قال أبو عبيد: وقد حدّثت عن يزيد بن زُرَيغ عن عمران بن جرير عن أبي مِجْلَز قال: طعن قوم على عثمان رحمه الله ـ بحُمْقِهم ـ جَمْعَ القرآن، ثم قرءوا بما نُسخ. قال أبو عبيد: يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذي أسقط بعلمٍ كما أثبت الذي أثبت بعلمٍ. قال أبو بكر: وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ دلالة على كفر هذا الإنسان؛ لأن الله عزّ وجلّ قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل، والزيادة والنقصان؛ فإذا قرأ قارىء: «تَبَّت يَدَا أبي لهب وقد تَبَّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب ومُرَيَّته حمالة الحطب في جيدها حبل من ليف» فقد كَذَب على الله جلّ وعلا وقَوّله ما لم يقل، وبدّل كتابه وحرّفه، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من ٱختلاطه به؛ وفي هذا الذي أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد، ليُدخلوا في القرآن ما يحلّون به عُرا الإسلام، ويَنسُبونه إلى قوم كهؤلاء القوم الذين أحالوا هذا بالأباطيل عليهم. وفيه إبطال الإجماع الذي به يحرس الإسلام، وبثباته تقام الصلوات، وتُؤدّى الزكوات وتتحرّى المتعبّدات. وفي قول الله تعالى: ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ دلالة على بدعة هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر، لأن معنى «أحكمت آياته»: منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها أو يعارضوها بمثلها، وقد وجدنا هذا الإنسان زاد فيها: وكفى الله المؤمنين القتال بعليّ وكان الله قوياً عزيزاً. فقال في القرآن هُجراً، وذكر علياً في مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحدّ، وحكم عليه بالقتل. وأسقط من كلام الله

« قل هو » وغيّر « أحد » فقرأ : الله الواحد الصمد . وإسقاط ما أسقطه نَفْيٌ له وكُفر، ومَن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله وأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جواباً لأهل الشرك لمّا قالوا لرسول اللهﷺ : صِفْ لنا رَبّك ، أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفْر؟ فقال الله جلّ وعزّ ردّاً عليهم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ففي «هو» دلالة على موضع الردّ ومكان الجواب؛ فإذا سقط بطل معنى الآية، ووضح الافتراء على الله عزّ وجلّ، والتكذيب لرسول اللهﷺ . ويقال لهذا الإنسان ومَن ينتحل نصرته: أخبرونا عن القرآن الذي نقرؤه ولا نعرف نحن ولا مَنْ كان قبلنا من أسلافنا سواه؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوّله إلى آخره، صحيح الألفاظ والمعاني عارٍ عن الفساد والخلل؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدّمين من أهل ملّتنا ؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذي معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شيء، صحيح اللفظ والمعاني ، سليمها من كل زلل وخلل؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غِسْلين من عين تجري من تحت الجحيم » فأيّ زيادة في القرآن أوضح من هذه ، وكيف تخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مُفْتر ومُبْطل من أن يلحق به مثلها، وإذا تُؤمِّلتْ وبُحث عن معناها وُجدت فاسدة غير صحيحة، لا تشاكل كلام البارىء تعالى ولا تخلط به، ولا توافق معناه، وذلك أن بعدها ﴿لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ فكيف يؤكل الشراب، والذي أتى به قبلها: فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجري من تحت الجحيم لا يأكله إلا الخاطئون. فهذا متناقض يفسد بعضه بعضاً، لأن الشراب لا يؤكل، ولا تقول العرب: أكلت الماء؛ لكنهم يقولون: شربته وذقته وطعمته؛ ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة في القرآن الذي مَن خالف حَرْفاً منه كفر. ﴿وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ﴾ لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون. والغسلين: ما يخرج من أجوافهم من الشحم وما يتعلق به من الصَّديد وغيره؛ فهذا طعام يؤكل عند البَليّة والنِّقمة، والشراب محال أن

يؤكل. فإن ٱدّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذي زاده من قوله: «من عين تجري من تحت الجحيم» ليس بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» ونفى هذه الآية من القرآن لِتَصح له زيادته، فقد كفر لما جحد آية من القرآن. وحسبك بهذا كله ردّاً لقوله، وخِزياً لمقاله. وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير، لا أن ذلك قرآن يُتلى، وكذلك ما نُسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن؛ على ما يأتي بيانه عند قوله تعالى: ﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾[1] إن شاء الله تعالى.

القول في الاستعاذة

وفيها ٱثنتا عشرة مسألة:

الأولى ـ أمَر الله تعالى بالاستعاذة عند أوّل كل قراءة فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي إذا أردت أن تقرأ؛ فأوقع الماضي موقع المستقبل كما قال الشاعر:

وإني لآتيكم لذكرى الذي مضى ... من الودّ وٱستئناف ما كان في غدِ

أراد ما يكون في غد؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا في المعنى جاز تقديم أيهما شئت؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَى فَتَدَلَّى﴾ المعنى فتدلى ثم دنا؛ ومثله: ﴿اقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ وهو كثير.

الثانية ـ هذا الأمر على النّدْب في قول الجمهور في كل قراءة في غير الصلاة. وٱختلفوا فيه في الصلاة. حكى النّقاش عن عطاء: أن الاستعاذة واجبة. وكان ٱبن سيرين والنّخعِي وقوم يتعوّذون في الصلاة كل ركعة، ويمتثلون أمر الله في الاستعاذة على العموم، وأبو حنيفة والشافعيّ يتعوّذان في الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة؛ ومالك لا يرى التعوّذ في الصلاة المفروضة ويراه في قيام رمضان.

الثالثة ـ أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارىء: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهذا اللفظ هو الذي عليه الجمهور من العلماء في التعوّذ لأنه

---

(١) راجع ٢/٦١.

لفظ كتاب الله تعالى. ورُوي عن ابن مسعود أنه قال: قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ فقال لي النبيّ ﷺ: «يابن أمّ عَبْد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأني جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم».

الرابعة ـ روى أبو داود وابن ماجه في سُننهما عن جُبَير بن مُطْعِم أنه رأى رسول الله ﷺ يصلّي صلاة فقال عمرو[1]: لا أدري أي صلاة هي؟ فقال: «الله أكبر كبيراً الله أكبر كبيراً ـ ثلاثاً ـ الحمد لله كثيراً الحمد لله كثيراً ـ ثلاثاً ـ وسبحان الله بكرة وأصيلاً ـ ثلاثاً ـ أعوذ بالله من الشيطان مِن نَفْخه ونَفْثه وهَمْزه». قال عمرو: هَمْزه المُوْتَةُ، ونَفْثُه الشِّعر، ونَفْخُه الكِبْر. وقال ابن ماجه: المُوْتَة يعني الجنون. والنَّفْث: نفخ الرجل مِن فيه من غير أن يخرج ريقه. والكِبر: التِّيهُ. وروى أبو داود عن أبي سعيد الخُدْري قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبّر ثم يقول: «سبحانك اللّهُمّ وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك ـ ثم يقول: ـ لا إله إلا الله ـ ثلاثاً ثم يقول: ـ الله أكبر كبيراً ـ ثلاثاً ـ أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه»؛ ثم يقرأ. وروى سليمان بن سالم عن ابن[2] القاسم رحمه الله أن الاستعاذة: أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم. قال ابن عطية: «وأما المقرئون فأكثروا في هذا من تبديل الصفة في اسم الله تعالى وفي الجهة الأخرى، كقول بعضهم: أعوذ بالله المجيد، من الشيطان المريد؛ ونحو هذا مما لا أقول فيه: نِعمت البِدْعة، ولا أقول: إنه لا يجوز».

الخامسة ـ قال المَهْدَوِيّ: أجمع القرّاء على إظهار الاستعاذة في أوّل قراءة سورة «الحمد» إلا حمزة فإنه أسرَّها. وروى السُّدِّي[3] عن أهل المدينة أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة. وذكر أبو اللّيث السَّمَرْقَنْدِيّ عن بعض المفسرين أن التعوّذ فرض، فإذا نسيه

---

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور في سند هذا الحديث (انظر «سنن ابن ماجه» ١/١٣٩ و«سنن أبي داود» ١/٧٧ طبع مصر).

(٢) في بعض النسخ: «أبي القاسم».

(٣) في بعض النسخ: «المسيبي».

القارىء وذَكَره في بعض الحزب قطع وتعوّذ، ثم ٱبتدأ من أوّله. وبعضهم يقول: يستعيذ ثم يرجع إلى موضعه الذي وقف فيه؛ وبالأوّل قال أسانيد الحجاز والعراق؛ وبالثاني قال أسانيد الشام ومصر.

السادسة ـ حكى الزَّهراويّ قال: نزلت الآية في الصلاة ونُدبنا إلى الاستعاذة في غير الصلاة وليس بفرض. قال غيره: كانت فرضاً على النبيّ ﷺ وحده، ثم تأسّيْنا به.

السابعة ـ رُوِي عن أبي هريرة أن الاستعاذة بعد القراءة؛ وقاله داود. قال أبو بكر بن العربيّ: «ٱنتهى العِيّ بقوم إلى أن قالوا: إذا فرغ القارىء من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم». وقد روى أبو سعيد الخُدْرِيّ أن النبيّ ﷺ كان يتعوّذ في صلاته قبل القراءة؛ وهذا نص. فإن قيل: فما الفائدة في الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة؟ قلنا: فائدتها ٱمتثال الأمر؛ وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها في ٱمتثالها أمراً أو ٱجتنابها نهياً؛ وقد قيل: فائدتها ٱمتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة؛ كما قال تعالى: ﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾[1]. قال ٱبن العربي: «ومن أغرب ما وجدناه قول مالك في المجموعة في تفسير هذه الآية: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[2] قال: ذلك بعد قراءة أمّ القرآن لمن قرأ في الصلاة، وهذا قول لم يرد به أثر، ولا يَعضُده نظر؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس: إن الاستعاذة بعد القراءة، كان تخصيص ذلك بقراءة أمّ القرآن في الصلاة دعوى عريضة، ولا تشبه أصل مالك ولا فهمه؛ فالله أعلم بسرّ هذه الرواية».

الثامنة ـ في فضل التعوّذ. روى مسلم عن سليمان بن صُرَد قال: ٱستَبّ رجلان عند النبيّ ﷺ فجعل أحدُهما يغضب ويحمرّ وجهه وتنتفخ أوداجه؛ فنظر إليه النبيّ ﷺ فقال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبيّ ﷺ فقال: هل تدري ما قال

---

(١) سورة الحج آية: ٥٢.

(٢) سورة النحل آية: ٩٨.

رسول الله ﷺ آنفاً؟ قال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقال له الرجل: أمجنوناً تراني! أخرجه البخاري أيضاً. وروى مسلم أيضاً عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبّسها عليّ، فقال له رسول الله ﷺ: «ذاك شيطان يقال له خَنْزَب[1] فإذا أحسستَه فتعوّذ بالله منه وٱتفل عن يسارك ثلاثاً» قال: ففعلت فأذهبه الله عني. وروى أبو داود عن ٱبن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل عليه الليل قال: «يا أرضُ ربّي وربّكِ الله أعوذ بالله مِن شرّك ومن شرّ ما خلق فيك ومن شر ما يَدِبّ عليك ومن أسد وأسْود ومن الحية والعقرب ومن ساكني البلد ووالد وما ولد». ورَوَتْ خَوْلة بنت حَكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن نزل منزلاً ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شرّ ما خلق لم يضرّه شيء حتى يرتحل». أخرجه المُوَطّأ ومسلم والترمذيّ وقال: حديث حسن غريب صحيح. وما يُتعوّذ منه كثير ثابت في الأخبار، والله المستعان.

التاسعة ـ معنى الاستعاذة في «كلام العرب»: الاستجارة والتحيّز إلى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه؛ يقال: عُذت بفلان وٱستعذت به؛ أي لجأت إليه. وهو عياذي؛ أي ملجئي. وأعذت غيري به وعوّذته بمعنًى. ويقال: عَوْذٌ بالله منك؛ أي أعوذ بالله منك؛ قال الراجز:

قالت وفيها حَيْدَةٌ وذُعْر ... عَوذٌ بربّي منكُم وحُجْرُ

والعرب تقول عند الأمر [تنكره[2]]: حُجْراً له (بالضم) أي دفعاً، وهو ٱستعاذة من الأمر. والعوذة والمعاذة والتعويذ كله بمعنًى. وأصل أعوذ: أعْوُذ نقلت الضمة إلى العين لاستثقالها على الواو فسكنت.

---

(١) قوله: يقال له خنزب. في «نهاية ٱبن الأثير»: «قال أبو عمرو: وهو لقب له، والخنزب (بالفتح): قطعة لحم منتنة ويروى بالكسر والضم».

(٢) الزيادة عن «لسان العرب» مادّة (حجر).

العاشرة - الشيطان واحد الشياطين؛ على التكسير والنون أصلية، لأنه من شَطَن إذا بَعُدَ عن الخير. وشطنت داره أي بعدت؛ قال الشاعر[١]:

نـأتْ بسعـادَ عنـك نَـوًى شَطُـونُ فبـانـتْ والفـؤادُ بهـا رهيـنُ

وبئر شَطُون أي بعيدة القعر. والشَّطَن: الحبل؛ سُمّيَ به لبعد طرفيه وآمتداده. ووصف أعرابي فرساً [لا[٢] يَخفَى] فقال: كأنه شيطان في أشْطان. وسُمّيَ الشيطان شيطاناً لبعده عن الحق وتمرّده؛ وذلك أن كل عاتٍ متمرّدٍ من الجنّ والإنس والدواب شيطان؛ قال جرير:

أيامَ يدعونَني الشيطانَ من غَزَلٍ وهُـنّ يَهْـوَيْنني إذ كنـتُ شيطـانَـا

وقيل: إن شيطاناً مأخوذ من شاط يشيط إذا هلك[٣]، فالنون زائدة. وشاط إذا آحترق. وشيّطت اللحم إذا دخنته ولم تنضجه. وآشتاط الرجل إذا آحتدّ غضباً. وناقة مِشياط التي يطير فيها السِّمَن. وآشتاط إذا هلك؛ قال الأعشى:

قد نَخضِب العَيْر من مكنون فائِله[٤] وقـد يَشِيـط علـى أرمـاحِنـا البَطَـلُ

أي يهلك. ويردّ على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول: تَشيطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بيّن أنه تفعيل من شطن، ولو كان من شاط لقالوا: تشيّط، ويردّ عليهم أيضاً بيت أُمَيّة بن أبي الصَّلْت:

أيُّمـا شـاطـنٍ عَصَـاه عَكَـاه[٥] ورمـاه فـي السجـن والأغـلال

فهذا شاطن من شطن لا شك فيه.

الحادية عشرة - الرجيم أي المبعد من الخير المهان. وأصل الرجم: الرمي بالحجارة، وقد رجمته أرجمه، فهو رجيم ومرجوم. والرجم: القتل واللعن والطرد والشتم، وقد قيل هذا كله في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾. وقولِ أبي إبراهيم: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾. وسيأتي[٦] إن شاء الله تعالى.

---

(١) هو النابغة الذبياني؛ كما في «لسان العرب» مادّة (شطن).
(٢) الزيادة عن «لسان العرب» مادّة (شطن).
(٣) في «الأصول»: «إذا بطل» والتصويب عن اللسان.
(٤) الفائل: عرق في الفخذين يكون في خربة الورك يحدر في الرجلين.
(٥) عكاه في الحديد والوثاق إذا شدّه.
(٦) راجع ١١/١١١ و ١٣/١٢١.

الثانية عشرة ـ روى الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: رأيت النبيّ ﷺ عند الصّفا وهو مقبل على شخص في صورة الفيل وهو يلعنه، قلت: ومن هذا الذي تلعنه يا رسول الله؟ قال: «هذا الشيطان الرجيم» فقلت: يا عدوّ الله، والله لأقتلنّك ولأريحنّ الأمّة منك؛ قال: ما هذا جزائي منك؛ قلت: وما جزاؤك مني يا عدوّ الله؟ قال: والله ما أبغضَك أحدٌ قطّ إلا شَرِكتُ أباه في رَحِم أمّه.

البسملة

وفيها سبع وعشرون مسألة[1]:

الأولى ـ قال العلماء: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قَسَم من ربّنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده إن هذا الذي وضعت لكم يا عبادي في هذه السورة حق، وإني أفِي لكم بجميع ما ضمنت في هذه السورة من وعدي ولطفي وبرّي. و ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ مما أنزله الله تعالى في كتابنا وعلى هذه الأمة خصوصاً بعد سليمان عليه السلام. وقال بعض العلماء: إن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تضمّنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات؛ وهذا صحيح.

الثانية ـ قال سعيد بن أبي سكينة: بلغني أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه نظر إلى رجل يكتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فقال له: جوّدها فإن رجلاً جوّدها فغفر له. قال سعيد: وبلغني أن رجلاً نظر إلى قرطاس فيه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فقبّله ووضعه على عينيه فغفر له. ومن هذا المعنى قصة بِشْرِ الحافِي، فإنه لما رفع الرقعة التي فيها اسم الله وطيبها طُيّب اسمه[2]، ذكره القشيري. وروى النسائي عن أبي المليح عن ردف رسول الله ﷺ

---

(١) ذكر القرطبي رحمه الله هنا «سبع وعشرون» مسألة ولكنّه جعلها فيما بعد «ثمان وعشرون» مسألة.

(٢) نص القصة كما في «وفيات الأعيان» و«الرسالة القشيرية»: «... وسبب توبته أنه أصاب في الطريق ورقة مكتوباً فيها اسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدراهم كانت معه غالية فطيّب بها الورقة وجعلها في شق حائط، فرأى في النوم كأن قائلاً يقول له: يا بشر، طيبت اسمي لأطيبنك في الدنيا والآخر. فلما انتبه من نومه تاب.

قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تَعِس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوّته صنعته ولكن قل ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب». وقال عليّ بن الحسين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾[1] قال معناه: إذا قلت ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. وروى وَكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود قال: من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جُنّة من كل واحد. فالبسملة تسعة عشر حرفاً على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ وهم يقولون في كل أفعالهم: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فمن هنالك هي قوّتهم، وببسم الله ٱستضلعوا. قال ٱبن عطية: ونظير هذا قولهم في ليلة القدر: إنها ليلة سبع وعشرين، مراعاة للفظة «هي» من كلمات سورة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾. ونظيره أيضاً قولهم في عدد الملائكة الذي ٱبتدروا قول القائل: ربَّنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه، فإنها بضعة وثلاثون حرفاً؛ فلذلك قال النبي ﷺ: «لقد رأيت بضعاً وثلاثين مَلَكاً يبتدرونها أيّهم يكتبها أوّل». قال ٱبن عطية: وهذا من مُلَح التفسير وليس من متين العلم.

الثالثة - روى الشعبي والأعمش أن رسول الله ﷺ كان يكتب «بٱسمك اللّهُمّ» حتى أُمِر أن يكتب «بسم الله» فكتبها؛ فلما نزلت: ﴿قُلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ كتب «بسم الله الرحمن» فلما نزلت: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كتبها. وفي «مصنف أبي داود» قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة: إن النبيّ ﷺ لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة «النمل».

الرابعة - رُوي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال: البسملة تِيجان السُّوَر.

قلت: وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها. وقد ٱختلف العلماء في هذا المعنى على ثلاثة أقوال:

---

(١) راجع ١٠/ ٢٧١.

(الأوّل) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها؛ وهو قول مالك.

(الثاني) أنها آية من كل سورة؛ وهو قول عبد الله بن المبارك.

(الثالث) قال الشافعي: هي آية في الفاتحة؛ وتردّد قوله في سائر السُّوَر؛ فمرّة قال: هي آية من كل سورة، ومرّة قال: ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها. ولا خلاف بينهم في أنها آية من القرآن في سورة النمل.

وٱحتج الشافعي بما رواه الدَّارَقُطْنِيّ من حديث أبي بكر الحنفي عن عبد الحميد[١] بن جعفر عن نوح بن أبي بلال عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيّ عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فٱقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها». رفع هذا الحديث عبد الحميد بن جعفر، وعبد الحميد هذا وَثقه أحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد ويحيى بن معين؛ وأبو حاتم يقول فيه: محلّه الصدق؛ وكان سفيان الثوريّ يضعّفه ويحمل عليه. ونوح بن أبي بلال ثقة مشهور.

وحجة ٱبن المبارك وأحد قولي الشافعي ما رواه مسلم عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً؛ فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «نزلت عليّ آنفاً سورة» فقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾. وذكر الحديث، وسيأتي بكماله في سورة الكوثر إن شاء الله تعالى[٢].

الخامسة ـ الصحيح من هذه الأقوال قول مالك؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه. قال ٱبن العربي: «ويكفيك أنها

---

(١) ورد سند هذا الحديث مضطرباً في «الأصول» و «التصويب» عن سنن الدارقطني و «تهذيب التهذيب». وعبد الحميد بن جعفر هذا، يكنى أبا الفضل، ويقال: أبو حفص، وليس من كنيته أبو بكر. ويروي عنه أبو بكر الحنفي. راجع «تهذيب التهذيب».

(٢) راجع ٢٠/٢١٦.

ليست من القرآن اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يختلف فيه». والأخبار الصحاح التي لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا في النمل وحدها. روى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عزّ وجلّ قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله تعالى حَمِدني عبدي وإذا قال العبد ﴿الرحمنِ الرحيم﴾ قال الله تعالى أثنى عليّ عبدي وإذا قال العبد ﴿مالِكِ يوم الدينِ﴾ قال مَجّدني عبدي ـ وقال مرة فوّض إليّ عبدي ـ فإذا قال ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال ﴿اهدِنا الصراط المستقِيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوبِ عليهم ولا الضالين﴾ قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». فقوله سبحانه: «قسمت الصلاة» يريد الفاتحة، وسماها صلاة لأن الصلاة لا تصحّ إلا بها؛ فجعل الثلاث الآيات الأوَل لنفسه ، واختص بها تبارك اسمه ، ولم يختلف المسلمون فيها ثم الآية الرابعة جعلها بينه وبين عبده ؛ لأنها تضمنت تذلّل العبد وطلب الاستعانة منه، وذلك يتضمن تعظيم الله تعالى، ثم ثلاث آيات تتمة سبع آيات. ومما يدلّ على أنها ثلاث قوله : « هؤلاء لعبدي » أخرجه مالك ؛ ولم يقل : هاتان ؛ فهذا يدل على أن ﴿أنعمت عليهم﴾ آية. قال ابن بكير قال مالك: ﴿أنعمت عليهِم﴾ آية، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهذه القسمة التي قسمها الله تعالى وبقوله عليه السلام لأُبَيّ: «كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة» قال: فقرأت ﴿الحمد لله رب العالمِين﴾ حتى أتيت على آخرها ـ أنّ البسملة ليست بآية منها، وكذا عدّ أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة ؛ وأكثر القرّاء عدّوا ﴿أنعمت عليهم﴾ آية، وكذا روى قتادة عن أبي نَضْرة عن أبي هريرة قال : الآية السادسة ﴿أنعمت عليهم﴾. وأما أهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنهم عدّوا فيها ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ولم يعدّو ﴿أنعمت عليهم﴾.

فإن قيل: فإنها ثبتت في المصحف وهي مكتوبة بخطه ونقلت نقله، كما نقلت في النمل، وذلك متواتر عنهم. قلنا: ما ذكرتموه صحيح؛ ولكن لكونها قرآناً، أو لكونها فاصلة بين السور

-كما روي عن الصحابة: كنا لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أخرجه أبو داود - أو تبرُّكاً بها، كما قد اتفقت الأمة على كتبها في أوائل الكتب والرسائل؟ كل ذلك محتمل. وقد قال الجُرَيري[1]: سئل الحسن عن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قال: في صدور الرسائل. وقال الحسن أيضاً: لم تنزل ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ في شيء من القرآن إلا في «طسٓ» ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. والفيصل أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعي الاضطراري. ثم قد اضطرب قول الشافعي فيها في أوّل كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة؛ والحمد لله.

فإن قيل: فقد روى جماعة قرآنيتها، وقد تولّى الدّارَقُطْنِيّ جمع ذلك في جزء صححه. قلنا: لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا إليها، ولنا أخبار ثابتة في مقابلتها، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات. روت عائشة في «صحيح مسلم» قالت: كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين، الحديث. وسيأتي بكماله. وروى مسلم أيضاً عن أنس بن مالك قال: صلّيت خلف النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين؛ لا يذكرون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لا في أوّل قراءة ولا في آخرها.

ثم إن مذهبنا يترجّح في ذلك بوجه عظيم، وهو المعقول؛ وذلك أن مسجد النبيّ ﷺ بالمدينة انقضت عليه العصور، ومرّت عليه الأزمنة والدهور، من لَدُن رسول الله ﷺ إلى زمان مالك، ولم يقرأ أحد فيه قطّ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ اتباعاً للسُّنّة؛ وهذا يردّ أحاديثكم.

بَيْدَ أن أصحابنا استحبّوا قراءتها في النفل؛ وعليه تحمل الآثار الواردة في قراءتها أو على السّعة في ذلك. قال مالك: ولا بأس أن يقرأ بها في النافلة ومن يَعرِض القرآن عرضاً.

(١) الجريري (بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما، نسبة إلى جرير بن عباد بن ضبيعة): وهو سعيد بن إياس الجريري أبو مسعود البصري.

وجملة مذهب مالك وأصحابه: أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها، ولا يقرأ بها المصلّي في المكتوبة ولا في غيرها سرّاً ولا جهراً؛ ويجوز أن يقرأها في «النوافل». هذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه. وعنه رواية أخرى أنها تقرأ أوّل السورة في «النوافل»، ولا تقرأ أوّل أم القرآن. وروى عنه ٱبن نافع ٱبتداء القراءة بها في الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال. ومن أهل المدينة من يقول: إنه لا بدّ فيها من ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ منهم ٱبن عمر، وٱبن شهاب؛ وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد. وهذا يدل على أن المسألة مسألة ٱجتهادية لا قطعية، كما ظنه بعض الجهال من المتفقهة الذي يلزم على قوله تكفير المسلمين؛ وليس كما ظن لوجود الاختلاف المذكور؛ والحمد لله.

وقد ذهب جمع من العلماء إلى الإسرار بها مع الفاتحة؛ منهم: أبو حنيفة والثَّوْرِي؛ وروي ذلك عن عمر وعليّ وٱبن مسعود وعَمّار وٱبن الزبير؛ وهو قول الحكم وحماد؛ وبه قال أحمد بن حنبل وأبو عبيد؛ ورُوِيَ عن الأوزاعيّ مثل ذلك؛ حكاه أبو عمر بن عبد البرّ في «الاستذكار». وٱحتجوا من الأثر في ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ فلم يسمعنا قراءة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. وما رواه عمار بن[1] رُزَيق عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال: صلّيت خلف النبيّ ﷺ وخلف أبي بكر وعمر، فلم أسمع أحداً منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم.

قلت: هذا قول حسن، وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد ويخرج به من الخلاف في قراءة البسملة، وقد رُوي عن سعيد بن جبير قال: كان المشركون يحضرون بالمسجد؛ فإذا قرأ رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قالوا: هذا محمد يذكر رحمان اليمامة ـ يعنون مُسَيْلِمة ـ فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم، ونزل: ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾. قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله: فبقي ذلك إلى يومنا هذا على

(١) كذا في «تهذيب التهذيب». وفي «الأصول»: «عمار عن رزيق» وهو خطأ.

ذلك الرسم وإن زالت العلة، كما بقي الرَّمَل في الطواف وإن زالت العلة، وبقيت المخافتة في صلاة النهار وإن زالت العلة.

السادسة ـ اتفقت الأمة على جواز كَتْبها في أوّل كل كتاب من كتب العلم والرسائل؛ فإن كان الكتاب ديوان شعر فرَوَى مُجالد عن الشَّعْبِي قال: أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. وقال الزهري: مضت السُّنّة ألا يكتبوا في الشعر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. وذهب إلى رسم التسمية في أوّل كتب الشعر سعيد بن جُبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين. قال أبو بكر الخطيب: وهو الذي نختاره ونستحبه.

السابعة ـ قال الماوردي ويقال لمن قال بسم الله: مُبَسْمِل، وهي لغة مُوَلّدة، وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة:

لقد بَسْملتْ ليلَى غداةَ لقيتُها ... فيا حَبّذا ذاك الحبيبُ المبسمِلُ

قلت: المشهور عن أهل اللغة بسمل. قال يعقوب بن السِّكيت والمُطَرِّز والثعالبي وغيرهم من أهل اللغة: بسمل الرجل، إذا قال: بسم الله. يقال: قد أكثرت من البسملة؛ أي من قول بسم الله. ومثله حَوْقَلَ الرجل، إذا قال: لا حَوْلَ ولا قوّة إلا بالله. وهَلّلَ، إذا قال: لا إله إلا الله. وسَبْحَل، إذا قال: سبحان الله. وحَمْدَل، إذا قال: الحمد لله. وحَيْصَل، إذا قال: حيّ على الصلاة. وجَعْفَل، إذا قال: جُعلت فِداك. وطَبْقَل، إذ قال: أطال الله بقاءك. ودَمْعَز، إذا قال: أدام الله عِزَك. وحَيْفَل، إذا قال: حيّ على الفلاح. ولم يذكر المُطَرِّز: الحَيْصَلة، إذا قال: حيّ على الصلاة. وجعفل، إذا قال: جُعلت فِداك. وطبقل، إذا قال: أطال الله بقاءك. ودمعز، إذا قال: أدام الله عزك.

الثامنة ـ ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أوّل كل فعل؛ كالأكل والشرب والنحر؛ والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال؛ قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾. ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾. وقال رسول الله ﷺ:

«أغلق بابك وٱذكر ٱسم الله وأطفىء مصباحك وٱذكر ٱسم الله وخَمِّر[١] إناءك وٱذكر ٱسم الله وأَوْكِ سقاءك وٱذكر ٱسم الله». وقال: «لو أنّ أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللّهمّ جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً». وقال لعمر بن أبي سلمة: «يا غلام سَمِّ الله وكُلْ بيمينك وكلْ مما يَلِيكَ» وقال: «إنّ الشيطان ليستحل الطعام ألا يذكر ٱسم الله عليه» وقال: «من لم يذبح فليذبح بٱسم الله». وشكا إليه عثمان بن أبي العاص وجَعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثاً وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر». هذا كله ثابت في الصحيح. وروى ٱبن ماجه والترمذيّ عن النبيّ ﷺ قال: «سَتْرُ ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الكَنِيف أن يقول بسم الله». وروى الدّارَقُطْنِيّ عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مس طهوره سَمَّى الله تعالى، ثم يُفرغ الماء على يديه.

التاسعة ـ قال علماؤنا: وفيها ردّ على القَدَرِيَّة وغيرهم ممن يقول: إن أفعالهم مقدورة لهم. وموضع الاحتجاج عليهم من ذلك أن الله سبحانه أمرنا عند الابتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك، كما ذكرنا.

فمعنى ﴿ بسم الله ﴾ ، أي بالله . ومعنى « بالله » ، أي بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه. وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى. وقال بعضهم: معنى قوله: ﴿بسم الله﴾ يعني بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته؛ وهذا تعليم من الله تعالى عباده، ليذكروا ٱسمه عند ٱفتتاح القراءة وغيرها، حتى يكون الافتتاح ببركة الله جلّ وعزّ.

العاشرة ـ ذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى إلى أن «ٱسم» صلة زائدة، وٱستشهد بقول لَبِيد:

إلى الحَوْل ثم ٱسم السلام عليكما ... ومَن يبْك حَوْلاً كاملاً فقد ٱعتذر

---

(١) التخمير: التغطية. والوكاء: الخيط الذي تشدّ به الصرة والكيس وغيرهما. أي شدّوا رءوس الأسقية بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شيء.

ذكر «أسم» زيادة، وإنما أراد: ثم السلام عليكما.

وقد آستدل علماؤنا بقول لَبيد هذا على أن الاسم هو المسمَّى. وسيأتي الكلام فيه في هذا الباب وغيره، إن شاء الله تعالى.

الحادية عشرة ـ أختلِف في معنى زيادة «أسم»؛ فقال قُطْرُب: زِيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه. وقال الأخفش: زيدت ليخرج بذكرها من حكم القَسَم إلى قصد التبرك؛ لأن أصل الكلام: بالله.

الثانية عشرة ـ أختلفوا أيضاً في معنى دخول الباء عليه، هل دخلت على معنى الأمر؟ والتقدير: آبدأ بسم الله. أو على معنى الخبر؟ والتقدير: أبتدأت بسم الله؛ قولان: الأول للفرّاء، والثاني للزجاج. فـ«ـباسم» في موضع نصب على التأويلين. وقيل: المعنى أبتدائي بسم الله؛ فـ«ـبسم الله» في موضع رفع خبر الابتداء. وقيل: الخبر محذوف؛ أي أبتدائي مستقرّ أو ثابت بسم الله؛ فإذا أظهرته كان «بسم الله» في موضع نصب بثابت أو مستقرّ، وكان بمنزلة قولك: زيد في الدار. وفي «التنزيل» ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ فـ«ـعنده» في موضع نصب؛ رُوي هذا عن نحاة أهل البصرة. وقيل: التقدير أبتدائي ببسم الله موجود أو ثابت، فـ«ـبآسم» في موضع نصب بالمصدر الذي هو أبتدائي.

الثالثة عشرة ـ ﴿بسم الله﴾، تكتب بغير ألف أستغناء عنها بباء الإلصاق في اللفظ والخط لكثرة الاستعمال؛ بخلاف قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فإنها لم تحذف لقلة الاستعمال. وأختلفوا في حذفها مع الرحمن والقاهر؛ فقال الكسائي وسعيد الأخفش: تُحذف الألف. وقال يحيى بن وَثَّاب: لا تُحذف إلا مع ﴿بسم الله﴾ فقط، لأن الاستعمال إنما كَثُر فيه.

الرابعة عشرة ـ وأختلف في تخصيص باء الجر بالكسر على ثلاثة معان؛ فقيل: ليناسب لفظها عملها. وقيل: لمّا كانت الباء لا تدخل إلا على الأسماء خُصّت بالخفض

الذي لا يكون إلا في الأسماء. الثالث: ليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف ٱسماً؛ نحو الكاف في قول الشاعر[١]:

ورُحْنَا بِكَابْنِ الماءِ يُجْنَبُ وسْطَنا

أي بمثل ٱبن الماء أو ما كان مثله.

الخامسة عشرة ـ ٱسمٌ، وزنه اِفْعٌ، والذاهب منه الواو؛ لأنه من سَمَوْت، وجمعه أسماء، وتصغيره سُمَيّ. وٱختلِف في تقدير أصله، فقيل: فِعْل، وقيل: فُعْل. قال الجوهري: وأسماء يكون جمعاً لهذا الوزن، وهو مثل جِذع وأجذاع، وقُفل وأقفال؛ وهذا لا تدرك صيغته إلا بالسماع. وفيه أربع لغات: اِسم بالكسر، واُسم بالضم. قال أحمد بن يحيى: مَن ضمّ الألف أخذه من سَمَوْت أسمو، ومن كسر أخذه من سميت أسمى. ويقال: سِمٌ وسُمٌ، ويُنْشَد:

والله أسماك سُماً مباركا آثرك الله به إيثارَكا

وقال آخر:

وعامُنا أعجبَنا مقدّمه يُدْعَى أبا السَّمْح وقِرْضَابٌ سِمُهْ
مُبْتَرِكا[٢] لكل عظم يَلْحُمُهْ

قرضب الرجل: إذا أكل شيئاً يابساً، فهو قرضاب. «سِمه» بالضم والكسر جميعاً. ومنه قول الآخر:

باسم الذي في كل سورةٍ سِمه

وسكنت السين من «بٱسم» ٱعتلالاً[٣] على غير قياس، وألفه ألف وصل، وربما جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة؛ كقول الأَحْوَص:

وما أنا بالمخْسُوس في جِذْم مالكٍ ولا مَن تَسمَّى ثم يلتزم الإسما[٤]

---

(١) هو ٱمرؤ القيس. وتمام البيت وشرحه يأتي في ص ٢١١ من هذا الجزء.
(٢) رجل مبترك: معتمد على الشيء مُلَح. ويلحمه: ينزع عنه اللحم.
(٣) كان الأصل ٱسم نقلت حركة الهمزة إلى السين ثم حذفت الهمزة ولما وصلت الباء به سكنت السين تخفيفاً. (٤) المخسوس: المرذول. وجذم كل شيء: أصله. ومالك: جدّ أعلى للشاعر.

السادسة عشرة ـ تقول العرب في النسب إلى الاسم: سِمويّ، وإن شئت ٱسْميّ، تركته على حاله، وجمعه أسماء، وجمع الأسماء أسامٍ. وحكى الفرّاء: أعيذك بأسماوات الله.

السابعة عشرة ـ ٱختلفوا في ٱشتقاق الاسم على وجهين؛ فقال البصريون: هو مشتق من السُّمُوّ وهو العلوّ والرفعة، فقيل: ٱسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به. وقيل: لأن الاسم يسمو بالمسمّى فيرفعه عن غيره. وقيل: إنما سُمِّيَ الاسم ٱسماً لأنه علا بقوّته على قسمي الكلام: الحرف والفعل؛ والاسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل؛ فلِعُلُوّه عليهما سمي ٱسماً؛ فهذه ثلاثة أقوال.

وقال الكوفيون: إنه مشتق من السِّمَة وهي العلامة؛ لأن الاسم علامة لمن وضع له؛ فأصل ٱسم على هذا «وسم». والأول أصح؛ لأنه يقال في التصغير سمى وفي الجمع أسماء؛ والجمع والتصغير يردّان الأشياء إلى أصولها؛ فلا يقال: وسيم ولا أوسام. ويدل على صحته أيضاً فائدة الخلاف وهي:

الثامنة عشرة ـ فإن من قال الاسم مشتق من العُلُوّ يقول: لم يزل الله سبحانه موصوفاً قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته؛ وهذا قول أهل السُّنة. ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول: كان الله في الأزل بلا ٱسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفاتٍ، فإذا أفناهم بقي بلا ٱسم ولا صفة؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة، وهو أعظم في الخطأ من قولهم: إنّ كلامه مخلوق، تعالى الله عن ذلك! وعلى هذا الخلاف وقع الكلام في الاسم والمُسَمَّى وهي:

التاسعة عشرة ـ فذهب أهل الحق ـ فيما نقل القاضي أبو بكر بن الطّيب ـ إلى أن الاسم هو المسمّى، وٱرتضاه ٱبن فُورك؛ وهو قول أبي عبيدة وسيبويه. فإذا قال قائل: الله عالم؛ فقوله دالّ على الذات الموصوفة بكونه عالماً، فالاسم كونه عالماً وهو المسمى بعينه. وكذلك إذا قال: الله خالق؛ فالخالق هو الرب، وهو بعينه الاسم. فالاسم عندهم هو المسمَّى بعينه من غير تفصيل.

قال ٱبن الحصار: مَن ينفي الصفات من المبتدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذات، ولذلك يقولون: الاسم غير المسمَّى، ومَن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هي أوصاف الذات وهي غير العبارات وهي الأسماء عندهم. وسيأتي لهذه مزيد بيان في «البقرة» و «الأعراف» إن شاء الله تعالى.

الموفية عشرين - قوله: ﴿الله﴾ هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء: إنه ٱسم الله الأعظم ولم يتسمّ به غيره؛ ولذلك لم يُثَنّ ولم يجمع؛ وهو أحد تأويلي قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ أي من تسمّى باسمه الذي هو «الله». فالله ٱسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلٰهيّة، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إلٰه إلا هو سبحانه. وقيل: معناه الذي يستحق أن يُعبد. وقيل: معناه واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال؛ والمعنى واحد.

الحادية والعشرون - وٱختلفوا في هذا الاسم هل هو مشتق أو موضوع للذات عَلَم؟. فذهب إلى الأوّل كثير من أهل العلم. وٱختلفوا في ٱشتقاقه وأصله؛ فروى سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه، مثل فِعَال؛ فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة. قال سيبويه: مِثل الناس أصله أناس. وقيل: أصل الكلمة «لاه» وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم، وهذا اختيار سيبويه. وأنشد:

لاهِ ٱبنُ عَمّكَ لا أفضلتَ في حسَبٍ عنّى ولا أنت ديّانِي فتخزونِي

كذا الرواية: فتخزوني، بالخاء المعجمة ومعناه: تسوسني.

وقال الكسائي والفرّاء: معنى « بسم الله » بسم الإلٰه؛ فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في الثانية فصارتا لاماً مشدّدة؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ ومعناه: لكن أنا، كذلك قرأها الحسن. ثم قيل: هو مشتق من « وَلَه » إذا تحيّر؛ والوله: ذهاب العقل. يقال: رجل وَالِهٌ وٱمرأة والهة ووَالِهٌ، وماء موله[1]: أرسل في الصحارى. فالله سبحانه تتحير

(١) قوله: ماء موله. هو بضم الميم وتخفيف اللام، وتشدّد وتفتح الواو.

الألباب وتذهب في حقائق صفاته والفِكَر في معرفته. فعلى هذا أصل «إلاه» «ولاه» وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت في إشاح ووشاح، وإسادة ووسادة؛ ورُوي عن الخليل. ورُوي عن الضحاك أنه قال: إنما سُمّيَ «الله» إلٰهاً، لأن الخلق يتألّهون إليه في حوائجهم، ويتضرّعون إليه عند شدائدهم. وذُكر عن الخليل بن أحمد أنه قال: لأن الخلق يألَهُون إليه (بنصب اللام) ويألِهُون أيضاً (بكسرها) وهما لغتان. وقيل: إنه مشتق من الارتفاع؛ فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاهاً، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت. وقيل: هو مشتق من أله الرجل إذا تعبّد. وتألّه إذا تنسّك؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلاَهَتَكَ﴾ على هذه القراءة؛ فإن ابن عباس وغيره قالوا: وعبادتك.

قالوا: فاسم الله مشتق من هذا، فالله سبحانه معناه المقصود بالعبادة، ومنه قول الموحدين: لا إله إلا الله، معناه لا معبود غير الله. و «إلا» في الكلمة بمعنى غير، لا بمعنى الاستثناء. وزعم بعضهم أن الأصل فيه «الهاء» التي هي الكناية عن الغائب، وذلك أنهم أثبتوه موجوداً في فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام المِلك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالِكُها فصار «لَهُ» ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيماً وتفخيماً.

القول الثاني: ذهب إليه جماعة من العلماء أيضاً منهم الشافعيّ وأبو المعالي والخطابي والغزالي والمفضَّل وغيرهم، ورُوِيَ عن الخليل وسيبويه: أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفهما منه. قال الخطابي: والدليل على أن الألف واللام من بِنْية هذا الاسم، ولم يدخلا للتعريف: دخول حرف النداء عليه؛ كقولك: يا الله، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف؛ ألا ترى أنك لا تقول: يا الرحمن ولا يا الرحيم؛ كما تقول: يا الله، فدل على أنهما من بِنْيةِ الاسم. والله أعلم.

الثانية والعشرون - واختلفوا أيضاً في اشتقاق اسمه الرحمن؛ فقال بعضهم: لا اشتقاق له لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه، ولأنه لو كان مشتقاً من الرحمة لاتّصل بذكر المرحوم، فجاز أن يقال: الله رَحْمٰن بعباده، كما يقال: رحيم بعباده. وأيضاً لو كان مشتقاً من الرحمة

لم تنكره العرب حين سمعوه، إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربّهم، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ الآية. ولما كتب عليّ رضي الله عنه في صلح الحُدَيْبِيَة بأمر النبيّ ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قال سُهيل بن عمرو: أما ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فما ندري ما ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾! ولكن آكتب ما نعرف: باسمك اللّهُمّ، الحديث. قال آبن العربي: إنما جهلوا الصفة دون الموصوف، وآستدل على ذلك بقولهم: وما الرحمن؟ ولم يقولوا: ومَن الرحمن؟ قال آبن الحصّار: وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾. وذهب الجمهور من الناس إلى أن «الرحمن» مشتق من الرحمة مبني على المبالغة؛ ومعناه ذو الرحمة الذي لا نظير له فيها، فلذلك لا يُثَنّى ولا يجمع كما يُثَنّى «الرحيم» ويُجمع.

قال آبن الحصار: ومما يدل على الاشتقاق ما خَرّجه الترمذي وصَحّحه عن عبد الرحمن بن عَوف أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: «أنا الرحمن خلقت الرّحِم وشققت لها آسماً من آسمي فمن وَصَلها وَصَلته ومَن قَطَعها قطعته». وهذا نص في الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وبما وجب له.

الثالثة والعشرون ـ زعم المبرد فيما ذكر آبن الأنباري في كتاب «الزاهر» له: أن «الرحمن» آسم عبرانيّ فجاء معه بـ «ـالرحيم» وأُنشد[1]:

لن تُدرِكوا المجدَ أو تَشْروا عبَاءَكُم   بالخَزِّ أو تجعلوا اليَنْبُوتَ ضَمْرانا
أو تتركون[2] إلى القَسَّيْن هجْرَتَكم   ومَسْحَكم صُلْبَهم رَحمانَ قُربانا

قال أبو إسحاق الزجاج في «معاني القرآن»: وقال أحمد بن يحيى: «الرحيم» عربيّ و «الرحمان» عبرانيّ، فلهذا جمع بينهما. وهذا القول مرغوب عنه.

وقال أبو العباس: النعت قد يقع للمدح؛ كما تقول: قال جرير الشاعر. وروى مُطَرِّف عن قتادة في قول الله عزّ وجلّ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قال: مدح نفسه. قال أبو إسحاق:

---

(١) قائله جرير. والينبوت: ضرب من الشجر. (٢) انظر شرح القاموس واللسان مادة «رحم».

وهذا قولٌ حَسَن. وقال قُطْرُب: يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد. قال أبو إسحاق: وهذا قولٌ حَسَن، وفي التوكيد أعظم الفائدة، وهو كثير في كلام العرب، ويستغني عن الاستشهاد؛ والفائدة في ذلك ما قاله محمد بن يزيد: إنه تفضّلٌ بعد تفضّل، وإنعامٌ بعد إنعام، وتقويةٌ لمطامع الراغبين، ووعدٌ لا يخيب آمله.

الرابعة والعشرون ـ وٱختلفوا هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين؟ فقيل: هما بمعنًى واحد؛ كندمان ونديم. قاله أبو عبيدة. وقيل: ليس بناء فَعلان كفَعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل؛ نحو قولك: رجل غضبان، للممتلىء غضباً. وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول. قال عَمَلَّس[١]:

فأما إذا عَضّت بك الحربُ عضّةً ... فـإنـك معطـوفٌ عليـك رَحيـمُ

فـ «ـالرحمن» خاصُّ الاسم عامّ الفعل. و «الرحيم» عام الاسم خاصُّ الفعل. هذا قول الجمهور.

قال أبو عليّ الفارسيّ: «الرحمن» ٱسم عامّ في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله. «والرحيم» إنما هو في جهة المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾. وقال العرزميّ[٢]: «الرحمن» بجميع خلقه في الأمطار ونِعَم الحواس والنِّعم العامة، و «الرحيم» بالمؤمنين في الهداية لهم، واللطف بهم. وقال ٱبن المبارك: « الرحمن » إذا سُئل أعطى، و «الرحيم» إذا لم يُسأل غَضِب. ورَوى ٱبن ماجه في سُنَنه والترمذيّ في جامعه عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مَن لم يسأل الله يغضب عليه» لفظ الترمذيّ. وقال ٱبن ماجه: «مَنْ لم يَدْعُ اللهَ سبحانه غضِب عليه». وقال: سألت أبا زرعة عن أبي صالح هذا، فقال: هو الذي يقال له: الفارسيّ وهو خُوزِيّ[٣] ولا أعرف ٱسمه. وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

---

(١) هو عملس بن عقيل؛ كما في هامش بعض نسخ الأصل و «لسان العرب» مادة رحم.
(٢) هو عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي؛ كما في «الخلاصة».
(٣) نسبة إلى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة.

الله يَغْضب إن تركتَ سؤاله وبُنيّ آدم حين يُسأل يغضب

وقال ٱبن عباس: هما ٱسمان رقيقان، أحدهما أرقّ من الآخر، أي أكثر رحمة.

قال الخطابيّ: وهذا مشكل؛ لأن الرقة لا مدخل لها في شيء من صفات الله تعالى. وقال الحسين بن الفضل البَجَلي: هذا وَهَم من الراوي، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى في شيء، وإنما هما ٱسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر، والرفق من صفات الله عزّ وجلّ؛ قال النبيّ ﷺ: «إن الله رفيق يُحب الرفق ويُعطي على الرفق ما لا يُعطي على العُنْف».

الخامسة والعشرون ـ أكثر العلماء على أن «الرحمن» مختص بالله عزّ وجلّ، لا يجوز أن يُسَمَّى به غيره، ألا تراه قال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾[1] فعادل الاسم الذي لا يَشركه فيه غيره. وقال: ﴿وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[2] فأخبر أن «الرحمن» هو المستحق للعبادة جلّ وعزّ. وقد تجاسر مُسَيْلِمة الكذاب ـ لعنه الله ـ فتسمى برحمان اليمامة، ولم يتسمّ به حتى قَرع مسامِعَه نَعْتُ الكذاب فألزمه الله تعالى نَعْت الكذاب لذلك، وإن كان كلّ كافرٍ كاذباً، فقد صار هذا الوصف لمُسَيْلِمة عَلماً يُعرف به، ألزمه الله إياه. وقد قيل في ٱسمه الرحمن: إنه ٱسم الله الأعظم؛ ذكره ٱبن العربيّ.

السادسة والعشرون ـ «الرحيم» صفة مطلقة للمخلوقين، ولما في «الرحمن» من العموم قدّم في كلامنا على «الرحيم» مع موافقة التنزيل؛ قاله المهدوي. وقيل: إن معنى «الرحيم» أي بالرحيم وصلتم إلى الله وإلى الرحمن، فـ «ـالرحيم» نعت محمد ﷺ، وقد نعته تعالى بذلك فقال: ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فكأن المعنى أن يقول: بسم الله الرحمن وبالرحيم؛ أي وبمحمد ﷺ وصلتم إليّ، أي باتباعه وبما جاء به وصلتم إلى ثوابي وكرامتي والنظر إلى وجهي؛ والله أعلم.

---

(١) سورة الإسراء آية: ١١٠، ١٠/ ٣٤٢.

(٢) سورة الزخرف آية: ٤٥، ١٦/ ٩٥.

السابعة والعشرون - رُوي عن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه أنه قال في قوله «بسم الله»: إنه شفاء من كل داء، وعَوْنٌ على كل دواء. وأما «الرحمن»، فهو عَوْنٌ لكلِّ مَن آمن به، وهو ٱسم لم يُسَمّ به غيره. وأما «الرحيم»، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

وقد فسّره بعضهم على الحروف؛ فرُوي عن عثمان بن عفّان أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فقال: « أما الباء فبلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه وأما السين فسناء الله وأما الميم فملك الله وأما الله فلا إلٰه غيره وأما الرحمن فالعاطف على البرّ والفاجر مِن خلقه وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصّة». ورُوي عن كعب الأحبار أنه قال: الباء بهاؤه والسين سناؤه فلا شيء أعلى منه والميم ملكه وهو على كل شيء قدير فلا شيء يعازّه. وقد قيل: إن كل حرف هو ٱفتتاح ٱسم من أسمائه؛ فالباء مفتاح اسمه بصير، والسين مفتاح ٱسمه سميع، والميم مفتاح ٱسمه مليك، والألف مفتاح ٱسمه الله، واللام مفتاح ٱسمه لطيف، والهاء مفتاح ٱسمه هادي، والراء مفتاح ٱسمه رازق، والحاء مفتاح ٱسمه حليم، والنون مفتاح ٱسمه نور؛ ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند ٱفتتاح كل شيء.

الثامنة والعشرون - وٱختلف في وصل « الرحيم » بـ « ـالحمد لله »؛ فرُوِيَ عن أمّ سَلمة عن النبيّ ﷺ: «الرحيمْ. ٱلحمد» يسكّن الميم ويقف عليها، ويبتدىء بألف مقطوعة. وقرأ به قوم من الكوفيين. وقرأ جمهور الناس: «الرحيم الحمد» تُعرب « الرحيم » بالخفض وبوصل الألف من « الحمد ». وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تقرأ « الرحيمَ الحمد »، بفتح الميم وصلة الألف؛ كأنه سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت. قال ٱبن عطية: ولم تُرْوَ هذه قراءة عن أحد فيما علمت. وهذا نظر يحيى بن زياد في قوله تعالى: ﴿الۤمۤ ٱللَّهُ﴾.

تفسير سورة الفاتحة

«بحول الله وكرمه»

وفيها أربعة أبواب:

الباب الأوّل ـ في فضائلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل

الأولى ـ روى الترمذيّ عن أُبَيّ بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهي مقسومة[1] بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل». أخرج مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب: أن أبا سعيد مولى [عبد الله بن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله ﷺ نادى أُبَيّ بن كعب وهو يصلّي؛ فذكر الحديث. قال ابن عبد البر: أبو سعيد لا يوقف له على اسم وهو معدود في أهل المدينة، روايته عن أبي هريرة وحديثه هذا مرسل؛ وقد روي هذا الحديث عن أبي سعيد بن المُعَلَّى رجلٌ من الصحابة لا يوقف على اسمه أيضاً؛ رواه عنه حفص بن عاصم، وعبيد بن حُنين.

قلت: كذا قال في التمهيد: «لا يوقف له على اسم». وذكر في كتاب الصحابة الاختلاف في اسمه. والحديث خرّجه البخاري عن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إني كنتُ أصلي؛ فقال: «ألم يقل الله ﴿ٱسْتَجِيبُوا للهِ وِلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾[2]» ـ ثم قال: ـ «إنّي لأعلمنّك سورة هي أعظم السُّوَر في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنّك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «الحمد لله ربّ العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتُه». قال ابن عبد البر وغيره: أبو سعيد بن المعلى

(١) أي وقال الله هي مقسومة. (٢) راجع ٧/ ٣٨٩.

من جِلّة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرّد به البخاري، وٱسمه رافع، ويقال: الحارث بن نُفيع بن المعلى، ويقال: أوْس بن المعلى، ويقال: أبو سعيد بن أوس بن المعلى؛ تُوُفّيَ سنة أربع وسبعين وهو ٱبن أربع وستين[١] [سنة]، وهو أوّل من صلّى إلى القِبْلة حين حُوّلت، وسيأتي[٢]. وقد أسند حديثَ أُبَيٍّ يزيدُ بن زُرَيع قال: حدّثنا روح بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ على أُبَيّ وهو يصلي؛ فذكر الحديث بمعناه.

وذكر ٱبن الأنباري في كتاب الردّ له: حدّثني أبي حدّثني أبو عبيد الله الورّاق حدّثنا أبو داود حدّثنا شَيبان عن منصور عن مجاهد قال: إنّ إبليس ـ لعنه الله ـ رَنّ أربع رنات: حين لُعن، وحين أهبط من الجنة، وحين بُعث محمد ﷺ، وحين أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة.

الثانية ـ ٱختلف العلماء في تفضيل بعض السُّوَر والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض؛ فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حِبان البُسْتيّ، وجماعة من الفقهاء. ورُوي معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها. وقال عن مالك في قول الله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ قال: محكمة مكان منسوخة. وروى ٱبن كنانة مثل ذلك كله عن مالك. وٱحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول؛ والذاتيّة في الكل واحدة، وهي كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه. قال البُسْتِيّ: ومعنى هذه اللفظة «ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن»: أن الله تعالى لا يُعطي لقارىء التوراة والإنجيل من الثواب مثل

---

(١) قال ٱبن حجر في «الإصابة»: «وهو خطأ، فإنه يستلزم أن تكون قصته مع النبي ﷺ وهو صغير، وسياق الحديث يأبى ذلك».

(٢) راجع ٢/١٤٩.

ما يُعطي لقارىء أم القرآن، إذ الله بفضله فضّل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة. قال ومعنى قوله: «أعظم سورة» أراد به في الأجر، لا أن بعض القرآن أفضل من بعض. وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لاَ إِله إِلاّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدّلالات على وحدانيّته وصفاته ليس موجوداً مثلاً في ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ وما كان مثلها.

والتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة؛ وهذا هو الحق. وممن قال بالتفضيل إسحاق بن رَاهْوَيْه[1] وغيره من العلماء والمتكلمين، وهو ٱختيار القاضي أبي بكر بن العربيّ وٱبن الحصار؛ لحديث أبي سعيد بن المُعَلّى وحديث أُبيّ بن كعب أنه قال قال لي رسول الله ﷺ: «يا أُبيّ أيّ آية معك في كتاب الله أعظم» قال فقلت: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. قال: فضرب في صدري وقال: «لِيَهْنِكَ العِلْمُ يا أبا المنذر» أخرجه البخاري ومسلم.

قال ٱبن الحصار: عجبي ممن يذكر الاختلاف مع هذه النصوص.

وقال ٱبن العربي: قوله: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها» وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزّلة والزبور وغيرها؛ لأن هذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشيء أفضلَ الأفضل، صار أفضلَ الكل؛ كقولك: زيد أفضل العلماء، فهو أفضل الناس.

وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها؛ حتى قيل: إن جميع القرآن فيها. وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن. ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القُرْبة إلا بها، ولا يلحق عمل بثوابها، وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم،

---

(١) ضبطه ٱبن خلكان فقال: «بفتح الراء بعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة، وقيل فيه أيضاً: راهُويه، بضم الهاء وسكون الواو وفتح الياء».

كما صارت ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ، و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد﴾ فيها التوحيد كله، وبهذا المعنى وقع البيان في قوله عليه السلام لأُبيّ: «أيّ آية في القرآن أعظم» قال: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. وإنما كانت أعظمَ آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له» أفضلَ الذكر؛ لأنها كلمات حَوَت جميع العلوم في التوحيد، والفاتحةُ تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير، ولا يستبعد ذلك في قدرة الله تعالى.

الثالثة ـ روى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «فاتحة الكتاب، وآية الكرسي، وشَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، هذه الآيات معلّقات بالعرش ليس بينهنّ وبين الله حجاب». أسنده أبو عمرو الدانيّ في كتاب «البيان» له.

الرابعة ـ في أسمائها، وهي اثنا عشر اسماً:

(الأوّل) الصلاة[1]، قال الله تعالى[2]: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الحديث. وقد تقدّم.

(الثاني) [سورة] الحمد، لأن فيها ذكر الحمد؛ كما يقال: سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها.

(الثالث) فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء؛ وسُمِّيت بذلك لأنه تُفتتح قراءة القرآن بها لفظاً، وتُفتتح بها الكتابة في المصحف خطّاً، وتُفتتح بها الصلوات.

(الرابع) أم الكتاب، وفي هذا الاسم خلاف، جوّزه الجمهور، وكرهه أنس والحسن وابن سيرين. قال الحسن: أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى: ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. وقال أنس وابن سيرين: أم الكتاب اسم اللَّوح المحفوظ. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾.

---

(١) في تفسير الآلوسي وغيره: سورة الصلاة. (٢) أي في الحديث القدسي.

(الخامس) أم القرآن، وٱختلف فيه أيضاً، فجوّزه الجمهور، وكرهه أنس وٱبن سيرين؛ والأحاديث الثابتة تردّ هذين القولين. روى الترمذيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني» قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي البخاري قال: «وسُمِّيت أم الكتاب لأنه يُبتدأ بكتابتها في المصاحف، ويُبدأ بقراءتها في الصلاة. وقال يحيى بن يَعْمر: أُمّ القُرَى: مكة، وأُمّ خُراسان: مَرْوُ، وأم القرآن: سورة الحمد. وقيل: سُمِّيت أم القرآن لأنها أوّله ومتضمّنة لجميع علومه، وبه سُمِّيت مكة أم القُرَى لأنها أوّل الأرض ومنها دُحيت، ومنه سُمِّيت الأم أُمّاً لأنها أصل النّسل، والأرض أمّا، في قول أُمَيّة بن أبي الصَّلْت:

فالأرض مَعْقِلُنا وكانت أمّنا ... فيها مقابرنا وفيها نولد

ويقال لراية الحرب: أمّ؛ لتقدمها وأتباع الجيش لها. وأصل أم أُمّهة، ولذلك تجمع على أمهات، قال الله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ﴾. ويقال أمّات بغير هاء. قال:

فَرَجْتَ الظَّلَامَ بأُمَّاتِكا

وقيل: إن أمّهات في الناس، وأُمّات في البهائم؛ حكاه ٱبن فارس في المجمل.

(السادس) المثاني، سميت بذلك لأنها تُثنّى في كل ركعة. وقيل: سميت بذلك لأنها ٱستثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذُخْراً لها.

(السابع) القرآن العظيم، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن، وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله عز وجلّ بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانته تعالى، وعلى الابتهال إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم؛ وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين.

(الثامن) الشفاء، روى الدارميّ عن أبي سعيد الخُدْرِي قال قال رسول الله ﷺ: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سم[1]».

---

(١) الذي في «مسند الدارمي» عن عبد الملك بن عمير: قال قال رسول الله: «في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء».

(التاسع) الرُّقْيَة، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ وفيه: أن رسول الله ﷺ قال للرجل الذي رَقَى سَيِّد الحيّ: «ما أدراك أنها رُقْية» فقال: يا رسول الله شيء أُلْقِيَ في رُوعِي؛ الحديث. خَرّجه الأئمة، وسيأتي بتمامه.

(العاشر) الأساس ، شكا رجل إلى الشعبيّ وجع الخاصرة؛ فقال: عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب ، سمعت ٱبن عباس يقول : لكل شيء أساس ، وأساس الدنيا مكة، لأنها منها دُحِيَت؛ وأساس السموات عَرِيبا[1]، وهي السماء السابعة؛ وأساس الأرض عجيبا، وهي الأرض السابعة السفلى؛ وأساس الجنان جنة عدن، وهي سُرّة الجنان عليها أُسِّست الجنة؛ وأساس النار جهنم، وهي الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات، وأساس الخلق آدم، وأساس الأنبياء نوح، وأساس بني إسرائيل يعقوب؛ وأساس الكتب القرآن؛ وأساس القرآن الفاتحة؛ وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم؛ فإذا ٱعتللت أو ٱشتكيت فعليك بالفاتحة تُشْفَى[2].

(الحادي عشر) الوافية، قاله سفيان بن عُيَيْنة، لأنها لا تتنصف ولا تحتمل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة، ونصفها الآخر في ركعة لأجزأ؛ ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز.

(الثاني عشر) الكافية، قال يحيى بن أبي كثير: لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها. يدل عليه ما روى محمد بن خلّاد الإسكندراني قال قال النبيّ ﷺ: «أم القرآن عِوَض من غيرها وليس غيرها مْنها عِوَضاً».

الخامسة ـ قال المهلب: إن موضع الرقية منها إنما هو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وقيل: السورة كلها رقية، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره: «وما أدراك أنها رقية» ولم يقل: أن فيها رقية؛ فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية؛ لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه، ومتضمنة لجميع علومه، كما تقدّم والله أعلم.

---

(١) وفي بعض «الأصول»: غريبا (بالغين المعجمة).
(٢) كذا في نسخ الأصل. ولو كان جواباً للأمر لكان «تشف» مجزوماً.

السادسة - ليس في تسميتها بالمثاني وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عزّ وجل: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾ فأطلق على كتابه: مثاني؛ لأن الأخبار تثنى فيه. وقد سميت السبع الطُّوَل أيضاً مثاني؛ لأن الفرائض والقصص تثنى فيها. قال ٱبن عباس: أوتي رسول الله ﷺ سبعاً من المثاني؛ قال: السبع الطُّوَل. ذكره النسائي، وهي من «البقرة» إلى «الأعراف» ست، وٱختلفوا في السابعة، فقيل: يونس، وقيل: الأنفال والتوبة؛ وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير. وقال أعشى همدان:

فلِجُوا المسجدَ وٱدعوا ربّكم وٱدرسوا هذي المثاني والطُّوَل

وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الحجر»[١] إن شاء الله تعالى.

السابعة - المثاني جمع مثنى، وهي التي جاءت بعد الأولى، والطُّوَل جمع أطْوَلَ. وقد سُمِّيت الأنفال من المثاني لأنها تتلو الطُّوَل في القدر. وقيل: هي التي تزيد آياتها على المفصّل وتنقص عن المئين. والمئون: هي السُّوَر التي تزيد كل واحدة منها على مائة آية.

الباب الثاني - في نزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة

الأولى - أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات؛ إلا ما روي عن حسين الجُعْفي: أنها ست؛ وهذا شاذ. وإلا ما روي عن عمرو بن عبيد أنه جعل ﴿إياك نعبد﴾ آية، وهي على عدّه ثماني آيات؛ وهذا شاذ. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي﴾ وقوله: «قسمت الصلاة» الحديث، يردّ هذين القولين.

وأجمعت الأمة أيضاً على أنها من القرآن. فإن قيل: لو كانت قرآن لأثبتها عبد الله بن مسعود في مصحفه، فلما لم يثبتها دلّ على أنها ليست من القرآن، كالمعوّذتين عنده.

فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنباري قال: حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا سليمان بن الأشعث حدّثنا ٱبن أبي قُدامة حدّثنا جَرِير عن الأعمش قال: أظنه عن إبراهيم قال:

---

(١) راجع ١٥/٢٤٩.

قيل لعبد الله بن مسعود: لِمَ لم تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك؟ قال: لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة. قال أبو بكر: يعني أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوّة بعدها، فقال: ٱختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها في موضع فيلزمني أن أكتبها مع كل سورة، إذ كانت تتقدمها في الصلاة.

الثانية ـ ٱختلفوا أهي مَكيّة أم مَدَنيّة؟. فقال ٱبن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحي ـ وٱسمه رُفيع ـ وغيرهم: هي مكية. وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري وغيرهم: هي مدنية. ويقال: نزل نصفها بمكة، ونصفها بالمدينة. حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السَّمَرْقَنْدِيّ في تفسيره. والأوّل أصح لقوله تعالى: ﴿وَلَقَد آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ والحِجْرُ مكية بإجماع. ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة. وما حُفظ أنه كان في الإسلام قطّ صلاة بغير ﴿الحمد لله رب العالمين﴾؛ يدل على هذا قوله عليه السلام: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب». وهذا خبر عن الحُكْم، لا عن الابتداء، والله أعلم.

وقد ذكر القاضي ٱبن الطيب ٱختلاف الناس في أوّل ما نزل من القرآن؛ فقيل: المدّثر، وقيل: ٱقرأ، وقيل: الفاتحة. وذكر البَيْهَقي في دلائل النبوّة عن أبي ميسرة عمرو بن شَرَحْبِيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً» قالت: معاذ الله! ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدّي الأمانة، وتَصِل الرّحِم، وتَصْدُقُ الحديث. فلما دخل أبو بكر ـ وليس رسول الله ﷺ ثَمّ ـ ذكرت خديجة حديثه له، قالت: يا عَتِيق، اذهب مع محمد إلى وَرَقة بن نَوْفل. فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده، فقال: ٱنطلق بنا إلى وَرَقة، فقال: «ومن أخبرك». قال: خديجة، فٱنطلقا إليه فقصّا عليه؛ فقال: «إذا خلوتُ وحدي سمعتُ نداء خلفي يا محمد يا محمد فأنطلق هارباً في الأرض» فقال: لا تفعل، إذا أتاك فٱثبُت حتى تسمع ما يقول ثم ٱئتني فأخبرني. فلما خلا ناداه: يا محمد، قل ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين ـ حتى بلغ ـ ولا الضالين﴾، قل: لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر ذلك له؛ فقال

له ورَقَة : أبشر ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذي بَشّر به عيسى ابن مريـم ، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبيّ مرسل، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، وإن يدركني ذلك لأجاهدنّ معك. فلما تُوُفِّيَ ورقة قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت القَسَّ في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدّقني» يعني ورقة. قال البَيْهَقِيّ رضي الله عنه : هذا منقطع . يعني هذا الحديث ، فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعدما نزل عليه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

الثالثة ـ قال ٱبن عطية: ظنّ بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد ؛ لما رواه مسلم عن ٱبن عباس قال : بينما جبريل قاعد عنـد النبيّ ﷺ سمع نَقيضاً[1] من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فُتـح اليوم لم يُفتح قط إلا اليوم، فنزل منه مَلَك، فقال: هذا ملَك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم؛ فسلّم وقال: أبشر بنورين أوتيتَهما لم يُؤتَهما نبيّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة؛ لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطيتَه. قال ٱبن عطية: وليس كما ظنّ، فإن هذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدّم المَلَك إلى النبيّ ﷺ مُعْلِماً به وبما ينزل معه؛ وعلى هذا يكون جبريل شارك في نزولها؛ والله أعلم.

قلت: الظاهر من الحديث يدلّ على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبيّ ﷺ بشيء من ذلك. وقد بينا أن نزولها كان بمكة، نزل بها جبريل عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ وهذا يقتضي جميع القرآن، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة، ونزل المَلَك بثوابها بالمدينة. والله أعلم. وقد قيل: إنها مكية مدنية، نزل بها جبريل مرتين؛ حكاه الثعلبي. وما ذكرناه أولى. فإنه جمع بين القرآن والسُّنة، ولله الحمد والمِنّة.

---

(١) النقيض: الصوت.

الرابعة ـ قد تقدّم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح، وإذا ثبت ذلك فحكم المصلّي إذا كبّر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت، ولا يذكر توجيهاً ولا تسبيحاً؛ لحديث عائشة وأنس المتقدّمَيْن وغيرهما، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه والتسبيح والسكوت، قال بها جماعة من العلماء؛ فروي عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما أنهما كانا يقولان إذا ٱفتتحا الصلاة: سبحانك اللّهُمّ وبحمدك، تبارك ٱسمك، وتعالى جَدّك، ولا إله غيرك. وبه قال سفيان وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي. وكان الشافعيّ يقول بالذي رُوي عن عليّ عن النبيّ ﷺ أنه كان إذا ٱفتتح الصلاة كبّر ثم قال: «وَجّهت وجهِي» الحديث، ذكره مسلم، وسيأتي بتمامه في آخر سورة الأنعام، وهناك يأتي القول في هذه المسألة مستوفًى إن شاء الله[1].

قال ٱبن المنذر: ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا كبّر في الصلاة سكت هُنَيْهَةً قبل أن يقرأ يقول: «اللّهُمّ باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللّهُمّ نَقِّنِي من خطاياي كما يُنَقَّى الثوب الأبيض من الدَّنَس اللّهمّ ٱغسلني من خطاياي بالماء والثّلج والبَرَد» وٱستعمل ذلك أبو هريرة. وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: للإمام سكتتان فٱغتنموا فيهما القراءة. وكان الأوزاعيّ وسعيد بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل يميلون إلى حديث النبيّ ﷺ في هذا الباب.

الخامسة ـ وٱختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة؛ فقال مالك وأصحابه: هي متعيّنة للإمام والمنفرد في كل ركعة. قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد البصري المالكي: لم يختلف قول مالك أنه من نَسِيَها في صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه. وٱختلف قولُه فيمن تركها ناسياً في ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية؛ فقال مرة: يعيد الصلاة، وقال مرة أخرى: يسجد سجدتي السهو؛ وهي رواية ٱبن عبد الحكم وغيره عن مالك. قال ٱبن خُويز منداد وقد قيل: إنه يعيد تلك الركعة ويسجد للسهو بعد السلام. قال ٱبن عبد البرّ: الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة ويأتي بركعة بدلاً منها، كمن

(١) راجع ١٥٣/٧.

أسقط سجدةً سهواً. وهو ٱختيار ٱبن القاسم. وقال الحسن البصري وأكثر أهل البصرة والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومي المدني: إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة في الصلاة أجزأه ولم تكن عليه إعادة؛ لأنها صلاة قد قرأ فيها بأم القرآن؛ وهي تامة لقوله عليه السلام: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن» وهذا قد قرأ بها.

قلت: ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها في كل ركعة، وهو الصحيح على ما يأتي. ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها في أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم.

وقال أبو حنيفة والثوري والأوزاعيّ: إن تركها عامداً في صلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه؛ على ٱختلاف عن الأوزاعيّ في ذلك. وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن: أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدَّين. وعن محمد بن الحسن أيضاً قال: أسوّغ الاجتهاد في مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة؛ نحو: «الحمد لله». ولا أسوّغه في حرف لا يكون كلاماً.

وقال الطبريّ: يقرأ المصلّي بأم القرآن في كل ركعة، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن عدد آيها وحروفها. قال ٱبن عبد البرّ: وهذا لا معنى له؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها بهذا الحكم دون غيرها؛ ومحال أن يجيء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها، وإنما عليه أن يجيء بها ويعود إليها، كسائر المفروضات المتعيَّنات في العبادات.

السادسة ـ وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعاً فالإمام يحمل عنه القراءة؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعاً أنه يكبّر ويركع ولا يقرأ شيئاً، وإن أدركه قائماً فإنه يقرأ، وهي المسألة:

السابعة ـ ولا ينبغي لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه في صلاة السِّر؛ فإن فعل فقد أساء؛ ولا شيء عليه عند مالك وأصحابه. وأما إذا جهر الإمام وهي المسألة:

الثامنة ـ فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها في المشهور من مذهب مالك؛ لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِىءَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، وقول رسول الله ﷺ: «مالي أنازع القرآن»، وقوله في الإمام: «إذا قرأ فأنصتوا»، وقوله: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة».

وقال الشافعي فيما حكى عنه البُوَيْطِيّ وأحمد بن حنبل: لا تجزىء أحداً صلاةٌ حتى يقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة، إماماً كان أو مأموماً، جَهَر إمامُه أو أسرّ. وكان الشافعيّ بالعراق يقول في المأموم: يقرأ إذا أَسَرّ ولا يقرأ إذا جَهَر؛ كمشهور مذهب مالك. وقال بمصر: فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة قولان: أحدهما أن يقرأ، والآخر يجزئه ألا يقرأ ويكتفي بقراءة الإمام. حكاه ٱبن المنذر. وقال ٱبن وهب وأشهب وٱبن عبد الحكم وٱبن حبيب والكوفيون: لا يقرأ المأموم شيئاً، جَهَر إمامه أو أسَرّ؛ لقوله عليه السلام: «فقراءة الإمام له قراءة» وهذا عامّ، ولقول جابر: مَن صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يُصَلّ إلا وراء الإمام.

التاسعة ـ الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعي وأحمد ومالك في القول الآخر، وأن الفاتحة متعيّنة في كل ركعة لكل أحد على العموم؛ لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب»، وقوله: «مَن صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج» ثلاثاً. وقال أبو هريرة: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي أنه: «لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد» أخرجه أبو داود. كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى، فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها؛ وبه قال عبد الله بن عَوْن وأيوب السّختياني وأبو ثَور وغيره من أصحاب الشافعيّ وداود بن عليّ، وروي مثله عن الأوزاعيّ؛ وبه قال مكحول.

وروي عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وأُبَيّ بن كعب وأبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاص وعُبادة بن الصّامت وأبي سعيد الخُدْرِي وعثمان بن أبي العاص وخَوّات بن جُبير أنهم قالوا: لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب. وهو قول ٱبن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعي؛ فهؤلاء الصحابة بهم القُدوة، وفيهم الأُسْوة، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة.

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سُننه ما يرفع الخلاف ويزيل كل ٱحتمال فقال: حدّثنا أبو كُريب حدّثنا محمد بن فضيل، ح، وحدّثنا سُوَيد بن سعيد

حدّثنا عليّ بن مُسْهر جميعاً عن أبي سفيان السّعدي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد لله وسورة في فريضة أو غيرها». وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أنه عليه السلام قال للذي علمه الصلاة: «وٱفعل ذلك في صلاتك كلها» وسيأتي. ومن الحجة في ذلك أيضاً ما رواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصاري قال: أبطأ عُبادة بن الصامت عن صلاة الصبح؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصلاة فصلّى أبو نعيم بالناس، وأقبل عُبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبي نعيم، وأبو نعيم يجهر بالقراءة؛ فجعل عُبادة يقرأ بأم القرآن؛ فلما ٱنصرف قلت لعبادة: سمعتك تقرأ بأمّ القرآن وأبو نعيم يجهر؟ قال: أجل! صلّى بنا رسول الله ﷺ بعض الصلوات التي يُجهر فيها بالقراءة فالتبسَتْ عليه؛ فلما ٱنصرف أقبل علينا بوجهه فقال: «هل تقرءون إذا جهرتُ بالقراءة»؟ فقال بعضنا: إنا نصنع ذلك؛ قال: «فلا. وأنا أقول مالي يُنازعني القرآن فلا تقرءوا بشيء من القرآن إذا جَهرتُ إلا بأمّ القرآن». وهذا نص صريح في المأموم. وأخرجه أبو عيسى الترمذي من حديث محمد بن إسحاق بمعناه؛ وقال: حديث حسن. والعمل على هذا الحديث في القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبيّ ﷺ والتابعين؛ وهو قول مالك بن أنس وٱبن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق، يرون القراءة خلف الإمام. وأخرجه أيضاً الدَّارَقُطْنِيّ وقال: هذا إسناد حسن، ورجاله كلهم ثِقات؛ وذكر أن محمود بن الربيع كان يسكن إيلياء[1]، وأن أبا نعيم أوّل من أذّن في بيت المَقْدِس. وقال أبو محمد عبد الحق: ونافع بن محمود لم يذكره البخاريّ في تاريخه ولا ٱبن أبي حاتم؛ ولا أخرج له البخاري ومسلم شيئاً. وقال فيه أبو عمر: مجهول. وذكر الدارقطنيّ عن يزيد بن شريك قال: سألت عمر عن القراءة خلف الإمام، فأمرني أن أقرأ، قلت: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا؛ قلت: وإن جهرت؟ قال: وإن جهرتُ. قال الدارقطنيّ: هذا إسناد صحيح. ورُوي عن جابر بن عبد الله

(١) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس.

قال قال رسول الله ﷺ: «الإمام ضامن فما صنع فأصنعوا». قال أبو حاتم: هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام؛ وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسيَّ أن يقرأ بها في نفسه حين قال له: إني أحياناً أكون وراء الإمام، ثم أستدل بقوله تعالى[١]: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل». قال رسول الله ﷺ: «أقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين» الحديث.

العاشرة ـ أمّا ما استدل به الأوّلون بقوله عليه السلام: «وإذا قرأ فأنصتوا» أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعريّ؛ وقال: وفي حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة «وإذا قرأ فأنصتوا» قال الدارقطنيّ: هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمي فيها عن قتادة؛ وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها؛ منهم شعبة وهشام وسعيد بن أبي عَرُوبة وهمام وأبو عوان ومعمر وعَدِيّ بن أبي عمارة. قال الدّارَقُطْنِيّ: فإجماعهم يدلّ على وَهَمه. وقد روي عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمي؛ ولكن ليس هو بالقويّ، تركه القَطّان. وأخرج أيضاً هذه الزيادة أبو داود من حديث أبي هريرة وقال: هذه الزيادة «إذا قرأ فأنصتوا» ليست بمحفوظة. وذكر أبو محمد عبد الحق: أن مسلماً صَحّح حديثَ أبي هريرة وقال: هو عندي صحيح.

قلت: ومما يدل على صحتها عنده إدخالها في كتابه من حديث أبي موسى وإن كانت مما لم يجمعوا عليها. وقد صححها الإمام أحمد بن حنبل وابن المنذر. وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ فإنه نزل بمكة، وتحريم الكلام في الصلاة نزل بالمدينة ـ كما قال زيد بن أرقم ـ فلا حجة فيها؛ فإن المقصود كان المشركين، على ما قال سعيد بن المسيّب. وقد روى الدّارَقُطْنِيّ عن أبي هريرة أنها نزلت في رفع الصوت خلف رسول الله ﷺ في الصلاة. وقال: عبد الله بن عامر ضعيف. وأما قوله عليه السلام: «مالي أنازع القرآن» فأخرجه مالك عن ابن شهاب عن ابن أُكيمة اللّيْثي، واسمه فيما قال مالك: عمرو،

(١) أي في الحديث القدسي.

وغيره يقول عامر ، وقيل يزيد ، وقيل عمارة، وقيل عباد، يكنى أبا الوليد تُوُفِّي سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وسبعين سنة ، لم يَرْوِ عنه الزهري إلا هذا الحديث الواحد، وهو ثقة، وروى عنه محمد بن عمرو وغيره. والمعنى في حديثه: لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجاذب وتخالج، أقرءوا في أنفسكم. يُبَيِّنه حديثُ عبادَةَ وفُتْيَا الفاروق وأبي هريرة الراوي للحديثين. فلو فهم المنع جملة من قوله: «مالي أنازع القرآن» لما أفتى بخلافه؛ وقول الزهري في حديث ابن أُكَيمة: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جَهَر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ ، يريد بالحمد على ما بينا؛ وبالله توفيقنا.

وأما قوله ﷺ : «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك، وأبو حنيفة[1] وهو ضعيف؛ كلاهما عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شدّاد عن جابر. أخرجه الدارقطنيّ وقال: رواه سفيان الثوري وشعبة وإسرائيل بن يونس وشريك وأبو خالد الدالاني وأبو الأحوص وسفيان بن عُيينة وجَرير بن عبد الحميد وغيرهم، عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شدّاد مرسلاً عن النبيّ ﷺ وهو الصواب. وأما قول جابر: من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فلم يصل إلا وراء الإمام؛ فرواه مالك عن وهب بن كَيسان عن جابر قولَه. قال ابن عبد البر: ورواه يحيى بن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبي نعيم وهب بن كيسان عن جابر عن النبيّ ﷺ . وصوابه موقوف على جابر كما في المُوَطّأ. وفيه من الفقه إبطالُ الركعة التي لا يُقرأ فيها بأم القرآن؛ وهو يشهد لصحة ما ذهب إليه ابن القاسم ورواه عن مالك في إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتدّ المصلي بركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب. وفيه أيضاً أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة؛ وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره.

---

(١) قد ترجمه ابن حجر في «التهذيب» وابن خلكان في «الوفيات» ولم يذكرا عنه ضعفاً في الحديث ولكن ابن سعد في «الطبقات» قد وصفه بذلك.

الحادية عشرة ـ قال ٱبن العربي: لما قال ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» وٱختلف الناس في هذا الأصل هل يُحمل هذا النفي على التمام والكمال، أو على الإجزاء؟ ٱختلفت الفَتْوَى بحسب ٱختلاف حال الناظر، ولما كان الأشهر في هذا الأصل والأقوى أن النفي على العموم، كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة في صلاته بطلت. ثم نظرنا في تكرارها في كل ركعة؛ فمن تأوّل قول النبيّ ﷺ: «ٱفعل ذلك في صلاتك كلها» لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود. والله أعلم.

الثانية عشرة ـ ما ذكرناه في هذا الباب من الأحاديث والمعاني في تعيين الفاتحة يردّ على الكوفيين قولهم في أن الفاتحة لا تتعيّن، وأنها وغيرها من آي القرآن سواء. وقد عيّنها النبيّ ﷺ بقوله كما ذكرناه؛ وهو المبيّن عن الله تعالى مراده في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. وقد روى أبو داود عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال: أُمِرْنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسّر. فدلّ هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابي: «ٱقرأ ما تيسّر معك من القرآن» ما زاد على الفاتحة، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾. وقد روى مسلم عن عُبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن ـ زاد في رواية ـ فصاعداً». وقوله عليه السلام: «هي خِداج ـ ثلاثاً ـ غير تمام» أي غير مجزئة بالأدلة المذكورة. والْخِداج: النقص والفساد. قال الأخفش: خدجت الناقة؛ إذا ألقت ولدها لغير تمام، وأخدجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وإن كان تام الخلق.

والنظر يوجب في النقصان ألا تجوز معه الصلاة؛ لأنها صلاة لم تتم؛ ومن خرج من صلاته وهي لم تتم فعليه إعادتها كما أُمِر، على حسب حكمها. ومن ٱدعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل، ولا سبيل إليه من وجه يُلزم، والله أعلم.

الثالثة عشرة ـ روي عن مالك أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة؛ وكذلك كان الشافعيّ يقول بالعراق فيمن نسيها، ثم رجع عن هذا بمصر فقال: لا تجزىء صلاة من يحسن

فاتحة الكتاب إلا بها، ولا يجزئه أن ينقص حرفاً منها؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفاً أعاد صلاته وإن قرأ بغيرها. وهذا هو الصحيح في المسألة. وأما ما روي عن عمر رحمه الله أنه صلّى المغرب فلم يقرأ فيها، فذُكر ذلك له فقال: كيف كان الركوع والسجود؟ قالوا: حسن، قال: لا بأس إذاً، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمي عن عمر، ومَرّة يرويه إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عمر، وكلاهما منقطع لا حجة فيه؛ وقد ذكره مالك في الموطأ، وهو عند بعض الرواة وليس عند يحيى وطائفة معه، لأنه رماه مالك من كتابه بِأَخَرَةٍ[1]، وقال ليس عليه العمل لأن النبيّ ﷺ قال: «كل صلاة لا يُقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج» وقد روي عن عمر أنه أعاد تلك الصلاة؛ وهو الصحيح عنه. روى يحيى بن يحيى النيسابوري قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعِيّ عن همام بن الحارث أن عمر نسي القراءة في المغرب فأعاد بهم الصلاة. قال ابن عبد البر: وهذا حديث متصل شهده همّام من عمر؛ روي ذلك من وجوه. وروى أشهب عن مالك قال: سئل مالك عن الذي نسي القراءة، أيعجبك ما قال عمر؟ فقال: أنا أنكر أن يكون عمر فعله ـ وأنكر الحديث ـ وقال: يرى الناس عمر يصنع هذا في المغرب ولا يسبحون به! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا.

الرابعة عشرة - أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة ، على ما تقدّم من أصولهم في ذلك. وأجمعوا على أن لا توقيت في ذلك بعد فاتحة الكتاب؛ إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر مما جاء عن النبيّ ﷺ. قال مالك: وسنة القراءة أن يقرأ في الركعتين الأولَيَيْن بأم القرآن وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب. وقال الأوزاعيّ: يقرأ بأم القرآن فإن لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزأه، وقال: وإن نسي أن يقرأ في ثلاث ركعات أعاد. وقال الثَّوْرِيّ: يقرأ في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة، ويسبّح في الأخريين إن شاء، وإن شاء قرأ، وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت

(١) أي بتأخر وبعد عن الخير.

صلاته، وهو قول أبي حنيفة وسائر الكوفيين. قال ٱبن المنذر: وقد رَوينا عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ٱقرأ في الأُولَيَيْن وسبح في الأخريين، وبه قال النَّخَعِيّ. قال سفيان: فإن لم يقرأ في ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة. قال: وكذلك إن نسي أن يقرأ في ركعة من صلاة الفجر. وقال أبو ثَور: لا تجزىء صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة، كقول الشافعي المصري، وعليه جماعة أصحاب الشافعي. وكذلك قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد المالكي؛ قال: قراءة الفاتحة واجبة عندنا في كل ركعة، وهذا هو الصحيح في المسألة. روى مسلم عن أبي قتادة قال: كان رسول الله ﷺ يصلّي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، ويسمعنا الآية أحياناً، وكان يطوّل في الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية، وكذلك في الصبح. وفي رواية: ويقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب؛ وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك، ونصٌ في تعيُّن الفاتحة في كل ركعة؛ خلافاً لمن أبى ذلك، والحُجّة في السُّنة لا فيما خالفها.

الخامسة عشرة ـ ذهب الجمهور إلى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب؛ لما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: في كل صلاة قراءة؛ فما أسمعنا النبيّ ﷺ أسمعناكم، وما أخفى منّا أخفينا منكم؛ فمن قرأ بأم القرآن فقد أجزأت عنه، ومن زاد فهو أفضل. وفي البخاري: وإن زدت فهو خير. وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة؛ منهم عمران بن حصين وأبو سعيد الخُدْري وخَوّات بن جبير ومجاهد وأبو وائل وٱبن عمر وٱبن عباس وغيرهم؛ قالوا: لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها من القرآن؛ فمنهم من حدّ آيتين، ومنهم من حَدّ آية، ومنهم من لم يَحُدّ، وقال: شيء من القرآن معها؛ وكل هذا موجب لتعلّم ما تيسّر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب؛ لحديث عُبادة وأبي سعيد الخدري وغيرهما. وفي المُدَوّنة: وكيع عن الأعمش عن خَيْثمة قال: حدّثني من سمع عمر بن الخطاب يقول: لا تجزىء صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها. وٱختلف المذهب في قراءة السورة على ثلاثة أقوال: سنة، فضيلة، واجبة.

السادسة عشرة - من تعذّر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا عَلِق منه بشيء، لزمه أن يذكر الله في موضع القراءة بما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوّة إلا بالله، إذا صلّى وحده أو مع إمام فيما أسَرّ فيه الإمام؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبي أَوْفَى قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً، فعلمني ما يجزئني منه؛ قال: «قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حَوْل ولا قوّة إلا بالله»؛ قال: يا رسول الله، هذا لله، فمالي؟ قال: «قل اللّهُمّ ٱرحمني وعافني وٱهدني وٱرزقني».

السابعة عشرة - فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهدَه؛ فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله؛ وعليه أبداً أن يجهد نفسه في تعلم فاتحة الكتاب فما زاد، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله.

الثامنة عشرة - من لم يواته لسانُه إلى التكلم بالعربية من الأعجمين وغيرهم تُرجم له الدعاء العربي بلسانه الذي يفقه لإقامة صلاته؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى.

التاسعة عشرة - لا تجزىء صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية في قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية؛ لأن المقصود إصابة المعنى. قال ٱبن المنذر: لا يجزئه ذلك؛ لأنه خلاف ما أمر الله به، وخلاف ما علّم النبيّ ﷺ، وخلاف جماعات المسلمين. ولا نعلم أحداً وافقه على ما قال.

الموفية عشرين - من ٱفتتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة، فطرأ عليه العلم بها في أثناء الصلاة، ويتصوّر ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعَلِقت بحفظه من مجرّد السماع فلا يستأنف الصلاة؛ لأنه أدّى ما مضى على حسب ما أُمِر به؛ فلا وجه لإبطاله. قاله في كتاب ٱبن سحنون.

الباب الثالث ـ في التأمين، وفيه ثمان مسائل

الأولى ـ ويسنّ لقارىء القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون ﴿ولا الضالين﴾: آمين؛ ليتميّز ما هو قرآن مما ليس بقرآن.

الثانية ـ ثبت في الأمّهات من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنه مَن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدّم من ذنبه». قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فترتبت المغفرة للذنب على مقدّمات أربع تضمّنها هذا الحديث؛ الأولى: تأمين الإمام، الثانية: تأمين مَن خلفه، الثالثة: تأمين الملائكة، الرابعة: موافقة التأمين؛ قيل في الإجابة، وقيل في الزمن، وقيل في الصفة من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام: «ٱدعوا الله وأنتم مُوقنون بالإجابة وٱعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ».

الثالثة ـ روى أبو داود عن أبي مُصَبِّح المَقْرَائيّ قال: كنا نجلس إلى أبي زُهير النميريّ وكان من الصحابة، فيحدّث أحسن الحديث، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال: ٱختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة. قال أبو زهير: ألا أخبركم عن ذلك، خرجنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فأتينا على رجل قد ألحّ في المسألة، فوقف النبيّ ﷺ يسمع منه، فقال النبيّ ﷺ: «أوجب إن ختم» فقال له رجل من القوم: بأيّ شيء يختم؟ قال: «بآمين فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب» فٱنصرف الرجل الذي سأل النبيّ ﷺ، فأتى الرجل فقال له: ٱختم يا فلان وأبشر. قال ٱبن عبد البر: أبو زهير النميري ٱسمه يحيى بن نفير روى عن النبيّ ﷺ: «لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم». وقال وهب بن مُنَبّه: آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف مَلَكاً يقول: اللّهُمّ ٱغفر لكل من قال آمين. وفي الخبر «لَقّنني جبريل آمين عند

فراغي من فاتحة الكتاب وقال إنه كالخاتم على الكتاب» وفي حديث آخر: «آمين خاتم رب العالمين». قال الهَرَوِيّ قال أبو بكر: معناه أنه طابع الله على عباده؛ لأنه يدفع [به عنهم[1]] الآفات والبلايا؛ فكان كخاتَم الكتاب الذي يصونه، ويمنع من إفساده وإظهار ما فيه. وفي حديث آخر: «آمين درجة في الجنة». قال أبو بكر: معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة في الجنة.

الرابعة ـ معنى آمين عند أكثر أهل العلم: اللهُمّ ٱستجب لنا؛ وُضِع موضع الدعاء. وقال قوم: هو ٱسم من أسماء الله؛ رُوي عن جعفر بن محمد ومجاهد وهلال بن يِسَاف ورواه ٱبن عباس عن النبيّ ﷺ ولم يصح؛ قاله ٱبن العربي. وقيل معنى آمين: كذلك فليكن؛ قال الجوهري. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ٱبن عباس قال: سألت رسول الله ﷺ ما معنى آمين؟ قال: «رَبّ ٱفعل». وقال مُقاتل: هو قوّة للدعاء، وٱستنزال للبركة. وقال الترمذي: معناه لا تخيّب رجاءنا.

الخامسة ـ وفي آمين لغتان: المدّ على وزن فاعيل كياسين. والقصر على وزن يمين. قال الشاعر في المدّ:

يا ربّ لا تسلُبَنّي حبّها أبداً ... ويرحمُ الله عبداً قال آمينا

وقال آخر:

آمين آمين لا أرضى بواحدة ... حتى أبلّغها ألفينِ آمينا

وقال آخر في القصر:

تباعد منّي فُطْحُلٌ إذ سألتُه ... أمينَ فزاد الله ما بيننا بُعدَا

وتشديد الميم خطأ؛ قاله الجوهري. وقد روي عن الحسن وجعفر الصادق التشديد؛ وهو قول الحسين بن الفضل؛ مِن أمّ إذا قصد، أي نحن قاصدون نحوك؛ ومنه قوله: ﴿وَلَآ آمِّينَ

(١) الزيادة عن اللسان مادة (أمن).

البَيْتَ الْحَرَامَ﴾. حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشَيْرِي. قال الجوهري: وهو مبنيٌّ على الفتح مثل أين وكيف؛ لاجتماع الساكنين. وتقول منه: أمَّن فلان تأميناً.

السادسة ـ ٱختلف العلماء هل يقولها الإمام وهل يَجهر بها؛ فذهب الشافعي ومالك في رواية المدنيّين إلى ذلك. وقال الكوفيون وبعض المدنيين: لا يجهر بها. وهو قول الطبري؛ وبه قال ٱبن حبيب من علمائنا. وقال ٱبن بكير: هو مخيّر. وروى ٱبن القاسم عن مالك أن الإمام لا يقول آمين وإنما يقول ذلك مَن خلفه؛ وهو قول ٱبن القاسم والمصريين من أصحاب مالك. وحجتهم حديث أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ خَطَبنا فبيّن لنا سنّتنا وعلّمنا صلاتنا فقال: «إذا صلّيتم فأقيموا صفوفكم ثم لِيَؤمّكم أحدكم فإذا كبّر فكبّروا وإذا قال غير ٱلمغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله» وذكر الحديث، أخرجه مسلم. ومثله حديث سُمَيٍّ عن أبي هريرة؛ وأخرجه مالك. والصحيح الأوّل لحديث وائل بن حُجْر قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ ﴿ولا الضالين﴾ قال: «آمين» يرفع بها صوته؛ أخرجه أبو داود والدّارَقُطْنِيّ، وزاد «قال أبو بكر: هذه سُنّة تفرّد بها أهل الكوفة، هذا صحيح والذي بعده». وترجم البخاري «باب جَهْر الإمام بالتأمين».

وقال عطاء: «آمين» دعاء، أمّن ٱبنُ الزبير ومَن وراءه حتى إن للمسجد لَلَجّة[1]. قال الترمذي: وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبيّ ﷺ ومَن بعدهم، يَرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها. وبه يقول الشافعي وأحمد وإسحاق. وفي المُوَطّأ والصحيحين قال ٱبن شهاب: وكان رسول الله ﷺ يقول: «آمين». وفي «سنن ابن ماجه» عن أبي هريرة قال: ترك الناس آمين؛ وكان رسول الله ﷺ إذا قال: ﴿غيرِ ٱلمغضوبِ عليهم ولا الضالين﴾ قال: «آمين» حتى يسمعها أهل الصف الأوّل فيرتجّ بها المَسجد. وأما حديث أبي موسى وسُمَيّ فمعناهما التعريف بالموضع الذي يقال فيه آمين؛ وهو إذا قال الإمام: «ولا الضالين» ليكون قولهما معاً، ولا يتقدّموه بقول: آمين؛

(١) اللجة: الصوت.

لما ذكرناه، والله أعلم. ولقوله عليه السلام: «إذا أمّن الإمام فأمّنوا». وقال ٱبن نافع في كتاب ٱبن الحارث: لا يقولها المأموم إلا أن يسمع الإمامَ يقول: «ولا الضالين». وإذا كان ببُعْد لا يسمعه فلا يقل. وقال ٱبن عبدوس: يتحرّى قدر القراءة ويقول: آمين.

السابعة ـ قال أصحاب أبي حنيفة: الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾. قالوا: والدليل عليه ما رُوي في تأويل قوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾. قال: كان موسى يدعو وهارون يؤمّن؛ فسماهما الله داعِيَيْن.

الجواب: إنّ إخفاء الدعاء إنما كان أفضل لما يدخله من الرياء. وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شعارٍ ظاهر، وإظهارُ حق يُندب العباد إلى إظهاره؛ وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحة المشتملة على الدعاء والتأمين في آخرها؛ فإذا كان الدعاء مما يسنّ الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجار مجراه؛ وهذا بيّن.

الثامنة ـ كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السلام. ذكر الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»: حدّثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدّثنا أبي قال حدّثنا رَزين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدّثنا أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله أعطى أمتي ثلاثاً لم تُعط أحداً قبلهم السلام وهو تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون» قال أبو عبد الله: معناه أن موسى دعا على فرعون، وأمّن هارون، فقال الله تبارك ٱسمه عندما ذكر دعاء موسى في تنزيله: ﴿قد أُجِيبتْ دَعْوَتُكُما﴾ ولم يذكر مقالة هارون؛ وقال موسى: ربّنا، فكان من هارون التأمين، فسماه داعياً في تنزيله، إذ صيّر ذلك منه دَعوة. وقد قيل: إن آمين خاص لهذه الأمة؛ لما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين» أخرجه ابن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سُهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة أن النبيّ ﷺ قال...؛ الحديث. وأخرج أيضاً من

حديث ٱبن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين فأكثروا من قول آمين». قال علماؤنا[١] رحمة الله عليهم: إنما حَسَدَنا أهل الكتاب لأن أوّلها حمدٌ لله وثناءٌ عليه ثم خضوع له وٱستكانة، ثم دعاء لنا بالهداية إلى الصراط المستقيم، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين.

الباب الرابع ـ فيما تضمّنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ستّ وثلاثون مسألة

الأولى ـ قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ روى أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ ﷺ قال: «إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدي الحمد لي». وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشّربة فيحمده عليها». وقال الحسن: ما مِن نعمة إلا والحمد لله أفضل منها. وروى ٱبن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمةً فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أَخذ». وفي «نوادر الأصول» عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضلَ من ذلك». قال أبو عبد الله: معناه عندنا أنه قد أُعطي الدنيا، ثم أعطي على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية، هي من الباقيات الصالحات؛ قال [الله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصالِحَاتُ][٢] خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾. وقيل في بعض الروايات: لكان ما أَعطى أكثر مما أخذ. فصيّر الكلمة إعطاءً من العبد، والدنيا أخذاً من الله؛ فهذا

(١) هذا حمل منهم للحديث على الفاتحة مع آمين في آخرها.
(٢) زيادة عن «نوادر الأصول».

في التدبير[١]. كذاك يجري في الكلام أن هذه الكلمة من العبد، والدنيا من الله؛ وكلاهما من الله في الأصل، الدنيا منه والكلمة منه؛ أعطاه الدنيا فأغناه، وأعطاه الكلمة فشرفه بها في الآخرة. وروى ٱبن ماجه عن ٱبن عمر أن رسول الله ﷺ حدّثهم: «أن عبداً من عباد الله قال يا رَب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعَضَلَتْ بالمَلَكَيْن فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى السماء وقالا يا رَبَّنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها قال الله عزّ وجلّ وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدي قالا يا ربّ إنه قد قال يا رَبِّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما ٱكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها».

قال أهل اللغة: أعضل الأمر: ٱشتد وٱستغلق؛ والمعضّلات (بتشديد الضاد): الشدائد. وعضَّلت المرأة والشاة: إذا نَشِب ولدها فلم يسهل مخرجه؛ بتشديد الضاد أيضاً؛ فعلى هذا يكون: أعْضَلت الملكين أو عَضّلَت الملكين بغير باء. والله أعلم. ورُوي عن مسلم عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «الطُّهور شَطْرُ الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض» وذكر الحديث.

الثانية - ٱختلف العلماء أيُّما أفضل؛ قول العبد: الحمد لله رب العالمين، أو قول لا إلٰه إلا الله؟ فقالت طائفة: قوله الحمد لله رب العالمين أفضل؛ لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إلٰه إلا الله؛ ففي قوله توحيد وحمد؛ وفي قوله لا إلٰه إلا الله توحيد فقط. وقالت طائفة: لا إلٰه إلا الله أفضل؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك، وعليها يقاتل الخلق؛ قال رسول الله ﷺ: «أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلٰه إلا الله». وٱختار هذا القول ٱبن عطية قال: والحاكم بذلك قول النبيّ ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون مِن قبلي لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له».

---

(١) في بعض نسخ الأصل: «في التذكير».

الثالثة ـ أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه، وأن مما أنعم الله به الإيمان؛ فدلّ على أن الإيمان فعله وخلقه؛ والدليل على ذلك قوله: ﴿رَبِّ الْعالَمِينَ﴾. والعالَمون جملة المخلوقات، ومن جملتها الإيمان، لا كما قال القَدَرِيَّةُ: إنه خَلْقٌ لهم؛ على ما يأتي بيانه.

الرابعة ـ الحمد في «كلام العرب» معناه الثناء الكامل؛ والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا؛ وقد جُمع لفظ الحمد جمع القلة في قول الشاعر:

وأبلج محمودِ الثناءِ خَصَصْتُه بأفْضَلِ أقوالي وأَفْضَلِ أحْمُدي

فالحمد نقيض الذم، تقول: حمدت الرجل أَحْمَدُه حَمْداً فهو حميد ومحمود؛ والتحميد أبلغ من الحمد. والحمد أعمّ من الشكر، والمحمَّد: الذي كثرت خصاله المحمودة. قال الشاعر:

إلى الماجد القَرْم الجَوَاد المُحَمَّدِ

وبذلك سمي رسول الله ﷺ. وقال الشاعر[(١)]:

فَشَقّ له مِن اسمه لِيُجِلَّه فذو العَرْش محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ

والمَحْمَدة: خلاف المذمّة. وأَحْمَد الرجلُ: صار أمره إلى الحمد. وأحمدته: وجدته محموداً؛ تقول: أتيت موضع كذا فأحمدته؛ أي صادفته محموداً موافقاً، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه. ورجل حُمَدَة ـ مثل هُمَزَة ـ يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها. وحَمَدَة النار ـ بالتحريك ـ: صوت التهابها.

الخامسة ـ ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بمرضيّ. وحكاه أبو عبد الرحمن السلميّ في كتاب «الحقائق» له عن جعفر الصادق وابن عطاء. قال ابن عطاء: معناه الشكر لله؛ إذْ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه. واستدل الطبري على أنهما بمعنًى بصحة قولك: الحمد لله شكراً. قال ابن عطية: وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك شكراً، إنما خصصت به الحمد؛ لأنه على نعمة من النعم. وقال بعض العلماء: إن الشكر أعمّ من الحمد؛ لأنه باللسان وبالجوارح

(١) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه.

والقلب؛ والحمد إنما يكون باللسان خاصّة. وقيل: الحمد أعمّ، لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح، وهو أعمّ من الشكر؛ لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد. ورُوي عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمةُ كل شاكر، وإن آدم عليه السلام قال حين عَطَس: الحمد لله. وقال الله لنوح عليه السلام: ﴿فَقُلِ الحَمدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ﴾[٢]. وقال في قصة داود وسليمان: ﴿وَقَالاَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]. وقال لنبيّه ﷺ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾[٤]. وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾[٥]. ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٦]. فهي كلمة كلّ شاكر.

قلت: الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان[٧]. وعلى هذا الحدّ قال علماؤنا: الحمد أعمّ من الشكر؛ لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر؛ والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أوْلاك معروفاً؛ فصار الحمد أعمّ في الآية لأنه يزيد على الشكر. ويُذكر الحمد بمعنى الرضا؛ يقال: بلوته فحمِدته، أي رضيته. ومنه قوله تعالى: ﴿مَقَاماً مَحْمُوداً﴾[٨]. وقال عليه السلام: «أحمد إليكم غسل الإحليل» أي أرضاه لكم. ويذكر عن جعفر الصادق في قوله: ﴿الحمد لله﴾: من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد؛ لأن الحمد حاء وميم ودال؛ فالحاء من الوحدانية، والميم من الملك، والدال من الدّيمومية؛ فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه، وهذا هو حقيقة الحمد لله. وقال شقيق بن إبراهيم في تفسير «الحمد لله» قال: هو على ثلاثة أوجه: أوّلها إذا أعطاك الله شيئاً تعرف من أعطاك. والثاني أن ترضى بما أعطاك. والثالث ما دامت قوته في جسدك ألا تعصيه؛ فهذه شرائط الحمد.

---

(١) سورة المؤمنون آية: ٢٨. (٢) سورة إبراهيم آية: ٣٩. (٣) سورة النمل آية: ١٥.
(٤) سورة الإسراء آية: ١١١. (٥) سورة فاطرة آية: ٣٤. (٦) سورة يونس آية: ١٠.
(٧) عقب ذلك ابن عطية في تفسيره بقوله: فالحامد من الناس قسمان: الشاكر والمثنى بالصفات. وبه يتضح كلام المؤلف. (٨) سورة الإسراء آية: ٧٩.

السادسة ـ أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وٱفتتح كتابه بحمده، ولم يأذن في ذلك لغيره؛ بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان نبيّه عليه السلام، فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[١]. وقال عليه السلام: «ٱحْثُوا في وجوه المدّاحين التراب» رواه المِقداد. وسيأتي القول فيه في «النساء[٢]» إن شاء الله تعالى.

فمعنى «الحمد لله رب العالمين»: أي سبق الحمد منّي لنفسي قبل أن يَحْمَدني أحد من العالمين، وحَمْدِي نفسي لنفسي في الأزل لم يكن بعلة، وحَمْدِي الخلق مشوب بالعلل. قال علماؤنا: فيستقبح من المخلوق الذي لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار. وقيل: لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حَمِد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل؛ فٱستفراغ طَوْق عباده هو محل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: «لا أُحصِي ثناء عليك». وأنشدوا:

إذا نَحْـنُ أَثْنَيْنَـا عليـك بصـالـح ... فأنْتَ كما نُثْنِي وفوقَ الذي نُثْنِي

وقيل: حَمِد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فَحمِد نفسه عنهم؛ لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المِنّة.

السابعة ـ وأجمع القرّاء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من «الحمد لله». ورُوي عن سفيان بن عُيينة ورُؤْبة بن العَجّاج: «الحمدَ لله» بنصب الدال؛ وهذا على إضمار فعل. ويقال: «الحمدُ لله» بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمدُ لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمداً؛ إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله؛ والذي ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله. وقال غير سيبويه. إنما يتكلم بهذا تعرّضاً لعفو الله ومغفرته وتعظيماً له وتمجيداً؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال. وفي الحديث: «مَن شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». وقيل: إن مدحه عزّ وجلّ لنفسه وثناءه عليها ليعلِّم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبري: «الحمد لله»

(١) سورة النجم آية: ٣٢. (٢) راجع ٢٤٦/٥.

ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمرَ عباده أن يثنوا عليه؛ فكأنه قال: قولوا الحمدلله؛ وعلى هذا يجيء قولوا إياك. وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه؛ كما قال الشاعر:

وأعلَمُ أنّني سأكونُ رَمْساً إذا سار النّواعِجُ[1] لا يسير
فقال السائلون لمن حفرتم فقال القائلون لهم وزير

المعنى: المحفور له وزير، فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير. وروي عن ابن أبي عَبلَة: «الحمد لله» بضم الدال واللام على إتباع الثاني الأوّل؛ وليتجانس اللفظ، وطلبُ التجانس في اللفظ كثير في كلامهم؛ نحو: أجُوءُك، وهو منحدُرٌ من الجبل، بضم الدال والجيم. قال:

. . . اُضرب الساقينُ أُمّك هابل

بضم النون لأجل ضم الهمزة. وفي قراءةٍ لأهل مكة «مُرُدفين» بضم الراء إتباعاً للميم، وعلى ذلك «مُقُتلين» بضمّ القاف. وقالوا: لإمِّك، فكسروا الهمزة اتباعاً للّام؛ وأنشد للنعمان بن بشير:

ويلِ امِّها في هَواءِ الْجَوّ طالبةً ولا كهذا الذي في الأرضِ مَطْلوبُ[2]

الأصل: ويلٌ لأمها؛ فحذفت اللام الأولى واستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم أتبع اللام الميمَ. وروي عن الحسن بن أبي الحسن وزيد بن عليّ: «الحمدِ للهِ» بكسر الدال على إتباع الأوّل الثاني.

الثامنة ـ قوله تعالى:

[٢] ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

أي مالكهم، وكل من ملك شيئاً فهو رَبّه؛ فالربُّ: المالك. وفي «الصحاح»: والرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة؛ وقد قالوه في الجاهلية للمِلك، قال الحارث بن حِلِّزة:

وهُوَ الربّ والشّهيدُ على يَوْ مِ الْحِيَارَيْنِ[3] والْبَلاءُ بَلاءُ

---

(١) النواعج من الإبل: السراع. (٢) وصف عقاباً تتبع ذئباً لتصيده. وهذا البيت نسبه سيبويه في كتابه مرة للنعمان (٢/ ٢٧٢) وأخرى لامرىء القيس (١/ ٣٥٣). ونسبه البغدادي في خزانة الأدب في الشاهد ٢٦٦ لامرىء القيس أيضاً. وقد ورد في ديوانه: * لا كالذي في هواء الجوّ... * وعلى هذا لا شاهد فيه. (٣) الحياران: موضع غزا أهله المنذر بن ماء السماء.

والرب: السيد؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾[١]. وفي الحديث: «أنْ تلد الأَمَةُ ربَّتها» أي سيدتها؛ وقد بيّناه في كتاب «التذكرة». والربّ: المصلح والمدبّر والجابر والقائم. قال الهَرَوِيّ وغيره: يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد رَبّه يَرُبّه فهو رَبٌّ له ورابٌّ؛ ومنه سُمِّي الربّانيون لقيامهم بالكتب. وفي الحديث: «هل لك مِن نعمة تَرُبُّها عليه» أي تقوم بها وتصلحها. والربّ: المعبود؛ ومنه قول الشاعر:

أَرَبٌّ يبـول الثُّعْلُبَـانُ بـرأسـه لَقَدْ ذلّ مَنْ بالت عليه الثَّعالِبُ

ويقال على التكثير[٢]: ربّاه وربّبه وربّته؛ حكاه النحاس. وفي «الصحاح»: ورَبَّ فلانٌ ولدَه يُرُبّه رَبًّا، وربَّبه وتَرَبَّبه بمعنًى؛ أي ربّاه. والمَرْبوب: المربَّى.

التاسعة ـ قال بعض العلماء: إن هذا الاسم هو ٱسم الله الأعظم؛ لكثرة دعوة الداعين به، وتأمل ذلك في القرآن، كما في آخر «آل عمران[٣]» وسورة «إبراهيم[٤]» وغيرهما، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الربّ والمَرْبوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال.

وٱختلِف في ٱشتقاقه؛ فقيل: إنه مشتق من التربية؛ فالله سبحانه وتعالى مدبِّر لخلقه ومربّيهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾[٥]. فسمى بنت الزوجة رَبِيبة لتربية الزوج لها.

فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل؛ وعلى أن الربّ بمعنى المالك والسيد يكون صفة ذات.

العاشرة ـ متى أدخلت الألف واللام على «ربّ» ٱختص الله تعالى به؛ لأنها للعهد، وإن حذفتا منه صار مشتركاً بين الله وبين عباده. فيقال: الله رب العباد، وزيد رب الدّار؛ فالله سبحانه رَبّ الأرباب؛ يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل رَبٍّ سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمُملَّك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنما

(١) سورة يوسف آية: ٤٢.
(٢) في «النحاس»: «على التكبير».
(٣) راجع ٤/٣١٣.
(٤) راجع ٩/٣٦٨.
(٥) سورة النساء آية: ٢٣.

يملك شيئاً دون شيء؛ وصفة الله تعالى مخالفة لهذه المعاني، فهذا الفرق بين صفة الخالق والمخلوقين.

الحادية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ ٱختلف أهل التأويل في «العالمين» ٱختلافاً كثيراً؛ فقال قتادة: العالَمون جمع عالَم، وهو كل موجود سوى الله تعالى، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم. وقيل: أهل كل زمان عالم؛ قاله الحسين بن الفضل؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾(١) أي من الناس. وقال العَجّاج:

فَخنْدِفٌ هامةُ هذا العألَمِ(٢)

وقال جَرير بن الخَطَفَي:

تَنَصَّفُه البريّةُ وهْوَ سامٍ ويُضحِي العالَمون له عِيالا

وقال ٱبن عباس: العالَمون الجنّ والإنس؛ دليله قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(٣) ولم يكن نذيراً للبهائم. وقال الفرّاء وأبو عبيدة: العالمَ عبارة عمن يعقل؛ وهم أربعة أمم: الإنس والجنّ والملائكة والشياطين. ولا يقال للبهائم: عالَم؛ لأن هذا الجمع إنما هو جَمْع مَن يعقل خاصّة.

قال الأعشى:

ما إنْ سمعتُ بمثلهم في العالَمينا

وقال زيد بن أسلم: هم المرتزقون؛ ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء: هم الروحانيون. وهو معنى قول ٱبن عباس أيضاً: كل ذي رُوح دبّ على وجه الأرض. وقال وَهْب بن مُنَبِّه: إن لله عزّ وجلّ ثمانية عشر ألف عالَم؛ الدنيا عالَم منها. وقال أبو سعيد الخُدْرِي: إن لله أربعين ألف عالَم؛ الدنيا مِن شرقها إلى غربها عالَمٌ واحد. وقال مُقاتل: العالَمون ثمانون ألف عالَم، أربعون ألف عالَم في البر، وأربعون ألف عالم في البحر. وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: الجنّ عالَم، والإنس عالَم؛ وسوى ذلك للأرض أربع زوايا في كل زاوية ألف وخمسمائة عالَم، خلقهم لعبادته.

---

(١) سورة الشعراء آية: ١٦٥. (٢) خندف ٱسم قبيلة من العرب، وذكر العلامة الشنقيطي أن العجاج كان ينشد: العألم؛ بالهمزة والإسكان. (٣) سورة الفرقان آية: ١.

قلت: والقول الأوّل أصحّ هذه الأقوال؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود؛ دليله قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[١]. ثم هو مأخوذ من العَلَم والعَلَامة؛ لأنه يدل على مُوجده. كذا قال الزجاج قال: العالَم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة. وقال الخليل: العَلَم والعَلَامة والمَعْلَم: ما دَلّ على الشيء؛ فالعالَمَ دالٌّ على أن له خالقاً ومدبراً، وهذا واضح. وقد ذُكر أن رجلاً قال بين يدي الجُنَيد: الحمد لله؛ فقال له: أتمَّها كما قال الله، قل: رَبّ العالمين؛ فقال الرجل: ومَن العالَمين حتى تذكر مع الحق؟ قال: قل يا أخي؟ فإن المحدَث إذا قُرن مع القديم لا يبقى له أثر.

الثانية عشرة ـ يجوز الرفع والنصب في «ربّ» فالنصب على المدح، والرفع على القطع؛ أي هو رب العالمين.

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى:

[٣] ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

وصف نفسه تعالى بعد ﴿رَبّ العالمين﴾، بأنه ﴿الرحمن الرحيم﴾؛ لأنه لما كان في اتصافه بـ «ـرب العالمين» ترهيبٌ قَرَنه بـ «ـالرحمن الرحيم»، لما تضمن من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع؛ كما قال: ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾[٢]. وقال: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾[٣]. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنِطَ من جنّته أحد». وقد تقدّم ما في هذين الاسمين من المعاني، فلا معنى لإعادته.

الرابعة عشرة ـ قوله تعالى:

[٤] ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

قرأ محمد بن السَّمَيْقَع بنصب مالك؛ وفيه أربع لغات: مالِك ومَلِك ومَلْك ـ مخففة من مَلِك ـ ومَلِيك؛ قال الشاعر[٤]:

وأيـــامٍ لنـــا غُـــرٍّ طِـــوال   عصينـا المَلْـك فيهـا أن نَـدينـا

(١) سورة الشعراء آية: ٢٣.
(٢) سورة الحجر آية: ٤٩، ٥٠.
(٣) سورة غافر آية: ٣.
(٤) هو عمرو بن كلثوم.

وقال آخر[١]:

فـاْقنـغ بمـا قَسَـم المليـكُ فـإنّمـا ... قَسَـم الخـلائـقَ بيننـا عـلاّمُهـا

الخلائق: الطبائع التي جُبِل الإنسان عليها. وروي عن نافع إشباع الكسرة في «مَلِك» فيقرأ «مَلِكي» على لغة من يشبع الحركات، وهي لغة للعرب ذكرها المهدوي وغيره.

الخامسة عشرة ـ اْختلف العلماء أيّما أبلغ: ملِك أو مالك؟ والقراءتان مَرْوِيّتان عن النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر. وذكرهما الترمذي؛ فقيل: «مَلِك» أعمّ وأبلغ من «مالك» إذ كل مَلِك مالك، وليس كل مالك مَلِكاً؛ ولأن أمر الملِك نافذ على المالك في مِلْكه، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك؛ قاله أبو عبيدة والمبرد. وقيل: «مالك» أبلغ؛ لأنه يكون مالكاً للناس وغيرهم؛ فالمالك أبلغ تصرُّفاً وأعظم؛ إذ إليه إجراء قوانين الشرع، ثم عنده زيادة التّملك.

وقال أبو عليّ: حكى أبو بكر بن السراج عن بعض مَن اْختار القراءة بـ «ـملك» أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كلّ شيء بقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلا فائدة في قراءة من قرأ «مالك» لأنها تكرار. قال أبو عليّ: ولا حجة في هذا؛ لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة، تقدُّم العام ثم ذِكر الخاص كقوله: ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِىء الْمُصَوِّرُ﴾ فالخالق يعمّ. وذكر المصوّر لما فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة؛ وكما قال تعالى: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بعد قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾. والغيب يعمّ الآخرة وغيرها؛ ولكن ذكرها لعظمها، والتنبيه على وجوب اْعتقادها، والردّ على الكفرة الجاحدين لها؛ وكما قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾ فذكر ﴿الرحمن﴾ الذي هو عام وذكر ﴿الرحيم﴾ بعده، لتخصيص المؤمنين به في قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾. وقال أبو حاتم: إن «مالكاً» أبلغ في مدح الخالق من «مِلك»، و «ملك» أبلغ في مدح المخلوقين من مالك؛ والفرق بينهما أن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكاً كان ملكاً، واْختار هذا القول القاضي أبو بكر بن العربي وذكر ثلاثة

(١) هو لبيد بين ربيعة العامري.

أوجه؛ **الأوّل**: أنك تضيفه إلى الخاص والعام؛ فتقول: مالك الدار والأرض والثوب، كما تقول: مالك الملوك. **الثاني**: أنه يطلق على مالك القليل والكثير؛ وإذا تأمّلت هذين القولين وجدتهما واحداً. **والثالث**: أنك تقول: مالك المُلْك؛ ولا تقول: ملك المُلْك. قال ٱبن الحصار: إنما كان ذلك لأن المراد من «مالك» الدلالة على المِلك ـ بكسر الميم ـ وهو لا يتضمن «المُلْك» ـ بضم الميم ـ و «ملِك» يتضمن الأمرين جميعاً فهو أوْلى بالمبالغة. ويتضمّن أيضاً الكمال، ولذلك ٱستحق الملك على من دونه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[1]، ولهذا قال عليه السلام: «الإمامة في قريش» وقريش أفضل قبائل العرب، والعرب أفضل من العَجَم وأشرف. ويتضمّن الاقتدار والاختيار، وذلك أمر ضروري في المَلِك، إن لم يكن قادراً مختاراً نافذاً حكمه وأمره، قهره عدوّه وغلبه غيره وٱزدرته رعيته؛ ويتضمن البطش والأمر والنهي والوعد والوعيد؛ ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام: ﴿مَالِيَ لاَ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ. لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾[2] إلى غير ذلك من الأمور العجيبة والمعاني الشريفة التي لا توجد في المالك.

قلت: وقد ٱحتج بعضهم على أن مالكاً أبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك. قلت: هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى، وقد ثبتت القراءة بملك، وفيه من المعنى ما ليس في مالك، على ما بينا والله أعلم.

السادسة عشرة ـ لا يجوز أن يتسمّى أحد بهذا الاسم ولا يدعى به إلا الله تعالى؛ روى البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض» وعنه أيضاً عن النبيّ ﷺ قال: «إن أَخْنَعَ ٱسم عند الله رجل تسمّى ملك الأملاك ـ زاد مسلم ـ لا مالك إلا الله عزّ وجلّ» قال سفيان[3]: «مثل: شاهانْ شَاهْ. وقال

(١) سورة البقرة آية: ٢٤٧. (٢) سورة النمل آية: ٢٠، ٢١.

(٣) سفيان هذا، أحد رواة سند هذا الحديث.

أحمد بن حنبل: سألت أبا عمرو الشيبانيّ عن أخنع؛ فقال: أوْضع». وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل [كان] يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه». قال ابن الحصار: وكذلك «ملك يوم الدين» و «مالك الملك» لا ينبغي أن يُختلف في أن هذا محرّم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء، وأما الوصف بمالك وملك وهي:

السابعة عشرة ـ فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهومهما؛ قال الله العظيم: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾[1]. وقال ﷺ: «ناس من أمّتي عُرِضُوا عليّ غُزاةً في سبيل الله يركبون ثَبَجَ[2] هذا البحر ملوكاً على الأسِرّة أو مثل الملوك على الأسرة».

الثامنة عشرة ـ إن قال قائل: كيف قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ويوم الدين لم يوجد بعدُ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجده؟ قيل له: اِعلم أن مالكاً اسم فاعل من ملك يملك، واسم الفاعل في كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاماً سديداً معقولاً صحيحاً؛ كقولك: هذا ضارب زيد غداً؛ أي سيضرب زيداً. وكذلك: هذا حاجّ بيت الله في العام المقبل، تأويله سيحج في العام المقبل؛ أفلا ترى أن الفعل قد يُنسب إليه وهو لم يفعله بعدُ، وإنما أريد به الاستقبال؛ فكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿مالك يوم الدين﴾ على تأويل الاستقبال، أي سيملك يوم الدِّين أو في يوم الدين إذا حضر.

ووجه ثان: أن يكون تأويل المالك راجعاً إلى القدرة؛ أي إنه قادر في يوم الدين، أو على يوم الدين وإحداثه؛ لأن المالك للشيء هو المتصرف في الشيء والقادر عليه؛ والله عزّ وجلّ مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته، لا يمتنع عليه منها شيء.

والوجه الأوّل أمَسُّ بالعربية وأنفذ في طريقها؛ قاله أبو القاسم الزجاجي.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٤٧.

(٢) ثبج البحر: وسطه ومعظمه.

ووجه ثالث: فيقال لِمَ خصص يوم الدِّين وهو مالك يوم الدين وغيره؟ قيل له: لأن في الدنيا كانوا منازعين في الملك، مثل فرعون ونمروذ وغيرهما، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه، وكلهم خضعوا له، كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[١] فأجاب جميع الخلق: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فلذلك قال: مالك يوم الدين؛ أي في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاضٍ ولا مُجازٍ غيره؛ سبحانه لا إله إلا هو.

التاسعة عشرة ـ إنْ وُصِف الله سبحانه بأنه مَلِكٌ كان ذلك من صفات ذاته، وإن وُصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله.

الموفية العشرين ـ اليوم: عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس، فٱستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت ٱستقرار أهل الدارين فيهما. وقد يطلق اليوم على الساعة منه؛ قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٢]. وجَمْعُ يوم أيام؛ وأصله أَيْوَام فأدغم؛ وربما عبّروا عن الشدة باليوم، يقال: يومَ ايْوَم، كما يقال: ليلةٌ لَيْلَاء. قال الراجز[٣]:

نِعْمَ أخو الهيجاء في اليوم ٱليمِي

وهو[٤] مقلوب منه، أخّر الواو وقدّم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طَرَفاً؛ كما قالوا: أَدْلٍ في جمع دَلْوٍ.

الحادية والعشرون ـ الدِّين: الجزاء على الأعمال والحساب بها؛ كذلك قال ٱبن عباس وٱبن مسعود وٱبن جريج وقتادة وغيرهم، وروي عن النبيّ ﷺ؛ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾[٥] أي حسابهم. وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ و ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٦] وقال: ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[٧] أي مجزِيُّون محاسبون. وقال لَبيد:

---

(١) سورة غافر آية: ١٦. (٢) سورة المائدة آية: ٣.

(٣) هو أبو الأخزر الحماني كما في «اللسان» مادة «يوم».

(٤) قوله: «وهو» أي اليمي. (٥) سورة النور آية: ٢٥.

(٦) سورة الجاثية آية: ٢٨. (٧) سورة الصافات آية: ٥٣.

حصَادُك يوماً ما زرعتَ وإنما يُدَانُ الفتى يوماً كما هو دائن

آخر:

إذا ما رمونا رميناهمُ ودنّاهُم مثل ما يُقرضونا

آخر:

وٱعلم يقينا[١] أن مُلْكك زائلٌ وٱعلم بأنّ كما تَدين تُدانُ

وحكى أهل اللغة: دنْته بفعله دَيْناً (بفتح الدال) ودِيناً (بكسرها) جزيته؛ ومنه الدّيّان في صفة الرب تعالى أي المجازي؛ وفي الحديث: «الكيِّس من دان نفسه» أي حاسب. وقيل: القضاء. روي عن ٱبن عباس أيضاً؛ ومنه قول طَرَفة:

لَعَمْرُكَ ما كانت حَمُولة[٢] مَعْبَدٍ على جُدّها[٣] حَرْباً لدِينِكَ من مُضَرْ

ومعاني هذه الثلاثة متقاربة. والدِّين أيضاً: الطاعة؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وأيامٍ لنا غُرٌّ طِوالٍ عَصينا المَلْكَ فيها أن ندِينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهي:

الثانية والعشرون ـ قال ثَعْلَب: دان الرجل إذا أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا عَزّ، ودان إذا ذلّ، ودان إذا قهر؛ فهو من الأضداد. ويطلق الدِّين على العادة والشأن، كما قال:

كدِينك من أمّ الحُوَيْرِث قبلها

وقال المُثقِّب [يذكر ناقته]:

تقول إذا دَرَأْتُ لها وضِينِي[٤] أهذا دينُه أبداً ودِيني

---

(١) في «اللسان» مادة (دين): «قال خويلد بن نوفل الكلابي للحارث بن أبي شمر الغساني وكان قد ٱغتصبه ٱبنته:

يا حار أيقن أن ملكك زائل ... ...» الخ

(٢) الحمولة: الإبل التي يحمل عليها. (٣) الجُدّ (بالضم): البئر الجيدة الموضع من الكلأ. والخطاب لعمرو بن هند وقد أغار على إبل معبد أخي طرفة. (٤) درأت وضين البعير: إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشدّه به. والوضين: بطان منسوج بعضه على بعض يشدّ به الرحل على البعير.

والدِّين: سيرة الملك. قال زُهير:

لئن حللتَ بجوّ في بني أسد في دِين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ(١)

أراد في موضع طاعة عمرو. والدِّين: الدّاء؛ عن اللّحياني. وأنشد:

يا دِينَ قلبِك من سَلْمَى وقد دِينَا

الثالثة والعشرون ـ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلوين؛ لأنّ من أوّل السورة إلى هاهنا خبراً عن الله تعالى وثناءً عليه، كقوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾(٢). ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾. وعكسه: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾(٣) على ما يأتي. و ﴿نَعْبُدُ﴾ معناه نطيع؛ والعبادة الطاعة والتذلل. وطريق مُعبَّد إذا كان مذلّلاً للسالكين؛ قاله الهَرَوِيّ. ونُطقُ المكلّف به إقرارٌ بالربوبية وتحقيقٌ لعبادة الله تعالى؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي نطلب العَوْن والتأييد والتوفيق.

قال السُّلَمِيّ في حقائقه: سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول: سمعت أبا حفص الفرغاني يقول: من أقرّ بـ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فقد برىء من الجَبْر والقَدَر.

الرابعة والعشرون ـ إن قيل: لم قدّم المفعول على الفعل؟ قيل له: قدّم اهتماماً، وشأن العرب تقديم الأهم. يذكر أن أعرابياً سبّ آخر فأعرض المسبوبُ عنه؛ فقال له الساب: إياك أعْني: فقال له الآخر: وعنك أُعرض؛ فقدّما الأهم. وأيضاً لئلا يتقدّم ذكر العبد والعبادة على المعبود؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك، ولا نعبد إياك ونستعين إياك؛ فيقدّم الفعل على كناية المفعول، وإنما يتبع لفظ القرآن. وقال العَجّاج:

إيّاك أدْعُو فتقبّل مَلَقِي واغفِر خطاياي وكثِّر ورقي

---

(١) جو (بالجيم) كما في «الأصول والديوان». قال البكري في معجمه: «إنه موضع في ديار بني أسد» واستشهد ببيت زهير هذا. وفي القاموس وشرحه في مادة الخو ـ بالخاء المعجمة ـ: «ويوم خو لبني أسد، قال زهير ـ وذكر البيت ـ قال أبو محمد الأسود ومن رواه بالجيم فقد أخطأه وكان هذا اليوم لهم على بني يربوع. .». وفدك: موضع بخيبر. (٢) راجع ١٩/ ١٤٥. (٣) راجع ٨/ ٣٢٤.

ويروى: وثَمِّر. وأمّا قول الشاعر[١]:

إليكَ حتى بَلَغَتْ إيّاكا

فشاذٌ لا يقاس عليه. والورِق بكسر الرّاء من الدراهم، وبفتحها المال. وكرر الاسم لئلا يتوهّم إياك نعبد ونستعين غيرك.

الخامسة والعشرون ـ الجمهور من القرّاء والعلماء على شدّ الياء من «إياك» في الموضعين. وقرأ عمرو بن فائد: «إيَاك» بكسر الهمزة وتخفيف الياء، وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها. وهذه قراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير: شمسَك نعبد أو ضوءك؛ وإيَاةُ الشمس (بكسر الهمزة): ضوءها؛ وقد تُفتح. وقال[٢]:

سَقَتْهُ إيَاةُ الشّمس إلا لِثاتِهِ أُسِفَّ فلم تَكْدِم عليه بإثمد

فإن أسقطت الهاء مددت. ويقال: الإياة للشمس كالهالة للقمر، وهي الدّارة حولها. وقرأ الفضل الرّقاشيّ: «أياك» (بفتح الهمزة) وهي لغة مشهورة. وقرأ أبو السَّوّار الغَنَوِي: «هياك» في الموضعين، وهي لغة؛ قال:

فهِيّاكَ والأمر الذي إن توسّعتْ موارده ضاقت عليك مصادره

السادسة والعشرون ـ

[٥] ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

عطف جملة على جملة. وقرأ يحيى بن وَثّاب والأعمش: «نِستعين» بكسر النون، وهي لغة تميم وأسد وقيس وربيعة؛ ليدل على أنه من أستعان، فكُسرت النون كما تُكسر ألف الوصل. وأصل «نستعين» نستعْوِن، قلبت حركة الواو إلى العين فصارت ياء، والمصدر

(١) هو حميد الأرقط. والمعنى: سارت هذه الناقة إليك حتى بلغتك.

(٢) قائله طرفة بن العبد. والهاء في «سقته» و «لثاته» يعود على الثغر، وكذا المضمر الذي في «أسف». ومعنى سقته: حسنته وبيضته وأشربته حسناً. و «أسف»: ذرّ عليه. و «فلم تكدم عليه»: أي لم تعضض عظماً فيؤثر في ثغرها. (عن شرح المعلقات).

ٱستعانة، والأصل ٱستعوان؛ قلبت حركة الواو إلى العين فانقلبت ألفاً ولا يلتقي ساكنان فحذفت الألف الثانية لأنها زائدة، وقيل الأولى لأن الثانية للمعنى، ولزمت الهاء عِوَضاً.

السابعة والعشرون ـ قوله تعالى: [٦] ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

اِهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب؛ والمعنى: دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقُرْبك. قال بعض العلماء: فجعل الله جلّ وعزّ عظم الدعاء وجملته موضوعاً في هذه السورة، نصفها فيه مجمع الثناء، ونصفها فيه مجمع الحاجات، وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من الذي يدعو به [الداعي] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذي تكلم به؛ وفي الحديث: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء». وقيل المعنى: أرشدنا باستعمال السُّنن في أداء فرائضك؛ وقيل: الأصل فيه الإمالة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[1] أي مِلْنا؛ وخرج عليه السلام في مرضه يتهادى بين ٱثنين، أي يتمايل. ومنه الهدية؛ لأنها تمال من مِلك إلى مِلك. ومنه الهَدْيُ للحيوان الذي يساق إلى الحَرَم؛ فالمعنى مِل بقلوبنا إلى الحق. وقال الفُضيل بن عِيَاض: «الصراط المستقيم» طريق الحج، وهذا خاص والعموم أولى. قال محمد بن الحنفية في قوله عزّ وجل: ﴿أهدِنا الصراط المستقِيم﴾: هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره. وقال عاصم الأحْوَل عن أبي العالية: «الصراط المستقيم» رسول الله ﷺ وصاحباه من بعده. قال عاصم فقلت للحسن: إن أبا العالية يقول: «الصراط المستقيم» رسول الله ﷺ وصاحباه، قال: صدق ونصح.

الثامنة والعشرون ـ أصل الصراط في «كلام العرب» الطريق؛ قال عامر بن الطُّفَيل:

شحنَّا أرضَهم بالخَيْل حتى ... تركناهم أذلّ مِن الصِّراط

وقال جَرير:

أميرِ المؤمنين على صِراط ... إذا ٱعْوَجّ الموارِدُ مُسْتقِيم

وقال آخر:

فَصَدّ عنْ نَهج الصِّراطِ الواضِح

(١) راجع ٧/٢٩٦.

وحكى النقاش: الصراط الطريق بلغة الروم؛ قال ٱبن عطية: وهذا ضعيف جدّاً. وقُرِىء: السراط (بالسين) من الاستراط بمعنى الابتلاع؛ كأن الطريق يسترط مَن يسلكه. وقرىء بين الزاي والصاد. وقرىء بزاي خالصة والسين الأصل. وحكى سَلَمَة عن الفرّاء قال: الزراط بإخلاص الزاي لغة لعُذْرة وكَلْب وبني الْقَيْن، قال: وهؤلاء يقولون [في أصدق]: أزدق. وقد قالوا: الأَزْد والأَسْد، ولسق به ولصق به. و ﴿الصِّرَاطَ﴾ نصب على المفعول الثاني؛ لأن الفعل من الهداية يتعدّى إلى المفعول الثاني بحرف جر؛ قال الله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ﴾(١). وبغير حرف كما في هذه الآية. «المستقيم» صفة لـ «ـلصراط»، وهو الذي لا ٱعوجاج فيه ولا ٱنحراف؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾(٢) وأصله مُستقْوِم، نقلت الحركة إلى القاف وٱنقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها.

التاسعة والعشرون ـ ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

صراط بدل من الأوّل بدل الشيء من الشيء؛ كقولك: جاءني زيد أبوك. ومعناه(٣): أدِم هدايتنا، فإن الإنسان قد يُهدَى إلى الطريق ثم يُقطع به. وقيل: هو صراط آخر، ومعناه العلم بالله جلّ وعزّ والفهم عنه؛ قاله جعفر بن محمد. ولغة القرآن ﴿الَّذِينَ﴾ في الرفع والنصب والجر؛ وهُذَيل تقول: اللّذُون في الرفع، ومن العرب من يقول: اللذو(٤)، ومنهم من يقول: الذي(٥)؛ وسيأتي.

وفي «عليهم» عشر لغات؛ قرىء بعامتها: «عليهُمْ» بضم الهاء وإسكان الميم. «وعليهِم» بكسر الهاء وإسكان الميم. و«عليهِمِي» بكسر الهاء والميم وإلحاق ياء بعد الكسرة. و «عليهِمُو» بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة. و «عليهُمُو» بضم الهاء والميم كلتيهما وإدخال واو بعد الميم. و «عليهُمُ» بضم الهاء والميم من غير زيادة واو. وهذه الأوجه الستة مأثورة عن الأئمة من القرّاء. وأوجه أربعة منقولة عن العرب غير محكية عن القرّاء:

---

(١) راجع ١٥/ ٧٣. (٢) راجع ٧/ ١٣٧. (٣) أي قوله تعالى: ﴿ٱهدنا﴾ وما بعده.
(٤) قال أبو حيان في «البحر»: وٱستعماله بحذف النون جائز. كذا في «اللسان».
(٥) أي إفراداً أو جمعاً في الرفع والنصب والجر؛ كما يؤخذ من «لسان العرب».

«عليهُمِي» بضم الهاء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم؛ حكاها الحسن[١] البصري عن العرب. و «عليهُمِ» بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء. و «عليهِمُ» بكسر الهاء وضم الميم من غير إلحاق واو. و «عليهِمِ» بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم. وكلها صواب؛ قاله ٱبن الأنباري.

الموفية الثلاثين ـ قرأ عمر بن الخطاب وٱبن الزبير رضي الله عنهما «صراط مَن أنعمت عليهم». وٱختلف الناس في المُنْعَم عليهم؛ فقال الجمهور من المفسرين: إنه أراد صراط النّبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين. وٱنتزعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾[٢]. فالآية تقتضي أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب في آية الحمد؛ وجميع ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان.

الحادية والثلاثون ـ في هذه الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية في صدور أفعاله منه، طاعةً كانت أو معصيةً؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربه؛ وقد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم؛ فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال في كل صلاة؛ وكذلك تضرعهم إليه في دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾. فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألاّ يُضلّهم، وكذلك يدعون فيقولون: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[٣] الآية.

الثانية والثلاثون ـ

[٧] ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

ٱختلف في «المغضوب عليهم» و «الضالين» من هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى؛ وجاء ذلك مفسراً عن النبيّ ﷺ في حديث عَدِيّ بن حاتم وقصّة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، والترمذي في جامعه. وشهد لهذا التفسير

(١) في بعض نسخ الأصل: «الأخفش البصري» وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة.
(٢) راجع ٥/ ٢٧١. (٣) راجع ٤/ ١٩.

أيضاً قوله سبحانه في اليهود: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ وقال: ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم﴾[1] وقال في النصارى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ﴾[2]. وقيل: «المغضوب عليهم» المشركون. و«الضالين» المنافقون. وقيل: «المغضوب عليهم» هو مَن أسقط فرض هذه السورة في الصلاة؛ و«الضالين» عن بركة قراءتها. حكاه السُّلَمِيّ في حقائقه والماوردي في تفسيره؛ وليس بشيء. قال الماوردي: وهذا وجه مردود؛ لأن ما تعارضت فيه الأخبار وتقابلت فيه الآثار وانتشر فيه الخلاف، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم. وقيل: «المغضوب عليهم» باتباع البدع؛ و«الضالين» عن سنن الهدى.

قلت: وهذا حسن؛ وتفسير النبيّ ﷺ أوْلَى وأعلى وأحسن. و«عليهم» في موضع رفع، لأن المعنى غضب عليهم. والغضب في اللغة الشدّة. ورجل غضوب أي شديد الخُلُق. والغَضُوب: الحية الخبيثة لشدّتها. والغَضْبَة: الدَّرَقَة من جلد البعير يُطوى بعضها على بعض؛ سُمِّيت بذلك لشدّتها. ومعنى الغضب في صفة الله تعالى إرادة العقوبة، فهو صفة ذات، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته؛ أو نفس العقوبة، ومنه الحديث: «إن الصدقة لتطفىء غضب الرب» فهو صفة فعل.

الثالثة والثلاثون ـ ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ الضلال في كلام العرب هو الذهاب عن سنَن القصد وطريق الحق؛ ومنه: ضل اللبن في الماء أي غاب. ومنه: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ أي غبنا بالموت وصرنا تراباً؛ قال:

أَلم تَسْأَلْ فتُخْبِرَك الدِّيارُ عن الحَيِّ المُضَلَّل أَيْنَ ساروا

والضُّلَضِلَة: حجر أملس يردّده الماء في الوادي. وكذلك الغضبة: صخرة في الجبل مخالفةٌ لونَه، قال:

أَوْ غَضْبَة في هَضْبَةٍ ما أَمْنَعا

الرابعة والثلاثون ـ قرأ عمر بن الخطاب وأُبَيّ بن كعب «غير المغضوب عليهم وغير الضالين» وروي عنهما في الراء النصب والخفض في الحرفين؛ فالخفض على البدل من «الذين»

(١) راجع ١٦/ ٢٦٥. (٢) راجع ٦/ ٢٥٢.

أو من الهاء والميم في «عليهم»؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعارف، إلا أنّ الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام؛ فالكلام بمنزلة قولك: إني لأمُرّ بمثلك فأكرمه؛ أو لأن «غير» تعرّفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما، كما تقول: الحيّ غير الميت، والساكن غير المتحرك، والقائم غير القاعد، قولان: الأوّل للفارسيّ، والثاني للزمخشريّ. والنصب في الراء على وجهين: على الحال من الذين، أو من الهاء والميم في عليهم، كأنك قلت: أنعمت عليهم لا مغضوباً عليهم. أو على الاستثناء، كأنك قلت: إلا المغضوب عليهم. ويجوز النصب بأعني؛ وحُكي عن الخليل.

الخامسة والثلاثون ـ «لا» في قوله: ﴿ولا الضالين﴾ ٱختلف فيها، فقيل هي زائدة؛ قاله الطبريّ. ومنه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾[(١)]. وقيل: هي تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين، حكاه مكيّ والمهدويّ. وقال الكوفيون: «لا» بمعنى غير، وهي قراءة عمر وأُبيّ؛ وقد تقدّم.

السادسة والثلاثون ـ الأصل في «الضالين»: الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام في اللام فٱجتمع ساكنان مَدّة الألف واللام المدغمة. وقرأ أيوب السختيانيّ: «ولا الضألين» بهمزة غير ممدودة؛ كأنه فرّ من التقاء الساكنين وهي لغة. حكى أبو زيد قال: سمعت عمرو بن عُبيد يقرأ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَأَنٌّ﴾[(٢)]. فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب: دأبّة وشأبّة. قال أبو الفتح: وعلى هذه اللغة قول كُثَيِّر:

إذا ما العَوَالي بالعبيط احمأرّت[(٣)]

نُجز تفسير سورة الحمد؛ ولله الحمد والمنّة.

---

(١) راجع ٧/ ١٧٠. (٢) راجع ١٧/ ١٧٤. (٣) كذا ورد هذا الشطر في جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عطية وأبي حيان والبيت كما في «ديوانه واللسان» مادة (جنن):

وأنت ابنَ لَيْلَى خير قومك مشهدا … اذا ما ٱحمأرّت بالعبيط العواملُ

وهو من قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن مروان. وعوالي الرماح: أسنتها؛ واحدتها عالية. والعبيط: الدم الطري. وٱحمرّ الشيء واحمأرّ بمعنى.

تفسير سورة البقرة

«بحول الله وكرمه، لا رَبّ سواه»

وأوّل مبدوء به الكلامُ في نزولها وفضلها وما جاء فيها؛ وهكذا كلّ سورة إن وجدنا لها ذلك؛ فنقول:

سورة البقرة مَدَنِيّة، نزلت في مُدَد شتّى. وقيل: هي أوّل سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ﴾[1] فإنه آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النَّحْر في حِجّة الوَدَاع بِمِنًى؛ وآيات الربا أيضاً من أواخر ما نزل من القرآن.

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم. ويقال لها: فسطاط القرآن؛ قاله خالد بن مَعْدَان. وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها. وتعلّمها عمر رضي الله عنه بفقهها وما تحتوي عليه في آثنتي عشرة سنة، وآبنُه عبدُ الله في ثماني سنين كما تقدّم.

قال آبن العربي: سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألفُ أمْر وألف نَهْي وألف حُكْم وألف خبر. وبَعثَ رسول الله ﷺ بَعْثاً وهم ذوو عدد وقدّم عليهم أحدثَهم سِنّاً لحفظه سورة البقرة، وقال له: «آذهب فأنت أميرهم» أخرجه الترمذي عن أبي هريرة وصححه. وروى مسلم عن أبي أمامة الباهليّ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «آقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة وتركَها حسرة ولا يستطيعها البَطَلة»، قال معاوية[2]: بلغني أن البطلة: السحرة. وروي أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر إنّ الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة». وروى الدارميّ عن عبد الله قال: ما من بيت يُقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط. وقال: إن لكل شيء سَناماً وإن سَنام القرآن سورةُ البقرة، وإن لكل شيء لُباباً وإن لُباب القرآن المفصّل. قال أبو محمد الدارميّ: اللُّباب: الخالص. وفي «صحيح البُسْتِيّ»

(١) راجع ٣/ ٣٧٥. (٢) معاوية هذا، هو أحد رواة سند هذا الحديث.

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء سَناماً وإن سَنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها في بيته ليلاً لم يدخل الشيطان بيته ثلاثَ ليال ومن قرأها نهاراً لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام». قال أبو حاتم البُسْتِيّ: قوله ﷺ: «لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام» أراد: مردة الشياطين. وروى الدّارِميّ في مسنده عن الشَّعْبِيّ قال قال عبد الله: مَن قرأ عشر آيات مِن سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يُصبح؛ أربعاً من أوّلها وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاثاً خواتيمها، أوّلها: ﴿لله مَا فِي السَّمٰوَاتِ﴾. وعن الشعبي عنه: لم يَقربه ولا أهلَه يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يُقْرَأن على مجنون إلا أفاق. وقال المغيرة بن سبيع ـ وكان من أصحاب عبد الله ـ: لم ينس القرآن. وقال إسحاق بن عيسى: لم ينس ما قد حَفظ. قال أبو محمد الدارمي: منهم من يقول: المغيرة بن سميع.

وفي كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر: وكان لَبِيد بن ربيعة [بن عامر(١)] بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام فحسُن إسلامه وترك قولَ الشعر في الإسلام، وسأله عمر في خلافته عن شعره وٱستنشده؛ فقرأ سورة البقرة؛ فقال: إنما سألتك عن شعرك؛ فقال: ما كنتُ لأقول بيتاً من الشعر بعد إذ علّمني الله البقرة وآل عمران؛ فأعجب عمر قولُه؛ وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة. وقد قال كثير من أهل الأخبار: إن لبيداً لم يقل شعراً منذ أسلم. وقال بعضهم: لم يقل في الإسلام إلا قوله:

الحمـد لله إذ لـم يـأتنـي أجلِـي | حتى ٱكتسيْتُ من الإسلام سِرْبالا

قال ٱبن عبد البر: وقد قيل إن هذا البيت لقَرَدَة بن نُفَاثَة السّلولي، وهو أصح عندي. وقال غيره: بل البيت الذي قاله في الإسلام:

مـا عـاتـب المـرءَ الكـريـمَ كنفسـه | والمـرءُ يصلحـه القَـرِينُ الصـالـح

وسيأتي ما ورد في آية الكرسي وخواتيم البقرة(٢)، ويأتي في أوّل سورة آل عمران(٣) زيادة بيان لفضل هذه السورة؛ إن شاء الله تعالى.

---

(١) الزيادة عن كتاب «الاستيعاب» (١/ ٢٣٥) طبع الهند. (٢) راجع ٣/ ٢٦٨، ٤٣١.
(٣) راجع ٤/ ٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

«رب يَسّر وأعِن»

[١] ﴿الٓمٓ ۝١﴾.

[٢] ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

ٱختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور؛ فقال عامر الشَّعْبِيّ وسفيان الثَّوْرِيّ وجماعةٌ من المحدّثين: هي سِرّ الله في القرآن، ولله في كل كتاب مِن كُتُبه سِرٌّ. فهي من المتشابه الذي ٱنفرد الله تعالى بعلمه، ولا يجب[١] أن يُتكلّم فيها، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت. وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما. وذكر أبو اللّيث السَّمَرْقَنْدِيّ عن عمر وعثمان وٱبن مسعود أنهم قالوا: الحروف المقطّعة من المكتوم الذي لا يُفَسَّر. وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف المقطّعة في القرآن إلا في أوائل السُّوَر، ولا ندري ما أراد الله جلّ وعزّ بها.

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنباري: حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا أبو بكر بن أبي طالب حدّثنا أبو المنذر الواسطي عن مالك بن مِغْوَل عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خُثيم[٢] قال: إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فٱستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء، فأما ما ٱستأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه وتخبرون[٣] به، وما بكل القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعملون. قال أبو بكر: فهذا يوضّح أن حروفاً من القرآن سُترت معانيها عن جميع العالَم، ٱختباراً من الله عزّ وجلّ وٱمتحاناً؛ فمن آمن بها أثيب وسعد، ومَن كفر وشكّ أثِم وبَعُد. حدّثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضي حدّثنا محمد بن أبي بكر حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حُرَيث بن ظُهَير عن عبد الله قال: ما آمن مؤمن أفضل من إيمانٍ بغيب؛ ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

---

(١) في نسخة من الأصل: «ولا يجوز أن نتكلم فيها... وتمرّ كما» الخ. وفي نسخة: «وتقرّ كما جاءت».

(٢) قال صاحب «تهذيب التهذيب»: في «التقريب» الربيع بن خثيم، بضم المعجمة وفتح المثلثة. ولكن في الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة.

(٣) في نسخة من الأصل: «تجزون به».

قلت: هذا القول في المتشابه وحكمه، وهو الصحيح على ما يأتي بيانه في (آل عمران) إن شاء الله تعالى[١]. وقال جمع من العلماء كبير: بل يجب أن نتكلم فيها، ونلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرّج عليها؛ وٱختلفوا في ذلك على أقوال عديدة؛ فروي عن ٱبن عباس وعلي أيضاً: أن الحروف المقطعة في القرآن ٱسم الله الأعظم، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها. وقال قُطْرُب والفرّاء وغيرهما: هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم؛ ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم. قال قُطْرُب: كانوا ينفرون عند ٱستماع القرآن، فلما سمعوا: ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾ ٱستنكروا هذا اللفظ، فلما أَنْصَتوا له ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم. وقال قوم: روي أن المشركين لمّا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا ٱلْقُرْآنِ وٱلْغوْا فِيهِ﴾[٢] نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة. وقال جماعة: هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيّتها؛ كقول ٱبن عباس وغيره: الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد ﷺ. وقيل: الألف مفتاح ٱسمه الله، واللام مفتاح ٱسمه لطيف، والميم مفتاح ٱسمه مجيد. وروى أبو الضُّحَى عن ٱبن عباس في قوله: ﴿الٓمٓ﴾ قال: أنا الله أعلم، ﴿الٓرٓ﴾ أنا الله أرى، ﴿الٓمٓصٓ﴾ أنا الله أَفْصل. فالألف تؤدّي عن معنى أنا، واللام تؤدّي عن ٱسم الله، والميم تؤدّي عن معنى أعلم. وٱختار هذا القول الزجاج وقال: أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدّي عن معنًى؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظماً لها ووضعاً بدل الكلمات التي الحروف منها، كقوله:

فقلت لها قِفِي فقالت قاف

أراد: قالت وقفت. وقال زهير:

بالخير خيراتٍ وإن شرّاً فَا ولا أريد الشر إلا أنْ تَا

أراد: وإن شرّاً فشرٌّ. وأراد: إلا أن تشاء.

(١) راجع ٩/٤. (٢) راجع ٣٥٦/١٥.

وقال آخر:

نـادوهـم ألاَ ٱلجِمُـو ألاَ تَـا قـالـوا جميعـاً كلهـم ألاَ فَـا

أراد: ألا تركبون، قالوا: ألا فٱركبوا. وفي الحديث: «مَن أعان على قتل مسلم بشطر كلمة» قال شقيق: هو أن يقول في ٱقتل: أقْ؛ كما قال عليه السلام: «كفى بالسيف شا» معناه: شافياً.

وقال زيد بن أسلم: هي أسماء للسُّوَر. وقال الكلبي: هي أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها، وهي من أسمائه؛ عن ٱبن عباس أيضاً. وردّ بعض العلماء هذا القول فقال: لا يصح أن يكون قَسَماً لأن القسم معقود على حروف مثل: إنّ وقد ولقد وما؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف، فلا يجوز أن يكون يميناً. والجواب أن يقال: موضع القَسَم قوله تعالى: ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ فلو أن إنساناً حلف فقال: والله هذا الكتاب لاَ رَيْبَ فيه؛ لكان الكلام سديداً، وتكون «لا» جواب القَسَم. فثبت أن قول الكلبي وما رُوي عن ٱبن عباس سديد صحيح.

فإن قيل: ما الحكمة في القَسَم من الله تعالى، وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين: مصدّق، ومكذّب؛ فالمصدق يصدق بغير قَسَم، والمكذب لا يصدق مع القَسَم؟. قيل له: القرآن نزل بلغة العرب؛ والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه؛ والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده. وقال بعضهم: ﴿الٓمٓ﴾ أي أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ. وقال قتادة في قوله: ﴿الٓمٓ﴾ قال ٱسم من أسماء القرآن. وروي عن محمد بن عليّ الترمذي أنه قال: إن الله تعالى أوْدع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أوّل السورة، ولا يعرف ذلك إلا نبيّ أو وَلِيّ، ثم بيّن ذلك في جميع السورة ليفقّه الناس. وقيل غير هذا من الأقوال؛ فالله أعلم.

والوقف على هذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها. وٱختلف: هل لها محل من الإعراب؟ فقيل: لا؛ لأنها ليست أسماء متمكنة، ولا أفعالاً مضارعة؛ وإنما هي بمنزلة حروف التهجّي فهي مَحْكِيّة. هذا مذهب الخليل وسيبويه.

ومن قال: إنها أسماء السُّوَر فموضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ٱبتداء مضمر؛ أي هذه ﴿الٓمٓ﴾؛ كما تقول: هذه سورة البقرة. أو تكون رفعاً على الابتداء والخبر ذلك؛ كما تقول: زيد ذلك الرجل. وقال ٱبن كَيْسان النحوي: ﴿الٓمٓ﴾ في موضع نصب؛ كما تقول: ٱقرأ ﴿الٓمٓ﴾ أو عليك ﴿الٓمٓ﴾. وقيل: في موضع خفض بالقسم؛ لقول ٱبن عباس: إنها أقسام أقسم الله بها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ قيل: المعنى هذا الكتاب. و «ذلك» قد تستعمل في الإشارة إلى حاضر، وإن كان موضوعاً للإشارة إلى غائب؛ كما قال تعالى في الإخبار عن نفسه جلّ وعزّ: ﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(١)]؛ ومنه قول خُفَاف بن نُدْبة:

أقـول لـه والـرّمـحُ يـأطِـرُ[(٢)] مَتْنَـه تـأمّـل خُفـافـا إننـي أنـا ذلكـا

أي أنا هذا. فـ «ذلك» إشارة إلى القرآن، موضوع موضع هذا، تلخيصه: الٓمٓ هذا الكتاب لا ريب فيه. وهذا قول أبي عبيدة وعكرمة وغيرهما؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾[(٣)] ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾[(٤)] أي هذه؛ لكنها لما ٱنقضت صارت كأنها بَعُدَت فقيل تلك. وفي «البخاريّ» «وقال معمر ذلك الكتاب هذا القرآن». ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ بيان ودلالة؛ كقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾[(٥)] هذا حكم الله.

قلت: وقد جاء «هذا» بمعنى «ذلك»؛ ومنه قوله عليه السلام في حديث أُمّ حَرَام: «يركبون ثَبَج[(٦)] هذا البحر» أي ذلك البحر؛ والله أعلم. وقيل: هو على بابه إشارة إلى غائب.

وٱختلف في ذلك الغائب على أقوال عشرة؛ فقيل: «ذلك الكتاب» أي الكتاب الذي كتبتُ على الخلائق بالسعادة وٱلشقاوة والأجل والرزق لا رَيْب فيه؛ ألا لا مبدِّل له. وقيل: ذلك الكتاب؛ أي الذي كتبتُ على نفسي في الأزل «أن رحمتي سبقت غضبي». وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده أنّ رحمتي تغلب غضبي» في رواية: «سبقت». وقيل:

---

(١) سورة السجدة آية: ٦. (٢) يأطر: يثني. (٣) سورة الأنعام آية: ٨٣.
(٤) سورة البقرة آية: ٢٥٢. (٥) سورة الممتحنة آية: ١٠. (٦) ثبج البحر: وسطه ومعظمه.

إن الله تعالى قد كان وعد نبيّه عليه السلام أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء؛ فأشار إلى ذلك الوعد كما في «صحيح مسلم» من حديث عياض بن حِمَار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظانَ» الحديث. وقيل: الإشارة إلى ما قد نزل من القرآن بمكة. وقيل: إن الله تبارك وتعالى لما أنزل على نبيّه ﷺ بمكة: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[1] لم يزل رسول الله ﷺ مستشرِفاً لإنجاز هذا الوعد من ربّه عزّ جلّ؛ فلما أنزل عليه بالمدينة: ﴿الٓمٓ. ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ كان فيه معنى هذا القرآن الذي أنزلته عليك بالمدينة، ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أوحيه إليك بمكة. وقيل: إن «ذلك» إشارة إلى ما في التوراة والإنجيل. و ﴿الٓمٓ﴾ ٱسم للقرآن؛ والتقدير هذا القرآن ذلك الكتاب المفسر في التوراة والإنجيل؛ يعني أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته ويستغرق ما فيهما ويزيد عليهما ما ليس فيهما. وقيل: إن «ذلك الكتاب» إشارة إلى التوراة والإنجيل كليهما؛ والمعنى الٓمٓ ذانك الكتابان أو مثل ذَيْنِك الكتابين؛ أي هذا القرآن جامع لما في ذَيْنِك الكتابين؛ فعبّر بـ «ـذلك» عن الاثنين بشاهد من القرآن؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي عَوان بين تَيْنك: الفارض والبكر؛ وسيأتي[2]. وقيل: إن «ذلك» إشارة إلى اللَّوْح المحفوظ. وقال الكسائي: «ذلك» إشارة إلى القرآن الذي في السماء لم ينزل بعدُ. وقيل: إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد ﷺ كتاباً؛ فالإشارة إلى ذلك الوعد. قال المبرّد: المعنى هذا القرآن ذلك الكتاب الذي كنتم تستفتحون به على الذين كفروا. وقيل: إلى حروف المعجم في قول من قال: «الم» الحروف التي تحدّيْتُكم بالنظم منها.

والكتاب مصدر مِن كَتَب يَكْتُب إذا جمع؛ ومنه قيل: كَتِيبة؛ لاجتماعها. وتكَتَّبت الخيل صارت كتائب وكتبْتُ البغلةَ: إذا جَمَعْتَ بين شُفْرَيْ رَحِمِها بحلْقة أو سَيْر؛ قال:

لا تـأمَنَـنَّ فَـزَارِيّـاً حَلَلْـتَ بـه ... على قَلُـوصـك وٱكتُبْهـا بـأسيـار

(١) سورة المزمل آية: ٥. (٢) آية: ٦٨ راجع ص ٤٤٨ من هذا الجزء.

والكُتْبة (بضم الكاف): الخُرْزَةُ، والجمع كُتَبٌ. والكَتْبُ: الخَرْز. قال ذو الرُّمة:

وَفْـرَاءَ غَـرْفِيّـةٍ أَثْـأَى خَـوارِزُهـا مُشَلْشِـلٌ ضيّعتْـه بينهـا الكُتَـبُ(١)

والكتاب: هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أو متفرقة؛ وسُمّيَ كتاباً وإن كان مكتوباً؛ كما قال الشاعر:

تُـؤمِّـلُ رجعـةً منِّـي وفيهـا كتـابٌ مثـلَ مـا لصِـق الغِـرَاء

والكتاب: الفَرْض والحُكم والقدَرَ؛ قال الجَعْدِيّ:

يـابنـةَ عمّـي كتـاب الله أخـرجني عنكـم وهـل أمنعـنّ الله مـا فعـلا

قوله تعالى: ﴿لاَ رَيْبَ﴾ نفي عام؛ ولذلك نُصب الريب به. وفي الرّيْب ثلاثة معان: أحدها ـ الشك؛ قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى:

ليـس فـي الحـق يـا أُمَيمـةُ ريْـبٌ إنمـا الـرَّيـبُ مـا يقـول الجهـول

وثانيها ـ التُّهَمَة؛ قال جميل:

بُثَينـةُ قـالـت يـا جَميـلُ أَرَبْتَنِـي فقلـت كـلاَنـا يـا بثيـن مُـريـب

وثالثها ـ الحاجة؛ قال(٢):

قضينـا مـن تِهـامَـة كـلَّ ريْـب وخَيْبَـرَ ثـم أَجْمَعْنَـا السيـوفـا

فكتاب الله تعالى لا شك فيه ولا ارتياب؛ والمعنى: أنه في ذاته حق وأنه منزل من عند الله، وصفة من صفاته، غير مخلوق ولا مُحْدَث، وإن وقع ريب للكفار. وقيل: هو خبر ومعناه النهي؛ أي لا ترتابوا، وتمّ الكلام كأنه قال ذلك الكتاب حقاً. وتقول: رابني هذا الأمرُ إذا أدخل عليك شكّاً وخوفاً. وأراب: صار ذا رِيبة؛ فهو مُرِيب. ورابني أمره. ورِيَبُ الدهر: صروفه.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه ست مسائل:

---

(١) قوله: «وفراء» أي واسعة. و «غرفية»: مدبوغة بالغرف، وهو ثبت تدبغ به الجلود. والثَّأي والثَّأَى (بسكون الهمزة وفتحها): خرم خرز الأديم. والمشلشل: الذي يكاد يتصل قطره وسيلانه لتتابعه.

(٢) هو كعب بن مالك الأنصاري؛ كما في «اللسان» مادة (ريب).

الأولى - قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ الهاء في «فيه» في موضع خفض بفي، وفيه خمسة أوجه؛ أجودها: فيهِ هُدى. ويليه فيهُ هُدى (بضم الهاء بغير واو[1]) وهي قراءة الزُّهْرِي وسلّام أبي المنذر. ويليه فِيهِي هُدى (بإثبات الياء) وهي قراءة ابن كثير. ويجوز فيهُو هُدى (بالواو). ويجوز فيه هدى (مدغماً) وارتفع «هدى» على الابتداء والخبر «فيه». والهُدَى في «كلام العرب» معناه الرّشد والبيان؛ أي فيه كشف لأهل المعرفة ورشدٌ وزيادةُ بيان وهُدًى.

الثانية - الهُدَى هُديان: هُدَى دلالة، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[2]. وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3] فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه؛ وتفرّد هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيّه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[4] فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. والهُدَى: الاهتداء، ومعناه راجع إلى معنى الإرشاد كيفما تصرفت. قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ﴾[5] ومنه قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[6] معناه فاسلكوهم إليها.

الثالثة - الهدى لفظ مؤنّث. قال الفرّاء: بعض بني أسد تؤنّث الهدى فتقول: هذه هُدَى حسنة. وقال اللّحياني: هو مذكّر؛ ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرّك، ويتعدّى بحرف وبغير حرف وقد مضى في «الفاتحة[7]» تقول: هدَيْتُه الطريق وإلى الطريق، والدارَ وإلى الدار؛ أي عرّفته. الأولى لغة أهلِ الحجاز، والثانية حكاها الأخفش. وفي «التنزيل»: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[7] و ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾[8]. وقيل: إنّ الهدى إسم من أسماء النهار؛ لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربهم؛ ومنه قول ابن مُقْبِل:

---

(١) أي بعد الهاء من «فيه». (٢) راجع ٩/ ٢٨٥. (٣) راجع ١٦/ ٦٠. (٤) راجع ١٣/ ٢٩٩.
(٥) راجع ١٦/ ٢٣٠. (٦) راجع ١٥/ ٧٣. (٧) راجع ص ١٤٦ من هذا الجزء. (٨) راجع ٧/ ٢٠٨.

[حتى(١) ٱستبَنْتُ الهُدَى والبِيدُ هاجمةٌ   يَخشعْنَ في الآل غُلْفاً أو يُصلِّينا]

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خصّ الله تعالى المتقين بهدايته وإن كان هدى للخلق أجمعين تشريفاً لهم؛ لأنهم آمنوا وصدّقوا بما فيه. وروي عن أبي رَوْقٍ أنه قال: ﴿هُدًى للمتقين﴾ أي كرامة لهم؛ يعني إنما أضاف إليهم إجلالاً لهم وكرامةً لهم وبياناً لفضلهم. وأصل «للمتقين»: للموتقيين بياءين مخففتين، حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم في ٱجتماع الواو والتاء وأدغمت التاء في التاء فصار للمتقين.

الخامسة ـ التقوى يقال أصلها في اللغة قلّة الكلام؛ حكاه ٱبن فارس. قلت: ومنه الحديث: «التَّقِيُّ مُلْجَم والمتَّقِي فوق المؤمن والطائع» وهو الذي يتقي بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى، مأخوذ من ٱتقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينك وبينه؛ كما قال النابغة:

سقط النَّصِيفُ(٢) ولم ترد إسقاطه   فتناولته وٱتقتنا باليد

وقال آخر:

فألقت قناعاً دونه الشمس وٱتقت   بأحسن موصولين كَفٌّ ومِعصِم

وخرّج أبو محمد عبد الغني الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبِي أبي عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زِرِّ بن حُبيش عن ٱبن مسعود قال قال يوماً لابن أخيه: يا ٱبن أخي ترى الناس ما أكثرهم؟ قال: نعم؛ قال: لا خير فيهم إلا تائب أو تقي. ثم قال: يا ٱبن أخي ترى الناس ما أكثرهم؟ قلت: بلي؛ قال: لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم. وقال أبو يزيد البِسْطامي: المتّقي من إذا قال قال لله، ومن إذا عمل عمل للهِ. وقال أبو سليمان الدّاراني: المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حبّ الشهوات. وقيل: المتقي الذي ٱتقى الشرك وبرىء من النفاق. قال ٱبن عطية: وهذا فاسد؛ لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق. وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أُبَيّاً عن التقوى؛ فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم؛

(١) هذا البيت ساقط في جميع الأصول؛ والزيادة من «اللسان» مادة (هدى) والبحر المحيط في هذا الموضوع. (٢) النصيف: ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها كلها؛ سمي نصيفاً لأنه نصف بين الناس وبينها فحجز أبصارهم عنها.

قال: فما عملت فيه؟ قال: تشمَّرت وحذرت؛ قال: فذاك التقوى. وأخذ هذا المعنى ابن المُعْتَزّ فنَظمه:

خَلِّ الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التّقى
وأصنع كماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنّ صغيرة ... إن الجبال من الحصى

السادسة ـ التقوى فيها جماع الخير كله، وهي وصية الله في الأوّلين والآخرين، وهي خير ما يستفيده الإنسان؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له: إن أصحابك يقولون الشِّعر وأنت ما حُفظ عنك شيء؛ فقال:

يريد المرء أن يُؤْتَى مُنَاه ... ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي ... وتقوى الله أفضل ما أستفادا

وروى ابن ماجه في سننه عن أبي أُمامة عن النبيّ ﷺ أنه كان يقول: «ما أستفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سَرّته وإن أقسم عليها أبَرّته وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله».

والأصل في التقوى: وَقْوَى على وزن فَعْلى فقلبت الواو تاء من وَقَيْته أقيه أي منعته؛ ورجلٌ تقيّ أي خائف، أصله وقى؛ وكذلك تقاة كانت في الأصل وقاة؛ كما قالوا: تُجاه وتُراث، والأصل وُجاه ووُراث.

[٣] ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾.

فيها ست وعشرون مسألة:

الأولى ـ قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض نعت «للمتقين»، ويجوز الرفع على القطع أي هم الذين، ويجوز النصب على المدح. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون. والإيمان في اللغة: التصديق؛ وفي التنزيل: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾(١) أي بمصدق؛ ويتعدّى بالباء واللام؛ كما قال: ﴿وَلاَ تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾(٢) ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾(٣). وروى حجاج بن حجاج

(١) سورة يوسف آية: ١٧. (٢) سورة آل عمران آية: ٧٣. (٣) سورة يونس آية: ٨٣.

الأحول ـ ويلقب بزِقّ العَسَل ـ قال سمعت قتادة يقول: يابن آدم، إن كنت لا تريد أن تأتي الخير إلا عن نشاط فإن نفسك مائلة إلى السّأمة والفَتْرة والملّة؛ ولكنّ المؤمن هو المتحامل[١]، والمؤمن هو المُتقوّي، والمؤمن هو المتشدّد، وإن المؤمنين هم العجّاجون[٢] إلى الله الليل والنهار؛ والله ما يزال المؤمن يقول: ربَّنا ربَّنا في السّر والعلانية حتى أستجاب لهم في السر والعلانية.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿بِالغَيْبِ﴾ الغيب في كلام العرب: كل ما غاب عنك، وهو من ذوات الياء؛ يقال منه: غابت الشمس تَغيب؛ والغيبة معروفة. وأغابت المرأة فهي مُغيبة إذا غاب عنها زوجها؛ ووقعنا في غَيبة وغَيابة، أي هبطة من الأرض؛ والغيابة: الأَجَمة، وهي جماع الشجر يغاب فيها؛ ويسمى المطمئن من الأرض: الغيب، لأنه غاب عن البصر.

الثالثة ـ وأختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا؛ فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية: الله سبحانه. وضعّفه أبن العربي. وقال آخرون: القضاء والقدر. وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب. وقال آخرون: الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدي إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار. قال أبن عطية: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها.

قلت: وهذا هو الإيمان الشرعي المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبيّ ﷺ: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشره». قال: صدقت. وذكر الحديث: وقال عبد الله ابن مسعود: ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

قلت: وفي التنزيل: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾[٣] وقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالْغَيْبِ﴾[٤]. فهو سبحانه غائب عن الأبصار، غير مَرْئي في هذه الدار، غيرغائب بالنظر والاستدلال؛

(١) تحامل في الأمر وبه: تكلفه على مشقة وإعياء.
(٢) العجّ: رفع الصوت بالتلبية.
(٣) سورة الأعراف آية: ٧. (٤) سورة الأنبياء آية: ٤٩.

فهم يؤمنون أن لَهم رَبّاً قادراً يجازي على الأعمال، فهم يخشونه في سرائرهم وخلواتهم التي يغيبون فيها عن الناس، لعلمهم بٱطلاعه عليهم، وعلى هذا تتفق الآي ولا تتعارض؛ والحمد لله. وقيل: «بالغيب» أي بضمائرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين؛ وهذا قول حسن. وقال الشاعر:

وبالغيب آمنّا وقد كان قومُنا يصلّون للأوثان قبل محمّد

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ معطوف جملة على جملة. وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها؛ على ما يأتي بيانه. يقال: قام الشيء أي دام وثبت؛ وليس من القيام على الرِّجْل؛ وإنما هو من قولك: قام الحق أي ظهر وثبت؛ قال الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق

وقال آخر:

وإذا يقال أتيتُم لم يبرحوا حتى تُقيم الخيلُ سُوقَ طِعانِ

وقيل: «يقيمون» يديمون، وأقامه أي أدامه؛ وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله: من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضَيّعها فهو لما سواها أضيع.

الخامسة - إقامة الصلاة معروفة؛ وهي سنة عند الجمهور، وأنه لا إعادة على تاركها. وعند الأوزاعي وعطاء ومجاهد وٱبن أبي ليلى هي واجبة وعلى من تركها الإعادة؛ وبه قال أهل الظاهر، وروي عن مالك، وٱختاره ٱبن العربي قال: لأن في حديث الأعرابي «وأقم» فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والاستقبال والوضوء.

قال: فأما أنتم الآن وقد وقفتم على الحديث فقد تعيّن عليكم أن تقولوا بإحدى روايتي مالك الموافقة للحديث وهي أن الإقامة فرض. قال ٱبن عبد البر قوله ﷺ: «وتحريمها التكبير» دليل على أنه لم يَدخل في الصلاة من لم يُحْرِم، فما كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شيء فيسلم للإجماع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك. وقال بعض علمائنا: مَن تركها عمداً أعاد الصلاة، وليس ذلك لوجوبها إذ لو كان ذلك لاستوى سهوها وعمدها، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن، والله أعلم.

السادسة ـ وٱختلف العلماء فيمن سمع الإقامة هل يُسرع أوْ لا؟ فذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تَسعَون وأتوها تمشون وعليكم السكِينة فما أدركتم فصَلُّوا وما فاتكم فأتِمُّوا». رواه أبو هريرة أخرجه مسلم. وعنه أيضاً قال قال رسول الله ﷺ: «إذا ثُوّب بالصلاة فلا يَسْعَ إليها أحدكم ولكن ليَمْشِ وعليه السَّكِينة والوقار صَلِّ ما أدركت وٱقضِ ما سبقك». وهذا نص. ومن جهة المعنى أنه إذا أسرع ٱنبهر[1] فشوّش عليه دخوله في الصلاة وقراءتها وخشوعها. وذهب جماعة من السلف منهم ٱبن عمر وٱبن مسعود على ٱختلاف عنه أنه إذا خاف فواتها أسرع. وقال إسحاق: يسرع إذا خاف فوات الركعة؛ وروي عن مالك نحوه، وقال: لا بأس لمن كان على فرس أن يحرّك الفرس؛ وتأوّله بعضهم على الفرق بين الماشي والراكب؛ لأن الراكب لا يكاد أن ينبهر كما ينبهِر الماشي.

قلت: وٱستعمال سنة رسول الله ﷺ في كل حال أولى، فيمشي كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار؛ لأنه في صلاة ومحال أن يكون خبره ﷺ على خلاف ما أخبر؛ فكما أن الداخل في الصلاة يلزم الوقار والسكون كذلك الماشي، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه. ومما يدل على صحة هذا ما ذكرناه من السنة، وما خرّجه الدّارمي في مسنده قال: حدّثنا محمد بن يوسف قال حدّثنا سفيان عن محمد بن عجلان عن المقبري عن كعب بن عُجْرَةَ قال قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأت فعمدت إلى المسجد فلا تُشَبِّكَنّ بين أصابعك فإنك في صلاة». فمنع ﷺ في هذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع وجعله كالمصلّي؛ وهذه السنن تبيّن معنى قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾[2] وأنه ليس المراد به الاشتداد على الأقدام، وإنما عنى العمل والفعل؛ هكذا فسره مالك. وهو الصواب في ذلك والله أعلم.

---

(١) البهر (بالضم): تتابع النفس من الإعياء.

(٢) سورة الجمعة آية: ٩.

السابعة ـ وٱختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام: «وما فاتكم فأتِمُّوا» وقوله: «وٱقض ما سبقك» هل هما بمعنًى واحد أوْ لا؟ فقيل: هما بمعنًى واحد وأن القضاء قد يطلق ويراد به التمام، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾[1] وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾[2]. وقيل: معناهما مختلف وهو الصحيح؛ ويترتب على هذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل هل هو أوّل صلاته أو آخرها؟ فذهب إلى الأوّل جماعة من أصحاب مالك ـ منهم ٱبن القاسم ـ ولكنه يقضي ما فاته بالحمد وسورة، فيكون بانياً في الأفعال قاضياً في الأقوال. قال ٱبن عبد البر: وهو المشهور من المذهب. وقال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد: وهو الذي عليه أصحابنا، وهو قول الأوزاعي والشافعي ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل والطبري وداود بن عليّ. وروى أشهب وهو الذي ذكره ٱبن عبد الحكم عن مالك، ورواه عيسى عن ٱبن القاسم عن مالك، أن ما أدرك فهو آخر صلاته، وأنه يكون قاضياً في الأفعال والأقوال؛ وهو قول الكوفيين. قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب: وهو مشهور مذهب مالك. قال ٱبن عبد البر: من جعل ما أدرك أوّلَ صلاته فأظنهم راعوا الإحرام؛ لأنه لا يكون إلا في أوّل الصلاة، والتشهد والتسليم لا يكون إلا في آخرها؛ فمن هاهنا قالوا: إن ما أدرك فهو أوّل صلاته، مع ما ورد في ذلك من السنة من قوله: «فأتموا» والتمام هو الآخر.

وٱحتج الآخرون بقوله: «فٱقضوا» والذي يقضيه هو الفائت، إلا أن رواية من روى «فأتموا» أكثر، وليس يستقيم على قول من قال: إن ما أدرك أوّل صلاته ويطرد، إلا ما قاله عبد العزيز بن أبي سَلَمة الماجِشُون والمزني وإسحاق وداود من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن إدرك ذلك معه؛ وإذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها؛ فهؤلاء ٱطرد على أصلهم قولهم وفعلهم؛ رضي الله عنهم.

الثامنة ـ الإقامة تمنع من ٱبتداء صلاة نافلة، قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة» خرّجه مسلم وغيره؛ فأما إذا شرع في نافلة

---

(١) سورة الجمعة آية: ١٠.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٠٠.

فلا يقطعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[١] وخاصة إذا صلى ركعة منها. وقيل: يقطعها لعموم الحديث في ذلك. والله أعلم.

التاسعة ـ وٱختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتي الفجر ثم أقيمت الصلاة؛ فقال مالك: يدخل مع الإمام ولا يركعهما؛ وإن كان لم يدخل المسجد فإن لم يخف فوات ركعة فليركع خارج المسجد، ولا يركعهما في شيء من أفنية المسجد ـ التي تصلّى فيها الجمعة ـ اللاصقة بالمسجد؛ وإن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه؛ ثم يصليهما إذا طلعت الشمس إن أحب؛ ولأَنْ يصلّيهما إذا طلعت الشمس أحبّ إليّ وأفضل من تركهما وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن خشى أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع في الثانية دخل معه، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتي الفجر خارج المسجد، ثم يدخل مع الإمام. وكذلك قال الأوزاعي؛ إلا أنه يجوِّز ركوعهما في المسجد ما لم يخف فوت الركعة الأخيرة. وقال الثوري: إن خشي فوت ركعة دخل معهم ولم يصلهما وإلا صلاهما وإن كان قد دخل المسجد. وقال الحسن بن حَيّ ويقال ٱبن حَيّان: إذا أخذ المقيم في الإقامة فلا تطوّع إلا ركعتي الفجر. وقال الشافعي: من دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا في المسجد. وكذلك قال الطبري وبه قال أحمد بن حنبل وحكي عن مالك؛ وهو الصحيح في ذلك؛ لقوله عليه السلام: «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة». وركعتا الفجر إمّا سنة، وإمّا فضيلة، وإمّا رَغِيبة؛ والحجة عند التنازع حجة السُّنة. ومن حجة قول مالك المشهور وأبي حنيفة ما روي عن ٱبن عمر أنه جاء والإمام يصلي صلاة الصبح فصلاهما في حُجرة حفصة، ثم إنه صلى مع الإمام. ومن حجة الثَوْري والأوزاعي ما روي عن عبد الله بن مسعود أنه دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة فصلى إلى أُسْطُوَانة[٢] في المسجد ركعتي الفجر، ثم دخل الصلاة بمحضر من حذيفة وأبي موسى رضي الله عنهما. قالوا: وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن

---

(١) سورة محمد آية: ٣٣. (٢) الأسطوانة: العامود.

المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك في المسجد، روى مسلم عن عبد الله بن مالك ابن بُحَيْنة[١] قال: أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله ﷺ رجلاً يصلي والمؤذن يقيم، فقال: «أتصلي الصبح أربعاً»! وهذا إنكار منه ﷺ على الرجل لصلاته ركعتي الفجر في المسجد والإمام يصلي، ويمكن أن يستدل به أيضاً على أن ركعتي الفجر إن وقعت في تلك الحال صَحّت؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته مع تمكنه من ذلك، والله أعلم.

العاشرة ـ الصلاة أصلها في اللغة الدعاء، مأخوذة من صَلّى يصلّي إذا دعا؛ ومنه قوله عليه السلام: «إذا دُعي أحدكم إلى طعام فليُجِب فإن كان مفطراً فليطعم وإن كان صائماً فليُصَلّ» أي فليدْعُ. وقال بعض العلماء: إن المراد الصلاة المعروفة، فيصلي ركعتين. وينصرف؛ والأوّل أشهر وعليه من العلماء الأكثر. ولما وَلدت أسماءُ عبدَ الله بن الزبير أرسلته إلى النبيّ ﷺ؛ قالت أسماء: ثم مسحه وصلّى عليه، أي دعا له. وقال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾[٢] أي ادع لهم.

وقال الأعشى:

تقول بِنْتِي وقد قَرُبتُ مرتحلاً ... يا ربّ جنّب أبِي الأوْصاب والوجَعَا
عليكِ مثلَ الذي صلّيتِ فاغْتَمِضي ... نوماً فإن لجَنْبِ المرء مُضطجَعَا

وقال الأعشى أيضاً:

وقابلها الرّيحُ في دَنّها ... وصلّى على دَنّها وارْتَسَمْ

أرتسم الرجل: كبّر ودعا؛ قاله في «الصحاح». وقال قوم: هي مأخوذة من الصَّلا وهو عِرْق في وسط الظهر ويفترق عند العَجْب فيكتنفه؛ ومنه أُخذ المُصَلِّي في سبق الخيل؛ لأنه يأتي في الحَلْبة ورأسه عند صَلْوَي السابق؛ فاشتقت الصلاة منه، إمّا لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمُصَلِّي من الخيل، وإما لأن الراكع تثنى صَلَوَاه. والصَّلا: مَغْرِز الذَّنَب من الفرس،

(١) «بحينة»: أمه، وهي بنت الحارث بن عبد المطلب. وأبوه مالك بن القشب بن فضلة الأزدي.
(٢) سورة التوبة آية: ١٠٣.

والاثنان صلوان. والمُصَلّي: تالي السابق؛ لأن رأسه عند صَلاه. وقال عليّ رضي الله عنه: سَبَقَ رسولُ الله ﷺ وصَلَّى أبو بكر وثَلّث عمر. وقيل: هي مأخوذة من اللزوم؛ ومنه صَلِيَ بالنار إذا لزمها؛ ومنه ﴿تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾[١]. قال الحارث بن عُبَاد:

لم أكن من جُنَاتِها علم اللّـ ـهُ وإنّي بحرّها اليومَ صالِ

أي ملازم لحرّها؛ وكأنّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذي أمر الله تعالى به. وقيل: هي مأخوذة من صَلَيت العود بالنار إذا قوّمته وليّنته بالصّلاء. والصِّلاء: صِلاء النار بكسر الصاد ممدود؛ فإن فتحت الصاد قَصَرْت، فقلت صَلا النار، فكأنّ المصلي يقوّم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع؛ قال الخارزنجي[٢]:

فلا تعجل بأمرك واستدمْهُ فما صَلَّى عصاكَ[٣] كمستديم

والصلاة: الدعاء. والصلاة: الرحمة؛ ومنه: «اللّهمّ صلّ على محمد» الحديث. والصلاة: العبادة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾[٤] الآية؛ أي عبادتهم. والصلاة: النافلة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ﴾[٥]. والصلاة التسبيح؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾[٦] أي من المصلين. ومنه سُبْحة الضحى. وقد قيل في تأويل ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾[٧]: نصلّي. والصلاة: القراءة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾[٨] فهي لفظ مشترك. والصلاة: بيت يصلّى فيه؛ قاله ٱبن فارس. وقد قيل: إن الصلاة ٱسم عَلَم وضع لهذه العبادة؛ فإن الله تعالى لم يُخلِ زماناً من شرع، ولم يُخلَ شرع من صلاة؛ حكاه أبو نصر القشيري.

قلت: فعلى هذا القول لا ٱشتقاق لها؛ وعلى قول الجمهور وهي:

الحادية عشرة ـ ٱختلف الأصوليون هل هي مبقاة على أصلها اللغوي الوضعي الابتدائي، وكذلك الإيمان والزكاة والصيام والحج، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام، أو هل

---

(١) سورة الغاشية آية: ٤. (٢) كذا في جميع الأصول وفي «اللسان والتاج» مادة (صلا): «... قيس بن زهير». (٣) كذا في جميع الأصول. وفي «اللسان»: «عصاه».
(٤) سورة الأنفال آية: ٣٥. (٥) سورة طه آية: ١٣٢. (٦) سورة الصافات آية: ١٤٣.
(٧) سورة البقرة آية: ٣٠. (٨) سورة الإسراء آية: ١١٠.

تلك الزيادة من الشرع تصيّرها موضوعة كالوضع الابتدائي من قبل الشرع. هنا أختلافهم والأوّل أصح؛ لأن الشريعة ثبتت بالعربية، والقرآن نزل بها بلسان عربي مبين؛ ولكن للعرب تحكُّمٌ في الأسماء، كالدابة وضعت لكل ما يَدِبّ؛ ثم خصصها العرف بالبهائم؛ فكذلك لعرف الشرع تحكُّم في الأسماء، والله أعلم.

الثانية عشرة ـ وأختلف في المراد بالصلاة هنا؛ فقيل: الفرائض. وقيل: الفرائض والنوافل معاً؛ وهو الصحيح؛ لأن اللفظ عام والمتّقِي يأتي بهما.

الثالثة عشرة ـ الصلاة سبب للرزق؛ قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ الآية؛ على ما يأتي بيانه في «طه[١]» إن شاء الله تعالى. وشفاء من وجع البطن وغيره؛ روى أبن ماجه عن أبي هريرة قال: هَجَّر[٢] النبيُّ ﷺ فهجَّرتُ فصليتُ ثم جلستُ؛ فألتفت إليّ النبيّ ﷺ فقال: «أشكمت دَرْدَه» قلت: نعم يا رسول الله؛ قال: «قم فصلّ فإن في الصلاة شفاء». في رواية: «أشكمت درد» يعني تشتكي بطنك بالفارسية؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَه[٣] أمرٌ فزع إلى الصلاة.

الرابعة عشرة ـ الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض؛ فمن شروطها: الطهارة، وسيأتي بيان أحكامها في سورة النساء[٤] والمائدة[٥]. وستر العورة، يأتي في الأعراف[٦] القول فيها إن شاء الله تعالى.

وأما فروضها: فاستقبال القبلة، والنية، وتكبيرة الإحرام والقيام لها، وقراءة أم القرآن والقيام لها، والركوع والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه، والسجود والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من السجود، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه، والسجود الثاني والطمأنينة فيه. والأصل في هذه الجملة حديث أبي هريرة في الرجل الذي علّمه النبيّ ﷺ الصلاة لما أخلّ بها، فقال له: «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم أستقبل القبلة ثم كبر ثم أقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم أركع حتى تطمئن راكعاً ثم أرفع

---

(١) راجع ١١/ ٢٦٣. (٢) التهجير: التبكير إلى كل شيء والمبادرة إليه.
(٣) حزبه الأمر: نابه وأشتد عليه، وقيل ضغطه. (٤) راجع ٥/ ٢٠٤ فما بعد.
(٥) راجع ٦/ ٨٠ فما بعد. (٦) راجع ٧/ ١٨٢ فما بعد.

حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها» خرّجه مسلم. ومثله حديث رفاعة بن رافع، أخرجه الدّارَقُطْنيّ وغيره. قال علماؤنا: فبيّن قوله ﷺ أركان الصلاة، وسكت عن الإقامة ورفع اليدين وعن حدّ القراءة وعن تكبير الانتقالات، وعن التسبيح في الركوع والسجود، وعن الجلسة الوسطى، وعن التشهد وعن الجلسة الأخيرة وعن السلام. أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما[1]. وأما رفع اليدين فليس بواجب عند جماعة العلماء وعامة الفقهاء؛ لحديث أبي هريرة وحديث رفاعة بن رافع. وقال داود وبعض أصحابه بوجوب ذلك عند تكبيرة الإحرام. وقال بعض أصحابه: الرفع عند الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب، وإنّ من لم يرفع يديه فصلاته باطلة؛ وهو قول الحميدي، ورواية عن الأوزاعي. واحتجوا بقوله عليه السلام: «صلُّوا كما رأيتموني أصلّي» أخرجه البخاري. قالوا: فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل؛ لأنه المبلِّغ عن الله مرادَه. وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور. وكان ابن قاسم صاحب مالك يقول: من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد للسهو قبل السلام، وإن لم يسجد بطلت صلاته؛ وإن نسي تكبيرة واحدة أو اثنتين سجد أيضاً للسهو، فإن لم يفعل فلا شيء عليه؛ وروي عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيها. وهذا يدل على أن عُظْم التكبير وجملته عنده فرض، وأن اليسير منه متجاوز عنه. وقال أَصْبَغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم: ليس على من لم يكبّر في الصلاة من أوّلها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهياً سجد للسهو، فإن لم يسجد فلا شيء عليه؛ ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير عامداً؛ لأنه سنة من سنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه وصلاته ماضية.

قلت: هذا هو الصحيح، وهو الذي عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهل الحديث والمالكيين غيرَ من ذهب مذهب ابن القاسم. وقد ترجم البخاري

---

(١) راجع ص ١١٧، ١٦٤ من هذا الجزء.

رحمه الله (باب إتمام التكبير في الركوع والسجود) وساق حديث مُطَرِّف بن عبد الله قال: صلّيت خلف عليّ بن أبي طالب أنا وعمران بن حُصين، فكان إذا سجد كبّر، وإذا رفع رأسه كبّر، وإذا نهض من الركعتين كبّر؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدِي عمرانُ بن حصين فقال: لقد ذكّرني هذا صلاة محمد ﷺ، أو قال: لقد صلى بنا صلاة محمد ﷺ. وحديثَ عكرمة قال: رأيت رجلاً عند المقام يكبر في كل خفض ورفع، وإذا قام وإذا وضع، فأخبرت ٱبن عباس فقال: أو ليس تلك صلاة النبي ﷺ لا أُمَّ لك[(١)]! فدلّك البخاري رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولاً به عندهم. روى أبو إسحاق السَّبِيعي عن يزيد بن أبي مريم عن أبي موسى الأشعري قال: صلّى بنا عليّ يومَ الجَمَل صلاة أذكرنا بها صلاة رسول الله ﷺ، كان يكبر في كل خفض ورفع، وقيام وقعود؛ قال أبو موسى: فإما نسيناها وإما تركناها عمداً.

قلت: أتراهم أعادوا الصلاة! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض، والشيء إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه؛ وبالله التوفيق.

الخامسة عشرة ـ وأما التسبيح في الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور؛ وأوجبه إسحاق بن رَاهَوَيْه، وأن من تركه أعاد الصلاة، لقوله عليه السلام: «أما الركوع فعظموا فيه الربّ وأما السجود فٱجتهدوا في الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم».

السادسة عشرة ـ وأما الجلوس والتشهد فاختلف العلماء في ذلك ؛ فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأوّل والتشهد له سنتان . وأوجب جماعة من العلماء الجلوس الأوّل وقالوا: هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعَرَايا[(٢)] من المُزَابنة[(٣)] ، والقِراض[(٤)] من الإجارات ، وكالوقوف بعد الإحرام لمن وجد الإمام راكعاً. وٱحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان

(١) قوله: لا أم لك. في نهاية ٱبن الأثير: «هو ذم وسب. أي أنت لقيط لا تُعْرَف لك أم. وقيل: قد يقع مدحاً بمعنى التعجب منه وفيه بُعدٌ». (٢) العرايا: نخل كانت توهب ثمارها للمساكين فلا يستطيعون أن ينتظروا بها رخص لهم أن يبيعوها بما شاءوا من التمر. (٣) المزابنة: بيع الرطب على رءوس النخل بالتمر كيلاً، وبيع الزبيب بالكرم. (٤) القراض (بالكسر): إجارة على التجر في مال بجزء من ربحه.

العامد لتركه تبطل صلاته كما لا تبطل بترك سنن الصلاة. أحتج من لم يوجبه بأن قال: لو كان من فرائض الصلاة لرجع الساهي عنه إليه حتى يأتي به، كما لو ترك سجدة أو ركعة؛ ويراعى فيه ما يراعى في الركوع والسجود من الولاء والرتبة؛ ثم يسجد لسهوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما. وفي حديث عبد الله بن بُحَيْنة: أن رسول الله ﷺ قام من ركعتين ونسي أن يتشهد فسبّح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائماً فقاموا؛ فلما فرغ من صلاته سجد سجدتي السهو قبل التسليم؛ فلو كان الجلوس فرضاً لم يسقطه النسيان والسهو؛ لأن الفرائض في الصلاة يستوي في تركها السهو والعمد إلا في المؤتم.

وأختلفوا في حكم الجلوس الأخير في الصلاة وما الغرض من ذلك. وهي:

السابعة عشرة ـ على خمسة أقوال:

أحدها: أن الجلوس فرض والتشهد فرض والسلام فرض. وممن قال ذلك الشافعي وأحمد بن حنبل في رواية، وحكاه أبو مصعب في مختصره عن مالك وأهل المدينة، وبه قال داود. قال الشافعي: من ترك التشهد الأوّل والصلاة على النبيّ ﷺ فلا إعادة عليه وعليه سجدتا السهو لتركه. وإذا ترك التشهد الأخير ساهياً أو عامداً أعاد. وأحتجوا بأنّ بيان النبيّ ﷺ في الصلاة فرض؛ لأن أصل فرضها مجمل يفتقر إلى البيان إلا ما خرج بدليل. وقد قال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

القول الثاني: أنّ الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب، وإنما ذلك كله سنة مسنونة؛ هذا قول بعض البصريين، وإليه ذهب إبراهيم بن عُلَيّة، وصرح بقياس الجلسة الأخيرة على الأولى، فخالف الجمهور وشذّ؛ إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيئاً من ذلك كله. ومن حجتهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي عن النبيّ ﷺ قال: «إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدةٍ في صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته» وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر؛ وقد بيناه في كتاب «المقتبس»[1]. وهذا اللفظ إنما يُسقط السلام لا الجلوس.

---

(١) في بعض الأصول: «المفتين».

القول الثالث: إن الجلوس مقدار التشهد فرض، وليس التشهد ولا السلام بواجب فرضاً. قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين. وٱحتجوا بحديث ٱبن المبارك عن الإفريقي عبد الرحمن بن زياد وهو ضعيف؛ وفيه أن النبيّ ﷺ قال: «إذا جلس أحدكم في آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلّم فقد تمت صلاته». قال ٱبن العربي: وكان شيخنا فخر الإسلام ينشدنا في الدرس:

ويرى الخروج من الصلاة بضَرْطَة أيـن الضّـراطُ مـن السـلامِ عليكـمُ

قال ٱبن العربي: وسلك بعض علمائنا من هذه المسألة فرعين ضعيفين، أما **أحدهما**: فروى عبد الملك عن عبد الملك أن من سلّم من ركعتين متلاعباً، فخرج البيان أنه إن كان على أربع أنه يجزئه، وهذا مذهب أهل العراق بعينه. **وأما الثاني**: فوقع في الكتب المنبوذة أن الإمام إذا أحدث بعد التشهد متعمداً وقبل السلام أنه يجزىءُ مَن خلفَه، وهذا مما لا ينبغي أن يلتفت إليه في الفتوى؛ وإن عمرت به المجالس للذكرى.

القول الرابع: أن الجلوس فرض والسلام فرض، وليس التشهد بواجب. وممّا قال هذا مالك بن أنس وأصحابه وأحمد بن حنبل في رواية. وٱحتجوا بأن قالوا: ليس شيء من الذكر يجب إلا تكبيرة الإحرام، وقراءة أم القرآن.

القول الخامس: أن التشهد والجلوس واجبان، وليس السلام بواجب؛ قاله جماعة منهم إسحاق بن رَاهْوَيْه، وٱحتج إسحاق بحديث ٱبن مسعود حين علّمه رسول الله ﷺ التشهد وقال له: **«إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك»**. قال الدّارَقُطْنِيّ: قوله: **«إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك»** أدرجه بعضهم عن زهير في الحديث، ووصله بكلام النبيّ ﷺ؛ وفصله شَبَابَة عن زهير وجعله من كلام ٱبن مسعود، وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه في حديث النبيّ ﷺ. وشَبَابة ثقة. وقد تابعه غَسّان بن الربيع على ذلك، جعل آخر الحديث من كلام ٱبن مسعود ولم يرفعه إلى النبيّ ﷺ.

الثامنة عشرة ـ وٱختلف العلماء في السلام؛ فقيل: واجب، وقيل: ليس بواجب. والصحيح وجوبه لحديث عائشة وحديث عليّ الصحيح خرّجه أبو داود والترمذيّ ورواه سفيان الثوريّ عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن عليّ قال قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم» وهذا الحديث أصل في إيجاب التكبير والتسليم، وأنه لا يجزىء عنهما غيرهما كما لا يجزىء عن الطهارة غيرها بٱتفاق. قال عبد الرحمن بن مهدي: لو ٱفتتح رجل صلاته بسبعين ٱسماً من أسماء الله عز وجلّ ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه، وإن أحدث قبل أن يسلم لم يجزه؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهدي لحديث عليّ، وهو إمام في علم الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه. وحَسْبُك به!

وقد ٱختلف العلماء في وجوب التكبير عند الافتتاح وهي:

التاسعة عشرة: فقال ٱبن شهاب الزهري وسعيد بن المسيّب والأوزاعي وعبد الرحمن وطائفة: تكبيرة الإحرام ليست بواجبة. وقد روي عن مالك في «المأموم» ما يدل على هذا القول؛ والصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنها فرض وركن من أركان الصلاة؛ وهو الصواب وعليه الجمهور، وكل من خالف ذلك فمحجوج بالسنة.

الموفية عشرين ـ وٱختلف العلماء في اللفظ الذي يدخل به في الصلاة؛ فقال مالك وأصحابه وجمهور العلماء: لا يجزىء إلا التكبير، لا يجزىء منه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد. هذا قول الحجازيين وأكثر العراقيين؛ ولا يجزىء عند مالك إلا «الله أكبر» لا غير ذلك. وكذلك قال الشافعي وزاد: ويجزىء «الله الأكبر» و«الله الكبير». والحجة لمالك حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. وحديث عليّ: وتحريمها التكبير. وحديث الأعرابي فكبّر. وفي «سنن ٱبن ماجه» حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعليّ بن محمد الطنافسي قالا: حدّثنا أبو أسامة قال حدّثني عبدالحميد ابن جعفر قال حدّثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال سمعت أبا حميد الساعدي

يقول: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة ٱستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «الله أكبر» وهذا نص صريح وحديث صحيح في تعيين لفظ التكبير؛ قال الشاعر:

رأيــتُ اللهَ أكبــرَ كــلِّ شــيء محــاولــةً وأعظمــه جنــودا

ثم إنه يتضمن القدم، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم، فكان أبلغ في المعنى؛ والله أعلم.

وقال أبو حنيفة: إن ٱفتتح بلا إله إلا الله يجزيه، وإن قال: اللهم ٱغفر لي لم يجزه، وبه قال محمد بن الحسن. وقال أبو يوسف: لا يجزئه إذا كان يحسن التكبير. وكان الحكم بن عتيبة يقول: إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه. قال ٱبن المنذر: ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلّل وكبّر ولم يقرأ أن صلاته فاسدة، فمن كان هذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يجزيه مكان التكبير غيره، كما لا يجزىء مكان القراءة غيرها. وقال أبو حنيفة: يجزئه التكبير بالفارسية وإن كان يحسن العربية. قال ٱبن المنذر: لا يجزيه لأنه خلاف ما عليك جماعات المسلمين، وخلاف ما علّم النبيّ ﷺ أمته، ولا نعلم أحداً وافقه على ما قال. والله أعلم.

الحادية والعشرون ـ وٱتفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيئاً روي عن بعض أصحابنا يأتي الكلام عليه في آية الطهارة؛ وحقيقتها قصد التقرّب إلى الآمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه. قال ٱبن العربي: والأصل في كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل المنويّ بها، أو قبل ذلك بشرط ٱستصحابها، فإن تقدّمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة في تلك الحالة لم يعتد بها، كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل، وقد رخص في تقديمها في الصوم لعظم الحرج في ٱقترانها بأوّله . قال ٱبن العربيّ: وقال لنا أبو الحسن القرويّ بثَغْر عسقلان: سمعت إمام الحرمين يقول: يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية، ويجرد النظر في الصانع وحدوث العالم والنبوّات حتى ينتهي نظره إلى نية الصلاة، قال: ولا يحتاج ذلك إلى زمان طويل، وإنما يكون ذلك في أوحى[1] لحظة، لأن

(١) أوحى: أسرع.

تعليم الجمل يفتقر إلى الزمان الطويل، وتذكارها يكون في لحظة، ومن تمام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها، إلا أن ذلك لما كان أمراً يتعذر عليه سمح الشرع في عزوب النية في أثنائها. سمعت شيخنا أبا بكر الفهري بالمسجد الأقصى يقول قال محمد بن سحنون: رأيت أبي سحنوناً ربما يكمل الصلاة فيعيدها؛ فقلت له ما هذا؟ فقال: عَزَبت نيتي في أثنائها فلأجل ذلك أعدتها.

قلت: فهذه جملة من أحكام الصلاة، وسائر أحكامها يأتي بيانها في مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى؛ فيأتي ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة إلى الأوقات، وبعض صلاة الخوف في هذه السورة، ويأتي ذكر قصر الصلاة وصلاة الخوف، في «النساء(١)» والأوقات في «هود(٢) وسبحان(٣) والروم(٤)» وصلاة الليل في «المزمل(٥)» وسجود التلاوة في «الأعراف(٦)» وسجود الشكر في «ص(٧)» كلٌّ في موضعه إن شاء الله تعالى.

الثانية والعشرون ـ قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ رزقناهم: أعطيناهم، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالاً كان أو حراماً، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام وإنما يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى المِلك.

قالوا: فلو نشأ صبي مع اللصوص ولم يأكل شيئاً إلا ما أطعمه اللصوص إلى أن بلغ وقوي وصار لصاً، ثم لم يزل يتلصّص ويأكل ما تلصّصه إلى أن مات، فإن الله لم يرزقه شيئاً إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئاً.

وهذا فاسد، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقاً، ولا البهائم التي ترتع في الصحراء، ولا السِّخال من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال.

ولما اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء ولأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون،

---

(١) راجع ٥/ ٣٥١ فما بعد. (٢) راجع ٩/ ١٠٩ فما بعد. (٣) راجع ١٠/ ٣٠٣ فما بعد.
(٤) راجع ١٤/ ١٤ فما بعد. (٥) راجع ١٩/ ٥١ فما بعد. (٦) راجع ٧/ ٣٥٧ فما بعد.
(٧) راجع ١٥/ ١٨٣.

وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين؛ فعلم أن الرزق ما قلناه لا ما قالوه. والذي يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ﴾(١) وقال: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(٢) وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلأَرْضِ إِلاَّ عَلَى ٱللهِ رِزْقُهَا﴾(٣) وهذا قاطع؛ فالله تعالى رازق حقيقة وأبن آدم رازق تجوّزا، لأنه يملك ملكاً منتزعاً كما بيناه في الفاتحة(٤)؛ مرزوق حقيقة كالبهائم التي لا ملك لها؛ إلا أن الشيء إذا كان مأذوناً له في تناوله فهو حلال حكماً، وما كان منه غير مأذون له في تناوله فهو حرام حكماً؛ وجميع ذلك رزق.

وقد خرّج بعض النبلاء من قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(٥) فقال: ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام.

الثالثة والعشرون ـ قوله تعالى: ﴿ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ الرزق مصدر رزق يرزق رَزقاً ورِزقاً، فالرَّزق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم، وجمعه أرزاق؛ والرزق: العطاء. والرازقية: ثياب كتان [بيض(٦)]. وأرتزق الجند: أخذوا أرزاقهم. والرزقة: المرة الواحدة؛ هكذا قال أهل اللغة. وقال أبن السكيت: الرزق بلغة أَزْدِشَنُوءَة: الشكر؛ وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(٧) أي شكركم التكذيب. ويقول: رزقني أي شكرني.

الرابعة والعشرون ـ قوله تعالى: ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ينفقون: يخرجون. والإنفاق: إخراج المال من اليد؛ ومنه نَفَق البيع: أي خرج من يد البائع إلى المشتري. ونَفَقت الدّابةُ: خرجت روحها؛ ومنه النافِقاء لجُحْر اليربوع الذي يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى. ومنه المنافق؛ لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه. ونَيْفَق السراويل معروفة وهو مخرج الرِّجل منها. ونَفِق الزاد: فني وأنفقه صاحبه. وأنفق القوم: فني زادهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ﴾(٨).

---

(١) راجع ١٤/ ٣٢١ فما بعد. (٢) راجع ١٧/ ٥٥. (٣) راجع ٩/ ٦ فما بعد.
(٤) راجع ص ١٤٠ فما بعدها من هذا الجزء. (٥) راجع ١٤/ ٢٨٤. (٦) الزيادة عن «اللسان» مادة (رزق). (٧) راجع ١٧/ ٢٢٨ فما بعد. (٨) راجع ١٠/ ٣٣٥.

الخامسة والعشرون ـ وآختلف العلماء في المراد بالنفقة هاهنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة ـ روي عن آبن عباس ـ لمقارنتها الصلاة. وقيل: نفقة الرجل على أهله ـ روي عن آبن مسعود ـ لأن ذلك أفضل النفقة. روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «دينارٌ أنفقتَه في سبيل الله ودينار أنفقته في رَقَبَة ودينار تَصدّقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك». وروي عن ثَوْبان قال قال رسول الله ﷺ: «أفضلُ دينارٍ ينفقه الرجل دينارٌ ينفقه على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله عزّ وجلّ ودينارٌ ينفقه على أصحابه في سبيل الله» قال أبو قِلابة[1]: وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قِلابة: وأيُّ رَجلٍ أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يعفّهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم. وقيل: المراد صدقة التطوّع ـ روي عن الضحاك ـ نظراً إلى أن الزكاة لا تأتي إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة؛ فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة آحتملت الفرض والتطوّع، فإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم تكن إلا التطوّع. قال الضحاك: كانت النفقة قرباناً يتقرّبون بها إلى الله جلّ وعزّ على قدر جِدَتهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات[2] في «براءة». وقيل: إنه الحقوق الواجبة العارضة في الأموال ما عدا الزكاة؛ لأن الله تعالى لما قرنه بالصلاة كان فرضاً، ولما عدل عن لفظها كان فرضاً سواها. وقيل: هو عام وهو الصحيح، لأنه خرج مخرج المدح في الإنفاق مما رزقوا، وذلك لا يكون إلا من الحلال، أي يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة وغيرها مما يعنّ في بعض الأحوال مع ما ندبهم إليه. وقيل: الإيمان بالغيب حظ القلب. وإقام الصلاة حظ البدن. ومما رزقناهم ينفقون حظ المال، وهذا ظاهر. وقال بعض المتقدّمين في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي مما علّمناهم يعلّمون؛ حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشيري.

(١) أبو قلابة: أحد رواة سند هذا الحديث.

(٢) مثل قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية. ٨/ ٢٤٤ فقد قال آبن العربي إنها ناسخة لآية ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ الآية آنظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأوّل من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١ هـ. وكذلك روى الجصاص نسخها بها عن عمر بن عبد العزيز.

[٤] ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝﴾.

قيل: المراد مؤمنو أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سَلاَم وفيه نزلت، ونزلت الأولى في مؤمني العرب. وقيل: الآيتان جميعاً في المؤمنين، وعليه فإعراب «الذين» خفضٌ على العطف، ويصح أن يكون رفعاً على الاستئناف أي وهم الذين. ومن جعلها في صنفين فإعراب «الذين» رفع بالابتداء، وخبره «أولئك على هُدًى» ويحتمل الخفض عطفاً.

قوله تعالى: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني الكتب السالفة؛ بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾[1] الآية. ويقال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلذِين يؤمِنون بالغيب﴾ قالت اليهود والنصارى: نحن آمنّا بالغيب، فلما قال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ قالوا: نحن نقيم الصلاة، فلما قال: ﴿ومما رزقناهم ينفِقون﴾ قالوا: نحن ننفق ونتصدّق، فلما قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ نفروا من ذلك. وفي حديث أبي ذَرّ قال قلت: يا رسول الله كم كتاباً أنزل الله؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شِيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ[2] ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان». الحديث أخرجه الحسين الآجُرّي وأبو حاتم البُسْتِيّ.

وهنا مسألة ـ إن قال قائل: كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافي أحكامها؟ قيل له فيه جوابان: **أحدهما** ـ أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله؛ وهو قول من أسقط التعبد بما تقدّم من الشرائع. **الثاني** ـ أن الإيمان بما لم ينسخ منها؛ وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدّمة، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي وبالبعث والنشر هم عالمون. واليقين: العلم دون الشك؛ يقال منه: يَقِنْتُ الأمرَ (بالكسر) يَقْناً، وأيقنتُ وٱستيقنتُ وتيقّنتُ كله بمعنًى،

---

(١) راجع ٢/٢٩. (٢) أخنوخ هو إدريس عليه السلام.

وأنا على يقين منه. وإنما صارت الياء واواً في قولك: مُوقِن، للضمة قبلها، وإذا صغرته رددته إلى الأصل فقلت مُيَيْقِن. والتصغير يردّ الأشياء إلى أصولها وكذلك الجمع. وربما عبروا باليقين عن الظن، ومنه قول علمائنا في اليمين اللَّغْو: هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ثم يتبين له أنه خلاف ذلك فلا شيء عليه؛ قال الشاعر[١]:

تَحسَّبَ هَوّاسٌ وأيْقَنَ أنّني ... بها مُفْتَدٍ مِن واحِدٍ لا أُغَامِرُهْ

يقول: تشمّم الأسد ناقتي، يظنّ أنني مُفْتَدٍ بها منه، وأستحمي نفسي فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته. فأما الظن بمعنى اليقين فورد في التنزيل وهو في الشعر كثير؛ وسيأتي. والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها، كما أن الدنيا مشتقة من الدّنوّ؛ على ما يأتي.

[٥] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

قال النحاس أهل نجد يقولون: أُلاَكَ، وبعضهم يقول: أُلاَلِكَ؛ والكاف للخطاب. قال الكسائي: من قال أولئك فواحده ذلك، ومن قال أُلاَك فواحده ذاك، وأُلاَلِك مثل أولئك؛ وأنشد ابن السِّكّيت.

أُلاَلِكَ قَومي لم يكونوا أُشَابةً[٢] ... وهل يَعِظُ الضِّلّيلَ إلا أُلالِكَا

وربما قالوا: أولئك في غير العقلاء؛ قال الشاعر:

ذُمّ المنازل بعد منزلة اللِّوَى ... والعيشَ بعد أولئك الأيامِ

وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْه مَسْئُولاً﴾[٣] وقال علماؤنا: إن في قوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ردّاً على القدرية في قولهم: يخلقون إيمانهم وهداهم، تعالى الله عن قولهم! ولو كان كما قالوا لقال: «من أنفسهم»، وقد تقدّم الكلام فيه[٤] وفي الهُدى[٥] فلا معنى لإعادة ذلك.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «هم» يجوز أن يكون مبتدأ ثانياً وخبره «المفلحون»، والثاني وخبره خبر الأوّل، ويجوز أن تكون «هم» زائدة ـ يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عماداً ـ و «المفلحون» خبر «أولئك».

(١) هو أبو سدرة الأسدي، ويقال: الهجيمي. (٢) الأشابة من الناس: الأخلاط. والأشابة في الكسب: ما خالطه الحرام الذي لا خير فيه والسحت. (٣) راجع ١٠/٢٥٩. (٤) راجع المسألة الحادية والثلاثين ص ١٤٩. (٥) راجع المسألة الثانية ص ١٦٠ من هذا الجزء.

والفَلْح أصله في اللغة الشق والقطع؛ قال الشاعر:

إن الحديد بالحديد يُفْلَح

أي يشق؛ ومنه فلاحة الأرضين إنما هو شقّها للحرث، قاله أبو عبيد. ولذلك سُمّيَ الأكّارُ[1] فلّاحاً. ويقال للذي شُقّت شفته السفلى أفلح، وهو بيّن الفَلَحة، فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه. وقد يستعمل في الفوز والبقاء، وهو أصله أيضاً في اللغة، ومنه قول الرجل لامرأته: ٱستَفْلِحِي بأمْرِك، معناه فوزي بأمرك، وقال الشاعر:

لو كان حَيّ مدرك الفلاح ... أدركه مُلاعب الرماح

وقال الأضبط بن قُرَيع السعديّ في الجاهلية الجهلاء:

لكلّ هَمٌّ من الهموم سعَةْ ... والمُسْيُ والصُّبْحُ لا فَلاح مَعَهْ

يقول: ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء. وقال آخر:

نحلّ بلاداً كلّها حلّ قبلنا ... ونرجو الفلاح بعد عاد وحِمْيَر

أي البقاء. وقال عبيد:

أَفْلِحْ بما شئتَ فقد يُدرَك بالضَّـ ... ـعْف وقد يُخَدَّعُ الأرِيبُ

أي أبق بما شئت من كَيْس وحُمْق فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل. فمعنى ﴿وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: أي الفائزون بالجنة والباقون فيها. وقال ٱبن أبي إسحاق: المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوْا من شر ما منه هربوا، والمعنى واحد. وقد ٱستعمل الفلاَح في السَّحور؛ ومنه الحديث: حتى كاد يفوتنا الفلاَح مع رسول الله ﷺ. قلت: وما الفلاَح؟ قال: السَّحور. أخرجه أبو داود. فكأنّ معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سمّاه فلاحاً. والفلاّح (بتشديد اللام): المُكارِي في قول القائل[2]:

لها رِطلٌ تَكيلُ الزيت فيه ... وفَلاّحٌ يسوق لها حِمارَا

ثم الفلاَح في العُرْف: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

---

(١) الذي يحرث الأرض.

(٢) هو عمرو بن أحمد الباهلي؛ كما في «اللسان» مادة (فلح).

مسألة ـ إن قال قائل كيف قرأ حمزة: عليهُم وإليهُم ولديهُم؛ ولم يقرأ من ربهُم ولا فيهُم ولا جَنَّتَيْهُم؟ فالجواب أن عليهم وإليهم ولديهم الياء فيه منقلبة من ألف، والأصل علاهم ولداهم وإلاهم فأقرّت الهاء على ضمَّتها؛ وليس ذلك في فيهم ولا من ربهم ولا جَنَّتَيْهِمْ، ووافقه الكسائي في «عليهم الذِّلة» و «إليهم ٱثنين» على ما هو معروف من القراءة عنهما.

[٦] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم. والكفر ضدّ الإيمان وهو المراد في الآية. وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان؛ ومنه قوله عليه السلام في النساء في حديث الكسوف: «ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قطّ أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء» قيل: بِمَ يا رسول الله؟ قال: «بكفرهن»؛ قيل أيكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العَشِير ويكفرن الإحسان لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهرَ كلّه ثم رأتْ منك شيئاً قالت ما رأيت منك خيراً قط» أخرجه البخاري وغيره.

وأصل الكُفْر في كلام العرب: الستر والتغطية؛ ومنه قول الشاعر:

في ليلة كَفَر النُّجُومَ غَمَامُها

أي سترها. ومنه سُمّيَ الليل كافراً؛ لأنه يغطي كل شيء بسواده؛ قال الشاعر[١]:

فَتَـذَكَّـرَا ثَقَـلاً رَثِيـداً بَعْـدَمَـا ... أَلقَـتْ ذُكـاءُ يَمينَهـا فـي كـافـر

ذكاء (بضم الذال والمدّ): اسم للشمس؛ ومنه قول الآخر:

فـوردَتْ قبـل أنبـلاج الفجـرِ ... وٱبـنُ ذُكـاءٍ كَـامِـنٌ فـي كَفْـر

أي في ليل. والكافر أيضاً: البحر والنهر العظيم. والكافر: الزارع؛ والجمع كُفّار، قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفّارَ[٢] نَبَاتُهُ﴾. يعني الزُّرّاع لأنهم يغطون الحب. ورماد

(١) هو ثعلبة بن صعيرة المازني، يصف الظليم والنعامة ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس. والثقل (بالتحريك) هنا: بيض النعام المصون. والرثيد: المنضد بعضه فوق بعض أو إلى جنب بعض. وألقت يمينها في كافر: أي بدأت في المغيب. «اللسان» مادة (كفر).
(٢) راجع ١٧/ ٢٥٥.

مكفور: سفت الريح عليه التراب. والكافر من الأرض: ما بَعُد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمرّ به أحد؛ ومَن حلّ بتلك المواضع فهم أهل الكفور. ويقال الكفور: القُرَى.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه؛ أي سواء عليهم هذا. وجيء بالاستفهام من أجل التسوية؛ ومثله قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾[1]. وقال الشاعر[2]:

وليلٍ يقول الناسُ من ظلماته سواء صحيحات العيون وعورها

قوله تعالى: ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ الإنذار الإبلاغ والإعلام، ولا يكاد يكون إلا في تخويف يتّسع زمانه للاحتراز، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعاراً ولم يكن إنذاراً؛ قال الشاعر:

أنذرتَ عَمراً وهو في مَهَلٍ قبلَ الصباح فقد عصى عَمْرُو

وتَناذَر بنو فلان هذا الأمر إذا خَوَّفه بعضُهم بعضاً.

وٱختلف العلماء في تأويل هذه الآية؛ فقيل: هي عامة ومعناها الخصوص فيمن حقّت عليه كلمة العذاب، وسبق في علم الله أنه يموت على كفره. أراد الله تعالى أن يعلم أن في الناس مَن هذه حاله دون أن يعيّن أحداً. وقال ٱبن عباس والكلبي: نزلت في رؤساء اليهود، منهم حُيَيُّ بن أَخْطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما. وقال الربيع ابن أنس: نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب؛ والأوّل أصح، فإن من عيّن أحداً فإنما مثّل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر، وذلك داخل في ضمن الآية.

قوله تعالى: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ موضعه رفعٌ خبر «إنّ» أي إن الذين كفروا لا يؤمنون. وقيل: خبر «إنّ» «سواء» وما بعده يقوم مقام الصلة؛ قاله ٱبن كَيسان. وقال محمد بن يزيد: «سواء» رفع بالابتداء، ﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ الخبر، والجملة خبر «إنَّ». قال النحاس: أي إنهم تَبالَهُوا فلم تغن فيهم النذارة شيئاً. وٱختلف القراء في قراءة ﴿أأنذرتهم﴾ فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو

---

(١) راجع ١٣/ ١٢٥. (٢) هو أعشى قيس الملقب بالأعشى الأكبر.

والأعمش وعبد الله بن أبي إسحاق: «أنذرتهم» بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية، وٱختارها الخليل وسيبويه، وهي لغة قريش وسعد بن بكر، وعليها قول الشاعر[1]:

أَيَا ظَبْيَةَ الوَعْسَاءِ بينَ جُلَاجِلٍ وبَيْنَ النَّقَا آنْتِ أمْ أُمُّ سالِمِ

هجاء «آنت» ألفٌ واحدة. وقال آخر:

تطالَلْتُ فاستَشْرَفْتُه فعرفتهُ فقلتُ له آنتَ زَيْدُ الأرانِبِ

وروي عن ٱبن مُحَيْصِن أنه قرأ: ﴿أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ بهمزة لا ألف بعدها، فحذف لالتقاء الهمزتين، أو لأن أم تدل على الاستفهام؛ كما قال الشاعر:

تَرُوحُ مِنَ الْحَيِّ أم تَبْتَكِرْ وماذا يَضِيرُكَ لو تَنْتَظِرْ

أراد: أتروح؛ فاكتفى بأمْ من الألف. وروي عن ٱبن أبي إسحاق أنه قرأ: «أاأنذرتهم» فحقّق الهمزتين وأدخل بينهما ألفاً لئلا يجمع بينهما. قال أبو حاتم: ويجوز أن تدخل بينهما ألفاً وتخفّفَ الثانية؛ وأبو عمرو ونافع يفعلان ذلك كثيراً. وقرأ حمزة وعاصم والكسائي بتحقيق الهمزتين: «أأنذرتهم» وهو ٱختيار أبي عبيد؛ وذلك بعيد عند الخليل. وقال سيبويه: يشبه في الثقل ضَنِنُوا. قال الأخفش: ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك رديء؛ لأنهم إنما يخفّفون بعد الاستثقال، وبعد حصول الواحدة. قال أبو حاتم: ويجوز تخفيف الهمزتين جميعاً. فهذه سبعة أوجه من القراءات، ووجه ثامن يجوز في غير القرآن؛ لأنه مخالف للسّواد[2]. قال الأخفش سعيد: تبدل من الهمزة هاء تقول: هأنذرتهم؛ كما يقال هيّاك وإياك؛ وقال الأخفش في قوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ﴾ إنما هو أاأنتم.

[٧] ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾.

فيها عشر مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ﴾ بيّن سبحانه في هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله: ﴿ختم الله﴾. والختم مصدر ختمت الشيء ختماً فهو مختوم ومختّم؛ شدّد للمبالغة. ومعناه

(١) هو ذو الرمة كما في «كتاب سيبويه»، و «المفصل» للزمخشري. (٢) السواد من الناس هم الجمهور الأعظم.

التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء؛ ومنه: ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك، حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه.

وقال أهل المعاني: وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم والطبع والضيق والمرض والرَّيْن والموت والقساوة والانصراف والحَمِيّة والإنكار. فقال في الإنكار: ﴿قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾[(١)]. وقال في الحَمِيّة: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾[(٢)]. وقال في الانصراف: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾[(٣)]. وقال في القساوة: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[(٤)]. وقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾[(٥)]. وقال في الموت: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[(٦)]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾[(٧)]. وقال في الرَّيْن: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(٨)]. وقال في المرض: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. وقال في الضيق: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾[(٩)]. وقال في الطبع: ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾[(١٠)]. وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[(١١)]. وقال في الختم: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾. وسيأتي بيانها كلها في مواضعها إن شاء الله تعالى.

الثانية ـ الختم يكون محسوساً كما بينا، ومعنًى كما في هذه الآية. فالختم على القلوب: عدم الوعي عن الحق ـ سبحانه ـ مفهوم مخاطباته والفكر في آياته. وعلى السمع: عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أو دعُوا إلى وحدانيته. وعلى الأبصار: عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته؛ هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم.

الثالثة ـ في هذه الآية أدَلّ دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال، والكفر والإيمان؛ فاعتبروا أيها السامعون، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم، فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جَهَدوا؛

---

(١) راجع ١٠/٩٥. (٢) راجع ١٦/٢٨٨. (٣) راجع ٨/٣٠٠.
(٤) راجع ١٥/٢٤٨. (٥) راجع ١/٤٦٢. (٦) راجع ٧/٧٨. (٧) راجع ٦/٤١٨.
(٨) راجع ١٩/٢٥٧. (٩) راجع ٧/٨١. (١٠) راجع ١٨/١٢٤. (١١) راجع ٦/٧.

وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فمتى يهتدون، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿ومن يضلِل الله فما له مِن هادٍ﴾[١]! وكان فعل الله ذلك عدلاً فيمن أضله وخذله، إذا لم يمنعه حقاً وجب له فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم.

فإن قالوا: إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسميةُ والحكم والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون، لا الفعل. قلنا: هذا فاسد، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعاً مختوماً؛ لا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم؛ ألا ترى أنه إذا قيل: فلان طبع الكتاب وختمه، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعاً ومختوماً، لا التسمية والحكم. هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾. وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما ٱمتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون؛ لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم مختوم عليها وأنهم في ضلال لا يؤمنون؛ ويحكمون عليهم بذلك. فثبت أن الختم والطبع هو معنًى غير التسمية والحكم؛ وإنما هو معنًى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به؛ دليله قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[٢]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾[٢]. أي لئلا يفقهوه، وما كان مثله.

الرابعة ـ قوله: ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح. والقلب للإنسان وغيره. وخالص كل شيء وأشرفه قلبه؛ فالقلب موضع الفكر. وهو في الأصل مصدر قَلَبْتُ الشيء أقلِبه قلباً إذا رددته على بداءته. وقلبت الإناء: رددته على وجهه. ثم نقل هذا اللفظ فسمي به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان، لسرعة الخواطر إليه، ولترددها عليه؛ كما قيل:

مـا سُمِّـيَ القلـب إلاّ مِـنْ تقلُّبِـه ... فاحذرْ على القلب من قَلْبٍ وتحويل

(١) راجع ١٥/ ٢٥٠. (٢) راجع ١٠/ ٧ و ٢٧١.

ثم لما نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف التزمت فيه تفخيم قافه، تفريقاً بينه وبين أصله. روى ابن ماجه عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مَثَلُ القلب مَثَلُ ريشة تقلّبها الرياح بفلاة». ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول: «اللّهمّ يا مثبّت القلوب ثبّت قلوبنا على طاعتك». فإذا كان النبيّ ﷺ يقوله مع عظيم قدره وجلال منصبه فنحن أولى بذلك اقتداء به؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾. وسيأتي[١].

الخامسة ـ الجوارح وإن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب ـ وإن كان رئيسها وملِكها ـ بأعمالها للارتباط الذي بين الظاهر والباطن؛ قال ﷺ: «إن الرجل ليصدُقُ فَتُنْكَتُ في قلبه نكتة بيضاء وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسودّ قلبه» وروى الترمذي وصححه عن أبي هريرة: «أن الرجل ليصيب الذنب فيسودّ قلبه فإن هو تاب صقل قلبه». قال: وهو الرَّين الذي ذكره الله في القرآن في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢]. وقال مجاهد: القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب إصبع، ثم يطبع.

قلت: وفي قول مجاهد هذا، وقولِه عليه السلام: «إن في الجسد مُضْغَةً إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ـ» دليل على أن الختم يكون حقيقياً؛ والله أعلم. وقد قيل: إن القلب يشبه الصَّنَوْبرة، وهو يَعْضُد قول مجاهد؛ والله أعلم.

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر: حدّثنا «أن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعَلِموا من القرآن وعلِموا من السُّنة». ثم حدّثنا عن رفع الأمانة قال: «ينام الرجل النَّومةَ فتُقْبَض الأمانةُ من قلبه فيَظَل أثرها مثلَ الوَكْت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْلِ كجَمْرٍ دحرجته على رجلك فَنفط فتراه مُنْتَبِراً وليس فيه شيء ـ ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله ـ فيُصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدّي الأمانة حتى يقال إن

---

(١) راجع ٧/ ٣٩٠. (٢) راجع ١٩/ ٢٥٧.

في بني فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل ما أجْلَدَه ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي أيّكم بايعت لئن كان مسلماً ليردّنه عليّ دينه ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردّنه عليّ ساعيه[١] وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً».

ففي قوله: «الْوَكْتُ» وهو الأثر اليسير. ويقال للبُسْر إذا وقعت فيه نكتة من الإرطاب: قد وَكّت، فهو مُوَكِّت. وقوله: «الْمَجْل»، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء؛ وقد فسّره النبيّ ﷺ بقوله: «كجمرٍ دحرجته» أي دوّرته على رجلك فنفط. «فتراه مُنْتَبِراً» أي مرتفعاً ـ ما يدل على أن ذلك كله محسوس في القلب يفعل فيه؛ وكذلك الختم والطبع؛ والله أعلم. وفي حديث حذيفة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً فأيُّ قلب أُشْرِبَها نُكِت فيه نُكتةٌ سوداء وأيّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قَلْبين على أبيضَ مثل الصَّفا فلا تضره فتنةٌ ما دامت السموات والأرض والآخرُ أسودُ مُرْبَادٌّ[٢] كالكُوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا يُنْكر منكراً إلاّ ما أُشْرب من هواه. . .» وذكر الحديث. «مُجَخِّياً»: يعني مائلاً.

السادسة ـ القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[٣]. وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[٤] يعني في الموضعين قلبك. وقد يعبر به عن العقل؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[٥] أي عقل؛ لأن القلب محل العقل في قول الأكثرين. والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد؛ والله أعلم.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ استدل بها مَن فضّل السمع على البصر لتقدمه عليه، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾[٦]. وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾[٧]. قال: والسمع يُدْرَك به من الجهات الست، وفي النور والظلمة؛ ولا يُدْرَك بالبصر إلا من الجهة المقابلة، وبواسطة من ضياء وشعاع. وقال أكثر المتكلمين

---

(١) ساعيه: هو رئيسهم الذي يصدرون عن رأيه ولا يمضون أمراً دونه (النهاية).

(٢) ويروى: «مربد» أي اختلط سواده بكدرة. (٣) راجع ١٣/ ٢٨.

(٤) راجع ٢٠/ ١٠٤. (٥) راجع ١٧/ ٢٣. (٦) راجع ٦/ ٤٢٧. (٧) راجع ١٠/ ١٥١.

بتفضيل البصر على السمع؛ لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام، والبصر يدرك به الأجسام والألوان والهيئات كلها. قالوا: فلما كانت تعلقاته أكثر كان أفضل؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست.

الثامنة ـ إن قال قائل: لِمَ جمع الأبصار ووَحّد السمع؟ قيل له: إنما وحّده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير؛ يقال: سمعت الشيء أسمعه سَمْعاً وسماعاً، فالسّمع مصدر سمعت؛ والسمع أيضاً اسم للجارحة المسموع بها سُمِّيت بالمصدر. وقيل: إنه لما أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة؛ كما قال الشاعر[1]:

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأما عِظامُها فبيضٌ وأما جلدها فصَلِيبُ

إنما يريد جلودها فوحّد؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد.

وقال آخر[2] في مثله:

لا تُنكِرِ القتلَ وقد سُبِينَا في حَلْقِكم عَظْمٌ وقد شَجِينَا

يريد في حلوقكم؛ ومثله قول الآخر:

كأنّه وجهُ تُرْكِيَّيْن قد غضبا مستهدف لطعان غير تذبيب

وإنما يريد وجهين، فقال وجه تركيين؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجه واحد؛ ومثله كثير جداً. وقرىء: «وعلى أسماعهم» ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضع سمعهم؛ لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقد يكون السمع بمعنى الاستماع؛ يقال: سَمْعُك حديثي ـ أي استماعك إلى حديثي ـ يعجبني؛ ومنه قول ذي الرُّمة يصف ثوراً تَسمَّع إلى صوت صائد وكلاب.

وقد تَوَجَّسَ رِكْزاً مُقْفِرٌ نَدُسٌ بِنَبْأَةِ الصوتِ ما في سَمعه كَذِبُ

---

(١) هو علقمة بن عبدة. وصف طريقاً بعيداً شاقاً على من سلكه. فجيف الحسرى وهي المعيبة من الإبل مستقرة فيه. وقوله: فأما عظامها فبيض، أي أكلت السباع والطير ما عليها من اللحم فتعرت وبدا وضحها. وقوله: وأما جلدها الخ أي محرّم يابس لأنّه ملقى بالفلاة لم يدبغ، ويقال الصليب هنا الودك؛ أي قد سال ما فيه من رطوبة لإحماء الشمس عليه، (عن «شرح الشواهد» للشنتمري).

(٢) هو المسيب بن زيد مناة الغنوي؛ كما في كتاب سيبويه.

أي ما في أستماعه كذب؛ أي هو صادق الاستماع. والنَّدُس: الحاذق. والنَّبْأة: الصوت الخفي، وكذلك الركز. والسِّمع (بكسر السين وإسكان الميم): ذِكر الإنسانُ بالجميل؛ يقال: ذهب سِمْعه في الناس أي ذكره. والسِّمْع أيضاً: ولد الذئب من الضبع. والوقف هنا: «وعلى سمعهم». و «غِشَاوَةٌ» رفع على الابتداء وما قبله خبر. والضمائر في «قلوبهم» وما عُطِف عليه لمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش، وقيل من المنافقين، وقيل من اليهود، وقيل من الجميع، وهو أصوب؛ لأنه يعم. فالختم على القلوب والأسماع. والغشاوة على الأبصار. والغشاء: الغطاء. وهي:

التاسعة ـ ومنه غاشية السَّرْج؛ وغشيت الشيء أغشيه. قال النابغة:

هلّا سألت بني ذُبْيان ما حسبِي ... إذا الدُّخَانُ تَغشَّى الأشْمطَ[1] البَرَمَا

وقال آخر[2]:

صحبتُكَ إذ عيني عليها غشاوةٌ ... فلما أنجلَتْ قطّعتُ نفسي أَلُومُها

قال أبن كَيسان: فإن جمعت غشاوة قلت: غشاء بحذف الهاء. وحكى الفرّاء: غشاوى مثل أداوى. وقرىء: «غشاوةً» بالنصب على معنى وجعل، فيكون من باب قوله:

علفتُها تبْنًا وماء باردا

وقول الآخر[3]:

يـا ليـت زوجَـك قـد غـدا ... متقلِّـدا سيفًـا ورُمْحَـا

المعنى وأسقيتها ماء، وحاملاً رمحاً؛ لأن الرمح لا يتقلد. قال الفارسي: ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في حال سَعة وأختيار؛ فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة. قال: ولم أسمع من الغشاوة فعلاً متصرفاً بالواو. وقال بعض المفسرين: الغشاوة على الأسماع والأبصار؛ والوقف على «قلوبهم». وقال آخرون: الختم في الجميع، والغشاوة هي الختم؛ فالوقف على هذا على «غشاوة». وقرأ الحسن «غُشاوة» بضم الغين، وقرأ أبو حَيْوَة بفتحها؛ وروي عن

---

(١) الأشمط: الذي خالطه الشيب. والبرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر ويأكل معهم من لحمه.

(٢) هو الحارث بن خالد المخزومي؛ كما في اللسان مادة (غشا).

(٣) هو عبد الله بن الزبعرى؛ كما في الكامل للمبرد ص ١٨٩ طبع أوروبا.

أبي عمرو: غشوة؛ ردّه إلى أصل المصدر. قال ابن كيسان: ويجوز غَشْوة وغُشْوة وأجودها غِشاوة؛ كذلك تستعمل العرب في كل ما كان مشتملاً على الشيء، نحو عِمامة وكِنانة وقِلادة وعِصابة وغير ذلك.

العاشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ﴾ أي للكافرين المكذبين ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ نعته. والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد؛ إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان. وفي التنزيل: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١) وهو مشتق من الحبس والمنع؛ يقال في اللغة: أَعْذِبه عن كذا أي ٱحبسه وٱمنعه؛ ومنه سمي عذوبة الماء؛ لأنها قد أعذبت. وٱستعذب بالحبس في الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه؛ ومنه قول عليّ رضي الله عنه: أَعْذِبُوا نساءكم عن الخروج؛ أي ٱحبسوهن. وعنه رضي الله عنه وقد شيّع سَرِيَّةً فقال: أَعْذِبُوا عن ذكر النساء [أنفسَكم] فإن ذلك يَكْسِرُكم عن الغزو؛ وكل من منعته شيئاً فقد أعذبته؛ وفي المثل: «لألجمنّك لجاماً معذِباً» أي مانعاً عن ركوب الناس. ويقال: أَعْذَبَ أي ٱمتنع. وَأَعْذَب غيره، فهو لازم ومتعدٍّ؛ فسمي العذاب عذاباً لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها.

[٨] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ روى ابن جُريج عن مجاهد قال: نزلت أربع آيات من سورة البقرة في المؤمنين، وٱثنتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين. وروى أسباط عن السدّي في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ قال: هم المنافقون. وقال علماء الصوفية: الناس ٱسم جنس، وٱسم الجنس لا يخاطب به الأولياء.

الثانية ـ وٱختلف النحاة في لفظ الناس؛ فقيل: هو ٱسم من أسماء الجموع، جمع إنسان وإنسانة؛ على غير اللفظ، وتصغيره نُوَيس. فالناس من النَّوْس وهو الحركة؛ يقال: ناس ينوس أي تحرّك؛ ومنه حديث أم زرع: «أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَيّ». وقيل: أصله من نسي؛ فأصل

(١) راجع ١٦٦/١٢.

ناس نسي قلب فصار نيس تحركت الياء فٱنفتح ما قبلها فٱنقلبت ألفاً، ثم دخلت الألف واللام فقيل: الناس. قال ٱبن عباس: نسي آدم عهد الله فسُمِّيَ إنساناً. وقال عليه السلام: «نسي آدم فنسِيَتْ ذريّته». وفي التنزيل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ[1] مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ وسيأتي. وعلى هذا فالهمزة زائدة؛ قال الشاعر:

لا تَنْسَيْنَ تلك العُهودَ فإنّما سُمِّيتَ إنساناً لأنّك ناسِي

وقال آخر:

فإنْ نَسِيتَ عهوداً منك سالفةً فٱغفرْ فأوّلُ ناسٍ أوّلُ الناس

وقيل: سمي إنساناً لأِنْسه بحواء. وقيل: لأِنْسه بربه، فالهمزة أصلية؛ قال الشاعر:

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلاّ لأِنْسِهِ ولا القلبُ إلاّ أنّه يَتَقَلَّبُ

الثالثة ـ لما ذكر الله جلّ وتعالى المؤمنين أوّلاً، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم، ذكر الكافرين في مقابلتهم؛ إذ الكفر والإيمان طرفان. ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم؛ لنفي الإيمان عنهم بقوله الحق: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾. ففي هذا ردّ على الكَرَّامِيّة حيث قالوا: إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب؛ وٱحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا﴾[2]. ولم يقل: بما قالوا وأضمروا؛ وبقوله عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا منّي دماءهم وأموالهم». وهذا منهم قصور وجمود، وترْكُ نظرٍ لما نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «الإيمان معرفةٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالأركان». أخرجه ٱبن ماجه في سُنَنه. فما ذهب إليه محمد بن كَرّام السّجستاني وأصحابه هو النفاق وعَيْن الشقاق؛ ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد.

الرابعة ـ قال علماؤنا رحمة الله عليهم: المؤمن ضربان: مؤمن يحبه الله ويواليه، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه، بل يبغضه ويعاديه؛ فكلّ مَن علم الله أنه يوافي بالإيمان، فالله محب له، موالٍ له، راضٍ عنه. وكلّ مَن علم الله أنه يوافي بالكفر، فالله مبغض له، ساخط

---

(١) راجع ١١/ ٢٥١. (٢) راجع ٦/ ٢٦٠.

عليه، معادٍ له، لا لأجل إيمانه، ولكن لكفره وضلاله الذي يوافي به. والكافر ضربان: كافر يُعاقَب لا محالة، وكافر لا يُعاقَب. فالذي يُعاقَب هو الذي يُوافي بالكفر، فالله ساخط عليه معادٍ له. والذي لا يعاقب هو الموافي بالإيمان، فالله غير ساخط على هذا ولا مبغض له، بل محبّ له موالٍ؛ لا لكفره لكن لإيمانه الموافي به. فلا يجوز أن يطلق القول وهي:

الخامسة ـ بأن المؤمن يستحق الثواب، والكافر يستحق العقاب، بل يجب تقييده بالموافاة. ولأجل هذا قلنا: إن الله راض عن عمر في الوقت الذي كان يعبد الأصنام، ومريد لثوابه ودخوله الجنة؛ لا لعبادته الصنم، لكن لإيمانه الموافي به. وإن الله تعالى ساخط على إبليس في حال عبادته؛ لكفره الموافي به.

وخالفت القَدَرِيةُ في هذا وقالت: إن الله لم يكن ساخطاً على إبليس وقت عبادته، ولا راضياً عن عمر وقت عبادته للصنم. وهذا فاسد؛ لما ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافي به إبليس لعنه الله، وبما يوافي به عمر رضي الله عنه فيما لم يزل؛ فثبت أنه كان ساخطاً على إبليس محباً لعمر. ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار، بل هو ساخط عليه؛ وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالخواتيم» ولهذا قال علماء الصوفية: ليس الإيمان ما يتزيّن به العبد قولاً وفعلاً؛ لكن الإيمان جَرْيُ السعادة في سوابق الأزل، وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عارياً، وربما يكون حقيقة.

قلت: هذا كما ثبت في «صحيح مسلم» وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدَكم يُجمع خَلْقُه في بطن أمّه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك عَلَقَة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مُضْغَةً مثلَ ذلك ثم يُرسِل الله الملَك فيَنْفُخ فيه الرُّوح ويُؤمَر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعَمَله وشَقِيٌّ أو سعيد فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليَعْمَل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسْبِق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلُها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيَسْبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». فإن قيل وهي:

السادسة ـ فقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد المصري من حديث محمد بن سعيد الشامي المصلوب في الزندقة، وهو محمد بن أبي قيس، عن سليمان بن موسى وهو الأشدق، عن مجاهد بن جبر عن ٱبن عباس أخبرنا أبو رَزِين العقيلي قال قال لي رسول الله ﷺ: «لأشربن أنا وأنت يا أبا رزِين من لبن لم يتغيّر طعمه» قال قلت: كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أما مررتَ بأرض لك مُجْدبة ثم مررت بها مخصبة ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة» قلت: بلى. قال: «كذلك النشور» قال قلت: كيف لي أن أعلم أني مؤمن؟ قال: «ليس أحد من هذه الأمة ـ قال ٱبن أبي قيس: أو قال من أمتي ـ عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيراً أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شراً أو يغفرها إلا مؤمن».

قلت: وهذا الحديث وإن كان سنده ليس بالقوي فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث ٱبن مسعود ؛ فإن ذلك موقوف على الخاتمة ؛ كما قال عليه السلام: «وإنما الأعمال بالخواتيم». وهذا إنما يدل على أنه مؤمن في الحال؛ والله أعلم.

السابعة ـ قال علماء اللغة: إنما سُمِّيَ المنافق منافقاً لإظهاره غير ما يضمر؛ تشبيهاً باليربوع، له جحر يقال له: النافقاء؛ وآخر يقال له: القاصعاء. وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرَقّ التراب؛ فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج؛ فظاهر جُحره تراب، وباطنه حفر. وكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر؛ وقد تقدّم هذا المعنى.

[٩] ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

قال علماؤنا: معنى «يخادعون الله» أي يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم. وقيل: قال ذلك لعملهم عمل المخادع. وقيل: في الكلام حذف، تقديره: يخادعون رسول الله ﷺ؛ عن الحسن وغيره. وجعل خداعهم لرسوله خداعاً له؛ لأنه دعاهم برسالته؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله. ومخادعتهم: ما أظهروه من الإيمان

خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليَحْقنوا دماءهم وأموالهم، ويظنون أنهم قد نجوْا وخدعوا؛ قاله جماعة من المتأوّلين. وقال أهل اللغة: أصل الخدع في كلام العرب الفساد؛ حكاه ثعلب عن ٱبن الأعرابي. وأنشد:

أبيَـضُ اللّـونِ لـذيـذٌ طعْمُـه طيِّبُ الرّيق إذا الرِّيقُ خَدَعْ[1]

قلت: فـ ﴿يخادعون الله﴾ على هذا، أي يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء. وكذا جاء مفسَّراً عن النبيّ ﷺ على ما يأتي: وفي التنزيل: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾[2]. وقيل: أصله الإخفاء؛ ومنه مخدع البيت الذي يحرز فيه الشيء؛ حكاه ٱبن فارس وغيره. وتقول العرب: ٱنخدع الضب في جُحره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ﴾ نفي وإيجاب؛ أي ما تحلّ عاقبة الخدع إلا بهم. ومن كلامهم: مَن خَدَع من لا يُخْدع فإنما يَخْدع نفسه. وهذا صحيح؛ لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه. ودلّ هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع؛ وقد تقدّم من قوله عليه السلام أنه قال: «لا تخادع الله فإنه مَن يخادع الله يخدعه الله ونفسَه يخدع لو يشعر» قالوا: يا رسول الله، وكيف يُخادَع اللهُ؟ قال: «تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره». وسيأتي بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ﴾. وقرأ نافع وٱبن كثير وأبو عمرو: «يخادعون» في الموضعين؛ ليتجانس اللفظان. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وٱبن عامر: «يخدعون» الثاني. والمصدر خِدْع (بكسر الخاء) وخديعة؛ حكى ذلك أبو زيد. وقرأ مُوَرِّق العجليّ: «يُخَدِّعون الله» (بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال) على التكثير. وقرأ أبو طالوت عبد السلام بن شدّاد والجارود بضم الياء وإسكان الخاء وفتح الدال، على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم، فحذف حرف الجر؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي من قومه.

---

(١) قاله سويد بن أبي كاهل. يصف ثغر ٱمرأة.

(٢) راجع ٥/ ٤٢٢.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي يفطنون أنّ وبال خدعهم راجع عليهم؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخدعهم وفازوا؛ وإنما ذلك في الدنيا، وفي الآخرة يقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُوراً﴾ على ما يأتي[1]. قال أهل اللّغة: شَعَرْتُ بالشيء أي فطِنت له؛ ومنه الشاعر لفطنته؛ لأنه يفطن لما لا يَفْطُن له غيره من غريب المعاني. ومنه قولهم: لَيْتَ شِعْرِي؛ أي ليتني علمت.

[١٠] ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ابتداء وخبر. والمرض عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائدهم. وذلك إما أن يكون شكاً ونفاقاً، وإما جَحْداً وتكذيباً. والمعنى: قلوبهم مرضى لخلوّها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد. قال ٱبن فارس اللغوي: المرض كل ما خرج به الإنسان عن حدّ الصحة من علّة أو نفاق أو تقصير في أمر. والقراء مجمعون على فتح الراء من «مَرَض» إلا ما روى الأصمعي عن أبي عمرو أنه سكّن الراء.

قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللهُ مَرَضاً﴾ قيل: هو دعاء عليهم. ويكون معنى الكلام: زادهم الله شكًّا ونفاقاً جزاء على كفرهم وضعفاً عن الانتصار وعجزاً عن القدرة؛ كما قال الشاعر:

يا مُرْسِلَ الرِّيح جَنوباً وصَبَا إذْ غَضِبَتْ زيدٌ فزِدْها غضبَا

أي لا تهدها على الانتصار فيما غضبت منه. وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم؛ لأنهم شَرّ خلق الله. وقيل: هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم؛ أي فزادهم الله مرضاً إلى مرضهم؛ كما قال في آية أخرى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[2]. وقال أرباب المعاني: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي بسكونهم إلى الدنيا وحبّهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها. وقوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللهُ مَرَضاً﴾ أي وَكَلَهم إلى أنفسهم، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرّغوا من ذلك إلى ٱهتمامٍ بالدين. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما يفنى عما يبقى. وقال الجُنَيْد: عِلَلُ القلوب من ٱتباع الهوى، كما أن علل الجوارح من مرض البدن.

---

(١) راجع ١٧/٢٤٦. (٢) راجع ٨/٢٩٩.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «أليم» في كلام العرب معناه مؤلم أي موجِع، مثل السميع بمعنى المُسْمِع؛ قال ذو الرُّمّة يصف إبلاً:

ونـرفـعُ مـن صُـدورِ شَمَـرْدَلاتٍ يَصُـكّ وجـوهَـها وَهَـجٌ أَلِيـمُ[١]

وآلم إذا أوْجع. والإيلام: الإيجاع. والألم: الوجع، وقد أَلِم يألَم ألَماً. والتألُّم: التوجّع. ويجمع أليم على أُلَمَاء مثل كَريم وكُرَماء، وآلام مثل أشراف.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾ ما مصدرية؛ أي بتكذيبهم الرسل وردّهم على الله جل وعز وتكذيبهم بآياته؛ قاله أبو حاتم. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتخفيف؛ ومعناه بكَذِبِهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين.

مسألة ـ وٱختلف العلماء في إمساك النبيّ ﷺ عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال:

القول الأوّل ـ قال بعض العلماء: إنما لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه. وقد ٱتفق العلماء على بَكْرة أبيهم[٢] على أن القاضي لا يقتل بعلمه، وإنما ٱختلفوا في سائر الأحكام. قال ٱبن العربي: وهذا منتقض، فقد قُتِل بالمُجَذَّر بن زياد الحارثُ بن سُوَيد بن الصّامت؛ لأن المُجَذَّر قتل أباه سُويداً يوم بُعاث[٣]؛ فأسلم الحارث وأغفله يوم أُحُد فقتله؛ فأخبر به جبريلُ النبيَّ ﷺ فقتله به؛ لأن قتله كان غِيلة[٤]، وقَتْل الغِيلة حَدٌّ من حدود الله.

قلت: وهذه غفلة من هذا الإمام؛ لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر؛ لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبيّ ﷺ وٱنقطاع الوحي؛ وعلى هذا فتكون تلك قضِيّةٌ في عَيْنٍ بوَحْيٍ، فلا يحتج بها أو منسوخة بالإجماع. والله أعلم.

---

(١) شمردلات: إبل طوال. ونرفع: نستحثها في السير. والوهج: الحر الشديد المؤلم.

(٢) قوله: «على بكرة أبيهم» هذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفير العدد.

(٣) بعاث: موضع في نواحي المدينة، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية؛ وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج.

(٤) راجع هذه القصة في «سيرة ٱبن هشام» (ص ٣٥٦، ٥٧٩) طبع أوروبا.

القول الثاني ـ قال أصحاب الشافعي: إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذي يُسِرّ الكفر ويظهر الإيمان يُستتاب ولا يُقتل. قال ٱبن العربي: وهذا وَهَمٌ، فإن النبيّ ﷺ لم يستتبهم ولا نَقل ذلك أحد، ولا يقول أحد إن ٱستتابة الزنديق واجبة[١] وقد كان النبيّ ﷺ معرضاً عنهم مع علمه بهم. فهذا المتأخر من أصحاب الشافعي الذي قال: إن ٱستتابة الزنديق جائزة[٢] قال قولاً لم يصح لأحد.

القول الثالث ـ إنما لم يقتلهم مصلحةً لتأليف القلوب عليه لئلا تنفر عنه؛ وقد أشار ﷺ إلى هذا المعنى بقوله لعمر: «معاذ الله أن يتحدّث الناس أني أقتل أصحابي» أخرجه البخاري ومسلم. وقد كان يُعطي للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء ٱعتقادهم تألُّفاً؛ وهذا هو قول علمائنا وغيرهم. قال ٱبن عطية: وهي طريقة أصحاب مالك رحمه الله في كفّ رسول الله ﷺ عن المنافقين؛ نصّ على هذا محمد بن الجَهْم والقاضي إسماعيل والأبهري وٱبن الماجشون، وٱحتج بقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾[٣] إلى قوله: ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾. قال قتادة: معناه إذا هم أعلنوا النفاق. قال مالك رحمه الله: النفاق في عهد رسول الله ﷺ هو الزّندقة فينا اليوم؛ فيُقتل الزنديق إذا شُهِد عليه بها دون ٱستتابة؛ وهو أحد قولي الشافعي. قال مالك: وإنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبيّن لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه؛ إذ لم يُشْهَد على المنافقين. قال القاضي إسماعيل: لم يشهد على عبد الله[٤] بن أُبَيٍّ إلا زيد بن أَرْقَم وحده، ولا على الجُلَاس[٥] بن سويد إلا عُمَير بن سعد ربيبه؛ ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل. وقال الشافعيّ رحمه الله محتجّاً للقول الآخر: السُّنّة فيم شُهد عليه بالزندقة فجحد

---

(١) الذي في كتاب «الأحكام» لابن العربي: «... أن ٱستتابة الزنديق غير واجبة».

(٢) كذا في «الأصول» وكتاب «الأحكام» لابن العربي. ولعل صواب العبارة: «إن ٱستتابة الزنديق واجبة».

(٣) راجع ١٤/ ٢٤٥. (٤) سيذكر الإمام القرطبي قصته عند تفسير سورة «المنافقون».

(٥) كان متهماً بالنفاق، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ الآية. وستأتي قصته عند تفسير هذه الآية في سورة «براءة» إن شاء الله تعالى. وقد أوردها ٱبن هشام في سيرته ص ٣٥٥ طبع أوروبا. وٱبن عبد البر في «الاستيعاب» ١/ ٩٧ طبع الهند.

وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من إراقة دمه. وبه قال أصحاب الرأي وأحمد والطبري وغيرهم. قال الشافعي وأصحابه: وإنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم؛ لأن ما يظهرونه يَجُبُّ ما قبله. وقال الطبري: جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولّى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر؛ لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحدٍ كان أولى الناس به رسول الله ﷺ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووَكَل سرائرهم إلى الله. وقد كذَّب الله ظاهرهم في قوله: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾. قال ابن عطية: ينفصل المالكيون عما لزموه من هذه الآية بأنها لم تُعَيّن أشخاصهم فيها وإما جاء فيها توبيخ لكل مغموص[1] عليه بالنفاق؛ وبقي لكل واحد منهم أن يقول: لم أُرِد بها وما أنا إلا مؤمن، ولو عُيّن أحد لما جَبّ كذبه شيئاً.

قلت: هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبيّ ﷺ كان يَعْلَمهم أو كثيراً منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه؛ وكان حُذيفة يعلم ذلك بإخبار النبيّ عليه السلام إياه حتى كان عمر رضي الله عنه يقول له: يا حذيفة هل أنا منهم؟ فيقول له: لا.

القول الرابع: ـ وهو أن الله تعلى كان قد حفظ أصحاب نبيّه عليه السلام بكونه ثبتهم أن يفسِدهم المنافقون أو يفسدوا دينهم فلم يكن في تَبْقِيَتهم ضرر، وليس كذلك اليوم؛ لأنّا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا.

[١١] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

«إذا» في موضع نصب على الظرف والعامل فيها «قالوا»؛ وهي تؤذن بوقوع الفعل المنتظر. قال الجوهري: «إذا» اسم يدلّ على زمان مستقبل، ولم تستعمل إلا مضافة إلى

---

(١) قوله: لكل مغموص. أي مطعون في دينه، متهم بالنفاق.

جملة؛ تقول: أجيئك إذا أحمرّ البُسْر، وإذا قَدِم فلان. والذي يدل على أنها أسم وقوعها موقع قولك: آتيك يوم يَقدَم فلان؛ فهي ظرف وفيها معنى المجازاة. وجزاء الشرط ثلاثة: الفعل والفاء وإذا؛ فالفعل قولك: إن تأتني آتك. والفاء: إن تأتني فأنا أُحسِن إليك. وإذا كقوله تعالى: ﴿وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إذا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾(١). ومما جاء من المجازاة بإذا في الشعر قول قيس بن الخَطِيم:

إذا قَصُرَتْ أسيافُنا كان وصلُها ... خُطانا إلى أعدائنا فنُضارِبِ(٢)

فعطف «فنضارب» بالجزم على «كان» لأنه مجزوم، ولو لم يكن مجزوماً لقال: فنضاربَ؛ بالنصب. وقد تزاد على «إذا» «ما» تأكيداً، فيُجزم بها أيضاً؛ ومنه قول الفَرَزْدَق:

فقام أبو لَيْلَى إليه ٱبنُ ظالمٍ ... وكان إذا ما يَسْلُلِ السيفَ يضربِ

قال سيبويه: والجيّد ما قال كعب بن زُهَير:

وإذا ما تشاءُ تبعثُ منها ... مغربَ الشمسِ ناشِطاً مَذْعُورَا(٣)

يعني أن الجيّد ألا يجزم بإذا؛ كما لم يجزم في هذا البيت. وحكى عن المبرّد أنها في قولك في المفاجأة: خرجت فإذا زيد، ظرف مكان؛ لأنها تضمنت جُثّة. وهذا مردود؛ لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد؛ فإنما تضمنّت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان؛ ومنه قولهم: «اليومَ خَمْرٌ وغداً أمرٌ» فمعناه وجود خمر ووقوع أمر.

قوله: ﴿قِيلَ﴾ من القَول وأصله قُوِل؛ نُقِلت كسرة الواو إلى القاف فٱنقلبت الواو ياء. ويجوز: «قيل لهم» بإدغام اللام في اللام. وجاز الجمع بين ساكنين؛ لأن الياء حرف مدّ ولين. قال الأخفش: ويجوز «قُيْل» بضم القاف والياء. وقال الكسائي: ويجوز إشمام القاف الضم ليدل على أنه لما لم يسم فاعله، وهي لغة قيس. وكذلك جِيءَ وغِيضَ وحِيل وسِيق وسِيء

---

(١) راجع ١٤/ ٣٤.

(٢) يقول: إذا قصرت أسيافنا في اللقاء عن الوصول إلى الأقران وصلناها بخطانا مقدمين عليهم حتى تنالهم.

(٣) وصف ناقته بالنشاط والسرعة بعد سير النهار كله؛ فشبهها في انبعاثها مسرعة بناشط قد ذعر من صائد أو سبع. والناشط: الثور يخرج من بلد إلى بلد؛ فذلك أوحش له وأذعر.

وسِيئت. وكذلك روى هشام عن ٱبن عباس[١]، ورُوَيْس[٢] عن يعقوب. وأَشَمّ منها نافع سيء وسيئت خاصة. وزاد ٱبن ذَكوان: حِيل وسِيق؛ وكسر الباقون في الجميع. فأما هُذيل وبنو دُبَير من أسد وبني فَقْعَس فيقولون: «قَوْل» بواو ساكنة.

قوله: ﴿لاَ تُفْسِدُوا﴾ «لا» نهي. والفساد ضدّ الصلاح، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدّها. فَسَد الشيء يَفْسِد فَساداً وفُسوداً وهو فاسد وفسِيد. والمعنى في الآية: لا تُفسدوا في الأرض بالكفر وموالاة أهله، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن. وقيل: كانت الأرض قبل أن يبعث النبيّ ﷺ فيها الفساد، ويفعل فيها بالمعاصي؛ فلما بُعث النبيّ ﷺ ٱرتفع الفساد وصلحت الأرض. فإذا عملوا بالمعاصي فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها؛ كما قال في آية أخرى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِها﴾[٣].

قوله: ﴿فِي الأَرْضِ﴾ الأرض مؤنثة، وهي ٱسم جنس، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرْضة، ولكنهم لم يقولوا. والجمع أَرَضات؛ لأنهم قد يجمعون المؤنث الذي ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم: عُرُسات. ثم قالوا أَرَضون فجمعوا بالواو والنون؛ والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصاً كثُبَة وظُبَة، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضاً من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها، وربما سُكّنت. وقد تجمع على أُرُوض. وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون: أرْض وآراض، كما قالوا: أهل وآهال. والأراضي أيضاً على غير قياس؛ كأنهم جمعوا آرُضاً. وكل ما سفل فهو أرض. وأَرْض أرِيضة؛ أي زكيّة بيّنة الأراضة. وقد أُرِضت بالضم، أي زكت. قال أبو عمرو: نزلنا أرضاً أريضة؛ أي معجبة للعين؛ ويقال: لا أرض لك، كما يقال: لا أمّ لك. والأرض: أسفل قوائم الدابة؛ قال حُمَيد يصف فرساً:

ولـم يُقَلِّـب أرْضَهـا البَيْطـارُ ولا لحَبْلَيْـهِ بهـا حَبَـارُ

(١) في نسخة: «ابن عامر».

(٢) رويس (كزبير) محمد بن المتوكل القارىء، راوي يعقوب بن إسحاق. (٣) راجع ٧/٢٢٦.

أي أثر. والأرض: النُّفْضَة والرِّعْدة. روى حمّاد بن سلمة عن قتادة عن عبد الله بن الحارث قال: زُلْزِلَتِ الأرض بالبصرة؛ فقال ابن عباس: والله ما أدري! أزُلزلت الأرض أم بي أرْض؟ أي أم بي رِعدة؛ وقال ذو الرُّمّة يصف صائداً:

إذا تَـوَجّـس رِكْـزاً مـن سَنـابكهـا ... أو كان صاحبَ أرضٍ أو به المُومُ(١)

والأرض: الزّكام. وقد آرضه الله إيراضاً؛ أي أزكمه فهو مأروض. وفسِيل مستأرِض، ووَدِيّة مستأرِضة (بكسر الراء) وهو أن يكون له عِرق في الأرض؛ فأما إذا نبت على جذع النخل فهو الراكب. والإراض (بالكسر): بساط ضخم من صوف أو وبر. ورجل أريض؛ أي متواضع خليق للخير. قال الأصمعي يقال: هو آرَضُهم أن يفعل ذلك؛ أي أخلقهم. وشيء عرِيض أرِيض إتباع له؛ وبعضهم يفرده ويقول: جَدْيٌ أرِيض؛ أي سمين.

قوله: ﴿نَحْنُ﴾ أصل نَحنُ «نَحُنْ»، قُلبت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء؛ قاله هشام بن معاوية النحوي. وقال الزجاج: «نحن» لجماعة، ومن علامة الجماعة الواو، والضمة من جنس الواو؛ فلما أضطروا إلى حركة «نحن» لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة. قال: لهذا ضموا واو الجمع في قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾. وقال محمد بن زيد: «نحن» مثل قَبْلُ وبعدُ؛ لأنها متعلقة بالإخبار عن اثنين وأكثر، فـ «أنا» للواحد و «نحن» للتثنية والجمع، وقد يخبر به المتكلم عن نفسه في قوله: نحن قمنا؛ قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾(٢). والمؤنّث في هذا إذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر؛ تقول المرأة: قمت وذهبت، وقمنا وذهبنا، وأنا فعلت ذاك، ونحن فعلنا. هذا كلام العرب فاعلم.

قوله تعالى: ﴿مُصْلِحونَ﴾ اسم فاعل من أصلح. والصلاح: ضد الفساد. وصَلَح الشيء (بضم اللام وفتحها) لغتان؛ قاله ابن السِّكِّيت. والصُّلوح (بضم الصاد) مصدر صَلُح (بضم اللام)؛ قال الشاعر:

---

(١) توجس: تسمع. الركز: الحس والصوت الخفي. سنابكها: حوافرها. الموم: البرسام وهو الخبل. وقيل: الموم الجدري الكثير المتراكب. ومعناه: أن الصياد يُذْهِبُ نَفَسَه إلى السماء ويَفْغَر إليها أبداً لئلا يجد الوحش نَفَسَه فينفر. وشبه بالمبرسم أو المزكوم لأن البرسام مفغر والزكام مفغر. (عن اللسان).

(٢) راجع ١٦/ ٨٣.

فكيف بإطراقي إذا ما شَتَمْتَنِي ... وما بعدَ شَتْمِ الوالدين صُلُوحُ

وصلاح من أسماء مكة. والصِّلْح (بكسر الصاد): نهر.

وإنما قالوا ذلك على ظنهم؛ لأن إفسادهم عندهم إصلاح؛ أي أن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين. قاله ٱبن عباس وغيره.

[١٢] ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ردّاً عليهم وتكذيباً لقولهم. قال أرباب المعاني: من أظهر الدعوى كذب، ألا ترى أن الله عز وجل يقول: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ وهذا صحيح. وكُسرت «إنّ» لأنها مبتدأة؛ قاله النحاس. وقال علي بن سليمان. يجوز فتحها[1]؛ كما أجاز سيبويه: حقاً أنك منطلق، بمعنى ألا. و «هُمْ» يجوز أن يكون مبتدأ و «الْمُفْسِدونَ» خبره والمبتدأ وخبره خبر «إنّ». ويجوز أن تكون «هم» توكيداً للهاء والميم في «إنهم». ويجوز أن تكون فاصلة ـ والكوفيون يقولون عماداً ـ و «المفسدون» خبر «إنّ»؛ والتقدير ألا إنهم المفسدون، كما تقدّم في قوله: ﴿وَأولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ قال ٱبن كَيْسان يقال: ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم، إنما يذم إذا علم أنه مفسد ثم أفسد على علم؛ قال: ففيه جوابان: أحدهما ـ أنهم كانوا يعملون الفساد سراً ويظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبيّ ﷺ. والوجه الآخر: أن يكون فسادهم عندهم صلاحاً وهم لا يشعرون أن ذلك فساد، وقد عصوا الله ورسوله في تركهم تبيين الحق وٱتباعه. «وَلَكِنْ» حرف تأكيد وٱستدراك ولا بدّ فيه من نفي وإثبات؛ إن كان قبله نفي كان بعده إيجاب، وإن كان قبله إيجاب كان بعده نفي. ولا يجوز الاقتصار بعده على ٱسم واحد إذا تقدّم الإيجاب، ولكنك تذكر جملة

---

(١) في العبارة غموض. ولعل المعنى المراد: يجوز فتحها كما أجاز سيبويه أما أنك منطلق على معنى حقاً أنك منطلق. وأما بمعنى ألا؛ فإذا فتحت إن بعدهما كانتا بمعنى حقاً أنك. . . وإذا كسرت كانتا أداتي ٱستفتاح. راجع كتاب «سيبويه» ١/ ٤٦٢ طبع بولاق.

مضادة لما قبلها كما في هذه الآية، وقولك: جاءني زيد لكن عمرو لم يجيء؛ ولا يجوز جاءني زيد لكن عمرو ثم تسكت؛ لأنهم قد استغنوا ببل في مثل هذا الموضع عن لكن، وإنما يجوز ذلك إذا تقدّم النفي كقولك: ما جاءني زيد لكن عمرو.

[١٣] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني المنافقين في قول مقاتل وغيره. ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ أي صدّقوا بمحمد ﷺ وشَرْعه، كما صدّق المهاجرون والمحققون[١] من أهل يَثْرِب. وألف «آمنوا» ألف قطع؛ لأنك تقول: يؤمن، والكاف في موضع نصب؛ لأنها نعت لمصدر محذوف، أي إيماناً كإيمان الناس.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعني أصحاب محمد ﷺ؛ عن ابن عباس. وعنه أيضاً: مؤمنو أهل الكتاب. وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاء واستهزاء فأطلع الله نبيّه والمؤمنين على ذلك، وقرّر أن السَّفه ورِقّة الحُلُوم وفساد البصائر إنما هي في حيِّزهم وصفة لهم، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرَّيْن الذي على قلوبهم. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها نزلت في شأن اليهود؛ أي وإذا قيل لهم ـ يعني اليهود ـ آمنوا كما آمن الناس: عبد الله بن سَلاَم وأصحابُه، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء! يعني الجهال والخرقاء. وأصل السَّفَه في كلام العرب: الخفّة والرقة؛ يقال: ثوب سفيه إذا كان رديء النسج خفيفه، أو كان بالياً رقيقاً. وتسفهت الريح الشجر: مالت به؛ قال ذو الرُّمة:

مَشَين كما اهتزّتْ رماحٌ تسفَّهتْ أعَالِيَهَا مَرُّ الرياح النَّواسِمِ[٢]

---

(١) المحققون هنا هم الذين يكون إيمانهم مقروناً بالإخلاص خالصاً عن شوائب النفاق كما قال الألوسي وغيره.

(٢) وصف نساء فيقول: إذا مشين اهتززن في مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت. والنواسم: الخفيفة الهبوب.

وتسفهت الشيء: استحقرته. والسّفه: ضدّ الحلم. ويقال: إنّ السّفه أنْ يكثر الرجل شرب الماء فلا يروى. ويجوز في همزتي السفهاء(١) أربعة أوجه، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واواً خالصة، وهي قراءة أهل المدينة والمعروف من قراءة أبي عمرو. وإن شئت خفّفتهما جميعاً فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واواً خالصة. وإن شئت خفّفت الأولى وحقّقت الثانية. وإن شئت حقّقتهما جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ مِثل ﴿وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾؛ وقد تقدم. والعلم معرفة المعلوم على ما هو به؛ تقول: عَلِمت الشيء أعلمه عِلْماً عَرَفْته، وعالمتُ الرجل فَعَلَمْتُه أعْلُمُه (بالضم في المستقبل): غلبته بالعلم.

[١٤] ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا﴾ أنزلت هذه الآية في ذكر المنافقين. أصل لَقُوا: لَقِيُوا، نُقلت الضمة إلى القاف وحُذفت الياء لالتقاء الساكنين. وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع اليماني: «لاقوا الذين آمنوا». والأصل لاقيوا، تحرّكت الياء وقبلها فتحة أنقلبت ألفاً، أجتمع ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ثم حُرّكت الواو بالضم.

وإن قيل: لم ضُمّت الواو في لاقُوا في الإدراج وحُذفت من لَقُوا؟ فالجواب: أن قبل الواو التي في لَقُوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها، وحُركت في لاقوا لأن قبلها فتحة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِم قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إن قيل: لم وُصلت «خَلَوْا» بـ«إلى» وعُرْفها أن توصل بالباء؟ قيل له: «خلوْا» هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا؛ ومنه قول الفَرَزْدَق:

كيف تَراني قالباً مِجَنِّي [أَضْرِبُ أمْرِي ظهرَه لبَطْنِ](٢)
قد قتل الله زِياداً عَنِّي

(١) أي مع كلمة ألا التي بعدها. (٢) الزيادة عن كتاب «النقائض». وزياد، هو زياد بن أبيه. والمجن: الترس.

لما أنزله منزلة صَرَفَ. وقال قوم: «إلى» بمعنى مع؛ وفيه ضعف. وقال قوم: «إلى» بمعنى الباء؛ وهذا يأباه الخليل وسيبويه. وقيل: المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم؛ فـ «إلى» على بابها. والشياطين جمع شيطان على التكسير؛ وقد تقدم القول في ٱشتقاقه ومعناه في الاستعاذة[1]. وٱختلف المفسرون في المراد بالشياطين هنا؛ فقال ٱبن عباس والسُّدِّي: هم رؤساء الكفر. وقال الكلبي: هم شياطين الجن: وقال جمع من المفسرين: هم الكهان. ولفظ الشيطنة الذي معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع من ذكر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أي مكذبون بما ندعى إليه. وقيل: ساخرون. والهزء: السخرية واللعب؛ يقال: هَزِىء به وٱستهزأ؛ قال الراجز[2]:

قَـد هَـزِئـت مِنّـي أمُّ طَيْسَلَـهْ قـالـت أراه مُعـدِمـاً لا مـال لَـهْ

وقيل: أصل الاستهزاء: الانتقام؛ كما قال الآخر:

قد ٱستهزءوا منهم بألفَيْ مُدجّج سَرَاتُهُم وسْطَ الصَّحَاصح جُثَّمُ[3]

[١٥] ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ﴾ أي ينتقم منهم ويعاقبهم، ويسخر بهم ويجازيهم على ٱستهزائهم؛ فسمى العقوبة باسم الذنب. هذا قول الجمهور من العلماء؛ والعرب تستعمل ذلك كثيراً في كلامهم؛ من ذلك قول عمرو بن كُلثوم:

ألاَ لا يَجْهلَـنْ أحـدٌ علينـا فنجهـلَ فـوقَ جهـلِ الجـاهلينـا

فسمى ٱنتصاره جهلاً، والجهل لا يفتخر به ذو عقل؛ وإنما قاله ليَزْدَوج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما. وكانت العرب إذا وضعوا لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفاً له في معناه؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة. وقال

(١) راجع ص ٩٠. (٢) هو صخر الغي الهلالي. والبيت كما ذكره القالي في أماليه ٢/ ٢٨٤ طبع دار الكتب المصرية: تهزأ مني أخت آل طيسلة قالت أراه مبلطاً لا شيء له (٣) الصحاصح (جمع صحصح): الأرض ليس بها شيء ولا شجر ولا قرار للماء. والجاثم: اللازم مكانه لايبرح.

الله عزّ وجلّ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾. وقال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾. والجزاء لا يكون سيئة. والقصاص لا يكون ٱعتداء؛ لأنه حق وجب؛ ومثله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَر اللهُ﴾. و ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً﴾. و ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهزِئُونَ. اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ﴾ وليس منه سبحانه مَكْرٌ ولا هزء ولا كَيْد، إنما هو جزاء لمكرهم وٱستهزائهم وجزاء كيدهم؛ وكذلك ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾. ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يَمَلّ حتى تَمَلّوا ولا يسأم حتى تسأموا». قيل: حتى بمعنى الواو أي وتملوا. وقيل المعنى وأنتم تملون. وقيل: المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل. وقال قوم: إن الله تعالى يفعل بهم أفعالاً هي في تأمل البشر هُزْءٌ وخَدْعٌ ومَكْرٌ، حسب ما روي: «إن النار تجمد كما تجمد الإهالة[1] فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتخسف بهم». وروى الكلبي عن أبي صالح عن ٱبن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ هم منافقو أهل الكتاب؛ فذكرهم وذكر استهزاءهم، وإنهم إذا خلوْا إلى شياطينهم يعني رؤساءهم في الكفر ـ على ما تقدّم ـ قالوا: إنا معكم على دينكم ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ بأصحاب محمد ﷺ. ﴿الله يستهزىء بهم﴾ في الآخرة، يفتح لهم باب جهنم من الجنة، ثم يقال لهم: تعالوا، فيقبلون يَسْبَحون في النار، والمؤمنون على الأرائك ـ وهي السرر ـ في الحِجال ينظرون إليهم، فإذا ٱنتهوا إلى الباب سُدّ عنهم، فيضحك المؤمنون منهم؛ فذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ﴾ أي في الآخرة، ويضحك المؤمنون منهم حين غُلِّقت دونهم الأبواب؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ. عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾[2] إلى أهل النار ﴿هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وقال قوم: الخداع من الله والاستهزاء هو استدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم؛ فالله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان في الدنيا خلاف ما يغيب عنهم، ويستر عنهم من عذاب الآخرة، فيظنون أنه راضٍ عنهم، وهو تعالى

---

(١) الإهالة: ما أذيب من الألية والشحم. وقيل: الدسم الجامد. (٢) راجع ١٩/٢٦٦.

قد حتّم عذابهم. فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء ومكر وخداع؛ ودلّ على هذا التأويل قولُه ﷺ: «إذا رأيتم الله عزّ وجلّ يعطي العبد ما يحبّ وهو مقِيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج». ثم نزع بهذه الآية: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١). وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٢): كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة.

قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي يطيل لهم المدّة ويمهلهم ويُمْلِي لهم؛ كما قال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾(٣) وأصله الزيادة. قال يونس بن حبيب: يقال مدّ لهم في الشر، وأمدّ في الخير؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾(٤). وقال: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾(٥). وحكي عن الأخفش: مددت له إذا تركته، وأمددته إذا أعطيته. وعن الفرّاء واللِّحْياني: مددت، فيما كانت زيادته من مثله، يقال: مدّ النَّهْرُ [النهر](٦)، وفي التنزيل: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾(٧). وأمددت، فيما كانت زيادته من غيره؛ كقولك: أمددت الجيش بمدَدٍ؛ ومنه: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ﴾(٨). وأمدّ الجُرْحُ؛ لأن المِدّة من غيره، أي صارت فيه مِدّة.

قوله تعالى: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ كفرهم وضلالهم. وأصل الطغيان مجاوزة الحدّ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾(٩) أي ارتفع وعلا وتجاوز المقدار الذي قدرته الخُزّان. وقوله في فرعون: ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾(١٠) أي أسرف في الدعوى حيث قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾. والمعنى في الآية: يمدّهم بطول العمر حتى يزيدوا في الطغيان فيزيدهم في عذابهم.

قوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يعمون. وقال مجاهد: أي يتردّدون متحيّرين في الكفر. وحكى أهل اللغة: عَمِه الرجلُ يَعْمَه عُموهاً وعَمَهاً فهو عَمِه وعامِه إذا حار، ويقال رجل عامِه

---

(١) راجع ٦/٤٢٦ وقد ذكر القرطبي هنالك الحديث برواية تختلف في بعض اللفظ، وفيه: ثم تلا «فلما نسوا» الآية بدل نزع. (٢) راجع ٧/٣٢٩. (٣) راجع ٤/٢٨٧. (٤) راجع ١٠/٢١٧. (٥) راجع ١٧/٦٨. (٦) الزيادة عن اللسان مادّة (مد). (٧) راجع ١٤/٧٦. (٨) راجع ٤/١٩٠. (٩) راجع ١٨/٢٦٣. (١٠) راجع ١٩/١٩٩.

وعَمه: حائر متردّد، وجمعه عُمْه. وذهبت إبِلُه العُمَّهَى إذا لم يدر أين ذهبت. والعَمَى في العين، والعَمَهُ في القلب؛ وفي التنزيل: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١].

[١٦] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾ قال سيبويه: ضُمّت الواو في «اشتروا» فرقاً بينها وبين الواو الأصلية؛ نحو: ﴿وأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾. وقال ابن كَيْسان: الضمة في الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها. وقال الزجاج: حُرّكت بالضمّ كما فعل في «نحن». وقرأ ابن أبي إسحاق ويحيى بن يعمر[٢] بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين. وروى أبو زيد الأنصاري عن قَعْنَب أبي السَّمّال العدوي أنه قرأ بفتح الواو لخفة الفتحة وإن كان[٣] ما قبلها مفتوحاً. وأجاز الكسائي همز الواو وضمها كأدؤر. واشتروا: من الشراء. والشراء هنا مستعار. والمعنى استحبُّوا الكفر على الإيمان؛ كما قال: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فعبّر عنه بالشراء؛ لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه. فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا؛ لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم. وقال ابن عباس: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى. ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان. وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسُّعاً؛ لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال؛ والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء. قال أبو ذُؤيب:

فإن تَزْعُمِيني كنتُ أجهلُ فيكم فإني شَرَيت[٤] الحلمَ بعدِك بالجهل

---

(١) راجع ١٢/٧٧. (٢) قال صاحب تهذيب التهذيب: «في التقريب بفتح التحتانية والميم وبينهما مهملة ساكنة. وفي المغني بفتح الميم وضمها». (٣) في بعض الأصول: «وإن ما قبلها مفتوحاً» وفي البعض الآخر: «وإن كان قبلها مفتوحاً». (٤) ويروى: «اشتريت» كما في ديوان أبي ذؤيب. يقول: إن كنت تزعمين أني كنت أجهل في هواي لكم وصبوتي إليكم فقد شريت بذلك الجهل والصبا حلماً وعقلاً، ورجعت عما كنت عليه. (عن شرح الشواهد).

وأصل الضلالة: الحيرة. ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة؛ قال جلّ وعزّ: ﴿فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾(١) أي الناسين. ويسمى الهلاك ضلالة؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب في قولهم: رَبِحَ بَيْعُك، وخَسِرتْ صفقتك؛ وقولهم: ليلٌ قائم، ونهارٌ صائم؛ والمعنى: رَبِحتَ وخَسِرْتَ في بيعك، وقمت في ليلك وصُمت في نهارك؛ أي فما ربحوا في تجارتهم. وقال الشاعر:

نهــارُك هــائــمٌ وليلُــكَ نــائــمُ ... كذلك في الدنيا تَعيشُ البهائمُ

ٱبن كَيسان: ويجوز تجارة وتجائر، وضلالة وضلائل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ في ٱشترائهم الضلالة. وقيل: في سابق علم الله. والاهتداء ضد الضلال؛ وقد تقدّم(٣).

[١٧] ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ فمثلهم رفع بالابتداء والخبر في الكاف، فهي ٱسم؛ كما هي في قول الأعْشَى:

أتنتهــون ولــن يَنْهَــى ذوِي شَطَــطٍ ... كالطعن يذهب فيه الزيتُ والفُتُلُ(٤)

وقول ٱمرىء القيس:

ورُحْنَا بِكَابْنِ الماءِ يُجْنَبُ وسطَنا ... تَصَوَّبُ فيه العينُ طَوْراً وتَرْتَقِي(٥)

---

(١) راجع ١٣/ ٩٥.

(٢) راجع ١٤/ ٩١.

(٣) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء.

(٤) المعنى: لا ينهى أصحاب الجور مثل طعن جائف؛ أي نافذ إلى الجوف، يغيب فيه الزيت والفتل. عن «خزانة الأدب».

(٥) يقول رجعنا بفرس كأنه ٱبن ماء (طير ماء) خفة وحسناً وطول عنق. (وهو يجنب) أي يقاد فلا يركب.

أراد مثل الطعن، وبمثل ٱبن الماء. ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً؛ تقديره مثلهم مستقر كمثل؛ فالكاف على هذا حرف. والمَثَل والمِثْل والمثِيل واحد ومعناه الشبيه. والمتماثلان: المتشابهان؛ هكذا قال أهل اللغة.

قوله: ﴿الَّذِي﴾ يقع للواحد والجمع. قال ٱبن الشَّجَرِي هبةُ الله بن عليّ: ومن العرب من يأتي بالجمع بلفظ الواحد؛ كما قال:

وإن الذي حانَتْ بفَلْج دماؤهم   هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ[١]

وقيل في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾[٢]: إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي﴾ قيل: المعنى كمثل الذين ٱستوقدوا، ولذلك قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ فحمل أوّل الكلام على الواحد، وآخره على الجمع. فأما قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾[٣] فإن الذي هاهنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذي خاضوا. وقيل: إنما وحّدَ «الذي» و «ٱستوقد» لأن المستوقد كان واحداً من جماعة تولّى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعاً فقال «بنورهم». وٱستوقد بمعنى أوقد؛ مثل ٱستجاب بمعنى أجاب؛ فالسين والتاء زائدتان، قاله الأخفش؛ ومنه قول الشاعر[٤]:

وداعٍ دَعَا يا من يُجيب إلى النَّدَى   فلـم يَستجِبْـه عنـد ذاك مُجِيـبُ

أي يجبه. وٱختلف النحاة في جواب لمّا، وفي عود الضمير من «نورهم»؛ فقيل: جواب لمّا محذوف وهو طَفِئت، والضمير في « نورهم » على هذا للمنافقين، والإخبار بهذا عن حال تكون في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ﴾[٥]. وقيل: جوابه «ذهب»، والضمير في «نورهم» عائد على «الذي»؛ وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد، لأن بقاء المستوقـد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردُّده. والمعنى المرادُ بالآية ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين،

---

(١) فلج (بفتح أوّله وسكون ثانيه): موضع بين البصرة وضَرية. وقيل هو واد بطريق البصرة إلى مكة، ببطنه منازل للحاج. قائله الأشهب بن رميلة يرثي قوماً قتلوا في هذا الموضع (عن اللسان).

(٢) راجع ١٥/٢٥٦. (٣) راجع ٨/٢٠١.

(٤) هو كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار (عن اللسان). (٥) راجع ١٧/٢٤٦.

وذلك أن ما يظهرونه من الإيمان الذي تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناكح والتوارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد ناراً في ليلة مظلمة فاستضاء بها ورأى ما ينبغي أن يتقيه وأمن منه؛ فإذا طَفِئت عنه أو ذهبت وصل إليه الأذى وبقي متحيراً؛ فكذلك المنافقون لما آمنوا ٱغترُّوا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم ـ كما أخبر التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(١) ـ ويذهب نورهم؛ ولهذا يقولون: ﴿ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾(٢). وقيل: إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار؛ وٱنصرافهم عن مودتهم وارتكاسهم عندهم كذهابها. وقيل غير هذا.

قوله: ﴿نَاراً﴾ النار مؤنثة وهي من النور وهو أيضاً الإشراق. وهي من الواو؛ لأنك تقول في التصغير: نويرة، وفي الجمع نور وأنوار ونيران؛ ٱنقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها. وضاءت وأضاءت لغتان؛ يقال: ضاء القمرُ يَضُوء ضَوْءًا وأضاء يُضيء؛ يكون لازماً ومتعدّياً. وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع: ضاءت بغير ألف، والعامة بالألف؛ قال الشاعر:

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم دُجَى الليل حتى نَظَّم الجِزْعَ(٣) ثاقِبه

﴿مَا حَوْلَهُ﴾ «ما» زائدة مؤكدة. وقيل: مفعولة بأضاءت. و «حَوْلَه» ظرف مكان، والهاء في موضع خفض بإضافته إليها. و ﴿ذَهَبَ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوال الشيء. ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ أي أبقاهم. ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ جمع ظُلْمة. وقرأ الأعمش: «ظُلْمات» بإسكان اللام على الأصل. ومن قرأها بالضم فللفرق بين الاسم والنعت. وقرأ أشهب العقيلي: «ظُلَمات» بفتح اللام. قال البصريون: أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف. وقال الكسائي: «ظلمات» جمع الجمع، جمع ظُلَم. ﴿لاَ يُبْصِرُونَ﴾ فعل مستقبل في موضع الحال؛ كأنه قال: غير مبصرين، فلا يجوز الوقف على هذا على «ظلمات».

[١٨] ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) راجع ٥/ ٤٢٤.

(٢) راجع ١٧/ ٢٤٥.

(٣) الجزع (بفتح الجيم وكسرها): ضرب من الخرز. وقيل: هو الخرز اليماني، وهو الذي فيه بياض وسواد، فشبه به الأعين.

قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ «صُمٌّ» أي هم صمّ، فهو خبر أبتداء مضمر. وفي قراءة عبد الله بن مسعود وحفصة: صُمًّا بكماً عمياً، فيجوز النصب على الذّم؛ كما قال تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾[١]، وكما قال: ﴿وامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾[٢]، وكما قال الشاعر[٣]:

سَقَوْنِي الخَمر ثم تكنَّفُوني ... عُداةَ اللهِ مِن كَذِبٍ وزُورِ

فنصب «عُداةَ الله» على الذم. فالوقف على «يبصرون» على هذا المذهب صواب حسن. ويجوز أن ينصب صُمًّا بـ ﴿تَرَكَهُمْ﴾؛ كأنه قال: وتركهم صماً بكماً عمياً؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على «يبصرون». والصمم في كلام العرب: الانسداد؛ يقال: قناة صمّاء إذا لم تكن مجوّفة. وصَمَمْتُ القارورة إذا سددتها. فالأصم: من أنسدت خروق مسامعه. والأبكم: الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس: وقيل: الأخرس والأبكم واحد. ويقال: رجل أبكم وبَكِيم؛ أي أخرس بَيِّنُ الخرس والبكم؛ قال:

فليتَ لِساني كان نِصْفَينِ منهما ... بَكِيمٌ ونِصفٌ عند مَجْرَى الكواكِبِ

والعمى: ذهاب البصر؛ وقد عَمِيَ فهو أعْمَى، وقوم عُمْيٌ، وأعماه الله. وتعامى الرجل: أرى ذلك من نفسه. وعَمِيَ عليه الأمر إذا التبس؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾[٤]. وليس الغرض مما ذكرناه نفي الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض نفيها من جهة مّا؛ تقول: فلان أصمّ عن الخنا. ولقد أحسن الشاعر حيث قال:

أَصَمُّ عمّا سَاءَهُ سَمِيعُ

وقال آخر:

وعوراءِ الكلامِ صَمَمْتُ عنها ... ولو أني أشاء بها سمِيعُ

وقال الدارميّ:

أعْمى إذا ما جارتي خرجت ... حتى يوارِي جارتي الجُدْرُ

---

(١) راجع ١٤/٢٤٧. (٢) راجع ٢٠/٢٣٩. (٣) هو عروة بن الورد. وصف ما كان من فعل قوم أمرأته حين أحتالوا عليه وسقوه الخمر حتى أجابهم إلى مفاداتها وكانت سبية عنده عن «شرح الشواهد». (٤) راجع ١٣/٣٠٤.

وقال بعضهم في وَصَاته لرجل يكثر الدخول على الملوك:

أدخُلْ إذا ما دخلتَ أعمىَ وٱخرُجْ إذا ما خرجتَ أخرس

وقال قتادة: «صُمٌّ» عن ٱستماع الحق، «بكمٌ» عن التكلم به، «عميٌ» عن الإبصار له.

قلت: وهذا المعنى هو المراد في وصف النبيّ ﷺ وُلاة آخر الزمان في حديث جبريل «وإذا رأيت الحُفاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكْمَ ملوكَ الأرض فذاك من أشراطها». والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ أي إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم. يقال: رجع بنفسه رجوعاً، ورَجَعه غيره؛ وهُذيل تقول: أرجعه غيره. وقوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾[1] أي يتلاومون فيما بينهم؛ حسب ما بيّنه التنزيل في سورة «سبأ»[1].

[١٩] ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال الطبري: «أو» بمعنى الواو؛ وقاله الفرّاء. وأنشد:

وقد زَعَمَتْ ليلَى بأنّيَ فاجرٌ لنفسي تُقَاها أو عليها فُجورها[2]

وقال آخر[3]:

نَال الخلافةَ أو[4] كانت له قَدَراً كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

أي وكانت. وقيل: «أو» للتخيير أي مثّلوهم بهذا أو بهذا، لا على الاقتصار على أحد الأمرين، والمعنى أو كأصحاب صَيِّب. والصَّيِّبُ: المطر. وٱشتقاقه من صَابَ يَصُوبُ إذا نزل؛ قال عَلْقَمة:

فلا تَعْدِلي بيْني وبين مُغَمَّرٍ سَقَتْك رَوايا المُزْنِ حيث تَصُوبُ[5]

(١) راجع ١٤/ ٣٠٢. (٢) البيت من قصيدة لتوبة الخفاجي قالها في ليلى الأخيلية.
(٣) هو جرير بن عطية يمدح عمر بن عبد العزيز. (٤) في ديوانه المخطوط: «إذ» بدل «أو».
(٥) المغمر والغمر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور؛ كأن الجهل غمره وٱستولى عليه. وروايا المزن: التي. تروي بكثرة مائها.

وأصله: صَيْوِب، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت؛ كما فعلوا في ميّت وسيّد وهيّن وليّن. وقال بعض الكوفيين: أصله صَوِيب على مثال فعِيل. قال النحاس: «لو كان كما قالوا لما جاز إدغامه، كما لا يجوز إدغام طويل. وجمع صيب صيايب. والتقدير في العربية: مَثَلهم كَمَثل الذي ٱستوقد ناراً أو كمثل[1] صيب».

قوله تعالى: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ السماء تذكّر وتؤنث، وتجمع على أسميةٍ وسموات وسُمِّي، على فُعُول؛ قال العجاج:

تَلُفُّه الرِياحُ والسُّمِيُّ[2]

والسماء: كل ما علاك فأظلّك؛ ومنه قيل لسقف البيت: سماء. والسماء: المطر؛ سُمّيَ به لنزوله من السماء. قال حسان بن ثابت:

ديارٌ من بني الحَسْحاسِ قَفْرٌ تُعَفِّيها الروامِسُ والسماء

وقال آخر[3]:

إذا سَقَط السماءُ بأرض قومٍ رَعَيناه وإن كانوا غِضابا

ويسمّى الطين والكلأ أيضاً سماء؛ يقال: ما زِلْنا نطأ السماء حتى أتيناكم. يريدون الكلأ والطين. ويقال لظهر الفرس أيضاً سماء لعلوّه؛ قال[4]:

وأحمرُ كالدّيباج أمّا سماؤه فَريّا وأمّا أرضُه فمُحُولُ

والسماء: ما علا. والأرض: ما سفل؛ على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ ٱبتداء وخبر. ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ معطوف عليه. وقال: ظلمات بالجمع إشارة إلى ظُلْمة الليل وظُلْمة الدَّجْن، وهو الغيم؛ ومن حيث تتراكب وتتزايد جمعت. وقد مضى ما فيه من اللغات[5] فلا معنى للإعادة، وكذا كل ما تقدّم إن شاء الله تعالى.

---

(١) في الأصل: «. . . ناراً أو كصيب». والتصويب عن كتاب «إعراب القرآن» للنحاس.

(٢) السمي: يريد الأمطار. (٣) هو معاوية بن مالك.

(٤) القائل هو طفيل الغنوي، كما في اللسان مادة (سما). (٥) راجع ص ٢١٣ من هذا الجزء.

وٱختلف العلماء في الرعد ؛ ففي الترمذي عن ٱبن عباس قال : سألتِ اليهود النبيّ ﷺ عن الرعد ما هو ؟ قال : « مَلك من الملائكة [موكل[1] بالسحاب] معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله » . فقالوا : فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر الله» قالوا: صدقت. الحديث بطوله. وعلى هذا التفسير أكثر العلماء. فالرعد: ٱسم الصوت المسموع، وقاله عليّ رضي الله عنه، وهو المعلوم في لغة العرب؛ وقد قال لِبيد في جاهليته:

فَجّعَنِي الرعدُ والصواعقُ بالـ ـفـارِسِ يـومَ الكـريهـةِ النَّجِـدِ

وروي عن ٱبن عباس أنه قال: الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوّت ذلك الصوت. وٱختلفوا في البرق؛ فروي عن عليّ وٱبن مسعود وٱبن عباس رضوان الله عليهم: البرق مخراق حديد بيد المَلَك يسوق به السحاب.

قلت: وهو الظاهر من حديث الترمذي. وعن ٱبن عباس أيضاً هو سوط من نور بيد المَلَك يزجر به السحاب. وعنه أيضاً: البرق مَلَك يتراءى.

وقالت الفلاسفة: الرعد صوت ٱصطكاك أجرام السحاب. والبرق ما ينقدح من ٱصطكاكها. وهذا مردود لا يصح به نقل؛ والله أعلم. ويقال: أصل الرعد من الحركة؛ ومنه الرِّعديد للجبان. وٱرتعد: ٱضطرب؛ ومنه الحديث: «فجِيءَ بهما تُرْعَدُ فَرَائصهما» الحديث. أخرجه أبو داود. والبرق أصله من البرِيق والضوء؛ ومنه البُرَاق: دابّة ركبها رسول الله ﷺ ليلة أسرِيَ به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبله. ورَعَدت السماء من الرعد، وبَرَقت من البرق. ورَعَدت المرأة وبَرَقت: تحسّنت وتزيّنت. ورَعَد الرجل وبَرَق: تهدّد وأوعد؛ قال ٱبن أحمر:

يا جُلَّ ما بَعُدَتْ عليك بِلادُنا وطِلابُنا فٱبْرُقْ بأرضِك وٱرْعُدِ

(١) زيادة عن الترمذي.

وأَرعد القوم وأبرقوا: أصابهم رعد وبرق. وحكى أبو عبيدة وأبو عمرو: أرعدت السماء وأبرقت، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهدّد وأوعد؛ وأنكره الأصمعي. وٱحتج عليه بقول الكُمَيْت:

أبــرِق وأرعِــد يــا يــزيــدُ فمـا وعيـدُكَ لـي بِضـائـرْ

فقال: ليس الكُمَيت بحجة.

فائدة ـ روى ٱبن عباس قال: كنا مع عمر بن الخطاب في سَفْرة بين المدينة والشام ومعنا كعب الأحبار، قال: فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد، وفَرِق الناس. قال فقال لي كعب: إنه من قال حين يسمع الرعد: سبحان من يسبِّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته؛ عُوفي مما يكون في ذلك السحاب والبرد والصواعق. قال: فقلتها أنا وكعبٌ، فلما أصبحنا وٱجتمع الناس قلت لعمر: يا أمير المؤمنين، كأنا كنا في غير ما كان فيه الناس. قال: وما ذاك؟ قال: فحدّثته حديث كعب. قال: سبحان الله! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم! في رواية فإذا بَرَدة[1] قد أصابت أنف عمر فأثّرت به. وستأتي هذه الرواية في سورة «الرعد»[2] إن شاء الله. ذكر الروايتين أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب في روايات الصحابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين. وعن ٱبن عمر أن النبيّ ﷺ كان إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللّهُمّ لا تقتلنا بغضبك ولا تُهْلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك».

قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ جعلهم أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام؛ وذلك عندهم كفر والكفر موت. وفي واحد الأصابع خمس لغات: إصْبَع بكسر الهمزة وفتح الباء، وأَصْبِع بفتح الهمزة وكسر الباء، ويقال بفتحهما جميعاً، وضمهما جميعاً، وبكسرهما جميعاً؛ وهي مؤنثة. وكذلك الأذن وتخفّف وتثقّل وتصغّر، فيقال: أذينة. ولو سمّيت بها رجلاً ثم صغّرته قلت: أُذَيْن؛ فلم تؤنث لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر. فأما قولهم: أذينة في الاسم العَلَم فإنما سُمّي به مصغّراً، والجمع آذان. وتقول: أَذَنته إذا ضربت أذنه. ورجل أُذُنٌ: إذا كان يسمع كلام كل أحد، يستوي فيه الواحد

(١) البرد (بالتحريك): حب الغمام. (٢) راجع ٩/ ٢٩٥.

والجمع. وأذانِيّ: عظيم الأذنين. ونعجة أُذْناء، وكَبْش آذَن. وأذّنت النعل وغيرَها تأذينا: إذا جعلت لها أذُناً. وأذّنت الصبيّ: عَرَكت أذنه.

قوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ أي من أجل الصواعق. والصّواعق جمع صاعقة. قال ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما: إذا ٱشتدّ غضب الرعد الذي هو المَلَك طار النار مِن فِيه وهي الصواعق. وكذا قال الخليل، قال: هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحياناً قطعة نار تحرق ما أتت عليه. وقال أبو زيد: الصاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد. وحكى الخليل عن قوم: الساعقة (بالسين). وقال أبو بكر النقاش: يقال صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنىً واحد. وقرأ الحسن: من «الصواقع» (بتقديم القاف)؛ ومنه قول أبي النَّجْم:

يَحْكُون بالمَصْقُولة القواطِعِ تَشَقُّقَ البَرْقِ عن الصّواقِعِ

قال النحاس: وهي لغة تميم وبعض بني ربيعة. ويقال: صَعَقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة. والصاعقة أيضاً صيحة العذاب؛ قال الله عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾[1]. ويقال: صَعِق الرجلُ صَعْقةً وتَصْعاقاً؛ أي غُشِيَ عليه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾[2] فأصعقه غيره. قال ٱبن مُقْبل:

ترى النُّعَرات الزُّرْقَ تحت لَبانِه أُحادَ ومَثْنَى أَصْعَقَتْها صَواهِلُهْ[3]

وقوله تعالى: ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾[4] أي مات. وشبّه الله تعالى في هذه الآية أحوال المنافقين بما في الصَّيِّب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق. فالظلمات مَثَلٌ لما يعتقدونه من الكفر، والرعد والبرق مَثَلٌ لما يُخَوَّفون به. وقيل: مَثَّل الله تعالى القرآن بالصَّيِّب لما فيه من الإشكال عليهم، والعمى هو الظلمات؛ وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أحياناً أن تَبْهَرهم هو البرق. والصواعق

(١) راجع ١٥/٣٤٩. (٢) راجع ٧/٢٧٩. (٣) النعرة (مثال الهمزة): ذباب ضخم أزرق العين أخضر، له إبرة في طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة. واللبان: الصدر، وقيل: وسطه، وقيل: ما بين الثديين، ويكون للإنسان وغيره. وأصعقتها صواهله: أي قتلها صهيله.
(٤) راجع ١٥/٢٧٩.

مثَلٌ لما في القرآن من الدعاء إلى القتال في العاجل والوعيد في الآجل. وقيل: الصواعق تكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما.

قوله: ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ حَذَرَ وحِذَارَ بمعنىً؛ وقرىء بهما. قال سيبويه: هو منصوب؛ لأنه موقوع له أي مفعول من أجله؛ وحقيقته أنه مصدر؛ وأنشد سيبويه:

وأغْفِرُ عَوْراءَ الكريم ٱدّخارَه وأعرِض عن شَتم اللئيم تَكَرُّما[1]

وقال الفراء: هو منصوب على التميز. والموت: ضدّ الحياة. وقد مات يموت؛ ويَمات أيضاً؛ قال الراجز:

بُنَيّتِي سَيّدةَ البَناتِ عِيشِي ولا يُؤْمَن أن تَماتِي

فهو ميِّت وميْت، وقوم موتى وأموات وميِّتون وميْتون. والمُوَات (بالضم): الموت. والمَوَات (بالفتح): ما لا رُوح فيه. والمَوات أيضاً: الأرض التي لا مالك لها من الآدميين ولا ينتفع بها أحد. والمَوَتان (بالتحريك): خلاف الحيوان: يقال: ٱشْترِ المَوَتانَ، ولا تشترِ الحيوان؛ أي ٱشتر الأرضين والدور، ولا تشتر الرقيق والدواب. والمُوْتان (بالضم): مَوْتٌ يقع في الماشية؛ يقال: وقع في المال مُوتان. وأماته الله وموَّته؛ شُدّد للمبالغة. وقال:

فَعُرْوةُ مات مَوتاً مستريحاً فهأنذا أُمَوَّتُ كلَّ يومِ

وأماتت الناقة إذا مات ولدها، فهي مُمِيت ومُميتة. قال أبو عبيد: وكذلك المرأة، وجمعها مَماوِيت. قال ٱبن السِّكيت: أمات فلان إذا مات له ٱبنٌ أو بَنُونَ. والمُتَماوِت من صفة الناسك المرائي. وموت مائتٌ، كقولك: ليلٌ لائلٌ؛ يؤخذ من لفظه ما يؤكّد به. والمُسْتَمِيتُ للأمر: المُسْتَرسِلُ له؛ قال رُؤبة:

---

(١) البيت لحاتم الطائي. يقول: إذا جهل عليّ الكريم ٱحتملت جهله إبقاء عليه وٱدّخاراً له، وإن سبني اللئيم أعرضت عن شتمه.

وزَبَــدُ البحــرِ لــه كَتِيــت والليل فوق الماءِ مُسْتَمِيت[١]

المستميت أيضاً: المستقتِل الذي لا يبالي في الحرب من الموت؛ وفي الحديث: «أرى القوم مُسْتَمِيتِين» وهم الذين يقاتلون على الموت. والمُوتة (بالضم): جنس من الجنون والصرع يعتري الإنسان، فإذا أفاق عاد إليه كمال عقله كالنائم والسكران. ومُؤْتة (بضم الميم وهمز الواو): اسم أرض[٢] قُتل بها جعفر بن أبي طالب عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ابتداء وخبر؛ أي لا يفوتونه. يقال: أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذاً حاصراً من كل جهة؛ قال الشاعر:

أحطنـا بهـم حتـى إذا مـا تَيَقّنُـوا بما قد رأوْا مالوا جميعاً إلى السِّلْمِ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾[٣]. وأصله مُحْيِط، نُقلت حركة الياء إلى الحاء فسكّنت. فالله سبحانه محيط بجميع المخلوقات، أي هي في قبضته وتحت قهره؛ كما قال: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٤]. وقيل: ﴿مُحِيطٌ بِالكافرين﴾ أي عالم بهم. دليله: ﴿وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[٥]. وقيل: مهلكهم وجامعهم. دليله قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾[٦] أي إلا أن تهلكوا جميعاً. وخص الكافرين بالذكر لتقدّم ذكرهم في الآية. والله أعلم.

[٢٠] ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) كذا في الأصول واللسان مادة «موت». والذي في ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٥١٦ أدب.

وزبـد البحـر لـه كتيـت تـراه والحـوت لـه نئيـت
كـلاهمـا مغتمـس مغتـوت وكلكـل المـاء لـه مبيـت
والليـل فـوق المـاء مستميـت يـدفـع عنـه جـوفـه المسحـوت

الكتيت: الهدير والنئيت والزحير والطحير والأنيت كله الزحير (إخراج الصوت أو النفس عند عمل بأنين أو شدّة). المغتوت: المغموم. والمسحوت: الذي لا يشبع. (٢) وقيل إنها قرية من قرى البلقاء في حدود الشام. وقيل: إنها بمشارف الشام وعلى اثني عشر ميلاً من أذرح. راجع تاج العروس مادة «مأت».

(٣) راجع ١٠/٤٠٩. (٤) راجع ١٥/٢٧٧. (٥) راجع ١٨/١٧٦. (٦) راجع ٩/٢٢٥.

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ «يكاد» معناه يقارب؛ يقال: كاد يفعل كذا إذا قارب ولـم يفعل. ويجوز في غير القرآن: يكاد أن يفعل؛ كما قال رُؤبة:

قد كاد من طُول البِلَى أن يَمْصَحَا[١]

مشتقٌ من المصح وهو الدرس. والأجود أن تكون بغير «أن»؛ لأنها لمقاربة الحال، و «أن» تَصرف الكلام إلى الاستقبال، وهذا متناف؛ قال الله عز وجل: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾[٢]. ومن كلام العرب: كاد النعام يطير، وكاد العروس يكون أميراً؛ لقربهما من تلك الحال. وكاد فعلٌ متصرف على فَعِل يَفْعَل. وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل، قال: «وَمَا كِدْتُ آئِباً»[٣]. ويجري مجرى كاد كَرِب وجَعَل وقارب وطَفِق، في كون خبرها بغير «أن»؛ قال الله عز وجل: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[٤] لأنها كلها بمعنى الحال والمقاربة؛ والحال لا يكون معها «أن»، فاْعلم.

قوله تعالى: ﴿يَخْطَف أَبْصَارَهُمْ﴾ الخطف: الأخذ بسرعة؛ ومنه سُمّيَ الطير خُطّافاً لسرعته. فمن جعل القرآن مَثَلاً للتخويف فالمعنى أنّ خَوْفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم. ومن جعله مَثَلاً للبيان الذي في القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما بهرهم. ويَخْطَف ويَخْطِف لغتان قرىء بهما. وقد خطِفه (بالكسر) يَخْطَفُه خَطْفاً، وهي اللغة الجيدة، واللغة الأخرى حكاها الأخفش: خَطَف يَخْطِف. الجوهري: وهي قليلة رديئة لا تكاد تعرف. وقد قرأ بها يونس في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِف أبصارَهم﴾. وقال النحاس: في «يخطف» سبعة أوجه؛ القراءة الفصيحة: يَخْطَف. وقرأ عليّ بن الحسين ويحيى بن وَثّاب: يخطِف بكسر الطاء؛ قال سعيد الأخفش: هي لغة. وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجَحْدَرِيّ وأبو رجاء العُطارِدِي بفتح الياء وكسر الخاء والطاء. ورُوِي عن الحسن أيضاً أنه قرأ بفتح الخاء. قال الفراء: وقرأ بعض أهل المدينة بإسكان الخاء وتشديد الطاء. قال الكسائي والأخفش والفراء: يجوز «يخِطِف» بكسر الياء والخاء والطاء. فهذه ستة أوجه موافقة للخط.

---

(١) يمصح: يذهب ويدرس. (٢) راجع ١٢/ ٢٩٠. (٣) قائله تأبط شراً. والبيت بتمامه:

فـأبـت إلـى فَهْـم ومـا كـدت آئبـا   وكـم مثلهـا فـارقتهـا وهـي تصفـر

(٤) راجع ٧/ ١٨٠.

والسابعة حكاها عبد الوارث قال: رأيت في مصحف أبيّ بن كعب «يتخطف»، وزعم سيبويه والكسائي أن من قرأ «يخِطف» بكسر الخاء والطاء فالأصل عنده يختطِف، ثم أدغم التاء في الطاء فألتقى ساكنان فكسرت الخاء لالتقاء الساكنين. قال سيبويه: ومن فتح الخاء ألقى حركة التاء عليها. وقال الكسائي: ومن كسر الياء فلأن الألف في ٱختطف مكسورة. فأما ما حكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولا يجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين. قاله النحاس وغيره.

قلت: وروي عن الحسن أيضاً وأبي رجاء «يَخِطَّف». قال ٱبن مجاهد: وأظنه غلطاً؛ وٱستدل على ذلك بأن ﴿خَطِفَ الخَطْفَةَ﴾(١) لم يقرأه أحد بالفتح.

﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ جمع بَصَر، وهي حاسة الرؤية. والمعنى: تكاد حجج القرآن وبراهينه الساطعة تَبْهَرهم. ومن جعل «البَرْق» مَثَلاً للتخويف فالمعنى أنّ خوفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ «كلما» منصوب لأنه ظرف. وإذا كان «كلما» بمعنى «إذا» فهي موصولة والعامل فيه «مَشَوْا» وهو جوابه، ولا يعمل فيه «أضاء»؛ لأنه في صلة ما. والمفعول في قول المبرد محذوف، التقدير عنده: كلما أضاء لهم البرق الطريقَ. وقيل: يجوز أن يكون فَعَل وأفْعَل بمعنىً، كسَكَت وأسْكَت؛ فيكون أضاء وضاء سواء فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول. قال الفراء: يقال ضاء وأضاء، وقد تقدّم. والمعنى أنهم كلما سمعوا القرآن وظهرت لهم الحجج أنِسُوا ومشَوْا معه، فإذا نزل من القرآن ما يَعْمَوْنَ فيه ويضِلون به أو يكلّفونه «قاموا»، أي ثبتوا على نفاقهم؛ عن ابن عباس. وقيل: المعنى كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت النِّعم قالوا: دِين محمد دينٌ مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدّة سَخِطوا وثبتوا في نفاقهم؛ عن ٱبن مسعود وقتادة. قال النحاس: وهذا قول حسن، ويدل على صحته: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾(٢). وقال علماء الصوفية: هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الإرادة بدءاً، فارتقى من

(١) راجع ١٥/٦٧. (٢) راجع ١٢/١٧.

تلك الأحوال بالدعاوي إلى أحوال الأكابر، كأن تضيء عليه أحوال الإرادة لو صححها بملازمة آدابها، فلما مزجها بالدعاوي أذهب الله عنه تلك الأنوار وبقي في ظلمات دعاويه لا يبصر طريق الخروج منها. ورُوِي عن ابن عباس أن المراد اليهود، لمّا نُصِر النبيّ ﷺ ببَدْر طمِعوا وقالوا: هذا والله النبيّ الذي بشّرنا به موسى لا تردّ له راية؛ فلما نُكِب بأحُد ارتدّوا وشكّوا؛ وهذا ضعيف. والآية في المنافقين، وهذا أصح عن ابن عباس، والمعنى يتناول الجميع.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهبَ بِسَمعِهِم وَأَبْصَارِهِمْ﴾ «لو» حرف تَمَنٍّ وفيه معنى الجزاء؛ وجوابه اللام. والمعنى: ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم فذهب منهم عِزّ الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم. وخصّ السمع والبصر لتقدّم ذكرهما في الآية أوّلاً، أو لأنهما أشرف ما في الإنسان، وقرىء «بأسماعهم» على الجمع؛ وقد تقدّم الكلام في هذا(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، ومعناه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه. وأجمعت الأمة على تسمية الله تعالى بالقدير، فهو سبحانه قدير قادر مقتدر. والقدير أبلغ في الوصف من القادر؛ قاله الزجاجيّ. وقال الهرويّ: والقدير والقادر بمعنىً واحد؛ يقال: قَدَرت على الشيء أقدِر قَدْراً وقَدَراً ومَقدِرَة ومَقْدُورة وقُدْرَاناً؛ أي قُدْرة. والاقتدار على الشيء: القدرة عليه. فالله جلّ وعزّ قادر مقتدر قدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم. فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله تعالى قادر، له قدرة بها فَعَل ويَفْعَل ما يشاء على وَفْق علمه واختياره. ويجب عليه أيضاً أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بها ما أقدرهُ الله تعالى عليه على مجرى العادة، وأنه غير مستبدّ بقدرته. وإنما خص هنا تعالى صفته التي هي القدرة بالذكر دون غيرها؛ لأنه تقدّم ذِكر فِعْلٍ مُضَمَّنُه الوعيد والإخافة؛ فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك. والله أعلم.

فهذه عشرون آية على عدد الكوفيين؛ أربع آيات في وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان في ذكر الكافرين، وبقيتها في المنافقين. وقد تقدّمت الرواية فيها عن ابن جُرَيح، وقاله مجاهد أيضاً.

---

(١) راجع المسألة الثامنة ص ١٩٠ من هذا الجزء.

[٢١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ قال علقمة ومجاهد: كل آية أوّلها ﴿يا أيها الناس﴾ فإنما نزلت بمكة، وكل آية أوّلها ﴿يَا أيها الذِين آمنوا﴾ فإنما نزلت بالمدينة.

قلت: وهذا يردّه أن هذه السورة والنساء مدِنيّتان وفيهما يا أيها الناس. وأما قولهما في ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فصحيح. وقال عُرْوة بن الزبير: ما كان من حَدّ أو فريضة فإنه نزل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة. وهذا واضح.

و «يا» في قوله: «يا أيها» حرف نداء. «أيُّ» منادَى مفرد مبنيّ على الضم؛ لأنه منادى في اللفظ، و «ها» للتنبيه. «الناسُ» مرفوع صفة لأي عند جماعة النحويين؛ ما عدا المازني فإنه أجاز النصب قياساً على جوازه في: يا هذا الرجل. وقيل: ضُمّت «أي» كما ضُمّ المقصود المفرد، وجاءوا بـ «ها» عِوضاً عن ياء أخرى، وإنما لم يأتوا بياء لئلا ينقطع الكلام فجاءوا بـ «ها» حتى يبقى الكلام متصلاً. قال سيبويه: كأنك كررت «يا» مرتين وصار الاسم بينهما؛ كما قالوا: ها هو ذا. وقيل: لما تعذّر عليهم الجمع بين حرفي تعريف أتوْا في الصورة بمنادى مجرّد عن حرف تعريف، وأجروْا عليه المعرّف باللام المقصود بالنداء، وٱلتزموا رفعه؛ لأنه المقصود بالنداء؛ فجعلوا إعرابه بالحركة التي كان يستحقها لو باشرها النداء تنبيهاً على أنه المنادى؛ فٱعلمه.

وٱخْتُلِف مَن المراد بالناس هنا على قولين: أحدهما ـ الكفار الذين لم يعبدوه؛ يدل عليه قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾. الثاني ـ أنه عام في جميع الناس؛ فيكون خطابه للمؤمنين بٱستدامة العبادة، وللكافرين بٱبتدائها. وهذا حَسَن.

قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا﴾ أمْرٌ بالعبادة له. والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه. وأصل العبادة الخضوع والتذلل؛ يقال: طريق مُعَبَّدة إذا كانت موطوءةً بالأقدام.

قال طرفة:

وظِيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ[١]

والعبادة: الطاعة. والتعبد: التَّنَسُّك. وعبَّدت فلاناً: اتخذته عبداً.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ خصّ تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مُقِرّة بأن الله خلقها؛ فذكر ذلك حجةً عليهم وتَقريعاً لهم. وقيل: ليذكرهم بذلك نعمته عليهم. وفي أصل الخلق وجهان: أحدهما ـ التقدير؛ يقال: خَلقتُ الأدِيم للسقاء إذا قدّرته قبل القطع؛ قال الشاعر[٢]:

ولأَنتَ تَفْرِي ما خَلقتَ وبعـ ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِي

وقال الحجاج: ما خَلَقْتُ إلاّ فَرَيْتُ، ولا وَعَدْتُ إلاّ وَفَيْتُ. الثاني: الإنشاء والاختراع والإبداع؛ قال الله تعالى: ﴿وتَخْلُقُونَ إفكاً﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فيقال إذا ثبت عندهم خلقهم ثبت عندهم خلق غيرهم؛ فالجواب: أنه إنما يجري الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ في العظة؛ فذكّرهم من قبلهم ليعلموا أن الذي أمات من قبلهم وهو خَلَقهم يميتهم؛ وليفكّروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا، وعلى أيّ الأمور مضوْا من إهلاك من أهلك؛ وليعلموا أنهم يُبتلون كما ٱبتُلوا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «لعلّ» متصلة بأعبدوا لا بخلقكم؛ لأن من ذَرَأه الله لجهنم لم يخلقه ليتّقي. وهذا وما كان مثله فيما ورد في كلام الله تعالى من قوله: ﴿لعلّكم تَعْقِلون، لعلّكم تشكرون، لعلّكم تَذَكّرُون، لعلّكم تَهْتَدُون﴾ فيه ثلاث تأويلات:

---

(١) صدر البيت: تبارى عتاقاً ناجيات وأتبعت

تبارى: تعارض، يقال: هما يتباريان في السير، إذا فعل هذا شيئاً فعل هذا مثله. والعتاق: الكرام من الإبل البيض. والناجيات: السراع. والوظيف: عظم الساق. وقوله: أتبعت وظيفاً وظيفاً؛ أي اتبعت هذه الناقة وظيف رجلها وظيف يدها، ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها في موضع يدها إذا سارت. والمور: الطريق (عن شرح المعلقات).

(٢) هو زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان. يقول: أنت إذا قدّرت أمراً قطعته وأمضيته. وغيرك يقدّر ما لا يقطعه؛ لأنه ليس بماضي العزم وأنت مضاء على ما عزمت عليه. (عن اللسان).

(٣) راجع ١٣/ ٣٣٥.

الأول ـ أن « لَعلّ » على بابها من الترجّي والتوقّع ، والترجّي والتوقّع إنما هو في حيّز البشر ؛ فكأنه قيل لهم : ٱفعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا وأن تذكروا وأن تتقوا . هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان . قال سيبويه في قوله عز وجل: ﴿ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[1] قال معناه: اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتذكّر أو يخشى. وٱختار هذا القول أبو المعالي.

الثاني ـ أن العرب ٱستعملت «لَعلّ» مجرّدة من الشك بمعنى لام كي. فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا؛ وعلى ذلك يدلّ قول الشاعر:

وقلتم لنا كُفُّوا الحروبَ لعلّنا … نَكُفُّ ووثّقتم لنا كلّ مَوْثِقِ
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم … كَلَمْعِ سَرابٍ في المَلا مُتَألّقِ

المعنى: كفُّوا الحروب لنكُفّ، ولو كانت «لعل» هنا شكّاً لم يوثقوا لهم كل موثق؛ وهذا القول عن قُطْرُب والطبري.

الثالث ـ أن تكون «لعل» بمعنى التعرّض للشيء؛ كأنه قيل: ٱفعلوا ذلك متعرّضين لأن تعقلوا، أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا. والمعنى في قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: أي لعلكم أن تجعلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم وبين النار. وهذا من قول العرب: ٱتقاه بحقه إذا ٱستقبله به؛ فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة؛ ومنه قول عليّ رضي الله عنه: كنا إذا ٱحمرّ البأس ٱتقينا بالنبيّ ﷺ؛ أي جعلناه وقاية لنا من العدوّ. وقال عنترة:

ولقد كَرَرْتُ المُهْرَ يَدْمَى نَحْرُه … حتى ٱتقتني الخيلُ بٱبني حِذْيَمَ

[٢٢] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

---

(١) راجع ١١/١٩٩.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ فِرَاشاً﴾ فيه ست مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ﴾ معناه هنا صيّر لتعدّيه إلى مفعولين. ويأتي بمعنى خلق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ﴾[١] وقوله: ﴿وجعَلَ ٱلظُّلُمَات وٱلنُّورَ﴾. ويأتي بمعنى سَمَّى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿حٓم. وٱلْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾[٢]. وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً﴾[٢]. ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾[٢] أي سمّوهم. ويأتي بمعنى أخذ؛ كما قال الشاعر[٣]:

وقد جَعلتْ نَفسِي تَطيبُ لِضَغْمة لضَغْمِهِمـاهَـا يَقـرَعُ العظـمَ نـابُهـا

وقد تأتي زائدة؛ كما قال الآخر:

وقد جعلتُ أرى الاثنين أربعةً والواحد ٱثنينِ لمّا هدّني ٱلكِبَرُ

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنّورَ﴾: إنها زائدة. وجعل وٱجتعل بمعنىً واحد؛ قال الشاعر[٤]:

ناط أَمْرَ الضِّعافِ وٱجتعل الليـ ـلَ كحَبْـلِ العـادِيّـةِ الممـدُودِ

﴿فِراشاً﴾ أي وِطاء يفترشونها ويستقرّون عليها. وما ليس بفراشٍ كالجبال والأوعار والبحار فهي من مصالح ما يفترش منها؛ لأن الجبال كالأوتاد؛ كما قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً. وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[٥]. والبحار تركب إلى سائر منافعها؛ كما قال: ﴿وٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ﴾[٦].

الثانية - قال أصحاب الشافعي: لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أو لا يستسرج بسراج فبات على الأرض وجلس في الشمس لم يحنث؛ لأن اللفظ لا يرجع إليهما عُرْفاً.

---

(١) راجع ٦/ ٣٣٥ و ٣٨٦. (٢) راجع ١٦/ ٦١ و ٦٩ و ٧١.

(٣) هو مغلس بن لقيط الأسدي. وصف شدّة أصابه بها رجلان من قومه، فيقول: قد جعلت نفسي تطيب لإصابتهما بمثل الشدّة التي أصاباني بها. وضرب الضغمة مثلاً ثم وصف الضغمة فقال: يقرع العظم نابها. فجعل لها ناباً على السعة. والمعنى: يصل الناب فيها إلى العظم فيقرعه. عن شرح «الشواهد» للشنتمري.

(٤) هو أبو زبيد الطائي يرثي اللجلاج ابن أخته. يقول: جعل يسير الليل كله مستقيماً كاستقامة حبل البئر إلى الماء. ناط: علق. والعادية: البئر القديمة. (عن اللسان). (٥) راجع ١٩/ ١٦٩.

(٦) راجع ٢/ ١٩٤.

وأما المالكية فبنوه على أصلهم في الأيمان أنها محمولة على النية أو السبب أو البساط الذي جرت عليه اليمين؛ فإن عدم ذلك فالعرف.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ السماء للأرض كالسّقف للبيت؛ ولهذا قال وقوله الحق: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾[1]. وكل ما علا فأظلّ قيل له سماء؛ وقد تقدّم القول[2] فيه. والوقف على «بِناء» أحسن منه على «تَتَّقُونَ»؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ فِرَاشاً﴾ نعت للرّب. ويقال: بَنَى فلان بيتاً، وبنى على أهله ـ بِناء فيهما ـ أي زَفّها. والعامة تقول: بنى بأهله، وهو خطأ؛ وكأنّ الأصل فيه أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قُبّةً ليلة دخوله بها؛ فقيل لكل داخل بأهله: بانٍ. وبَنّى (مقصوراً) شدّد للكثرة، وٱبتنى داراً وبَنَى بمعنىً؛ ومنه بنيان الحائط؛ وأصله وضع لَبِنَة على أخرى حتى تثبت.

وأصل الماء مَوَهٌ، قلبت الواو ألفاً لتحرّكها وتحرّك ما قبلها فقلت مَاهٌ، فٱلتقى حرفان خفيّان فأبدلت من الهاء همزة؛ لأنها أجلد، وهي بٱلألف أشبه؛ فقلت: ماء؛ الألف الأولى عين الفعل، وبعدها الهمزة التي هي بدل من الهاء، وبعد الهمزة ألف بدل من التنوين. قال أبو الحسن: لا يجوز أن يكتب إلا بألفين عند البصريين، وإن شئت بثلاث؛ فإذا جمعوا أو صغّروا ردّوا إلى الأصل فقالوا: مُوَيْهٌ وأَمْوَاهٌ ومِيَاهٌ؛ مثل جِمَال وأجْمال.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ الثمرات جمع ثمرة. ويقال: ثَمَر مثل شَجَر. ويقال ثُمُر مثل خُشُب. ويقال: ثُمْر مثل بُدْن. وثِمَارَ مثل إكام جمع ثمر. وسيأتي لهذا مزيد بيان في «الأنعام» إن شاء الله[3]. وثمار السّياط: عُقَدُ أطرافها.

والمعنى في الآية أخرجنا لكم ألواناً من الثمرات، وأنواعاً من النبات. ﴿رِزْقاً﴾ طعاماً لكم، وعَلَفاً لدوابّكم؛ وقد بيّن هذا قولُه تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلأرضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً. وَحَدَائِقَ غُلْباً. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾[4]. وقد مضى الكلام في الرزق مستوفىً[5] والحمد لله.

---

(١) راجع ١١/ ٢٨٥. (٢) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء. (٣) راجع ٧/ ٤٩.
(٤) راجع ١٩/ ٢١٨. (٥) راجع ص ١٧٧ و ١٧٨ من هذا الجزء.

فإن قيل: كيف أطلق اسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملّك؟ قيل له: لأنها معدّة لأن تملك ويصح بها الانتفاع؛ فهي رزق.

الخامسة ـ قلت: ودلّت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق؛ ولهذا قال عليه السلام مشيراً إلى هذا المعنى: «والله لأَنْ يأخذ أحدُكم حَبْلَه فيَحْتطِبَ على ظهره خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه». أخرجه مسلم. ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زُخرف الدنيا فقد أخذ بطرف من جعل لله نِدًّا. وقال علماء الصوفية: أعلم الله عز وجل في هذه الآية سبيل الفقر؛ وهو أن تجعل الأرض وِطاء والسماء غِطاء، والماء طِيباً والكلأ طعاماً؛ ولا تعبد أحداً في الدنيا من الخلق بسبب الدنيا، فإن الله عزّ وجلّ قد أتاح[1] لك ما لا بدّ لك منه، من غير مِنّةٍ فيه لأحد عليك. وقال نَوْف البِكَالِيّ: رأيت عليّ بن أبي طالب خرج فنظر إلى النجوم فقال: يا نَوْف، أراقِد أنت أم رامق؟ قلت: بل رامق يا أمير المؤمنين، قال: طُوبَى للزاهدين في الدنيا والراغبين في الآخرة؛ أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وتُرابها فراشاً، وماءها طِيباً، والقرآن والدعاء دِثاراً وشِعاراً؛ فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام... وذكر باقي الخبر، وسيأتي تمامه في هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾[2] إن شاء الله تعالى.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾ نَهْيٌ. ﴿لِلهِ أَنْدَاداً﴾ أي أكفاء وأمثالاً ونظراء؛ واحدها نِدّ، وكذلك قرأ محمد بن السَّمَيْقَع «نِدًّا»؛ قال الشاعر:

نَحْمَــــدُ الله ولا نِـــــدّ لــــه ... عنــده الخيــر ومــا شــاء فعــلْ

وقال حَسّان:

أتهجـــوه ولســـت لـــه بِنِـــدٍّ ... فشـــرُّكمـــا لخيـــرِكمـــا الفِـــداء

(١) في الأصول: «أباح» بالباء الموحدة؛ وهو تصحيف.
(٢) راجع ٢/٣٠٨.

ويقال: نِدٌّ ونَدِيدٌ ونَدِيدَةٌ على المبالغة؛ قال لبيد:

لكيلاَ يكون السَّنْدَرِيّ نَدِيدتِي ... وأجعلَ أقواماً عُموماً عَماعَما[١]

وقال أبو عبيدة: «أنداداً» أضداداً. النحاس: «أنداداً» مفعول أوّل، و «لله» في موضع الثاني. الجوهري: والنَّدّ (بفتح النون): التَّلُّ المرتفع في السماء. والنَّدّ من الطيب ليس بعربيّ. ونَدّ البعير يَنِدُّ نَدّاً ونِداداً ونُدوداً: نفر وذهب على وجهه؛ ومنه قرأ بعضهم ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾[٢]. ونَدَّد به أي شهّره وسَمّع به.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ابتداء وخبر، والجملة في موضع الحال، والخطاب للكافرين والمنافقين؛ عن ٱبن عباس.

فإن قيل: كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الخَتْم والطَّبْع والصَّمَم والعَمَى. فالجواب من وجهين: **أحدهما** ـ «وأنتم تعلمون» يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل الماء وأنبت الرزق؛ فيعلمون أنه المنعِم عليهم دون الأنداد. **الثاني** ـ أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيّته بالقوّة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم؛ والله أعلم. وفي هذا دليل على الأمر بٱستعمال حجج العقول وإبطال التقليد. وقال ٱبن فُورَك: يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين؛ فالمعنى لا ترتدّوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أنداداً بعد علمكم الذي هو نَفْيُ الجهل بأن الله واحد.

[٢٣] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي في شك. ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ يعني القرآن، والمراد المشركون الذين تُحُدُّوا، فإنهم لما سمعوا القرآن قالوا: ما يشبه هذا كلام الله،

---

(١) السندري: ٱبن يزيد الكلابي، شاعر كان مع علقمة بن علاثة، وكان لبيد مع عامر بن الطفيل، فدعى لبيد إلى مهاجاته فأبى وقال البيت. والعماعم: الجماعات المتفرقون. ومعنى الشطر الثاني: وأجعل أقواماً مجتمعين فرقاً. (عن شرح القاموس واللسان).

(٢) راجع ١٥/٣١١.

وإنا لفي شك منه؛ فنزلت الآية. ووجه ٱتصالها بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر في الآية الأولى الدلالة عى وحدانيته وقدرته ذكر بعدها الدلالة على نبوّة نبيّه، وأن ما جاء به ليس مُفْتَرَى من عنده.

قوله: ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ. والعبد مأخوذ من التعبُّد وهو التذلّل فسُمِّيَ المملوكُ ـ من جنس ما يفعله ـ عبداً لتذلّله لمولاه؛ قال طَرَفَة:

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأُفْـرِدْتُ إفـرادَ البعيـر المُعَبَّـدِ

أي المذلّل. قال بعضهم: لما كانت العبادة أشرف الخصال والتسمي بها أشرف الخطط؛ سَمَّى نبيّه عبداً، وأنشدوا:

يـا قـومِ قلبـي عنـد زهـراءَ يعـرفـه السـامـعُ والـرّائـي

لا تَـدْعُنِـي إلا بِيَـا عبـدَهـا فـإنـه أشـرف أسمـائـي

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب الشرط، ائتوا مصقور لأنه من باب المجيء؛ قاله ٱبن كَيْسان. وهو أمرٌ معناه التعجيز؛ لأنه تعالى عَلِم عجزهم عنه. والسورة واحدة السُّوَر. وقد تقدّم الكلام فيها(١) وفي إعجاز(٢) القرآن، فلا معنى للإعادة. و «من» ـ في قوله: ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ ـ زائدة؛ كما قال: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ والضمير في «مثله» عائد على القرآن عند الجمهور من العلماء؛ كقتادة ومجاهد وغيرهما. وقيل: يعود على التوراة والإنجيل. فالمعنى فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدّق ما فيه. وقيل: يعود على النبيّ ﷺ. المعنى: من بَشَر أُمِّيّ مثله لا يكتب ولا يقرأ. فمِن على هذين التأويلين للتبعيض. والوقف على «مثله» ليس بتامّ؛ لأن «وٱدعوا» نَسَقٌ عليه.

قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم. الفَرّاء: آلهتكم. وقال ٱبن كَيْسان: فإن قيل كيف ذكر الشهداء ها هنا، وإنما يكون الشهداء ليشهدوا أمراً، أو ليخبروا بأمر شهدوه، وإنما قيل لهم: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾؟ فالجواب: أن

---

(١) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء.

(٢) راجع ص ٦٩ ـ ٧٨ من هذا الجزء.

المعنى ٱستعينوا بمن وجدتموه من علمائكم، وأحضروهم ليشاهدوا ما تأتون به؛ فيكون الرّد على الجميع أوكد في الحجة عليهم.

قلت: هذا هو معنى قول مجاهد. قال مجاهد: معنى ﴿وٱدْعُوا شُهَدَاءكُمْ﴾ أي ٱدعوا ناساً يشهدون لكم؛ أي يشهدون أنكم عارضتموه. النحاس: «شهداءكم» نصب بالفعل جمع شهيد؛ يقال: شاهد وشهيد، مثل قادر وقدير. وقوله: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي من غيره، ودُون نقيض فوق؛ وهو تقصير عن الغاية، ويكون ظرفاً. والدُّون: الحقير الخسيس؛ قال:

إذا ما علا المرء رام العلاء ويقنع بالدُّون من كان دُونا

ولا يُشتق منه فعل؛ وبعضهم يقول منه: دان يَدُون دَوْناً. ويقال: هذا دُون ذاك؛ أي أقرب منه. ويقال في الإغراء بالشيء: دُونَكَهُ. قالت تَميم للحجاج: أقْبِرنا[1] صالِحاً ـ وكان قد صلبه ـ فقال: دُونكُموه.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ صادِقِينَ﴾ فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة؛ لقولهم في آية أخرى: ﴿لَوْ نَشاءُ لقُلْنا مِثلَ هَذَا﴾[2]. والصدق: خلاف الكذب، وقد صَدَق في الحديث. والصَّدْق: الصُّلب من الرماح. ويقال: صَدَقُوهم القتال. والصِّدّيق: الملازم للصدق. ويقال: رجل صِدْقٍ؛ كما يقال: نِعْمَ الرجل. والصداقة مشتقة من الصدق في النصح والودّ.

[٢٤] ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني فيما مضى ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي تُطيقوا ذلك فيما يأتي. والوقف على هذا على «صادقين» تامّ. وقال جماعة من المفسرين: معنى الآية وٱدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا، فإن لم تفعلوا فاتقوا النار. فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على «صادقين».

(١) أقبرنا، أي ائذن لنا في أن نقبره. وصالح: هو صالح بن عبد الرحمن مولى تميم، كان كاتباً للحجاج، ويرى رأي الخوارج.

(٢) راجع ٧/٣٩٧.

فإن قيل: كيف دخلت «إن» على «لم» ولا يدخل عامل على عامل؟ فالجواب أن «إن» ها هنا غير عاملة في اللفظ، فدخلت على «لم» كما تدخل على الماضي؛ لأنها لا تعمل في «لم» كما لا تعمل في الماضي؛ فمعنى إن لم تفعلوا: إن تركتم الفعل.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ نصب بلن، ومن العرب من يجزم بها، ذكره أبو عبيدة؛ ومنه بيت النابغة:

فلن[1] أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَدِ

وفي حديث ابن عمر حين ذُهب به إلى النار في منامه: فقيل لي «لن تُرَعْ». هذا على تلك اللغة. وفي قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها. وقال ابن كَيْسان: ﴿ولن تفعلوا﴾ توقيفاً لهم على أنه الحق، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب، وأنه مفترىً وأنه سحر وأنه شعر، وأنه أساطير الأوّلين؛ وهم يدّعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله.

وقوله: ﴿ فاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جواب ﴿ فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾؛ أي اتقوا النار بتصديق النبيّ ﷺ وطاعة الله تعالى. وقد تقدّم معنى التقوى[2] فلا معنى لإعادتها. ويقال: إن لغة تميم وأسد ﴿ فَتَقُوا النار ﴾. وحكى سيبويه: تَقَى يَتْقِي، مثل قَضَى يقضي. «النارَ» مفعولة. «التي» من نعتها. وفيها ثلاث لغات: التي واللّتِ (بكسر التاء) واللّتْ (بإسكانها). وهي اسم مُبْهَم للمؤنث وهي معرفة؛ ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتنكير، ولا تتم إلا بصلة. وفي تثنيتها ثلاث لغات أيضاً: اللّتانِ واللّتا (بحذف النون) واللّتانِّ (بتشديد النون). وفي جمعها خمس لغات:

---

(١) رواية الديوان وهي المشهورة في مصادر الأدب: «فلم أعرض». ويروى: «فما عرضت». وصدر البيت:

هذا الثناء فإن تسمع به حسناً

وقوله: أبيت اللعن: تحية كانوا يحيون بها الملوك. والصفد: العطاء؛ معناه: أبيت أن تأتي من الأمور ما تلعن عليه وتذم. يقول: هذا الثناء الصحيح الصادق فمن الحق أن تقبله مني، فلم أمدحك متعرضاً لعطائك، لكن امتدحتك إقراراً بفضلك. (عن شرح الديوان).

(٢) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء.

اللاّتِي، وهي لغة القرآن. واللاّتِ (بكسر التاء بلا ياء). واللّواتِي. واللّواتِ (بلا ياء)؛ وأنشد أبو عبيدة:

مِـن اللّـواتِـي واللّتـي والـلاّتِـي ... زعمـن أن قـد كَبِـرَتْ لِـداتِـي

واللّوا (بإسقاط التاء)؛ هذا ما حكاه الجوهري. وزاد ٱبن الشّجري: اللاّئي (بالهمز وإثبات الياء). واللاّءِ (بكسر الهمزة وحذف الياء). واللاّ (بحذف الهمزة). فإن جمعت الجمع قلت في اللاّتي: اللّواتي. وفي اللاّئي: اللوائي. قال الجوهري: وتصغير الّتي اللُّتَيّا (بالفتح والتشديد)؛ قال الراجز[(١)]:

بعـد اللُّتَيّـا واللُّتَيّـا والّتِـي ... إذا عَلَتْهـا أنفـسٌ تَـرَدّتِ

وبعض الشعراء أدخل على «التي» حرف النداء، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا في قولنا: يا الله، وحده. فكأنه شبّهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها؛ وقال:

من ٱجلِكِ يا الّتِي تَيَّمْتِ قلبي ... وأنـت بخيلـةٌ بـالـوُدّ عنّـي

ويقال: وقع فلان في اللّتَيّا والّتي؛ وهما ٱسمان من أسماء الدّاهية. والوقود (بالفتح): الحطب. وبالضم: التوقد. و «الناس» عموم، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطباً لها؛ أجارنا الله منها. «والحجارة» هي حجارة الكبريت الأسود ـ عن ٱبن مسعود والفرّاء ـ وخُصّت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الاتقاد، نتن الرائحة، كثرة الدخان، شدّة الالتصاق بالأبدان، قوّة حَرِّها إذا حَمِيَت. وليس في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النّاسُ وَالحِجَارَةُ﴾ دليل على أن ليس فيها غير الناس والحجارة؛ بدليل ما ذكره في غير موضع من كَوْن الجنّ والشياطين فيها. وقيل: المراد بالحجارة الأصنام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[(٢)] أي حطب جهنم. وعليه فتكون الحجارة والناس وقوداً للنار؛ وذكر ذلك تعظيماً للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس.

---

(١) هو العجاج. وصف دواهي شنيعة. يقول: بعد الجهد والمشرف الذي أشرفت عليه. ومعنى تردت: سقطت هاوية وهلكت.

(٢) راجع ١١/٣٤٣.

وعلى التأويل الأوّل يكونون معذّبين بالنار والحجارة. وقد جاء الحديث عن النبيّ ﷺ أنه قال: «كلُّ مُؤْذٍ في النار». وفي تأويله وجهان: أحدهما ـ أن كل من آذى الناس في الدنيا عذّبه الله في الآخرة بالنار. الثاني ـ أن كل ما يؤذي الناس في الدنيا من السباع والهوام وغيرها في النار مُعَدٌّ لعقوبة أهل النار. وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هي نار الكافرين خاصّةً. والله أعلم.

روى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال قلت: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يَحُوطُك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال: «نعم وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضَاح[1] ـ في رواية ـ ولولا أنا لكان في الدّرْكِ الأسفل من النار». «وَقُودُهَا» مبتدأ. «النّاسُ» خبره. «والحجارةُ» عطف عليهم. وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مُصَرِّف: «وُقُودها» (بضم الواو). وقرأ عُبيد بن عُمير: ﴿وَقِيدُها الناسُ﴾. قال الكسائي والأخفش: الوقود (بفتح الواو): الحطب، و (بالضم): الفعل؛ يقال: وَقَدَتِ النارُ تَقِدُ وُقُوداً (بالضم) ووَقْداً وَقِدَةً [وَوَقِيداً وَوَقْداً][2] ووَقَداناً، أي تَوَقّدت. وأوْقدتها أنا وٱستوقدتها أيضاً. والاتّقاد مثلُ التَّوَقُّد، والموضع مَوْقِد؛ مثلُ مجلِس، والنار مُوقَدة. والوَقْدة: شدّة الحرّ، وهي عشرة أيام أو نصف شهر. قال النحاس: يجب على هذا ألا يُقرأ إلا «وَقُودها» [بفتح الواو][3] لأن المعنى حطبها؛ إلا أن الأخفش قال: وحُكي أن بعض العرب يجعل الوَقود والوُقود بمعنى الحطب والمصدر. قال النحاس: وذهب إلى أن الأول أكثر، قال: كما أن الوَضُوء الماءُ، والوُضُوء المصدر.

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك؛ بدليل ما ذكره في غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة في الشفاعة؛ على ما يأتي. وفيه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة؛ خلافاً للمبتدعة في قولهم: إنها لم تخلق حتى الآن. وهو القول الذي سقط فيه القاضي منذر بن سعيد البَلُّوطِي الأندلسي. روى مسلم عن عبدالله[4] بن مسعود قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وَجْبَةً[5]؛

---

(١) الضحضاح في الأصل: ما رق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين، وٱستعير للنار.
(٢) الزيادة عن هامش بعض نسخ الأصل. (٣) الزيادة عن كتاب «إعراب القرآن للنحاس».
(٤) كذا في الأصول. وفي صحيح مسلم: «عن أبي هريرة».
(٥) الوجبة: صوت الشيء يسقط فيسمع له، كالهدّة.

فقال النبيّ ﷺ: «تدرون ما هذا» قال قلنا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «هذا حَجَر رُمِيَ به في النار منذ سبعين خَرِيفاً فهو يَهْوِي في النار الآن حتى أنتهى إلى قعرها». وروى البخاريّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ٱحتجّت النار والجنة فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله عزّ وجلّ لهذه أنتِ عذابي أعذِّب بِك من أشاء وقال لهذه أنتِ رَحْمَتِي أرْحَمُ بِك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها». وأخرجه مسلم[1] بمعناه. يقال: ٱحتجّت بمعنى تحتج؛ للحديث المتقدم حديث ٱبن مسعود[2]، ولأن النبيّ ﷺ قد أرِيهما في صلاة الكسوف، ورآهما أيضاً في إسرائه ودخل الجنة؛ فلا معنى لما خالف ذلك. وبالله التوفيق. و ﴿أُعِدَّتْ﴾ يجوز أن يكون حالاً للنار على معنى مُعدّة، وأضمرت معه قد؛ كما قال: ﴿أَوْ جَاۤؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾[3] فمعناه قد حصرت صدورهم؛ فمع «حَصِرت» قد مضمرة لأن الماضي لا يكون حالاً إلا مع قد؛ فعلى هذا لا يتم الوقف على «الحجارة». ويجوز أن يكون كلاماً منقطعاً عما قبله؛ كما قال: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾[4]. وقال السِّجِسْتَاني: ﴿أُعِدّتْ لِلْكافِرِينَ﴾ من صلة «الّتِي»؛ كما قال في آل عمران: ﴿وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي أُعِدّتْ لِلْكافِرِينَ﴾[5]. ٱبن الأنباريّ: وهذا غَلَط؛ لأن التي في سورة البقرة قد وُصلت بقوله: ﴿وقُودُهَا النّاسُ﴾ فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية؛ وفي آل عمران ليس لها صلة غير «أعِدّتْ».

[٢٥] ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) بمراجعة صحيحي البخاري ومسلم وجدنا أن الرواية لمسلم، وأخرجه البخاري بمعناه.
(٢) يلاحظ أن راوي الحديث المتقدم في صحيحي مسلم والبخاري أبو هريرة.
(٣) راجع ٥/٣٠٩.
(٤) راجع ١٥/٣٥٣.
(٥) راجع ٤/٢٠٢.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ لما ذكر الله عزّ وجلّ جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضاً. والتبشير الإخبار بما يَظهر أثره على البَشرة ـ وهي ظاهر الجلد ـ لتغيّرها بأوّل خبر يَرِد عليك؛ ثم الغالب أن يُستعمل في السرور مقيَّداً بالخير المُبَشَّر به، وغير مقيَّدٍ أيضاً. ولا يُستعمل في الغمّ والشّر إلاّ مُقَيَّداً منصوصاً على الشر المبشَّر به؛ قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ ويقال: بَشّرته وبَشَرته ـ مخفّف ومشدّد ـ بِشارة (بكسر الباء) فأبشر وٱستبشر. وبَشِر يَبْشَر إذا فَرِح. ووجه بشير إذا كان حَسَناً بيّن البَشارة (بفتح الباء). والبُشْرَى: ما يُعطاه المُبَشِّر. وتباشير الشيء: أوّله.

الثانية ـ أجمع العلماء على أن المكلَّف إذا قال: مَنْ بَشَّرَني مِن عبيدي بكذا فهو حُرّ؛ فبَشّره واحد من عبيده فأكثر فإن أوّلهم يكون حُرًّا دون الثاني. وٱختلفوا إذا قال: مَن أخبرني من عبيدي بكذا فهو حُرٌّ فهل يكون الثاني مثل الأوّل؛ فقال أصحاب الشافعي: نعم؛ لأن كل واحد منهم مخبر. وقال علماؤنا: لا، لأن المكلَّف إنما قصد خبراً يكون بشارة، وذلك يختص بالأوّل، وهذا معلوم عُرْفاً فوجب صرف القول إليه. وفرّق محمد بن الحسن بين قوله: أخبرني، أو حَدّثني؛ فقال: إذا قال الرجل أيّ غلام لي أخبرني بكذا، أو أعلمني بكذا وكذا فهو حُرٌّ ـ ولا نِيّةَ له ـ فأخبره غلام له بذلك بكتاب أو كلام أو رسول فإن الغلام يَعتق؛ لأن هذا خبر. وإن أخبره بعد ذلك غلام له عَتَق؛ لأنه قال: أيّ غلام أخبرني فهو حُرٌّ. ولو أخبروه كلّهم عَتَقوا؛ وإن كان عَنَى ـ حين حلف ـ بالخبر كلام مشافهة لم يَعْتِق واحدٌ منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر. قال: وإذا قال أيّ غلام لي حَدّثني؛ فهذا على المشافهة، لا يعتق واحد منهم.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ رَدّ على من يقول: إن الإيمان بمجرّده يقتضي الطاعات؛ لأنه لو كان ذلك ما أعادها؛ فالجنة تُنال بالإيمان والعمل الصالح. وقيل: الجنة تُنال بالإيمان؛ والدّرجات تُستحقّ بالأعمال الصالحات. والله أعلم.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ في موضع نصب بـ «بَشِّر»، والمعنى وبشّر الذين آمنوا بأنّ لهم، أو لأن لهم؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل. وقال الكسائي وجماعة من البصريين: «أنّ» في موضع خفض بإضمار الباء.

﴿جَنَّاتٍ﴾ في موضع نصب اسم «أنّ»، «وأنّ» وما عملت فيه في موضع المفعول الثاني. والجنّات: البساتين؛ وإنما سُمِّيت جنات لأنها تُجِنّ مَن فيها أي تستره بشجرها؛ ومنه: المِجَنّ والجَنِين والجنة.

﴿تَجْرِي﴾ في موضع النعت لجنات، وهو مرفوع؛ لأنه فعل مستقبل فحذفت الضمة من الياء لثقلها معها.

﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي من تحت أشجارها، ولم يجر لها ذكر، لأن الجنّات دالة عليها.

﴿الأَنْهَارُ﴾ أي ماء الأنهار؛ فنُسب الجري إلى الأنهار تَوَسُّعاً، وإنما يجري الماء وحده فحذف اختصاراً؛ كما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[1] أي أهلها. وقال الشاعر[2]:

نُبِّئْتُ أن النار بعدك أُوقِدت ... واستبّ بعدك يا كليبُ المجلِسُ

أراد: أهل المجلس؛ فحذف. والنهر: مأخوذ من أنهرت، أي وسّعت؛ ومنه قول قيس بن الخَطِيم:

مَلَكْتُ[3] بها كَفّي فأنهرت فَتْقَها ... يرى قائم من دونها ما وراءَها

أي وسّعتها؛ يصف طَعْنة. ومنه قول النبيّ ﷺ: «ما أنهر الدّمَ وذُكِر اسم الله عليه فكُلُوهُ». معناه: ما وَسّع الذبح حتى يجري الدّمُ كالنهر. وجمع النَّهَر: نُهُرٌ وأنهار. ونَهْرٌ نَهِر: كثير الماء؛ قال أبو ذُؤيب:

أقامت به فابتنت خَيْمَةً ... على قَصَبٍ وفُرَاتٍ نَهِرْ[4]

---

(١) راجع ٩/٢٤٦. (٢) هو مهلهل أخو كليب. (٣) ملكت: أي شددت وقوّيت.

(٤) قال الأصمعي: «قصب البطحاء مياه تجري إلى عيون الركايا (الآبار). يقول: أقامت بين قصب أي ركايا وماء عذب» وكل فرات فهو عذب». (عن اللسان وشرح الديوان).

وروي: أن أنهار الجنة ليست في أخاديد، إنما تجري على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها. والوقف على «الأنهار» حَسَن وليس بتام؛ لأن قوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ من وصف الجنات.

﴿رِزْقاً﴾ مصدره؛ وقد تقدّم القول في الرزق[1]. ومعنى ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعني في الدنيا؛ وفيه وجهان: أحدهما ـ أنهم قالوا هذا الذي وُعِدْنا به في الدنيا. والثاني ـ هذا الذي رُزِقْنا في الدنيا، لأن لَوْنها يشبه لون ثمار الدنيا؛ فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك. وقيل: «مِنْ قبلُ» يعني في الجنة لأنهم يُرزقون ثم يُرزقون؛ فإذا أُتُوا بطعام وثمار في أوّل النهار فأكلوا منها، ثم أتُوا منها في آخر النهار قالوا: هذا الذي رُزقنا مِن قبل؛ يعني أُطْعِمْنَا في أوّل النهار؛ لأن لونه يُشبه ذلك؛ فإذا أكلوا منها وَجَدُوا لها طعماً غير طعم الأوّل.

﴿وَأُتُوا﴾ فُعِلوا من أتيت. وقرأه الجماعة بضم الهمزة والتاء. وقرأ هارون الأعْوَر «وأَتَوْا» بفتح الهمزة والتاء. فالضمير في القراءة الأولى لأهل الجنة، وفي الثانية للخدام.

﴿بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ حال من الضمير في «به»؛ أي يشبه بعضه بعضاً في المنظر ويختلف في الطعم. قاله ٱبن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم. وقال عِكْرِمة: يشبه ثمرَ الدنيا ويباينه في جُلّ الصفات. ٱبن عباس: هذا على وجه التعجُّب، وليس في الدنيا شيء مما في الجنة سوى الأسماء؛ فكأنهم تعجّبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها. وقال قتادة: خياراً لا رَذْل فيه؛ كقوله تعالى: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ وليس كثمار الدنيا التي لا تتشابه؛ لأن فيها خياراً وغير خيار.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ ابتداء وخبر. وأزواج: جمع زَوْج. والمرأة: زَوْج الرجل. والرجل زَوْج المرأة. قال الأصمعيّ: ولا تكاد العرب تقول زوجة. وحكى الفَرّاء أنه يقال: زوجة؛ وأنشد الفَرَزْدَق:

وإن الـذي يَسْعَـى ليُفْسِـد زَوْجتي كساعٍ إلى أُسْد الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا[2]

(١) راجع ص ١٧٧ من هذا الجزء.
(٢) الشرى: مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل. يستبيلها: أي يأخذ بولها في يده.

وقال عمّار بن ياسِر في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: والله إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة ، ولكن الله ٱبتلاكم . ذكره البخاري ، وٱختاره الكسائي.

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ نعتٌ للأزواج. ومُطَهّرةٌ في اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ؛ ومعنى هذه الطهارة من الحَيْض والبُصاق وسائر أقذار الآدميّات. ذكر عبد الرازق قال أخبرني الثَّوْرِيّ عن ٱبن أبي نَجِيح عن مجاهد: «مطهرة» قال: لا يَبُلْنَ ولا يَتَغَوَّطْنَ ولا يَلِدْنَ ولا يَحِضْنَ ولا يمنين ولا يَبْصُقْنَ. وقد أتينا على هذا كلّه في وصف أهل الجنة وصفة الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة. والحمد لله.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ «هم» مبتدأ. «خالدون» خبره، والظرف مُلْغىً. ويجوز في غير القرآن نصب خالدين على الحال. والخلود: البقاء؛ ومنه جَنّة الخُلْد. وقد تستعمل مجازاً فيما يطول؛ ومنه قولهم في الدعاء: خَلّد الله مُلْكه، أي طوّله. قال زُهَيْر:

ألاَ لا أرى على الحوادث باقيَا ... ولا خالداً إلا الجبالَ الرواسيَا

وأمّا الذي في الآية فهو أبديّ حقيقةً.

[٢٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ قال ٱبن عباس في رواية أبي صالح: لمّا ضرب الله سبحانه هذين المثلين للمنافقين: يعني ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مَنِ السَّمَاءِ﴾ قالوا: الله أجلّ وأعلَى من أن يضرب الأمثال؛ فأنزل الله هذه الآية. وفي رواية عطاء عن ٱبن عباس قال: لما ذكر الله آلهة المشركين فقال: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾[1] وذكر كَيْدَ الآلهة

(١) راجع ١٢/٩٧.

فجعله كَبيْت العنكبوت، قالوا: أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد، أيّ شيء يصنع؟ فأنزل الله الآية. وقال الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه وضربَ للمشركين به المَثل، ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله؛ فأنزل الله الآية.

و ﴿يَسْتَحْيِي﴾ أصله يَسْتَحْيُ، عينه ولامه حَرْفَا علة؛ أُعِلّت اللام منه بأن ٱستثقلت الضمة على الياء فسكنت. وٱسم الفاعل على هذا: مستحيٍ، والجمع مُسْتَحْيُون ومُسْتَحْيِين. وقرأ ٱبن مُحَيْصن «يستحي» بكسر الحاء وياء واحدة ساكنة؛ ورُوِي عن ٱبن كَثِير، وهي لغة تميم وبكر بن وائل؛ نُقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت، ثم ٱستثقلت الضمة على الثانية فسكنت، فحذفت إحداهما للالتقاء؛ وٱسم الفاعل مُسْتَحٍ، والجمع مستحون ومستحين. قاله الجوهري. وٱختلف المتأوّلون في معنى «يستحي» في هذه الآية؛ فقيل: لا يخشى؛ ورجّحه الطبري؛ وفي التنزيل: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاه﴾(١). بمعنى تستحي. وقال غيره: لا يترك. وقيل: لا يمتنع. وأصل الاستحياء الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح؛ وهذا مُحال على الله تعالى. وفي صحيح مسلم عن أمّ سَلَمة رضي الله عنها قالت: جاءت أمّ سُليم إلى النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق. المعنى لا يأمر بالحياء فيه، ولا يمتنع من ذكره.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا﴾ «يضرب» معناه يبيّن، و «أن» مع الفعل في موضع نصب بتقدير حذف مِن. «مَثَلاً» منصوب بيضرب. «بَعُوضةً» في نصبها أربعة أوجه:

الأوّل ـ تكون «ما» زائدة، و «بعوضةً» بدلاً من مَثَلاً.

الثاني ـ تكون «ما» نكرة في موضع نصب على البدل من قوله: «مَثَلاً». و «بعوضةً» نعت لما؛ فوصفت «ما» بالجنس المنكّر لإبهامها لأنها بمعنى قليل؛ قاله الفَرّاء والزّجاج وثَعْلَب.

---

(١) راجع ١٤/ ١٩٠.

الثالث ـ نصبت على تقدير إسقاط الجارّ، المعنى أن يضرب مثلاً مّا بين بعوضة؟ فحذفت «بين» وأعربت بعوضة بإعرابها؛ والفاء بمعنى إلى، أي إلى ما فوقها. وهذا قول الكسائي والفرّاء أيضاً؛ وأنشد أبو العباس:

يا أَحْسَنَ الناسِ ما قَرْناً إلى قَدَمٍ ولا حِبَالَ مُحِبٌّ واصِلٍ تَصِلُ

أراد ما بين قَرْن، فلما أسقط «بين» نصب.

الرابع ـ أن يكون «يضرب» بمعنى يجعل، فتكون «بعوضةً» المفعول الثاني. وقرأ الضحاك وإبراهيم بن أبي عَبْلَة ورُؤبة بن العَجّاج «بعوضةٌ» بالرفع، وهي لغة تميم. قال أبو الفتح: ووجه ذلك أن «ما» اسم بمنزلة الذي، و «بعوضةٌ» رفع على إضمار المبتدأ، التقدير: لا يستحيي أن يضرب الذي هو بعوضة مثلاً؛ فحذف العائد على الموصول وهو مبتدأ. ومثله قراءة بعضهم: ﴿تَمَاماً عَلَى الّذِي أَحْسَنُ﴾ أي على الذي هو أحسن. وحكى سيبويه: ما أنا بالذي قائل لك شيئاً؛ أي هو قائل. قال النحاس: والحذف في «ما» أقبح منه في «الذي»؛ لأن «الذي» إنما له وجه واحد والاسم معه أطول. ويقال: إن معنى ضربت له مثلاً، مَثّلت له مَثَلاً. وهذه الأبنية على ضربٍ واحد، وعلى مثال واحد ونوع واحد؛ والضَّرْبُ النَّوْع. والبَعُوضة: فَعُولة من بَعَض إذا قطع اللحم؛ يقال: بَضَع وبَعَض بمعنىً، وقد بعّضته تبعيضاً، أي جزّأته فتبعّض. والبَعُوض: البَقّ[1]، الواحدة بعوضة؛ سُمِّيت بذلك لصغرها. قاله الجوهري وغيره.

قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ قد تقدّم أن الفاء بمعنى إلى، ومن جعل «ما» الأولى صلة زائدة فـ «ما» الثانية عطف عليها. وقال الكسائي وأبو عبيدة وغيرهما. معنى «فما فوقها» ـ والله أعلم ـ ما دونها؛ أي إنها فوقها في الصغر. قال الكسائي: وهذا كقولك في الكلام: أتراه قصيراً؟ فيقول القائل: أو فوق ذلك؛ أي هو أقصر مما ترى. وقال قتادة وابن جُريج: المعنى في الكِبَر. والضمير في «أنّه» عائد على المَثَل؛ أي إن المَثَل حق.

---

(١) قال الدميري: «هو وهم». وذكر البعوض بأوصافها. ويدل على أن البعوض غير البق ما ورد عنه ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة. . .» الحديث.

والحق خلاف الباطل. والحق: واحد الحقوق. والحَقّة (بفتح الحاء) أخص منه؛ يقال: هذه حَقّتِي، أي حَقّي.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لغة بني تميم وبني عامر في «أمّا» أَيْمَا. يبدلون من إحدى الميمين ياء كراهية التضعيف؛ وعلى هذا يُنشد بيتُ عمر بن أبي ربيعة:

رأت رجلاً أيْمَا إذا الشمس عارضتْ فيَضْحَى وأيْمَا بالعشِيّ فَيَخْصَرُ[1]

قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ اختلف النحويون في «ماذا». فقيل: هي بمنزلة اسم واحد بمعنى أي شيء أراد الله؛ فيكون في موضع نصب بـ«أراد». قال ابن كَيْسان: وهو الجيّد. وقيل: «ما» اسم تام في موضع رفع بالابتداء؛ و«ذا» بمعنى الذي وهو خبر الابتداء، ويكون التقدير: ما الذي أراده الله بهذا مثلاً. ومعنى كلامهم هذا: الإنكار بلفظ الاستفهام. و«مَثَلاً» منصوب على القطع؛ التقدير: أراد مثلاً؛ قاله ثَعْلَب. وقال ابن كَيْسان: هو منصوب على التمييز الذي وقع موقع الحال.

قوله تعالى: ﴿يُضِلّ به كَثِيراً وَيَهْدِي به كَثِيراً﴾ قيل: هو من قول الكافرين؛ أي ما مراد الله بهذا المَثَل الذي يفرّق به الناس إلى ضلالة وإلى هُدًى. وقيل: بل هو خبر من الله عز وجل، وهو أشبه؛ لأنهم يقرّون بالهُدَى أنه من عنده؛ فالمعنى: قل يضل الله به كثيراً ويهدي به كثيراً؛ أي يوفّق ويَخْذِل؛ وعليه فيكون فيه ردّ على من تقدّم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم في قولهم: إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى. قالوا: ومعنى ﴿يُضِلّ به كَثِيراً﴾ التسمية هنا، أي يسميه ضالاً؛ كما يقال: فسّقت فلاناً، يعني سَمّيته فاسقاً؛ لأنّ الله تعالى لا يُضل أحداً. هذا طريقهم في الإضلال، وهو خلاف أقاويل المفسرين، وهو غير محتمل في اللغة؛ لأنه يقال: ضَلّله إذا سمّاه ضالاً؛ ولا يقال: أضله إذا سماه ضالاً؛ ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهلُ التأويل من الحق أنه يخذل به كثيراً من الناس مجازاة لكفرهم. ولا خلاف أن قوله:

(١) الخصر (بالتحريك): البرد.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ أنه من قوله الله تعالى. و «الفاسقين» نصب بوقوع الفعل عليهم، والتقدير: وما يُضل به أحداً إلا الفاسقين الذين سبق في علمه أنه لا يهديهم. ولا يجوز أن تنصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمام الكلام. وقال نَوْف البِكالِيّ: قال عزير فيما يناجي ربّه عزّ وجلّ: إلهي تخلق خلقاً فتُضل من تشاء وتهدي من تشاء. قال فقيل: يا عزير أعرض عن هذا! لتُعْرِضنّ[١] عن هذا أو لأمْحُونّك من النبوّة، إني لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون. والضلال أصله الهلاك؛ يقال منه: ضلّ الماءُ في اللبن إذا ٱستهلك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أئذا ضَلَلْنَا في ٱلأَرْضِ﴾[٢] وقد تقدّم في الفاتحة[٣]. والفسْق أصله في كلام العرب الخروج عن الشيء؛ يقال: فَسَقَتِ الرُّطَبة إذا خرجت عن قشرها؛ والفأرة من جُحْرها. والفُوَيْسِقة: الفأرة؛ وفي الحديث: «خمسٌ فواسِقُ يُقْتَلْنَ في الحِلّ والحَرَم الحيّة والغراب الأبقعُ والفأرة والكلب العَقُور والحُدَيّا». روته عائشة عن النبيّ ﷺ، أخرجه مسلم. وفي رواية «العقرب» مكان «الحية». فأطلق ﷺ ٱسم الفسق لأذيّتها؛ على ما يأتي بيانه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. وفَسَق الرجل يَفْسِق ويَفْسُق أيضاً ـ عن الأخفش ـ فِسْقاً وفُسوقاً؛ أي فَجَر. فأمّا قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ فمعناه خرج. وزعم ٱبن الأعرابي أنه لم يسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم[٤] فاسق. قال: وهذا عجب، وهو كلام عربيّ حكاه عنه ٱبن فارس والجوهري.

قلت: قد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب «الزاهر» له لما تكلم على معنى الفسق قول الشاعر:

يَذْهَبْنَ في نَجْدٍ وغَوْراً[٥] غائرا … فواسقاً عن قَصْدها جوائرا

---

(١) في نسخة من الأصل: أعرض عن هذا وإلا محوتك من النبوّة.

(٢) راجع ١٤/ ٩١.

(٣) راجع ص ١٥٠ من هذا الجزء.

(٤) أي بمعنى الخارج من طاعة الله، وهو بهذا المعنى حقيقة شرعية.

(٥) غوراً، منصوب بفعل محذوف؛ أي ويسلكن. (راجع كتاب سيبويه ١/ ٤٩ طبع بولاق).

والفِسّيق: الدائم الفسق. ويقال في النداء: يا فُسَقُ ويا خُبَثُ، يريد: يا أيُّها الفاسق، ويا أيها الخبيث. والفِسْق في عُرْف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكُفْر وعلى من خرج بعصيان.

[٢٧] ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ «الّذين» في موضع نصب على النّعت للفاسقين، وإن شئت جعلته في موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف؛ أي هم الذين. وقد تقدم[١].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿يَنقُضُونَ﴾ النَّقْض: إفساد ما أبرمته من بناء أو حبل أو عَهد. والنُّقَاضة. ما نُقض من حبل الشَّعر. والمُناقضة في القول: أن تتكلم بما تناقض معناه. والنَّقيضة في الشِّعر: ما يُنْقَض به. والنِّقْض: المنقوض. واختلف الناس في تعيين هذا العهد؛ فقيل: هو الذي أخذه الله على بني آدم حين آستخرجهم من ظهره. وقيل: هو وصية الله تعالى إلى خلقه، وأمْرُه إيّاهم بما أمرهم به من طاعته، ونَهْيُه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على ألسنة رسله؛ ونقضهم ذلك ترك العمل به. وقيل: بل نَصْب الأدلة على وحدانيّته بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد؛ ونقضهم ترك النظر في ذلك. وقيل: هو ما عهده إلى من أوتي الكتاب أن يبينوا نبوّة محمد ﷺ ولا يكتموا أمره. فالآية على هذا في أهل الكتاب. قال أبو إسحاق الزجاج: عهده جل وعز ما أخذه على النبيّين ومن آتبعهم ألا يكفروا بالنبيّ ﷺ. ودليل ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاق النَّبِيِّينَ﴾[٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ على ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي عهدي.

قلت: وظاهر ما قبلُ وما بعدُ يدلّ على أنها في الكفار. فهذه خمسة أقوال؛ والقول الثاني يجمعها.

---

(١) راجع ص ١٦٢ من هذا الجزء. (٢) راجع ٤/ ١٢٤.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الميثاق: العهد المؤكّد باليمين؛ مِفعال من الوثاقة والمعاهدة، وهي الشدّة في العقد والربط ونحوه. والجمع المواثيق على الأصل؛ لأن أصل مِيثاق مِوْثاق، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها ـ والمياثق والمياثيق أيضاً؛ وأنشد ٱبن الأعرابي:

حِمىً لا يُحَلّ الدهرَ إلا بإذننا ولا نسأل الأقوامَ عَهْدَ[1] المياثِقِ

والمَوْثق: المِيثاق. والمواثقة: المعاهدة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ﴾ القطع معروف، والمصدر ـ في الرَّحِم ـ القطيعة؛ يقال: قَطَع رَحِمه قَطِيعة فهو رجل قُطَعٌ وقُطَعَة؛ مثال هُمَزة. وقَطَعت الحبل قطعاً. وقَطَعت النهر قُطُوعاً. وقَطَعتِ الطيرُ قُطوعاً وقُطَاعاً وقِطَاعاً إذا خرجت من بلد إلى بلد. وأصاب الناسَ قُطْعَةٌ: إذا قَلّت مياههم. ورجل به قُطْعٌ: أي ٱنبهار[2].

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ «ما» في موضع نصب بـ «يَقْطَعُون». و «أَنْ» إن شئت كانت بدلاً من «ما» وإن شئت من الهاء في «به» وهو أحسن. ويجوز أن يكون لئلا يوصل؛ أي كراهة أن يوصل. وٱختلف ما الشيء الذي أَمَر بوصله؟ فقيل: صلة الأرحام. وقيل: أمر أن يوصل القول بالعمل؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا. وقيل: أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه؛ فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم. وقيل: الإشارة إلى دين الله وعبادته في الأرض، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده. فهي عامة في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل. هذا قول الجمهور؛ والرَّحِم جزء من هذا.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ أي يعبدون غير الله تعالى ويجورون في الأفعال، إذ هي بحسب شهواتهم؛ وهذا غاية الفساد.

---

(١) في اللسان وشرح القاموس مادة (وثق): «عقد الميثاق» والبيت لعياض بن درة الطائي.

(٢) البهر (بالضم): تتابع النَّفَس من الإعياء. وقيل ٱنقطاعه.

﴿أولَئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ ابتداء وخبر. و «هم» زائدة؛ ويجوز أن تكون «هم» ابتداء ثانٍ، «الخاسرون» خبره، والثاني وخبره خبر الأوّل كما تقدّم(١). والخاسر: الذي نقص نفسه حَظّها من الفلاح والفَوْز. والخُسْران: النقصان، كان في ميزان أو غيره؛ قال جَرير:

إن سَلِيطًا في الخَسَار إنّهْ أولادُ قَومٍ خُلِقوا أقِنّهْ(٢)

يعني بالخَسَار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم. قال الجوهري: وخَسَرت الشيء (بالفتح) وأخسرته نقصته. والخَسَار والخَسَارة والخَيْسَرَى: الضلال والهلاك. فقيل للهالك: خاسر؛ لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومُنع منزله من الجنة.

السابعة - في هذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهدٍ جائز ألزمه المرء نفسه فلا يحلّ له نقضه سواء أكان بين مسلم أم غيره؛ لذمّ الله تعالى مَن نقض عهده. وقد قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(٣) وقد قال لنبيّه عليه السلام: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ فنهاه عن الغَدْر، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد؛ على ما يأتي بيانه في موضعه(٤) إن شاء الله تعالى.

[٢٨] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

«كيف» سؤال عن الحال، وهي اسم في موضع نصب بـ «تَكْفُرُونَ»، وهي مبنيّة على الفتح وكان سبيلها أن تكون ساكنة؛ لأن فيها معنى الاستفهام الذي معناه التعجب فأشبهت الحروف، واختير لها الفتح لخفته؛ أي هؤلاء ممن يجب أن يتعجّب منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون هذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله؟ فالجواب ما سبق من أنهم لما لم يثبتوا أمر محمد عليه السلام ولم يصدّقوه فيما جاء به فقد

---

(١) راجع ص ١٨١ من هذا الجزء.
(٢) سليط. أبو قبيلة. والقن: الذي ملك هو وأبواه.
(٣) راجع ٦/ ٣٢. (٤) راجع ٨/ ٣١.

أشركوا؛ لأنهم لم يقرّوا بأن القرآن من عند الله. ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضاً للعهد. وقيل: «كيف» لفظه لفظ الاستفهام وليس به، بل هو تقرير وتوبيخ؛ أي كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هذه! قال الواسطيّ: وبَّخهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن المَوَات والجماد لا ينازع صانعه في شيء، وإنما المنازعة من الهياكل الروحانية.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً﴾ هذه الواو واو الحال، وقد مضمرة. قال الزجاج: التقدير وقد كنتم، ثم حذفت قد. وقال الفرّاء: «أمواتاً» خبر «كنتم».

﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ هذا وقف التمام؛ كذا قال أبو حاتم. ثم قال: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾. وآختلف أهل التأويل في ترتيب هاتين الموتتين والحياتين، وكم من مَوْتة وحياة للإنسان؟ فقال آبن عباس وآبن مسعود: أي كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تُخلقوا فأحياكم ـ أي خلقكم ـ ثم يميتكم عند آنقضاء آجالكم، ثم يحييكم يوم القيامة. قال آبن عطية: وهذا القول هو المراد بالآية، وهو الذي لا مَحِيد للكفار عنه لإقرارهم بهما؛ وإذا أذعنتْ نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين، ثم للإحياء في الدنيا، ثم للإماتة فيها قَوِي عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها. قال غيره: والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياة الدنيا. وقيل: لم يعتدّ بها كما لم يعتدّ بموت من أماته في الدنيا ثم أحياه في الدنيا. وقيل: كنتم أمواتاً في ظهر آدم، ثم أخرجكم من ظهره كالذرّ، ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم. وقيل: كنتم أمواتاً ـ أي نُطَفاً ـ في أصلاب الرجال وأرحام النساء، ثم نقلكم من الأرحام فأحياكم، ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم في القبر للمسألة، ثم يميتكم في القبر، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر؛ وهي الحياة التي ليس بعدها موت.

قلت: فعلى هذا التأويل هي ثلاث موتات، وثلاث إحياءات. وكونهم موتى في ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نُطَفاً في أصلاب الرجال وأرحام النساء؛ فعلى هذا تجيء أربع موتات وأربع إحياءات. وقد قيل: إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهباء ثم أماتهم؛ فيكون على هذا خمس موتات، وخمس إحياءات. وموتة سادسة

للعصاة من أمة محمد ﷺ إذا دخلوا النار، لحديث أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله ﷺ: «أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحْيون ولكن ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبهم ـ أو قال بخطاياهم ـ فأماتهم الله إماتةً حتى إذا كانوا فَحْماً أذِن في الشفاعة فجيء بهم ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فَيَنْبُتُون نباتَ الحِبّة تكون في حَمِيل السَّيْل». فقال رجل من القوم: كأنّ رسول الله ﷺ قد كان يرعى بالبادية[١]. أخرجه مسلم.

قلت: فقوله «فأماتهم الله» حقيقة في الموت؛ لأنه أكّده بالمصدر، وذلك تكريماً لهم. وقيل: يجوز أنْ يكون «أماتهم» عبارة عن تغييبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتاً على الحقيقة؛ والأوّل أصح. وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً، وإنما هو على الحقيقة؛ ومثله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾ على ما يأتي بيانه[٢] إن شاء الله تعالى. وقيل: المعنى وكنتم أمواتاً بالخمول فأحياكم بأن ذُكِرتم وشُرِّفتم بهذا الدِّين والنبيِّ الذي جاءكم، ثم يميتكم فيموت ذكْرُكم، ثم يحييكم للبعث.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إلى عذابه مرجعكم لكفركم. وقيل: إلى الحياة وإلى المسألة؛ كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[٣] فإعادتهم كابتدائهم؛ فهو رجوع. و «تُرْجَعُونَ» قراءة الجماعة. ويحيى بن يَعْمر وابن أبي إسحاق ومجاهد وابن مُحَيْصن وسلام بن يعقوب يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت.

[٢٩] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) الذي في صحيح مسلم: «...قد كان بالبادية». والضبائر: هم الجماعات في تفرقة، واحدتها ضبارة، مثل عمارة وعمائر، وكل مجتمع ضبارة. والحبة (بالكسر): بذور البقل. وقيل هو نبت صغير ينبت في الحشيش؛ فأما الحبة (بالفتح) فهي الحنطة والشعير ونحوهما. وحميل السيل: هو ما يجيء به السيل من الغُثاء.

(٢) راجع ٦/١٨. (٣) راجع ١١/٣٤٨.

قوله تعالى: ﴿هو ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ فيه عشر مسائل:

الأولى ـ ﴿خَلَقَ﴾ معناه ٱخترع وأوْجَد بعد العَدَم. وقد يقال في الإنسان: «خَلَق» عند إنشائه شيئاً؛ ومنه قول الشاعر:

مَـــن كـــان يَخْلُـــق مـــا يقـــو ل فحِيلَتِـــي فِيـــه قَلِيلَـــهْ

وقد تقدم[1] هذا المعنى. وقال ٱبن كَيْسان: «خَلَقَ لَكُمْ» أي من أجلكم. وقيل: المعنى أن جميع ما في الأرض مُنْعَم به عليكم فهو لكم. وقيل: إنه دليل على التوحيد والاعتبار.

قلت: وهذا هو الصحيح على ما نبيّنه. ويجوز أن يكون عَنَى به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء.

الثانية ـ ٱستدل من قال إن أصل الأشياء التي يُنتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها ـ كقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَواتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾[2] الآية ـ حتى يقوم الدليل على الحظر. وعَضَدُوا هذا بأن قالوا: إن المآكل الشهية خُلِقت مع إمكان ألا تُخلَق فلم تُخلق عبثاً؛ فلا بُدّ لها من منفعة. وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لاستغنائه بذاته، فهي راجعة إلينا. ومنفعتنا إمّا في نَيل لذّتها، أو في ٱجتنابها لنُختَبر بذلك، أو في ٱعتبارنا بها. ولا يحصل شيء من تلك الأمور إلا بذوقها، فلزم أن تكون مباحة. وهذا فاسد؛ لأنا لا نسلّم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة، بل خلقها كذلك لأنه لا يجب عليه أصل المنفعة، بل هو الموجب. ولا نسلّم حصر المنفعة فيما ذكروه، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالذوق، بل قد يُستدلّ على الطعوم بأمور أُخَر كما هو معروف عند الطبائعيين. ثم هو معارَض بما يخاف أن تكون سموماً مهلكة، ومعارضون بشبهات أصحاب الحظر. وتوقّف آخرون وقالوا: ما مِن فِعل لا ندرك منه حُسْناً ولا قُبْحاً إلا ويمكن أن يكون حَسَناً في نفسه؛ ولا مُعَيِّن قبل ورود الشرع، فتعيّن الوقف إلى ورود الشرع. وهذه الأقاويل الثلاثة للمعتزلة. وقد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحابُه وأكثرُ المالكية والصَّيرِفيُّ في هذه

(١) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء.
(٢) راجع ١٦٠/١٦.

المسألة القولَ بالوقف. ومعناه عندهم أن لا حكم فيها في تلك الحال، وأن للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوب ولا غيره، وإنما حَظُّه تَعَرُّف الأمور على ما هي عليه. قال ابن عطية: وحكى ابن فُورَك عن ابن الصائغ أنه قال: لم يَخْلُ العقل قطُّ من السمع، ولا نازلة إلا وفيها سَمْع، أَوْ لها تعلّق به، أو لها حالٌ تُستصحَب. قال: فينبغي أن يُعتمد على هذا، ويغني عن النظر في حظر وإباحة ووقف.

الثالثة - الصحيح في معنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ﴾ الاعتبار. يدلّ عليه ما قبله وما بعده من نصب العِبَر: الإحياء والإماتة والخلق والاستواء إلى السماء وتسويتها؛ أي الذي قَدَر على إحيائكم وخَلْقِكم وخلقِ السموات والأرض، لا تبعد منه القدرة على الإعادة.

فإن قيل: إن معنى «لكم» الانتفاع؛ أي لتنتفعوا بجميع ذلك؛ قلنا: المراد بالانتفاع الاعتبار لمَا ذكرنا. فإن قيل: وأي اعتبار في العقارب والحيّات؛ قلنا: قد يتذكّر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدّ الله للكفار في النار من العقوبات فيكون سبباً للإيمان وترك المعاصي؛ وذلك أعظم الاعتبار. قال ابن العربيّ: وليس في الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضي حظراً ولا إباحة ولا وقفاً؛ وإنما جاء ذكر هذه الآية في معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته.

وقال أرباب المعاني في قوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ لتتقَوَّوْا به على طاعته، لا لتصرفوه في وجوه معصيته. وقال أبو عثمان: وَهَبَ لك الكلَّ وسخّره لك لتستدلّ به على سَعة جُوده، وتَسْكُن إلى ما ضمن لك من جزيل عطائه في المعاد، ولا تستكثر كثير برّه على قليل عملك؛ فقد ابتدأك بعظيم النّعم قبل العمل وهو التوحيد.

الرابعة - روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فسأله أن يُعطِيَه؛ فقال رسول الله ﷺ: «ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ فإذا جاء شيء قضينا» فقال له عمر: هذا أعطيت إذا كان

عندك فما كلفك الله ما لا تقدر. فكره رسول الله ﷺ قول عمر؛ فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله،

أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا

فتبسم رسول الله ﷺ، وعُرف السرور في وجهه لقول الأنصاري. ثم قال رسول الله ﷺ: «بذلك أمرت». قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فخوف الإقلال من سوء الظن بالله، لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم؛ وقال في تنزيله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْه﴾. فهذه الأشياء كلها مسخّرة للآدميّ قَطْعاً لعذره وحجة عليه، ليكون له عبداً كما خلقه عبداً؛ فإذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1]. وقال: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[2]، وقال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «سبقَتْ رحمتي غضبي يابن آدم أَنْفق أُنْفِق عليك يمينُ الله ملأى[3] سَحًا لا يَغيضها شيءٌ الليلَ والنهارَ». وقال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللٰهُمَّ أَعْطِ مُنْفقاً خَلَفاً ويقول الآخر اللّٰهُمَّ أَعْطِ مُمْسكاً تَلَفاً». وكذا في المساء عند الغروب يناديان أيضاً؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله. فمن أستنار صدره، وعلم غنى ربّه وكرمه أنفق ولم يخف الإقلال وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا واجتزأ باليسير من القوت المقيم لمهجته، وأنقطعت مشيئته لنفسه؛ فهذا يعطي من يُسره وعسره ولا يخاف إقلالاً. وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة في الأشياء؛ فإذا أعطى اليوم وله غداً مشيئة في شيء خاف ألا يصيب غداً، فيضيّق عليه الأمر في نفقة اليوم لمخافة إقلاله. روى مسلم عن أسماء. بنت أبي بكر قالت قال لي رسول الله ﷺ: «أنْفَحِي أو أنْضَحِي[4] أو أنفقي ولا تُحْصِي فيُحْصِيَ الله عليكِ ولا تُوعِي[5] فيُوعَى عليكِ». وروى النسائي عن عائشة قالت: دخل عليّ

(١) راجع ١٤/٣٠٧.

(٢) راجع ١٣/٢٠٦. (٣) أي دائمة الصب والهطل بالعطاء.

(٤) قال النووي: «والنفح والنضح العطاء، ويطلق النضح أيضاً على الصب فلعله المراد هنا ويكون أبلغ من النفح».

(٥) الإيعاء: جعل الشيء في الوعاء؛ أي لا تجمعي وتشحّي بالنفقة فيشحّ عليك.

سائل مرّة وعندي رسول الله ﷺ، فأمرت له بشيء ثم دعوت به فنظرت إليه فقال رسول الله ﷺ: «أمَا تريدين ألا يدخل بيتك شيء ولا يخرج إلا بعلمك» قلت: نعم؛ قال: «مَهْلاً يا عائشة لا تُحْصي فيُحْصي الله عزّ وجلّ عليك».

الخامسة - قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى ﴾ « ثم » لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر في نفسه. والاستواء في اللغة: الارتفاع والعلوّ على الشيء؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾، وقال: ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهورِهِ ﴾، وقال الشاعر:

فأوردتهم ماء بفَيْفاء قَفْرة   وقد حلّق النجم اليماني فٱستوى

أي ارتفع وعلا، وٱستوت الشمس على رأسي وٱستوت الطير على قِمّة رأسي، بمعنى علا. وهذه الآية من المشكلات، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه، قال بعضهم: نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها؛ وذهب إليه كثير من الأئمة، وهذا كما روي عن مالك رحمه الله أن رجلاً سأله عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ ٱسْتَوَى﴾[1] قال مالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأراك رجل سَوْء! أخرجوه. وقال بعضهم: نقرؤها ونفسّرها على ما يحتمله ظاهر اللغة. وهذا قول المشبّهة. وقال بعضهم: نقرؤها ونتأوّلها ونُحيل حَمْلها على ظاهرها. وقال الفرّاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾ قال: الاستواء في كلام العرب على وجهين، أحدهما: أن يَسْتَوِيَ الرجل وينتهي شبابه وقوّته، أو يستوي عن ٱعوجاج. فهذان وجهان. ووجه ثالث أن تقول: كان[2] فلان مقبلاً على فلان ثم ٱستوى عليّ وإليّ يشاتمني. على معنى أقبل إليّ وعليّ. فهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ والله أعلم. قال وقد قال ٱبن عباس: ثم ٱستوى إلى السماء صعِد. وهذا كقولك: كان قاعداً فٱستوى قائماً، وكان قائماً فاستوى قاعداً؛ وكل ذلك في كلام العرب جائز. وقال البيهقي أبو بكر أحمد بن عليّ بن الحسين: قوله:

---

(١) راجع ١١/١٦٩.

(٢) عبارة الأصول: «. . . كان مقبلاً عليّ يشاتمني وإليّ سواء، على معنى. . . إلخ» وبها لا يستقيم المعنى. والتصويب عن اللسان وشرح القاموس وتفسير الطبريّ.

«ٱستوى» بمعنى أقبل صحيح، لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء؛ والقصد هو الإرادة، وذلك جائز في صفات الله تعالى. ولفظة «ثم» تتعلق بالخلق لا بالإرادة. وأما ما حكي عن ابن عباس فإنما أخذه عن تفسير الكلبيّ، والكلبيّ ضعيف. وقال سفيان بن عُيينة وٱبن كَيسان في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ﴾: قصد إليها، أي بخلقه وٱختراعه؛ فهذا قول. وقيل: على دون تكييف ولا تحديد؛ وٱختاره الطبري. ويُذكر عن أبي العالية الرياحيّ في هذه الآية أنه يقال: ٱستوى بمعنى أنه ٱرتفع. قال البيهقي: ومراده من ذلك ـ والله أعلم ـ ٱرتفاع أمره، وهو بخار الماء الذي وقع منه خلق السماء. وقيل: إن المستوى الدخان. وقال ٱبن عطية: وهذا يأباه وصف الكلام. وقيل: المعنى ٱستولى؛ كما قال الشاعر[١]:

قد ٱستَوَى بِشْرٌ على العِراق مِن غيرِ سَيفٍ وَدمٍ مُهْراق

قال ٱبن عطية: وهذا إنما يجيء في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

قلت: قد تقدّم في قول الفرّاء عليّ وإليّ بمعنىً. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في سورة «الأعراف»[٢] إن شاء الله تعالى. والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة.

السادسة ـ يظهر من هذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء؛ وكذلك في «حم السجدة[٣]». وقال في النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَاهَا﴾[٤] فوصف خلقها؛ ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾. فكأن السماء على هذا خلقت قبل الأرض؛ وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[٥] وهذا قول قتادة: إن السماء خلقت أوّلاً؛ حكاه عنه الطبريّ. وقال مجاهد وغيره من المفسرين: إنه تعالى أيبس الماء الذي كان عرشه عليه، فجعله أرضاً وثار منه دخان فٱرتفع؛ فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثم قصد أمره إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات، ثم دحا[٦] الأرض بعد ذلك، وكانت إذ خلقها غير مَدْحُوة.

---

(١) هو الأخطل كما في «شرح القاموس».
(٢) راجع ٧/٢١٩.
(٣) راجع ١٥/٣٤٣.
(٤) راجع ١٩/٢٠١.
(٥) راجع ٦/٣٨٤.
(٦) دحا الشيء: بسطه.

قلت: وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى، وهو أن الله تعالى خلق أوّلاً دخان السماء ثم خلق الأرض، ثم ٱستوى إلى السماء وهي دخان فسوّاها، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

ومما[١] يدل على أن الدخان خلق أوّلاً قبل الأرض ما رواه السُّدِّي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ٱبن عباس، وعن مُرّة الهَمْدانيّ عن ٱبن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله عزّ وجلّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء؛ فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فٱرتفع فوق الماء، فسمَا عليه، فسمّاه سماء؛ ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين، في الأحد والاثنين. فجعل الأرض على حُوت ـ والحُوت هو النُّون الذي ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن بقوله: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ ﴾[٢] ـ والحوت في الماء و [الماء[٣]] على صَفاة[٤]، والصفاة على ظهر ملَك، والملَك على الصخرة، والصخرة في الريح ـ وهي الصخرة التي ذكر لقمان: ليست في السماء ولا في الأرض ـ فتحرك الحوت فٱضطرب؛ فتزلزلت الأرض؛ فأرسل عليها الجبال فقرّت؛ فالجبال تفخر على الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾[٥] وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها، وما ينبغي لها في يومين، في الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّام سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾[٦] يقول: من سأل فهكذا الأمر، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ وكان ذلك الدخان مِن تنفّس الماء حين تنفّس، فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين، في الخميس والجمعة؛ وإنما سُمّي يوم الجمعة لأنه جمع

---

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله خرج عما سنّه في مقدّمته لهذا الكتاب من إضرابه عن هذا القصص وأمثاله مما ملئت به كتب التفسير الأخرى والذي لا يتمشى مع روح الدين الإسلامي؛ فجلَّ من له العصمة. (٢) راجع ١٨/ ٢٢٣. (٣) تكملة عن تفسير الطبري وتاريخه.

(٤) الصفاة: العريض من الحجارة الأملس. (٥) راجع ١٠/ ٩٠. (٦) راجع ١٥/ ٣٤٢.

فيه خلق السموات والأرض، ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ قال: خلق في كل سماء خَلْقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلم؛ ثم زَيّن السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زِينة وحِفْظاً تحفظ من الشياطين. فلما فرغ من خلق ما أحب ٱستوى على العرش؛ قال فذلك حين يقول: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ويقول: ﴿كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[١] وذكر القصة في خلق آدم عليه السلام؛ على ما يأتي بيانه في هذه السورة إن شاء الله تعالى. وروى وَكِيع عن الأعمش عن أبي ظَبْيان عن ٱبن عباس قال: إن أوّل ما خلق الله عز وجل من شيء «القلم» فقال له ٱكتب. فقال: يا ربّ وما أكتب؟ قال: ٱكتب القَدَر. فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة. قال: ثم خلق النُّونَ فدحا الأرض عليها، فٱرتفع بخار الماء ففتق منه السموات؛ وٱضطرب النُّونُ فمادت الأرض فأُثبتت بالجبال؛ فإن الجبال تَفْخَر على الأرض إلى يوم القيامة. ففي هذه الرواية خلق الأرض قبل ٱرتفاع بخار الماء الذي هو الدخان؛ خلاف الرواية الأولى . والرواية الأولى عنه وعن غيره أَوْلَى؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[٢] والله أعلم بما فعل؛ فقد ٱختلفت فيه الأقاويل، وليس للاجتهاد فيه مدخل.

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار أن إبليس تغلغل إلى الحُوت الذي على ظهره الأرض كلها، فألقى في قلبه، فقال: هل تدري ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال! لو نفضتَهم ألقيتَهم عن ظهرك أجمع. قال: فهمّ لوثيا بفعل ذلك؛ فبعث الله دابة فدخلت في منخره؛ فعجّ إلى الله منها فخرجت. قال كعب: والذي نفسي بيده، إنه لينظر إليها بين يديه وتنظر إليه إن همّ بشيء من ذلك عادت حيث كانت.

السابعة ـ أصل خلق الأشياء كلّها من الماء لما رواه ٱبن ماجه في سننه، وأبو حاتم البُسْتِيّ في صحيح مسنده عن أبي هريرة قال قلت: يا رسول الله، إذا رأيتك طابت نفسي وقرّت عيني، أنبئني عن كل شيء. قال: «كل شيء خُلق من الماء» فقلت: أخبرني عن

(١) راجع ١١/٢٨٢.
(٢) راجع ١٩/٢٠٢

شيء إذا عملتُ به دخلتُ الجنة. قال: «أطعِم الطعام وأفشِ السّلام وصِلِ الأرحام وقُمِ الليل والناسُ نيام تدخل الجنة بسلام». قال أبو حاتم قولُ أبي هريرة: «أنبئني عن كل شيء» أراد به عن كل شيء خُلق من الماء. والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السلام إياه حيث قال: «كل شيء خلق من الماء» وإن لم يكن مخلوقاً. وروى سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس أنه كان يحدّث أن رسول الله ﷺ قال: «إن أوّل شيء خلقه الله القَلم وأمره فكتب كلّ شيء يكون» ويروى ذلك أيضاً عن عُبادة بن الصّامت مرفوعاً. قال البيهقي: وإنما أراد ـ والله أعلم ـ أوّل شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش «القلم». وذلك بيّن في حديث عِمران بن حُصين؛ ثم خلق السموات والأرض. وذكر عبد الرزاق بن عمر بن حبيب المكي عن حُميد بن قيس الأعرج عن طاوس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله: مِمّ خُلق الخلق؟ قال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب. قال الرجل: فمِمّ خُلق هؤلاء؟ قال: لا أدري. قال: ثم أتى الرجل عبدَ الله بن الزبير فسأله؛ فقال مثل قول عبد الله بن عمرو. قال: فأتى الرجلُ عبدَ الله بن عباس فسأله؛ فقال: مِمّ خُلق الخلق؟ قال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب. قال الرجل: فمِمّ خُلق هؤلاء؟ فتلا عبد الله بن عباس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْه﴾[1] فقال الرجل: ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبيّ ﷺ. قال البيهقي: أراد أن مصدر الجميع منه؛ أي من خلقه وإبداعه وٱختراعه. خلق الماء أوّلاً، أو الماء وما شاء من خلقه، لا عن أصل ولا على مثال سبق، ثم جعله أصلاً لما خلق بعدُ؛ فهو المبدع وهو البارىء لا إله غيره ولا خالق سواه، سبحانه جلّ وعزّ.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ ذكر تعالى أن السموات سبع. ولم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنّ﴾[2] وقد ٱختلف فيه؛ فقيل: ومن الأرض مثلهن أي في العدد؛ لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار؛ فتعيّن العدد. وقيل: ﴿ومن الأرض مثلهنّ﴾ أي في غلظهن

(١) راجع ١٦/ ١٦٠.

(٢) راجع ١٨/ ١٧٤.

وما بينهنّ، وقيل: هي سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض؛ قاله الدّاوُدِيّ. والصحيح الأوّل؛ وأنها سبع كالسموات سبع. روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذ شبراً من الأرض ظُلْماً طُوِّقه إلى سبع أرضين». وعن عائشة رضي الله عنها مثله، إلا أن فيه «من» بدل «إلى». ومن حديث أبي هريرة: «لا يأخذ أحدٌ شبراً من الأرض بغير حقّه إلا طَوّقه الله إلى سبع أرضين [يوم القيامة[1]]». وروى النّسائي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام يا ربّ علّمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به قال يا موسى قل لا إله إلا الله قال موسى يا ربّ كل عبادك يقول هذا قال قل لا إله إلا الله قال لا إله إلا أنت إنما أريد شيئاً تخصّني به قال يا موسى لو أنّ السموات السّبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كِفّة ولا إله إلا الله في كِفّة مالت بهنّ لا إله إلا الله». وروى الترمذيّ عن أبي هريرة قال: بينما نبيّ الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب؛ فقال نبيّ الله ﷺ: «هل تدرون ما هذا» فقالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «هذا العَنان هذه روايا الأرض يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدْعونه ـ قال ـ هل تدرون ما فوقكم» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «فإنها الرَّقيع[2] سقفٌ محفوظ ومَوْج مكفوف ـ ثم قال ـ هل تدرون كم بينكم وبينها» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «بينكم وبينها [مسيرة[3]] خمسمائة عام ـ ثم قال: ـ هل تدرون ما فوق ذلك» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «[فإن فوق[3] ذلك] سماءين بُعْدُ ما بينهما [مسيرة[3]] خمسمائة سنة» ثم قال كذلك حتى عدّ سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض. ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال «فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بُعْدُ ما بين السماءين ـ ثم قال: ـ هل تدرون ما الذي تحتكم» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «فإنها الأرض ـ ثم قال: ـ هل تدرون ما تحت ذلك» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «فإن تحتها الأرض الأخرى

---

(١) الزيادة من «صحيح مسلم».

(٢) الرقيع: اسم سماء الدنيا.

(٣) زيادة عن «صحيح الترمذي».

بينهما مسيرة خمسمائة سنة» حتى عدّ سبع أرضين، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة ؛ ثم قال: «والذي نفس محمد بيده لو أنكم دُليتم بحبل إلى الأرض السُّفلى لهبط على الله ـ ثم قرأ ـ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. قال أبو عيسى: قراءة رسول الله ﷺ الآية تدل عل أنه أراد: لهبط على عِلْم الله وقدرته وسلطانه، [علم الله وقدرته وسلطانه[1]] في كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفسه في كتابه. قال: هذا حديث غريب، والحسن لم يسمع من أبي هريرة. والآثار بأن الأرضين سبع كثيرة؛ وفيما ذكرنا كفاية. وقد روى أبو الضُّحَى ـ وٱسمه مسلم ـ عن ٱبن عباس أنه قال: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قال: سبع أرضين في كل أرض نبيّ كنبيّكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. قال البيهقي: إسناد هذا عن ٱبن عباس صحيح، وهو شاذّ بمرّة لا أعلم لأبي الضُّحَا عليه دليلا[2]؛ والله أعلم.

التاسعة ـ قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ٱبتداء وخبر. « ما » في موضع نصب. « جَمِيعاً » عند سيبويه نصب على الحال. « ثُمَّ ٱسْتَوَى » أهل نَجْد يُميلون ليدلّوا على أنه من ذوات الياء، وأهل الحجاز يفخّمون. « سَبْعَ » منصوب على البدل من الهاء والنون؛ أي فسوّى سبع سموات. ويجوز أن يكون مفعولاً على تقدير يسوّي بينهنّ سبع سموات؛ كما قال الله جل وعز: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ أي من قومه؛ قاله النحاس. وقال الأخفش: ٱنتصب على الحال. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٱبتداء وخبر. والأصل في «هو» تحريك الهاء، والإسكان ٱستخفاف.

والسماء تكون واحدة مؤنّثة؛ مثل عَنان، وتذكيرها شاذّ؛ وتكون جمعاً لسماوة في قول الأخفش، وسماءة في قول الزجاج، وجمع الجمع سماوات وسماءات. فجاء «سوّاهنّ» إما على أن السماء جمع وإمّا على أنها مفرد ٱسم جنس. ومعنى سوّاهنّ سوّى سطوحهنّ بالإملاس. وقيل: جعلهنّ سواء.

---

(١) زيادة عن «صحيح الترمذي».

(٢) في نسخة من الأصل: «متابعاً».

العاشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي بما خلق، وهو خالق كل شيء؛ فوجب أن يكون عالماً بكل شيء؛ وقد قال: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[1] فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلي واحد قائم بذاته؛ ووافقنا المعتزلة على العالمية دون العلمية. وقالت الجَهْمِيّة: عالم بعلم قائم لا في محل، تعالى الله عن قول أهل الزَّيْغ والضلالات؛ والردّ على هؤلاء في كتب الديانات. وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾[2]، وقال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾، وقال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾، وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾، وقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾[3] الآية. وسندلّ على ثبوت علمه وسائر صفاته في هذه السورة عند قوله: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[4] إن شاء الله تعالى. وقرأ الكسائي وقالُون عن نافع بإسكان الهاء مِن: هو وهي، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو ثُمّ؛ وكذلك فعل أبو عمرو إلا مع ثُمّ. وزاد أبو عَوْن عن الحُلْواني عن قالُون إسكان الهاء من «أَنْ يُمِلَّ هُوَ»، والباقون بالتحريك.

[٣٠] ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فيه سبع عشرة مسألة:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ﴾ إذ وإذا حرفا توقيت؛ فإذ للماضي، وإذا للمستقبل؛ وقد توضع إحداهما موضع الأخرى. وقال المُبَرّد: إذا جاء «إذ» مع مستقبل كان معناه ماضياً؛ نحو قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ معناه إذْ مكروا، وإذ قلت. وإذا جاء «إذا» مع الماضي كان معناه مستقبلاً؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ﴾ ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ و ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾

(١) راجع ١٨/٢١٤. (٢) راجع ٦/١٩. (٣) راجع ٧/١.
(٤) راجع ٢/٣٠١.

أي يجيء. وقال مَعْمَر بن المُثَنَّى أبو عبيدة: «إذ» زائدة؛ والتقدير: وقال ربك؛ وٱستشهد بقول الأَسْوَد بن يَعْفُر:

فـإذ[١] وذلـك لا مَهـاةَ لـذِكـرِه ... والـدهـر يُعْقِـب صـالحـاً بفسـادِ

وأنكر هذا القول الزجاجُ والنحاس وجميع المفسرين. قال النحاس: وهذا خطأ؛ لأن «إذ» ٱسم وهي ظرف زمان ليس مما تزاد. وقال الزجاج: هذا ٱجترام من أبي عبيدة؛ ذكر الله عز وجل خلق الناس وغيرهم؛ فالتقدير وٱبتدأ خلقكم إذ قال؛ فكان هذا من المحذوف الذي دل عليه الكلام؛ كما قال:

فـإن المنيّـة مَـن يخشهـا ... فسـوف تصـادفـه أينمـا

يريد أينما ذهب. ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدّر تقديره وٱذكر إذ قال. وقيل: هو مردود إلى قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فالمعنى الذي خلقكم إذ قال ربك للملائكة. وقول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرّر قديم في الأزل بشرط وجودهم وفهمهم. وهكذا الباب كله في أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته. وهذا مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، وهو الذي ٱرتضاه أبو المعالي. وقد أتينا عليه في كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى.

والرب: المالك والسيّد والمصلح والجابر؛ وقد تقدّم[٢] بيانه.

الثانية - قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الملائكة واحدها مَلَك. قال ٱبن كَيْسان وغيره: وزن مَلَك فَعَل من الملك. وقال أبو عبيدة؛ هو مفعول من لأَكَ إذا أرسل. والأَلُوكة والمَأْلُكة والمَأْلَكة: الرسالة؛ قال لَبِيد:

وغـلام أرسلَتْـهُ أمُّـه ... بـألُـوكٍ فبـذلْنـا مـا سـأَلْ

وقال آخر[٣]:

أبلِـغِ النُّعمـانَ عنّـي مَـألُكـاً ... إنني قد طال حبسي وٱنتظارِي

---

(١) يلاحظ أن رواية البيت: «فإذا» ولا يستقيم الوزن إلا به.
(٢) راجع المسألة الثامنة وما بعدها ص ١٣٦ من هذا الجزء.
(٣) هو عدي بن زيد؛ كما في «اللسان مادّة» (ألك). ويروى «إنه» بدل: «إنني».

ويقال: أَلِكْنِي أي أرسلني؛ فأصله على هذا مَأْلَك، الهمزة فاء الفعل فإنهم قلبوها إلى عينه فقالوا: مَلأَك، ثم سهّلوه فقالوا مَلَك. وقيل أصله مَلأَك من مَلَك يملِك، نحو شمأل من شَمَل؛ فالهمزة زائدة عن ٱبن كَيْسان أيضاً؛ وقد تأتي في الشعر على الأصل؛ قال الشاعر:

فلستَ لإنسِيٍّ ولكن لمَلأَكٍ تَنزّلَ من جَوّ السماء يَصوبُ

وقال النّضر بن شُمَيل. لا ٱشتقاق للملك عند العرب. والهاء في الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع؛ ومثله الصَّلادمة. والصَّلادم: الخيل الشّداد، واحدها صِلْدِم. وقيل: هي للمبالغة، كعلاّمة ونسّابة. وقال أرباب المعاني: خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتقديس، ثم ردّهم إلى قيمتهم؛ فقال عز وجل: ﴿ٱسْجُدُوا لآدَمَ﴾.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ « جاعل » هنا بمعنى خالق؛ ذكره الطبري عن أبي رَوْق، ويقضي بذلك تعدّيها إلى مفعول واحد، وقد تقدّم. والأرض قيل إنها مكة. روى ٱبن سابط عن النبيّ ﷺ قال: « دُحِيَت الأرض من مكة » ولذلك سُمِّيت أمّ القرى، قال: وقبر نوح وهود وصالح وشعيب بين زمزم والرّكن والمقام. و « خليفة » يكون بمعنى فاعل؛ أي يخلف من كان قبله من الملائكة في الأرض، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما رُوِيَ. ويجوز أن يكون « خليفة » بمعنى مفعول أي مخلف؛ كما يقال: ذبيحة بمعنى مفعولة. والخَلَف (بالتحريك) من الصالحين، وبتسكينها من الطالحين؛ هذا هو المعروف، وسيأتي له مزيد بيان في «الأعراف[٢]» إن شاء الله. و «خليفة» بالفاء قراءة الجماعة؛ إلا ما رُوِيَ عن زيد بن عليّ فإنه قرأ «خليقة» بالقاف. والمعنيّ بالخليفة هنا ـ في قول ٱبن مسعود وٱبن عباس وجميع أهل التأويل ـ آدم عليه السلام، وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره؛ لأنه أوّل رسول إلى الأرض؛ كما في حديث أبي ذَرّ، قال قلت: يا رسول الله أنبيًّا كان مرسَلاً؟ قال: «نعم» الحديث. ويقال: لمن كان رسولاً ولم يكن

(١) راجع ٧/ ٣١٠.

في الأرض أحد؟ فيقال: كان رسولاً إلى ولده، وكانوا أربعين ولداً في عشرين بطناً في كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا؛ كما قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ونِساءً﴾(١). وأنزل عليهم تحريم الميتةِ والدّمِ ولحمِ الخنزير. وعاش تسعمائة وثلاثين سنة؛ هكذا ذكر أهل التوراة. ورُوي عن وهب بن مُنَبِّه أنه عاش ألف سنة، والله أعلم.

الرابعة ـ هذه الآية أصلٌ في نَصْب إمامٍ وخليفة يُسْمَع له ويطاع؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة. ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما رُوي عن الأصَمّ(٢) حيث كان عن الشريعة أصَمّ، وكذلك كل من قال بقوله وٱتبعه على رأيه ومذهبه، قال: إنها غير واجبة في الدين بل يسوغ ذلك، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفَيء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على مَن وجبت عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماماً يتولّى ذلك. ودليلُنا قولُ الله تعالى: ﴿إِنّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وقوله تعالى: ﴿يا دَاودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾، وقال: ﴿وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآي.

وأجمعت الصحابة على تقديم الصدّيق بعد ٱختلافٍ وقع بين المهاجرين والأنصار في سَقِيفة بني ساعدة في التعيين، حتى قال الأنصار: منا أمير ومنكم أمير؛ فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك، وقالوا لهم: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحيّ من قريش، ورووا لهم الخبر في ذلك، فرجعوا وأطاعوا لقريش. فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا في قريش ولا في غيرهم لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها، ولقال قائل: إنها ليست بواجبة لا في قريش ولا في غيرهم، فما لتنازعكم وجه ولا فائدة في أمر ليس بواجب. ثم إن الصدّيق رضي الله عنه لما حضرته الوفاة عهد إلى عمر في الإمامة، ولم يقل له أحد هذا أمر غير

(١) راجع ٢/٤.

(٢) الأصم: من كبار المعتزلة وٱسمه أبو بكر.

واجب علينا ولا عليك؛ فدلّ على وجوبها وأنها ركن من أركان الدِّين الذي به قوام المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

وقالت الرافضة: يجب نصبه عقلاً، وإن السمع إنما ورد على جهة التأكيد لقضية العقل؛ فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرَك من جهة السمع دون العقل. وهذا فاسد؛ لأن العقل لا يوجب ولا يحظر ولا يُقبِّح ولا يُحسِّن؛ وإذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل، وهذا واضح.

فإن قيل وهي:

الخامسة ـ إذا سُلِّم أن طريق وجوب الإمامة السمع، فخبّرونا هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول ﷺ، أم من جهة ٱختيار أهل الحَلّ والعَقد له، أم بكمال خصال الأئمة فيه، ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كاف فيه؟.

فالجواب أن يقال: ٱختلف الناس في هذا الباب، فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذي يُعرف به الإمام هو النص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للاختيار فيه. وعندنا: النظر طريق إلى معرفة الإمام، وإجماع أهل الاجتهاد طريق أيضاً إليه؛ وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النص بَنَوْه على أصلهم أن القياس والرأي والاجتهاد باطل لا يُعرف به شيء أصلاً، وأبطلوا القياس أصلاً وفرعاً. ثم ٱختلفوا على ثلاث فرق: فرقة تدّعي النص على أبي بكر، وفرقة تدّعي النص على العباس، وفرقة تدّعي النص على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم. والدليل على فقد النص وعدمه على إمام بعينه هو أنه ﷺ لو فرض على الأمة طاعةَ إمام بعينه بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك؛ لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله في غير معيّن، ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف؛ وإذا وجب العلم به لم يَخْل ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلّة العقول أو الخبر، وليس في العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معيّن، وكذلك ليس في الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معيّن؛ لأن ذلك الخبر إما أن يكون تواتراً أوجب العلم ضرورةً أو ٱستدلالاً، أو يكون من أخبار الآحاد، ولا يجوز أن يكون

طريقه التواتر الموجب للعلم ضرورةً أو دلالة، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلّف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذلك المعيَّن وأن ذلك من دين الله عليه، كما أن كل مكلّف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات، وصوم رمضان، وحج البيت ونحوها؛ ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة، فبطلت هذه الدعوى، وبطل أن يكون معلوماً بأخبار الآحاد لاستحالة وقوع العلم به. وأيضاً فإنه لو وجب المصير إلى نقل النص على الإمام بأيّ وجه كان، وجب إثبات إمامة أبي بكر والعباس؛ لأن لكل واحد منهما قوماً ينقلون النّص صريحاً في إمامته؛ وإذا بطل إثبات الثلاثة بالنص في وقت واحد ـ على ما يأتي بيانه ـ كذلك الواحد، إذ ليس أحد الفِرق أوْلى بالنص من الآخر. وإذا بطل ثبوت النّص لعدم الطريق الموصل إليه ثبت الاختيار والاجتهاد. فإن تعسّف متعسِّف وادّعى التواتر والعلم الضروري بالنّص فينبغي أن يقابَلوا على الفَور بنقيض دعواهم في النّص على أبي بكر وبأخبار في ذلك كثيرة تقوم أيضاً في جملتها مقام النص؛ ثم لا شك في تصميم مَن عدا الإماميّة على نفي النّص؛ وهم الخلق الكثير والجمّ الغفير. والعلم الضروري لا يجتمع على نفيه من ينحطّ عن معشار أعداد مخالفي الإمامية؛ ولو جاز ردّ الضروري في ذلك لجاز أن ينكر طائفة بغداد والصين الأقصى وغيرهما.

السادسة ـ في ردّ الأحاديث التي ٱحتجّ بها الإمامية في النّص على عليّ رضي الله عنه، وأن الأمة كفَرت بهذا النّص وٱرتدّت، وخالفت أمر الرسول عناداً؛ منها قوله عليه السلام: «مَن كُنتُ مولاه فعليّ مولاه اللّهُمَّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه». قالوا: والمَوْلى في اللغة بمعنى أوْلَى؛ فلما قال: «فعليّ مولاه» بفاء التعقيب عُلم أن المراد بقوله «مولى» أنه أحق وأوْلى. فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنه مفترض الطاعة؛ وقوله عليه السلام لعليّ: «أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي». قالوا: ومنزلة هارون معروفة، وهو أنه كان مشاركاً له في النبوّة ولم يكن ذلك لعليّ، وكان أخاً له ولم يكن ذلك لعلي، وكان خليفة؛ فعُلِم أن المراد به الخلافة، إلى غير ذلك مما ٱحتجوا به على ما يأتي ذكره في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

والجواب عن الحديث الأوّل: أنه ليس بمتواتر؛ وقد ٱختلِف في صحته، وقد طعن فيه أبو داود السّجستاني وأبو حاتم الرازيّ، وٱستدلا على بطلانه بأن النبيّ ﷺ قال: «مُزَيْنَةُ وجُهَيْنَةُ وغِفَارُ وأَسْلَمُ مواليّ دون الناس كلهم ليس لهم مَوْلًى دون الله ورسوله». قالوا: فلو كان قد قال: «مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه» لكان أحد الخبرين كذباً.

جوان ثانٍ ـ وهو أن الخبر وإن كان صحيحاً رواه ثِقةٌ عن ثِقَة فليس فيه ما يدل على إمامته، وإنما يدل على فضيلته، وذلك أن المولى بمعنى الوليّ، فيكون معنى الخبر: مَن كنت وَلِيّه فعليّ وَلِيّه؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ أي وَلِيّه. وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر عليّ كباطنه، وذلك فضيلة عظيمة لعليّ.

جواب ثالث ـ وهو أن هذا الخبر ورَد على سبب، وذلك أن أسامة وعليّا ٱختصما، فقال عليّ لأسامة: أنت مولاي. فقال: لستُ مولاك، بل أنا مَوْلَى رسولِ الله ﷺ؛ فذكر للنبيّ ﷺ، فقال: «مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه».

جواب رابع ـ وهو أن عليًا عليه السلام لما قال للنبيّ ﷺ في قصة الإفْك في عائشة رضي الله عنها: النساء سواها كثير. شقّ ذلك عليها، فوجد أهل النفاق مجالاً فطعنوا عليه وأظهروا البراءة منه؛ فقال النبيّ ﷺ هذا المقال ردّاً لقولهم، وتكذيباً لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والطعن فيه؛ ولهذا ما روي عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلا ببغضهم لعليّ عليه السلام. وأما الحديث الثاني فلا خلاف أن النبيّ ﷺ لم يُرِد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام ـ على ما يأتي من بيان وفاتيهما في سورة «المائدة[1]» ـ وما كان خليفةً بعده وإنما كان الخليفة يوشع بن نون؛ فلو أراد بقوله: «أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى» الخلافة لقال: أنت مني بمنزلة يوشع من موسى، فلما لم يقل هذا دلّ على أنه لم يُرد هذا، وإنما أراد أني ٱستخلفتك على أهلي في حياتي وغيبوبتي عن أهلي، كما كان هارون خليفةَ موسى على قومه لمّا خرج إلى مناجاة

---

(١) راجع ١٣١/٦.

ربّه. وقد قيل: إن هذا الحديث خرج على سبب، وهو أن النبيّ ﷺ لما خرج إلى غَزْوة تَبُوك ٱستخلف عليًّا عليه السلام في المدينة على أهله وقومه؛ فأرجف به أهل النفاق وقالوا: إنما خلفه بُغْضاً وقِلًى له، فخرج عليّ فلحق بالنبيّ ﷺ وقال له: إن المنافقين قالوا كذا وكذا! فقال: «كذبوا بل خلفتك كما خلف موسى هارون». وقال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى». وإذا ثبت أنه أراد الاستخلاف على زعمهم فقد شارك عليًّا في هذه الفضيلة غيره؛ لأن النبيّ ﷺ ٱستخلف في كل غَزاةٍ غزاها رجلاً من أصحابه، منهم: ٱبن أمّ مَكْتُوم، ومحمد بن مَسْلَمة وغيرهما من أصحابه، على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبي وَقّاص وهو خبرُ واحدٍ. وروي في مقابلته لأبي بكر وعمر ما هو أولى منه. ورُوي أن النبيّ ﷺ لما أنفذ معاذ بن جبل إلى اليمن قيل له: ألا تنفذ أبا بكر وعمر؟ فقال: «إنهما لا غنى بي عنهما إن منزلتهما مني بمنزلة السمع والبصر من الرأس». وقال: «هما وزيراي في أهل الأرض». ورُوي عنه عليه السلام أنه قال: «أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى». وهذا الخبر ورد ٱبتداء، وخبر عليّ ورد على سبب، فوجب أن يكون أبو بكر أوْلى منه بالإمامة، والله أعلم.

السابعة ـ وٱختلف فيما يكون به الإمام إماماً وذلك ثلاث طرق، أحدها: النص، وقد تقدم الخلاف فيه، وقال به أيضاً الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصري وبكر ٱبن أخت عبد الواحد وأصحابه وطائفة من الخوارج. وذلك أن النبي ﷺ نصّ على أبي بكر بالإشارة؛ وأبو بكر على عمر. فإذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصدّيق، أو على جماعة كما فعل عمر، وهو الطريق الثاني؛ ويكون التخيير إليهم في تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضي الله عنهم [في تعيين[1] عثمان بن عفان رضي الله عنه]. الطريق الثالث: إجماع أهل الحَلّ والعَقْد؛ وذلك أن الجماعة في مصرٍ من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمام ولا ٱستخلف فأقام أهل ذلك المصر الذي هو حضرة الإمام وموضعه إماماً لأنفسهم ٱجتمعوا عليه ورَضُوه فإن كل مَن خلفَهم وأمامَهم من المسلمين في الآفاق يلزمهم الدخول في طاعة ذلك الإمام؛ إذا لم يكن الإمام معلناً بالفسق والفساد؛ لأنها دعوة

(١) الزيادة في «تفسير العلامي» نقلاً عن القرطبي.

محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحداً التخلف عنها لما في إقامة إمامين من أختلاف الكلمة وفساد ذات البَيْن؛ قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يغِل[١] عليهنّ قلبُ مؤمنٍ إخلاصُ العمل لله ولزومُ الجماعة ومناصحةُ ولاةِ الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة».

الثامنة ـ فإنْ عَقَدها واحد من أهل الحَلّ والعَقْد فذلك ثابت ويلزم الغير فعله، خلافاً لبعض الناس حيث قال: لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحلّ والعقد؛ ودليلنا أن عمر رضي الله عنه عقد البَيعة لأبي بكر ولم يُنكر أحد من الصحابة ذلك؛ ولأنه عَقْد فوجب ألا يفتقر إلى عدد يعقدونه كسائر العقود. قال الإمام أبو المعالي: من أنعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت، ولا يجوز خلعه من غير حَدَث وتغيّر أمر؛ قال: وهذا مُجْمعٌ عليه.

التاسعة ـ فإن تغلب مَن له أهليّة الإمامة وأخذها بالقهر والغَلَبة فقد قيل إن ذلك يكون طريقاً رابعاً؛ وقد سُئل سهل بن عبد الله التُّسْتَرِي: ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام؟ قال: تجيبه وتؤدّي إليه ما يطالبك من حقه، ولا تنكر فعاله ولا تفرّ منه، وإذا ائتمنك على سِرّ من أمر الدِّين لم تُفْشه. وقال أبنُ خَوَيْزِ مَنْداد: ولو وثب على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبايع له الناس تمّت له البَيْعة، والله أعلم.

العاشرة ـ وأختلف في الشهادة على عقد الإمامة؛ فقال بعض أصحابنا: إنه لا يفتقر إلى الشهود؛ لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع، وليس هاهنا سمع قاطع يدل على إثبات الشهادة. ومنهم من قال: يفتقر إلى شهود؛ فمن قال بهذا أحتج بأن قال: لو لم تعقد فيه الشهادة أدّى إلى أن يدّعي كل مدّع[٢] أنه عُقد له سرّاً، ويؤدّي إلى الهَرْج والفتنة، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة ويكفي فيها شاهدان، خلافاً للجُبّائي حيث قال بأعتبار أربعة شهود وعاقد ومعقود له؛ لأن عمر حيث جعلها شُورَى[٣] في ستة دلّ على ذلك. ودليلنا أنه لا خلاف بيننا

---

(١) روي «لا يغل» بضم الياء وكسر الغين؛ أي لا يكون معها في قلبه غش ودغل ونفاق. وروي «لا يغل» بفتح الياء؛ أي لا يدخله حقد يزيله عن الحق. (٢) في «تفسير العلامي»: «مبتدع».

(٣) الستة: هم الذين نصح عمر ـ رضي الله عنه ـ للمسلمين أن يختاروا واحداً منهم لولاية الأمر بعده حين طلب إليه أن يعهد عهداً. وهم: عليّ وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله. راجع قصة الشورى في «تاريخ ابن الأثير» (٣/ ٥٠) طبع أوروبا.

وبينه أن شهادة الاثنين معتبرة، وما زاد مختلَف فيه ولم يدل عليه الدليل فيجب ألا يعتبر.

الحادية عشرة ـ في شرائط الإمام؛ وهي أحد عشر:

الأوّل ـ أن يكون من صميم قريش؛ لقوله ﷺ: «الأئمة من قريش». وقد ٱختلف في هذا.

الثاني ـ أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين مجتهداً لا يحتاج إلى غيره في الاستفتاء في الحوادث؛ وهذا مُتّفَق عليه.

الثالث ـ أن يكون ذا خبرة ورأي حصِيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسدّ الثُّغُور وحماية البَيضة[1] ورَدْع الأمة والانتقام من الظالم والأخذ للمظلوم.

الرابع ـ أن يكون ممن لا تلحقه رِقّة في إقامة الحدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار. والدليل على هذا كله إجماع الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بدّ من أن يكون ذلك كله مجتمعاً فيه؛ ولأنه هو الذي يولي القضاة والحكام، وله أن يباشر الفصل والحكم، ويتفحّص أمور خلفائه وقضاته؛ ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالماً بذلك كله قيّماً به. والله أعلم.

الخامس ـ أن يكون حُرّاً؛ ولا خفاء باشتراط حرية الإمام وإسلامه وهو السادس.

السابع ـ أن يكون ذكراً، سليم الأعضاء وهو الثامن. وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماماً وإن ٱختلفوا في جواز كونها قاضية فيما تجوز شهادتها فيه.

التاسع والعاشر ـ أن يكون بالغاً عاقلاً؛ ولا خلاف في ذلك.

الحادي عشر ـ أن يكون عدلاً؛ لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تعقد الإمامة لفاسق؛ ويجب أن يكون من أفضلهم في العلم؛ لقوله عليه السلام: «أئمتكم شفعاؤكم فانظروا

(١) بيضة الإسلام: جماعتهم.

بمن تستشفعون». وفي التنزيل في وصف طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ[1]﴾ فبدأ بالعلم ثم ذكر ما يدلّ على القوّة وسلامة الأعضاء. وقوله: «ٱصطفاه» معناه ٱختاره؛ وهذا يدل على شرط النسب. وليس من شرطه أن يكون معصوماً من الزلل والخطأ، ولا عالماً بالغيب، ولا أفرس الأمة ولا أشجعهم، ولا أن يكون من بني هاشم فقط دون غيرهم من قريش؛ فإن الإجماع قد ٱنعقد على إمامة أبي بكر وعمر وعثمان وليسوا من بني هاشم.

الثانية عشرة ـ يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة؛ وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدوّ وحماية البيضة وسدّ الخلل وٱستخراج الحقوق وإقامة الحدود وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها. فإذا خِيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التي لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذراً ظاهراً في العدول عن الفاضل إلى المفضول؛ ويدل على ذلك أيضاً علم عمر وسائر الأمة وقت الشُّورَى بأن الستة فيهم فاضل ومفضول، وقد أجاز العقد لكل واحد منهم إذا أدّى المصلحة إلى ذلك وٱجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم؛ والله أعلم.

الثالثة عشرة ـ الإمام إذا نُصِب ثم فَسَق بعد ٱنبرام العقد فقال الجمهور: إنه تنفسخ إمامته ويُخلع بالفسق الظاهر المعلوم؛ لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود وٱستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر في أمورهم إلى غير ذلك مما تقدّم ذكره؛ وما فيه من الفسق يُقعده عن القيام بهذه الأمور والنهوض بها. فلو جوّزنا أن يكون فاسقاً أدّى إلى إبطال ما أقيم لأجله، ألا ترى في الابتداء إنما لم يجز أن يُعقد للفاسق لأجل أنه يؤدّي إلى إبطال ما أقيم له، وكذلك هذا مثله. وقال آخرون: لا ينخلع إلا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك إلى دعائها أو شيء من الشريعة؛ لقوله عليه السلام في حديث عُبادة: «وألا نُنازع الأمر أهله [قال[2]] إلا أن تروْا كُفْراً بَواحاً عندكم من الله فيه برهان».

---

(١) راجع ٣/٢٤٦.

(٢) الزيادة عن «صحيح مسلم» (٦/١٧) طبع الآستانة. و «بواحا» أي جهارا؛ من باح بالشيء يبوح به إذا أعلنه.

وفي حديث عَوف بن مالك : « لا ما أقاموا فيكم الصلاة » الحديث . أخرجهما مسلم . وعن أم سَلَمة عن النبيّ ﷺ قال : « إنه يُستعمَل عليكم أمراءُ فتَعرفون وتُنكِرون فمن كَره فقد بَرِىء ومَن أنكر فقد سلِم ولكن مَن رَضِيَ وتابع ـ قالوا : يا رسول الله ألاَ نقاتلهم ؟ قال : ـ لا ما صَلَّوْا». أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه. أخرجه أيضاً مسلم.

الرابعة عشرة ـ ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد في نفسه نقصاً يؤثّر في الإمامة . فأما إذا لم يجد نقصاً فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره ؟ اختلف الناس فيه ؛ فمنهم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وإن فعل لم تنخلع إمامته . ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك . والدليل على أن الإمام إذا عزل نفسه انعزل. قول أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه : أقيلوني أقيلوني . وقول الصحابة : لا نقيلك ولا نستقيلك ، قدّمك رسول الله ﷺ لديننا فمن ذا يؤخرك! رضِيك رسول الله ﷺ لديننا فلا نرضاك! فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه ولقالت له: ليس لك أن تقول هذا، وليس لك أن تفعله. فلما أقرّته الصحابة على ذلك علم أن للإمام أن يفعل ذلك؛ ولأن الإمام ناظر للغيب[1] فيجب أن يكون حكمه حكم الحاكم ، والوكيل إذا عزل نفسه . فإن الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ، ولما اتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من ناب عن غيره في شيء له أن يعزل نفسه ، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله . والله أعلم.

الخامسة عشرة ـ إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحَلّ والعَقْد أو بواحد على ما تقدّم وجب على الناس كافّةً مبايعته على السمع والطاعة، وإقامة كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ. ومن تأبّى عن البَيعة لعُذْر عُذِر، ومن تأبّى لغير عذر جُبر وقُهر؛ لئلا تفترق كلمة المسلمين. وإذا بويع لخليفتين فالخليفة الأوّل وقُتل الآخر؛ واختلف في قتله هل هو محسوس أو معنىً فيكون عزله قتلَه ومَوْته. والأوّل أظهر؛ قال رسول الله ﷺ: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما». رواه أبو سعيد الخُدْرِي أخرجه مسلم.

---

(١) في «بعض الأصول»: «للغير» وهو الأحسن.

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ أنه سمعه يقول: «ومن بايع إماماً فأعطاه صفقةَ يدِه وثمرة قلبه فلْيُطِعه إن ٱستطاع فإن جاء آخر ينازعه فٱضربوا عنق الآخر». رواه مسلم أيضاً؛ ومن حديث عَرْفجة: «فٱضربوه بالسيف كائناً من كان». وهذا أدلّ دليل على منع إقامة إمامين؛ ولأن ذلك يؤدّي إلى النفاق والمخالفة والشقاق وحدوث الفتن وزوال النعم؛ لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

السادسة عشرة ـ لو خرج خارجيّ على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده؛ فإن كان الإمام فاسقاً والخارجيّ مظهر للعدل لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجيّ حتي يتبيّن أمره فيما يظهر من العدل، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأوّل، وذلك أن كل من طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى إذا تمكّن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر.

السابعة عشرة ـ فأما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعاً لما ذكرنا. قال الإمام أبو المعالي: ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين في طرفي العالَم؛ ثم قالوا: لو ٱتفق عقد الإمام لشخصين نُزِّل ذلك منزلة تزويجِ وَلِيَّيْن ٱمرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما بعقد الآخر. قال: والذي عندي فيه أن عقد الإمامة لشخصين في صُقع واحد متضايق الخِطط والمخاليف[1] غير جائزٍ وقد حصل الإجماع عليه. فأما إذا بَعُد المَدَى وتخلّل بين الإمامين شُسوع النّوَى فللاحتمال في ذلك مجال وهو خارج عن القواطع. وكان الأستاذ أبو إسحاق يجوّز ذلك في إقليمين متباعدين غاية التباعد لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم. وذهبت الكرّامية إلى جواز نَصْب إمامين من غير تفصيل؛ ويلزمهم إجازة ذلك في بلد واحد، وصاروا إلى أن عليّاً ومعاوية كانا إمامين. قالوا: وإذا كانا ٱثنين في بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما في يديه وأضبط لما يليه؛ ولأنه

(١) المخاليف: الأطراف والنواحي.

لما جاز بعثة نبيّين في عصر واحد ولم يؤدّ ذلك إلى إبطال النبوّة كانت الإمامة أوْلَى، ولا يؤدّي ذلك إلى إبطال الإمامة. والجواب أن ذلك جائز لولا منع الشرع منه؛ لقوله: «فاقتلوا الآخر منهما» ولأن الأُمّة عليه. وأما معاوية فلم يدّع الإمامة لنفسه وإنما ادّعى ولاية الشام بتولية مَن قبله من الأئمة. ومما يدلّ على هذا إجماع الأمة في عصرهما على أن الإمام أحدهما؛ ولا قال أحدهما إني إمام ومخالفي إمام. فإن قالوا: العقل لا يحيل ذلك وليس في السمع ما يمنع منه. قلنا: أقوى السمْعِ الإجماعُ، وقد وُجد على المنع.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعْلِمت ولا تَسبِق بالقول، وذلك عام في جميع الملائكة؛ لأن قوله: ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ خرج على جهة المدح لهم، فكيف قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾؟ فقيل: المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن في بني آدم من يفسد؛ إذ الخلفية المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمّموا الحكم على الجميع بالمعصية؛ فبيّن الربّ تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييباً لقلوبهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ وحقّق ذلك بأن علّم آدم الأسماء، وكشف لهم عن مكنون علمه. وقيل: إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء. وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال، فمن حينئذ دخلته العِزّة. فجاء قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ على جهة الاستفهام المحض: هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجن أم لا؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب. وقال ابن زيد وغيره: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذرّيته قوم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء؛ فقالوا لذلك هذه المقالة، إمّا على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه أو مِن عِصيان الله من يستخلفه في أرضه ويُنعم عليه بذلك، وإمّا على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعاً: الاستخلاف والعصيان. وقال قتادة: كان الله أعلمهم أنه إذا جعل في الأرض خلقاً أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أهو الذي أعلمهم أم غيره.

وهذا قول حَسَن، رواه عبد الرزاق قال: أخبرنا مَعْمَر عن قتادة في قوله ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قال: كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فلذلك قالوا: ﴿أتجعل فيها مَن يفسد فيها﴾. وفي الكلام حذف على مذهبه؛ والمعنى إني جاعل في الأرض خليفة يفعل كذا ويفعل كذا، فقالوا: أتجعل فيها الذي أعلمتناه أم غيره؟ والقول الأوّل أيضاً حسن جداً؛ لأن فيه ٱستخراج العلم وٱستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء؛ وما بين القولين حسن، فتأمّله. وقد قيل: إن سؤاله تعالى للملائكة بقوله: «كيف تركتم عبادي» ـ على ما ثبت في «صحيح مسلم» وغيره ـ إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال: أتجعل فيها، وإظهار لما سبق في معلومه إذ قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيها﴾ «مَن» في موضع نصب على المفعول بتجعل والمفعول الثاني يقوم مقامه «فيها». «يُفسد» على اللفظ، ويجوز في غير القرآن يفسدون على المعنى. وفي التنزيل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ على اللفظ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ﴾ على المعنى. «وَيَسْفِكُ» عطف عليه، ويجوز فيه الوجهان. وروى أسيد عن الأعرج أنه قرأ: «ويَسْفِكَ الدّماءَ» بالنصب، يجعله جواب الاستفهام بالواو، كما قال[1]:

ألم أكُ جارَكم وتكونَ بيني وبينكُـــم المـــودّةُ والإخـــاءُ

والسَّفْكُ: الصّب. سفكت الدم أَسْفِكه سَفْكاً: صببته، وكذلك الدمع؛ حكاه ٱبن فارس والجوهري. والسفّاك: السفاح، وهو القادر على الكلام. قال المهدويّ: ولا يستعمل السفك إلا في الدم، وقد يستعمل في نثر الكلام؛ يقال سفك الكلام إذا نثره. وواحد الدماء دَمٌ، محذوف اللام. وقيل: أصله دَمْيٌ. وقيل: دَمَيٌ، ولا يكون ٱسم على حرفين إلا وقد حُذف منه، والمحذوف منه ياء وقد نُطق به على الأصل؛ قال الشاعر:

فلــو أنّــا علــى حجــر ذُبِحنــا جَـرَى الـدّميـان بـالخبـر اليقيـن

(١) القائل هو الحطيئة.

قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أي ننزّهك عمّا لا يليق بصفاتك. والتسبيح في كلامهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم؛ ومنه قول أعْشَى بني ثَعْلبة:

أقول لمّا جاءني فَخْرُه سبحانَ من عَلْقَمَةَ الفاخرِ

أي براءة من عَلْقَمة. وروى طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله فقال: «هو تنزيه الله عزّ وجلّ عن كل سوء». وهو مشتق من السّبح وهو الجَرْي والذهاب؛ قال الله تعالى: ﴿إنّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً[1] طَوِيلاً﴾ فالمسبِّح جارٍ في تنزيه الله تعالى وتبرئته من السّوء. وقد تقدّم الكلام في «نحن[2]»، ولا يجوز إدغام النون في النون لئلا يلتقي ساكنان.

مسألة: وٱختلف أهل التأويل في تسبيح الملائكة، فقال ٱبن مسعود وٱبن عباس: تسبيحهم صلاتهم؛ ومنه قول الله تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾[3] أي المُصَلّين. وقيل: تسبيحهم رفع الصوت بالذكر، قاله المفضّل؛ وٱستشهد بقول جريرٍ:

قَبَحَ الإلٰهُ وجوهَ تَغْلِبَ كلّما سَبَحَ[4] الحجيج وكَبّرُوا إهلالاَ

وقال قتادة: تسبيحهم: سبحان الله؛ على عُرفه في اللغة، وهو الصحيح لما رواه أبو ذَرّ أن رسول الله ﷺ سئل: أيّ الكلام أفضل؟ قال: «ما ٱصطفى الله لملائكته [أو لعباده[5]] سبحان الله وبحمده». أخرجه مسلم. وعن عبد الرحمن بن قُرْط أن رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِيَ به سمع تسبيحاً في السموات العلا: سبحان العليّ الأعلى سبحانه وتعالى؛ ذكره البيهقي.

---

(١) راجع ١٩/ ٤١.
(٢) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء.
(٣) راجع ١٥/ ١٢٣.
(٤) في «ديوان جرير»: «شبح». وفسر الشبح بأنه رفع الأيدي بالدعاء. راجع «اللسان مادة» «شبح» و «ديوان جرير» المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١ أدب ش.
(٥) زيادة عن «صحيح مسلم» (٨/ ٨٦ طبع الآستانة).

قوله تعالى: ﴿بِحَمْدِكَ﴾ أي وبحمدك نخلِط التسبيح بالحمد ونصله به. والحمد: الثناء، وقد تقدّم[١]. ويحتمل أن يكون قولهم: «بحمدك» ٱعتراضاً بين الكلامين؛ كأنهم قالوا: ونحن نسبح ونقدّس، ثم ٱعترضوا على جهة التسليم؛ أي وأنت المحمود في الهداية إلى ذلك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي نعظّمك ونُمجّدك ونطهّر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون؛ قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما. وقال الضحاك وغيره: المعنى نطهّر أنفسنا لك ٱبتغاء مرضاتك. وقال قوم منهم قتادة: «نقدّس لك» معناه نصلّي. والتقديس: الصلاة. قال ٱبن عطية: وهذا ضعيف.

قلت: بل معناه صحيح؛ فإن الصلاة تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح، وكان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُّوح قُدّوس ربُّ الملائكة والرُّوح». روته عائشة أخرجه مسلم. وبناء «قدس» كيفما تصرّف فإن معناه التطهير؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾[٢] أي المطهّرة. وقال: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوس﴾[٣] يعني الطاهر؛ ومثله: ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[٤] وبيت المَقْدِس سُمِّيَ به لأنه المكان الذي يُتقدّس فيه من الذنوب أي يتطهّر؛ ومنه قيل للسَّطْل: قَدَس؛ لأنه يُتوضأ فيه ويُتطهّر؛ ومنه القادوس. وفي الحديث: «لا قُدّسَتْ أمّةٌ لا يؤخذ لضعيفها مِن قَوِيّها». يريد لا طهّرها الله؛ أخرجه ٱبن ماجه في سُنَنه. فالقُدْس: الطُّهْر من غير خلاف؛ وقال الشاعر[٥]:

فأدْرَكْنَه يأخُذْنَ بالسّاق والنَّسَا ... كما شَبْرَقَ الولدانُ ثَوْبَ المُقَدّس

أي المطهّر. فالصلاة طُهرةٌ للعبد من الذُّنوب، والمُصَلِّي يدخلها على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال، والله أعلم.

---

(١) راجع المسألة الرابعة ص ١٣٣ من هذا الجزء. (٢) راجع ٦/١٢٥.

(٣) راجع ١٨/٤٥. (٤) راجع ١١/١٧٥. (٥) هو امرؤ القيس. والهاء في «أدركنه» ضمير الثور، والنون ضمير الكلاب. والنسا: عرق في الفخذ. والشبرقة: تقطيع الثوب وغيره. والمقدّس (بكسر الدال وتشديدها): الراهب. وبالفتح: المبارك. يقول: أدركت الكلاب الثور يأخذن بساقه وفخذه، وشبرقت جلده كما شبرق ولدان النصارى ثوب الراهب المسبح لله عز وجل إذا نزل من صومعته فقطعوا ثيابه تبركاً به. عن «شرح الديوان واللسان».

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ «أعلم» فيه تأويلان؛ قيل: إنه فعل مستقبل. وقيل: إنه ٱسم بمعنى فاعل؛ كما يقال: الله أكبر، بمعنى كبير؛ وكما قال[1]:

لعَمْرُكَ ما أدري وإنّي لأَوْجَلُ ... على أيّنا تعدُو المنيّة أوّلُ

فعلى أنه فعل تكون «ما» في موضع نصب بأعلم، ويجوز إدغام الميم في الميم. وإن جعلته ٱسماً بمعنى عالم تكون «ما» في موضع خفض بالإضافة. قال ٱبن عطية: ولا يصح فيه الصرف بإجماع من النحاة، وإنما الخلاف في «أفعل» إذا سُمِّيَ به وكان نكرة، فسيبويه والخليل لا يَصْرِفانه، والأخفش يَصْرِفه. قال المهدَوِيّ: يجوز أن تقدّر التنوين في «أعلم» إذا قدّرته بمعنى عالم، وتنصب «ما» به؛ فيكون مثل حَواجٌ بيتَ الله. قال الجوهري: ونِسوةٌ حواجُّ بيتِ الله، بالإضافة إذا كنّ قد حَجَجْن، وإن لم يكنّ حججن قلت: حواجٌّ بيتَ الله، فتنصب البيت؛ لأنك تريد التنوين في حواجّ.

قوله تعالى: ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ٱختلف علماء التأويل في المراد بقوله تعالى: ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. فقال ٱبن عباس: كان إبليس ـ لعنه الله ـ قد أعجب ودخله الكبر لما جعله خازن السماء وشرفه، فٱعتقد أن ذلك لِمزيّة له؛ فٱستخف الكفر والمعصية في جانب آدم عليه السلام. وقالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك؛ فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. وقال قتادة: لما قالت الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ وقد علم الله أن فيمن يستخلف في الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

قلت: ويحتمل أن يكون المعنى إني أعلم ما لا تعلمون مما كان ومما يكون ومما هو كائن؛ فهو عام.

---

(١) القائل هو معن بن أوس. كان له صديق وكان معن متزوّجاً بأخته، فٱتفق أنه طلقها وتزوّج غيرها، فآلى صديقه ألا يكلمه أبداً؛ فأنشأ معن يستعطف قلبه عليه ويسترقه له. عن «أشعار الحماسة».

[٣١] ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ «عَلّم» معناه عَرّف. وتعليمه هنا إلهام علمه ضرورةً. ويحتمِل أن يكون بواسطة مَلَك وهو جبريل عليه السلام؛ على ما يأتي. وقرىء: «وعُلِّم» غير مسمَّى الفاعل. والأوّل أظهر؛ على ما يأتي. قال علماء الصوفية: عَلِمها بتعليم الحق إيّاه وحَفِظها بحفظه عليه ونسي ما عهد إليه؛ لأن وكَلَه فيه إلى نفسه فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾(١). وقال ابن عطاء: لو لم يُكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة في الإخبار عنها. وهذا واضح.

وآدم عليه السلام يُكْنَى أبا البشر. وقيل: أبا محمد؛ كني بمحمد خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم؛ قاله السُّهَيْلِيّ. وقيل: كُنيته في الجنة أبو محمد، وفي الأرض أبو البشر. وأصله بهمزتين؛ لأنه أفعل إلا أنهم ليّنُوا الثانية، فإذا ٱحتجت إلى تحريكها جعلتها واواً فقلت: أوادِم في الجمع؛ لأنه ليس لها أصل في الياء معروف، فجعلت الغالب عليها الواو؛ عن الأخفش.

وٱختلف في ٱشتقاقه؛ فقيل: هو مشتق من أَدَمة الأرض وأديمها وهو وجهها، فسمّي بما خلق منه؛ قاله ٱبن عباس. وقيل: إنه مشتق من الأُدْمَة وهي السُّمْرة. وٱختلفوا في الأُدْمَة، فزعم الضحاك أنها السُّمْرة؛ وزعم النَّضْر أنها البياض، وأن آدم عليه السلام كان أبيض؛ مأخوذ من قولهم: ناقة أدْماءُ، إذا كانت بيضاء. وعلى هذا الاشتقاق جمعه أُدْمٌ وأوادم؛ كحُمْر وأحامر، ولا ينصرف بوجه. وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون؛ ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه.

قلت: الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض. قال سعيد بن جُبير: إنما سُمّيَ آدم لأنه خلق من أدِيم الأرض، وإنما سُمِّيَ إنساناً لأنه نَسِي؛ ذكره ٱبن سعد في الطبقات. وروى

(١) راجع ١١/٢٥١.

السُّدى عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مُرّة الهَمْدانِيّ عن ابن مسعود في قصة خلق آدم عليه السلام قال: فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها؛ فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص[(١)] مني أو تَشِيْنني؛ فرجع ولم يأخذ وقال: يا ربّ إنها عاذت بك فأعذتها. فبعث مكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل؛ فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره. فأخذ من وجه الأرض وخلط، ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ـ ولذلك سمي آدم لأنه أخذ من أديم الأرض ـ فصعِد به، فقال الله تعالى له: «أمَا رَحِمت الأرض حين تضرّعت إليك» فقال: رأيت أمرك أوجب من قولها. فقال: « أنت تصلح لقبض أرواح ولده » فبلّ التراب حتى عاد طيناً لازباً ؛ اللاّزب : هو الذي يلتصق بعضه ببعض ، ثم تُرك حتى أنتن ؛ فذلك حيث يقول : ﴿ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ قال : مُنتِن . ثم قال للملائكة : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[(٢)] . فخلقه الله بيده لكيلا يتكبّر إبليس عنه . يقول : أتتكبّر عمّا خلقتُ بيدي ولم أتكبّر أنا عنه فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرّت به الملائكة ففزِعوا منه لما رأوه وكان أشدّهم منه فزعاً إبليس فكان يمرّ به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوّت الفَخّار تكون له صَلْصلة؛ فذلك حين يقول: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخّارِ﴾[(٣)]. ويقول لأمرٍ مّا خلقت!. ودخل من فمه وخرج من دبره؛ فقال إبليس للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سُلّطت عليه لأهلكنّه. ويقال: إنه كان إذا مرّ عليه مع الملائكة يقول: أرأيتم هذا الذي لم تروْا من الخلائق يشبهه إن فُضّل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون! قالوا: نطيع أمر ربّنا؛ فأسرّ إبليس في نفسه لئن فُضّل عليّ فلا أطيعه، ولئن فُضّلتُ عليه لأهلكنّه؛ فلما بلغ الحين الذي أريد أن ينفخ فيه الروح

---

(١) في «نسخة». «أن تقبض مني أو تسيئني». وفي «تاريخ الطبري» (ص ٨٧ قسم أوّل طبع أوروبا): «أن تنقص مني شيئاً وتشينني».

(٢) راجع ١٥/ ٢٢٧.

(٣) راجع ١٧/ ١٦٠.

قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له؛ فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عَطَس؛ فقالت له الملائكة: قل الحمد لله؛ فقال: الحمد لله؛ فقال الله له: رحمك ربك؛ فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل في جوفه ٱشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[(١)] ﴿فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[(٢)] وذكر القصة. وروى الترمذيّ عن أبي موسى الأشعَرِيّ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسَّهْل والحَزْن والخبيث والطّيب». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. أَدِيم: جمع أَدَم؛ قال الشاعر:

الناسُ أخيافٌ[(٣)] وشَتَّى في الشِّيَمْ وكلُّهـم يجمعهـم وَجـه الأَدَمْ

فآدم مشتق من الأديم والأَدَم لا من الأدْمة؛ والله أعلم. ويحتمل أن يكون منهما جميعاً. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في خلق آدم في «الأنعام[(٤)]» وغيرها إن شاء الله تعالى.

و «آدم» لا ينصرف. قال أبو جعفر النحاس: «آدم لا ينصرف في المعرفة بإجماع النحويين؛ لأنه على أفْعَل وهو معرفة، ولا يمتنع شيء من الصرف عند البصريين إلا لعلّتين. فإن نكّرته ولم يكن نعتاً لم يَصرفه الخليل وسيبويه، وصرفه الأخفش سعيد؛ لأنه كان نعتاً وهو على وزن الفعل، فإذا لم يكن نعتاً صَرَفه. قال أبو إسحاق الزجاج: القول قول سيبويه، ولا يفرّق بين النعت وغيره لأنه هو ذاك بعينه».

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ «الأسماء» هنا بمعنى العبارات، فإن الاسم قد يطلق ويراد به المسمَّى؛ كقولك: زيد قائم، والأسد شجاع. وقد يراد به التسمية ذاتها؛ كقولك: أسد ثلاثة أحرف؛ ففي الأوّل يقال: الاسم هو المسمَّى بمعنى يراد به المسمى، وفي الثاني لا يراد به المسمَّى؛ وقد يجري ٱسم في اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من

---

(١) راجع ١١/٢٨٨.
(٢) راجع ١٠/٢٥.
(٣) الأخياف: المختلفون في الأخلاق والأشكال.
(٤) راجع ٦/٣٨٧ و ٧/١٦٨.

استعمالها؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ على أشهر التأويلات؛ ومنه قول النبيّ ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعين أسماً». ويجرِي مجرى الذات، يقال: ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ وٱسمٌ بمعنًى؛ وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾[1] ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾.

الثالثة ـ وٱختلف أهل التأويل في معنى الأسماء التي علّمها لآدم عليه السلام؛ فقال ٱبن عباس وعِكرمة وقتادة ومجاهد وٱبن جُبير: علّمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها. وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن عليّ قال: كنت جالساً عند ٱبن عباس فذكروا ٱسم الآنيَة وٱسم السَّوْط؛ قال ٱبن عباس: «وعلّم آدم الأسماء كلها».

قلت: وقد روي هذا المعنى مرفوعاً على ما يأتي؛ وهو الذي يقتضيه لفظ «كلها» إذ هو ٱسم موضوع للإحاطة والعموم؛ وفي البخاريّ من حديث أنس عن النبيّ ﷺ قال: «ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو ٱستشفعنا إلى ربّنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلّمك أسماء كلِّ شيء» الحديث. قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد: في هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفاً، وأن الله تعالى علّمها آدم عليه السلام جملةً وتفصيلا. وكذلك قال ٱبن عباس: علّمه أسماء كل شيء حتى الجَفْنة والمِحْلَب. وروى شَيْبان عن قتادة قال: علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة، وسمَّى كل شيء بٱسمه وأنْحَى[2] منفعة كل شيء إلى جنسه. قال النحاس: وهذا أحسن ما روي في هذا. والمعنى علّمه أسماء الأجناس وعرّفه منافعها، هذا كذا، وهو يصلح لكذا. وقال الطبريّ: علّمه أسماء الملائكة وذرّيته؛ وٱختار هذا ورجّحه بقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ﴾. وقال ٱبن زيد: علّمه أسماء ذرّيته كلهم. الربيع بن خُثيم[3]: أسماء الملائكة خاصة. القُتَبيّ: أسماء ما خلق في الأرض. وقيل: أسماء الأجناس والأنواع.

قلت: القول الأوّل أصح، لما ذكرناه آنفاً ولِمَا نبيّنه إن شاء الله تعالى.

---

(١) راجع ٢٠/ ١٣.

(٢) أنحى: صرف. وفي «الطبري»: «ألجأ».

(٣) في «التقريب» بضم المعجمة وفتح المثلثة. وفي «الخلاصة» «خيثم» بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة.

الرابعة ـ وٱختلف المتأوّلون أيضاً هل عرض على الملائكة أسماء الأشخاص أو الأسماء دون الأشخاص؛ فقال ٱبن مسعود وغيره: عرض الأشخاص لقوله تعالى: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾. وتقول العرب: عَرَضْتُ الشيء فأَعْرَض؛ أي أظهرته فظهر. ومنه: عَرَضْتُ الشيء للبيع. وفي الحديث «إنه عَرَضهم أمثال الذَّرّ». وقال ٱبن عباس وغيره: عرض الأسماء. وفي حرف ٱبن مسعود: «عرضهنّ»؛ فأعاد على الأسماء دون الأشخاص؛ لأن الهاء والنون أخصّ بالمؤنث. وفي حرف أُبَيّ: «عرضها». مجاهد: أصحاب الأسماء. فمن قال في الأسماء إنها التسميات فٱستقام على قراءة أُبَيّ «عرضها». وتقول في قراءة من قرأ «عرضهم»: إن لفظ الأسماء يدلّ على أشخاص؛ فلذلك ساغ أن يقال للأسماء: «عرضهم». وقال في «هؤلاء» المراد بالإشارة: إلى أشخاص الأسماء، لكن وإن كانت غائبة فقد حضر ما هو منها بسبب وذلك أسماؤها. قال ٱبن عطية: والذي يظهر أن الله تعالى علّم آدم الأسماء وعرضهنّ عليه مع تلك الأجناس بأشخاصها، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التي قد تعلمها، ثم إن آدم قال لهم: هذا ٱسمه كذا، وهذا ٱسمه كذا. وقال الماوَرْدِيّ: وكان الأصح توجّه العرض إلى المسمّين. ثم في زمن عرضهم قولان: أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم. الثاني ـ أنه صوّرهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم.

الخامسة ـ وٱختلف في أوّل من تكلم باللسان العربيّ؛ فُروِيَ عن كَعب الأحبار: أن أوّل مَن وضع الكتاب العربيّ والسُّرْيانيّ والكتبَ كلّها وتكلّم بالألسنة كلّها آدم عليه السلام. وقاله غير كعب الأحبار.

فإن قيل: قد روي عن كعب الأحبار من وجه حَسَن قال: أوّل مَن تكلّم بالعربية جبريل عليه السلام وهو الذي ألقاها على لسان نوح عليه السلام وألقاها نوح على لسان ٱبنه سام؛ ورواه ثَور بن زيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب. ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «أوّل مَن فتق لسانه بالعربية المبيّنة إسماعيل وهو ٱبن عشر سنين». وقد رُوي أيضاً: أن أوّل مَن تكلّم بالعربية يَعْرُب بن قَحْطان، وقد روي غير ذلك. قلنا: الصحيح أن

أوّل مَن تكلّم باللغات كلّها من البشر آدمُ عليه السلام، والقرآن يشهد له؛ قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ واللّغات كلّها أسماء فهي داخلة تحته وبهذا جاءت السنة؛ قال ﷺ: «وعلّم آدم الأسماء كلّها حتى القَصْعة والقُصَيعة» وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أوّل من تكلم بالعربيّة من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ عليه السلام. وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولاً على أن المذكور أوّل من تكلّم من قبيلته بالعربية بدليل ما ذكرنا، والله أعلم. وكذلك جبريل أوّل من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعد أن علّمها الله آدم أو جبريل؛ على ما تقدّم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ لفظ مبنيّ على الكسر. ولغة تَمِيم وبعضِ قيس وأَسَد فيه القصر؛ قال الأعشى:

هَـؤلاَ ثـمّ هَـؤُلاَ كـلاًّ أعطيـ ـتَ نِعـالاً مَحْـذُوّةً بمثـالِ

ومن العرب من يقول: هولاء؛ فيحذف الألف والهمزة[1].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرطٌ، والجواب محذوفٌ تقديره: إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الأرض فأنبئوني؛ قاله المبرّد. ومعنى «صادقين» عالمين؛ ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد وقالوا: «سبحانك»! حكاه النقاش قال: ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق في الإنباء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذي أماته الله مائة عام حين قال له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ فلم يشترط عليه الإصابة، فقال ولم يُصب ولم يُعنَّف؛ وهذا بيّن لا خفاء فيه. وحكى الطبري وأبو عبيد: أن بعض المفسرين قال إن معنى «إن كنتم»: إذ كنتم، وقالا: هذا خطأ. و ﴿أَنبِئُونِي﴾ معناه أخبروني. والنبأ: الخبر؛ ومنه النبيء بالهمز، وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى[2].

السابعة ـ قال بعض العلماء: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق لأنه علم أنهم لا يعلمون. وقال المحققون من أهل التأويل: ليس هذا على جهة التكليف وإنما

---

(١) في البحر لأبي حيان «بحذف ألف ها وهمزة أولاء وإقرار الواو التي بعد تلك الهمزة».

(٢) في قوله تعالى: ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق...﴾ راجع ص ٤٣١ من هذا الجزء.

هو على جهة التقرير والتوقيف. وسيأتي القول في تكليف ما لا يطاق ـ هل وقع التكليف به أم لا ـ في آخر السورة[١]، إن شاء الله تعالى.

[٣٢] ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي تنزيهاً لك عن أن يعلم الغيب أحدٌ سواك. وهذا جوابهم عن قوله: ﴿أَنْبِئُونِي﴾ فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطوْا ما لا علم لهم به كما يفعله الجهال منا. و «ما» في «ما علّمتنا» بمعنى الذي؛ أي إلا الذي علّمتنا؛ ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إلا تعليمك إيانا.

الثانية ـ الواجب على مَن سُئل عن علم أن يقول إن لم يعلم: الله أعلم ولا أدري، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء، لكن قد أخبر الصادق أنّ بموت العلماء يقبض العلم؛ فيبقى ناس جُهّال يُستفتَوْن فيُفتون برأيهم فَيضِلّون ويُضلّون. وأما ما ورد من الأخبار عن النبيّ ﷺ وأصحابه والتابعين بعدهم في معنى الآية فروَى البُسْتِيّ[٢] في المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيّ البقاع شرّ؟ قال: «لا أدري حتى أسأل جبريل» فسأل جبريل؛ فقال: لا أدري حتى أسأل ميكائيل؛ فجاء فقال: خير البقاع المساجد، وشرّها الأسواق. وقال الصّديق للجَدّة: أرجعي حتى أسأل الناس. وكان عليّ يقول: وابردها على الكبد؛ ثلاث مرات. قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: أن يُسأل الرجلُ عما لا يعلم فيقول: الله أعلم. وسأل ابنَ عمر رجلٌ عن مسألة فقال: لا علم لي بها؛ فلما أدبر الرجل. قال ابن عمر: نِعمُ ما قال ابن عمر، سُئل عما لا يعلم فقال لا علم لي به!ذكره الدّارِميّ في مسنده. وفي «صحيح مسلم» عن أبي عَقيل

---

(١) راجع ٣/٤٢٨.

(٢) في نسخة «النسائي».

يحيى بن المتوكل صاحب بُهَيَّة[١] قال: كنت جالساً عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد، فقال يحيى للقاسم: يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيمٌ أن يُسأل عن شيء من أمر هذا الدّين فلا يوجد عندك منه عِلْمٌ ولا فَرَج، أو عِلْمٌ ولا مَخْرَج؟ فقال له القاسم: وعَمّ ذاك؟ قال: لأنك ٱبن إمَامَيْ هُدًى: ٱبنُ أبي بكر وعمر[٢]. قال يقول له القاسم: أقْبَحُ من ذاك عند مَن عَقل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة. فسكت فما أجابه. وقال مالك بن أنس: سمعت ٱبن هُرْمُز يقول: ينبغي للعالم أن يُوَرّث جلساءه من بعده لا أدري حتى يكون أصلاً في أيديهم؛ فإذا سُئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري. وذكر الهَيْثَم بن جميل قال: شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في ٱثنتين وثلاثين منها: لا أدري.

قلت: ومثلُه كثيرٌ عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسةُ وعدم الإنصاف في العلم. قال ٱبن عبد البَرّ: مِن بركة العلم وآدابه الإنصافُ فيه، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهّم. روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت ٱبن وَهْب يقول سمعت مالك بن أنس يقول: ما في زماننا شيء أقلّ من الإنصاف.

قلت: هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عمّ فينا الفساد وكثر فيه الطَّغام! وطُلب فيه العلم للرياسة لا للدّراية، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمِراء والجدال الذي يُقْسِي القلب ويُورث الضِّغن؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى. أين هذا مما رُوي عن عمر رضي الله عنه وقد قال: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أُوقِيَّة ولو كانت بنت ذي العَصَبة ـ يعني يزيد بن الحُصين الحارثي ـ فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال؛ فقامت ٱمرأة من صَوْب النساء طويلةٌ فيها فَطَس[٣] فقالت: ما ذلك لك!

(١) بهية (بالتصغير): مولاة أبي بكر رضي الله عنه، تروي عن عائشة. وروى عنها أبو عقيل المذكور.

(٢) القاسم هذا، هو ٱبن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. وأم القاسم هي أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ فأبو بكر جدّه الأعلى لأمه، وعمر جدّه الأعلى لأبيه، وٱبن عمر جدّه الحقيقي لأبيه. رضي الله عنهم أجمعين. عن «شرح النووي على صحيح مسلم».

(٣) الفطس (بالتحريك): ٱنخفاض قصبة الأنف وتطامنها وانتشارها.

قال: ولم؟ قالت لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾ فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ! وروى وَكيع عن أبي معشر عن محمد بن كعب القُرَظِي قال: سأل رجل عليّاً رضي الله عنه عن مسألة فقال فيها؛ فقال الرجل: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا؛ فقال عليّ: أصبتَ وأخطأتُ، وفوق كل ذي عِلْمٍ عليم. وذكر أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ قال: لمّا رحلتُ إلى المشرق نزلت القَيْرَوان فأخذت على بكر بن حماد حديثَ مُسَدّد، ثم رحلتُ إلى بَغداد ولقيت الناس، فلما انصرفتُ عدتُ إليه لتمام حديث مسدّد، فقرأت عليه فيه يوماً حديث النبيّ ﷺ: «أنه قدم عليه قوم من مُضَرَ مِن مُجْتابِي[1] النِّمَار» فقال: إنما هو مُجْتابي الثّمار؛ فقلت إنما هو مُجتابي النمار؛ هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق؛ فقال لي: بدخولك العراق تُعارضنا وتفخَر علينا! أو نحو هذا. ثم قال لي: قم بنا إلى ذلك الشيخ ـ لشيخ كان في المسجد ـ فإن له بمثل هذا عِلماً؛ فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال: إنما هو مُجْتابي النّمار، كما قلت. وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشقّقة[2]، جيوبُهم أمامَهم. والنّمار جمع نَمِرة[3]. فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه: رَغِم أنْفِي للحق، رَغِم أنفي للحق. وانصرف. وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأحسن:

إذا مـا تحـدّثـتُ فـي مجلـسٍ تَنَاهَى حديثي إلى ما عَلمتُ
ولـم أَعْـدُ علمـي إلـى غيـره وكـان إذا مـا تنـاهَـى سَكَـتُّ

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ «سبحان» منصوب على المصدر عند الخليل وسيبويه، يؤدّي عن معنى نُسَبِّحك تسبيحاً. وقال الكسائي: هو منصوب على أنه نداء مضاف. و﴿ الْعَلِيمُ ﴾ فعيل للمبالغة والتكثير في المعلومات في خلق الله تعالى. و﴿الْحَكِيمُ﴾ معناه الحاكم؛ وبينهما مزيد المبالغة. وقيل معناه المُحكم ويجيء الحكيم على هذا من صفات الفعل، صُرف عن مُفْعِل إلى فَعِيل، كما صُرف عن مُسْمِع إلى سَميع ومُؤلِم إلى أليم؛ قاله ابن

---

(١) مشقفة مخططة.

(٢) مجتابي النمار؛ أي لابسها. يقال: أجتبت القميص والظلام دخلت فيهما.

(٣) وهي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب؛ كأنما أخذت من لون النمر.

الأنباري. وقال قوم: «الحكيم» المانع من الفساد؛ ومنه سُمِّيت حَكَمَةُ اللِّجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجري والذهاب في غير قصد. قال جرير:

أَبَنِي حَنِيفةَ أَحْكِموا سُفهاءَكم ... إنّـي أخـافُ عليكـمُ أن أَغْضَبَـا

أي آمنعوهم من الفساد. وقال زهير:

القائد الخيلَ مَنكوباً دوابُرها[1] ... قد أَحْكِمَتْ حَكَماتِ القِدّ والأَبَق

القدّ: الجلد. والأَبَق: القِنَّب[2]. والعرب تقول: أَحْكم اليتيم عن كذا وكذا؛ يريدون منعه. والسورة المُحْكَمة: الممنوعة من التغيير وكل التبديل، وأن يُلحق بها ما يخرج عنها، ويزاد عليها ما ليس منها؛ والحِكمة من هذا؛ لأنها تمنع صاحبها من الجهل. ويقال: أَحْكَم الشيء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد. فهو مُحْكم وحكيم على التكثير.

[٣٣] ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أمره الله أن يُعلِمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيهاً على فضله وعلوّ شأنه؛ فكان أفضل منهم بأن قدّمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلّموا منه. فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن جعله مسجوداً له، مختصّاً بالعلم.

الثانية - في هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله؛ وفي الحديث: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها رِضاً لطالب العلم» أي تخضع وتتواضع؛ وإنما تفعل ذلك لأهل[3] العلم خاصّة

---

(١) النَّكْب: أن ينكُب الحجر ظفراً أو حافراً. والدوابر. أواخر الحوافر. يقول: يقود الخيل في الغزو ويبعد بها حتى تنكب دوابرها؛ أي تأكلها الأرض وتؤثر فيها.

(٢) القنب (بكسر القاف وضمها): ضرب من الكتان.

(٣) في نسخة من الأصل: «لأجل».

من بين سائر عيال[١] الله؛ لأن الله تعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام فتأدّبت بذلك الأدب. فكلما ظهر لها عِلْم في بشر خضعت له وتواضعت وتذلّلت إعظاماً للعلم وأهله، ورضىً منهم[٢] بالطلب له والشغل به. هذا في الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربّانيين منهم! جعلنا الله منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم.

الثالثة ـ ٱختلف العلماء من هذا الباب، أيّما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين: فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل. ٱحتجّ من فضّل الملائكة بأنهم ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾. ﴿لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وقوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[٣] وقوله: ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾[٤]. وفي البخاريّ: «يقول الله عز وجل: مَن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم». وهذا نص. ٱحتجّ من فضل بني آدم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ﴾[٥] بالهمز، من برأ الله الخلق. وقوله عليه السلام: «وإنّ الملائكة لَتَضَع أجنحتها رِضىً لطالب العلم» الحديث. أخرجه أبو داود، وبما جاء في أحاديثَ مِن أن الله تعالى يُباهِي بأهل عَرفات الملائكة، ولا يُباهي إلا بالأفضل، والله أعلم. وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله أو إجماع الأمة؛ وليس هاهنا شيء من ذلك، خلافاً للقدرية والقاضي أبي بكر رحمه الله حيث قالوا: الملائكة أفضل. قال: وأما من قال من أصحابنا والشيعة: إن الأنبياء أفضل لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فيقال لهم: المسجود له لا يكون أفضل من الساجد، ألا ترى أن الكعبة مسجود لها والأنبياء والخلق يسجدون نحوها، ثم إن الأنبياء خير من الكعبة بٱتفاق الأمة. ولا خلاف أن السجود

(١) في نسخ من الأصل: «عمال الله».
(٢) في نسخة: «ورضي الله عنهم... الخ».
(٣) راجع ٦/٢٦.
(٤) راجع ٦/٤٢٩. (٥) راجع ٢٠/١٤٥.

لا يكون إلا لله تعالى؛ لأن السجود عبادة؛ والعبادةُ لا تكون إلا لله، فإذا كان كذلك فكون السجود إلى جهة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد العابد؛ وهذا واضح. وسيأتي له مزيد بيان في الآية بعد هذا.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دليل على أن أحداً لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه من أعلمه الله تعالى؛ فالمنجمون والكُهّان وغيرهم كذبة. وسيأتي بيان هذا في «الأنعام[1]» إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي من قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ حكاه مَكِّي والماوَرْدِيّ. وقال الزَّهراويّ: ما أبدوه هو بِدارُهم بالسجود لآدم. ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جُبير: المراد ما كتمه إبليس في نفسه من الكبر والمعصية. قال ابن عطية: وجاء «تكتمون» للجماعة؛ والكاتم واحد في هذا القول على تجوّز العرب واتساعها؛ كما يقال لقوم قد جَنَى سَفيهٌ منهم: أنتم فعلتم كذا. أي منكم فاعله، وهذا مع قصد تعنيف؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2] وإنما ناداه منهم عُيَيْنَة، وقيل الأَقْرَع. وقالت طائفة: الإبداء والمكتوم ذلك على معنى العموم في معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع. وقال مهدي بن ميمون: كنا عند الحسن فسأله الحسن بن دِينار ما الذي كتمت الملائكة؟ قال: إن الله عز وجل لما خلق آدم رأت الملائكة خلقاً عجباً، وكأنهم دخلهم من ذلك شيء، قال: ثم أقبل بعضهم على بعض وأسرُّوا ذلك بينهم، [فقالوا: و][3] ما يهمكم من هذا المخلوق! إن الله لم يخلق خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه. و «ما» في قوله: «ما تبدون» يجوز أن ينتصب بـ «أعلم» على أنه فعل، ويجوز أن يكون بمعنى عالم وتنصب به «ما» فيكون مثل حَوَاجّ بيت الله، وقد تقدّم[4].

---

(١) راجع ١/٧.

(٢) راجع ٣٠٩/١٦.

(٣) زيادة عن تفسير الطبري.

(٤) راجع ص ٢٧٨ من هذا الجزء.

[٣٤] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

فيه عشر مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وإذْ قُلْنَا﴾ أي واْذكر. وأما قول أبي عبيدة: إنّ «إِذْ» زائدة فليس بجائز؛ لأن إذ ظرف وقد تقدّم[١]. وقال: «قلنا» ولم يقل قلت لأن الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعل الجماعة تفخيماً وإشادةً بذكره. والملائكة جمع مَلَك؛ وقد تقدّم[٢]. وتقدّم القول أيضاً في آدم واْشتقاقه[٣] فلا معنى لإعادته؛ وروي عن أبي جعفر بن القَعْقاع أنه ضمّ تاء التأنيث من الملائكة إتباعاً لضم الجيم في «اْسجدوا». ونظيره «الحمد لله».

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا﴾ السجود معناه في كلام العرب التذلل والخضوع؛ قال الشاعر:

بِجَمْعٍ تَضِلّ البُلْقُ في حَجَراته ترى الأُكْمَ فيها سُجّداً لِلحوافِرِ

الأُكْمُ: الجبال الصغار. جعلها سُجّداً للحوافر لِقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها. وعَيْنٌ ساجدة؛ أي فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض. قال اْبن فارس: سَجَد إذ تطامن، وكلُّ ما سجد فقد ذَلّ. والإسجاد: إدامة النّظر. قال أبو عمرو: وأسجد إذا طأطأ رأسه؛ قال[٤]:

فُضُولَ أزِمّتِها أسجدتْ سجودَ النصارى لأحبارها

قال أبو عبيدة: وأنشدني أعرابي من بني أسد:

وقلنَ له أسْجِدْ لِليْلَى فأسجدَا

يعني البعير إذا طأطأ رأسه. ودراهُم الإسجاد: دراهم كانت عليها صُور كانوا يسجدون لها؛ قال:

وافَى بها كدراهم الإسجاد

(١) راجع المسألة الأولى ص ٢٦١. (٢) راجع المسألة الثانية ص ٢٦٢.
(٣) راجع المسألة الأولى ص ٢٧٩.
(٤) هو حميد بن ثور يصف نساء. يقول لما اْرتحلن ولوين فضول أزمة جمالهن على معاصمهن أسجدت ـ طأطأت رؤوسها ـ لهن. عن «اللسان وشرح القاموس».

الثالثة - ٱستدلّ مَن فضّل آدم وبَنِيه بقوله تعالى للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا لِآدَمَ﴾. قالوا: وذلك يدلّ على أنه كان أفضلَ منهم. والجواب أن معنى ﴿ٱسجدوا لآدم﴾ ٱسجدوا لي مستقبلين وَجْه آدم. وهو كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي عند دلوك الشمس؛ وكقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي فقعوا لي عند إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين. وقد بيّنا أن المسجود له لا يكون أفضلَ من الساجد بدليل القِبْلة.

فإن قيل: فإذا لم يكن أفضلَ منهم فما الحكمة في الأمر بالسجود له؟ قيل له: إن الملائكة لمّا ٱستعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمَرَهم بالسجود لغيره ليريهم ٱستغناءه عنهم وعن عبادتهم. وقال بعضهم: عيّروا آدم وٱستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصُّنع به فأمِروا بالسجود له تكريماً. ويحتمل أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبةً لهم على قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ لمّا قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وكان علم منهم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هذا، فقال لهم: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ وجاعله خليفةً، فإذا نفخْتُ فيه من روحي فقَعُوا له ساجدين. والمعنى: ليكون ذلك عقوبةً لكم في ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لي الآن.

فإن قيل: فقد ٱستدلّ ٱبن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله ﷺ فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[(١)]. وأمّنه من العذاب بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[(٢)]. وقال للملائكة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾[(٣)]. قيل له: إنما لم يُقسم بحياة الملائكة كما لم يُقسم بحياة نفسه سبحانه؛ فلم يقل: لَعَمْرِي. وأقسم بالسماء والأرض؛ ولم يدلّ على أنهما أرفع قدراً من العرش والجِنان السّبع. وأقسم بالتين والزيتون. وأمّا قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ فهو نظير قوله لنبيّه عليه السلام: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فليس فيه إذاً دلالة، والله أعلم.

---

(١) راجع ١٠/٣٩.

(٢) راجع ١٦/٢٦٢.

(٣) راجع ١١/٢٨٢.

الرابعة ـ وٱختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد ٱتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادةٍ؛ فقال الجمهور: كان هذا أمراً للملائكة بوضع الجِباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة؛ لأنه الظاهر من السجود في العُرف والشرع؛ وعلى هذا قيل: كان ذلك السجود تكريماً لآدم وإظهاراً لفضله، وطاعةً لله تعالى، وكان آدم كالقِبْلة لنا. ومعنى «لآدم»: إلى آدم؛ كما يقال صلّى للقِبْلة؛ أي إلى القبلة. وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مُبقىً على أصل اللّغة؛ فهو من التذلّل والانقياد، أي ٱخضعوا لآدم وأقرّوا له بالفضل. ﴿فَسَجَدُوا﴾ أي ٱمتثلوا ما أمروا به.

وٱختُلِف أيضاً هل كان ذلك السجود خاصّاً بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى، أم كان جائزاً بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْه عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾[١] فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين؟ والذي عليه الأكثر أنه كان مباحاً إلى عصر رسول الله ﷺ، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل: نحن أوْلَى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد؛ فقال لهم: «لا ينبغي أن يُسجد لأحد إلا لله ربّ العالمين». روى ٱبن ماجه في سُننه والبُسْتِيّ في صحيحه عن أبي واقد قال: لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا» فقال: يا رسول الله، قدمتُ الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك؛ قال: «فلا تفعل فإني لو أَمَرتُ شيئاً أن يسجد لشيء لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدّي المرأةُ حقَّ ربّها حتى تؤدّي حقَّ زوجها حتى لو سألها نفسَها وهي على قَتَب لم تمنعه». لفظ البُسْتِيّ. ومعنى القتب أن العرب يَعِزّ عندهم وجود كرسي للولادة فيحملون نساءهم على القَتَب[٢] عند الولادة. وفي بعض طرق معاذ: ونَهَى عن السجود للبشر، وأمر بالمصافحة.

---

(١) راجع ٩/ ٢٦٤.

(٢) القتب. رحل صغير على قدر السنام.

قلت: وهذا السجود المنهيُّ عنه قد ٱتخذه جُهّال المتصوّفة عادةً في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم وٱستغفارهم؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام[١] لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه؛ ضلّ سَعْيُهم وخاب عملهم.

الخامسة ـ قوله: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ نصب على الاستثناء المتصل؛ لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور: ٱبن عباس وٱبن مسعود وٱبن جُريج وٱبن المسيّب وقَتادة وغيرهم؛ وهو ٱختيار الشيخ أبي الحسن، ورجّحه الطبري؛ وهو ظاهر الآية. قال ٱبن عباس: وكان ٱسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة وكان من الأجنحة الأربعة ثم أُبْلِس بعد. روى سِمَاك بن حرب عن عكرمة عن ٱبن عباس قال: كان إبليس من الملائكة فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطاناً. وحكى الماوَرْدِيّ عن قتادة: أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجِنة. وقال سعيد بن جُبير: إن الجنّ سِبْط من الملائكة خُلقوا من نار وإبليس منهم، وخلق سائر[٢] الملائكة من نور. وقال ٱبن زيد والحسن وقتادة أيضاً: إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن مَلَكاً؛ وروي نحوه عن ٱبن عباس وقال: ٱسمه الحارث. وقال شَهْر بن حَوْشَب وبعض الأصوليين: كان من الجنّ الذين كانوا في الأرض وقاتلتهم الملائكة فسبَوْه صغيراً وتعبّد مع الملائكة وخُوطب؛ وحكاه الطبري عن ٱبن مسعود. والاستثناء على هذا منقطع، مثل قوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْم إِلاَّ ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾، وقوله: ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ في أحد القولين؛ وقال الشاعر:

ليس عليك عطشٌ ولا جوعْ إلا الرّقادَ والرقادُ ممنوعْ

وٱحتجّ بعض أصحاب هذا القول بأن الله جلّ وعزّ وصف الملائكة فقال: ﴿لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ﴾ والجنّ غير الملائكة. أجاب أهل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لما سبق في علم الله بشقائه عدلاً منه، لا يُسأل عما يَفعل، وليس في خلقه من نار ولا في تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة. وقول من قال: إنه كان من جنّ الأرض فسُبيَ،

---

(١) في نسخ من الأصل: «للأقدم».
(٢) في نسخ: «معاشر».

فقد رُوي في مقابلته أن إبليس هو الذي قاتل الجنّ في الأرض مع جُند من الملائِكة؛ حكاه المهدَوِيّ وغيره. وحكى الثّعلبي عن ٱبن عباس: أن إبليس كان من حيّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ خُلقوا من نار السموم، وخُلقت الملائكة من نور، وكان ٱسمه بالسريانية عزازيل، وبالعربية الحارث، وكان من خُزّان الجنة وكان رئيسَ ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض، وكان من أشدّ الملائكة ٱجتهاداً وأكثرهم علماً، وكان يسوس ما بين السماء والأرض؛ فرأى لنفسه بذلك شرفاً وعظمة، فذلك الذي دعاه إلى الكفر فعصى الله فمسخه شيطاناً رجيماً. فإذا كانت خطيئة الرجل في كِبْر فلا تَرْجُه، وإن كانت خطيئته في معصية فارْجُه؛ وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية، وخطيئة إبليس كِبْراً. والملائكة قد تُسَمَّى جِنّاً لاستتارها؛ وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً[١]﴾؛ وقال الشاعر[٢] في ذكر سليمان عليه السلام:

وسَخّرَ مِن جِنّ الملائِكِ تِسعةً قِياماً لَدَيْهِ يعملون بلا أَجْرِ

وأيضاً لما كان من خُزّان الجنة نُسب إليها فٱشتق ٱسمه من ٱسمها، والله أعلم. وإبليس وزنه إفعيل، مشتقّ من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى. ولم ينصرف؛ لأنه معرفة ولا نظير له في الأسماء فشبّه بالأعجمية؛ قاله أبو عبيدة وغيره. وقيل: هو أعجمي لا ٱشتقاق له فلم ينصرف للعُجْمة والتعريف؛ قاله الزجاج وغيره.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿أَبَى﴾ معناه ٱمتنع من فعل ما أُمِر به؛ ومنه الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «إذا قرأ ٱبن آدم السجدة [فسَجَد[٣]] ٱعتزل الشيطان يبكي يقول يا وَيْلَه ـ وفي رواية: يا وَيْلِي ـ أُمِر ٱبن آدم بالسجود فسَجَد فله الجنة وأمِرتُ بالسجود فأبَيْتُ فلِيَ النار». خرّجه مسلم. يقال: أَبَى يأبَى إباءً، وهو حرف نادر جاء على فَعَل يفْعَل ليس فيه حرف من حروف الحَلْق؛ وقد قيل: إن الألف مضارِعة لحروف الحَلْق. قال الزجاج: سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضي يقول: القول

---

(١) راجع ١٥/ ١٣٤.

(٢) هو أعشى قيس، كما في «تفسير الطبري وأبي حيان».

(٣) الزيادة من «صحيح مسلم».

عندي أن الألف مضارِعة لحروف الحلق. قال النحاس: ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحواً غير هذا الحرف.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ الاستكبار: الاستعظام؛ فكأنه كره السجود في حقه وٱستعظمه في حق آدم؛ فكان ترك السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته. وعن هذا الكِبر عبّر عليه السلام بقوله: «لا يدخل الجنة مَن [كان[1]] في قلبه مثقالُ حبة من خَرْدَل من كِبر». في رواية فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسَناً ونعله حسَنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس». أخرجه مسلم. ومعنى بطر الحق: تسفيهه وإبطاله. وغمط الناس: الاحتقار لهم والازدراء بهم. ويروى: «وغمص» بالصاد المهملة، والمعنى واحد؛ يقال: غَمَصه يَغْمَصه غَمْصاً وٱغتمصه؛ أي ٱستصغره ولم يره شيئاً. وغَمَص فلان النعمة إذا لم يشكرها. وغَمَصتُ عليه قولاً قاله؛ أي عِبته عليه. وقد صرّح اللّعين بهذا المعنى فقال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[2]. ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾. ﴿ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ فكفّره الله بذلك. فكلّ من سَفّه شيئاً من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حُكْمُه حُكْمَه، وهذا ما لا خلاف فيه. وروى ٱبن القاسم عن مالك أنه قال: بلغني أن أوّل معصية كانت الحسد والكبر، حسَدَ إبليسُ آدم، وشح آدم في أكله من الشجرة. وقال قتادة: حسَدَ إبليسُ آدم، على ما أعطاه الله من الكرامة فقال: أنا ناريّ وهذا طِينيّ. وكان بدء الذنوب الكِبْر، ثم الحرص حتى أكل آدم من الشجرة، ثم الحسد إذ حسد ٱبن آدم أخاه.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قيل: كان هنا بمعنى صار؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾. وقال الشاعر[3]:

بتَيْهـاءَ قَفْـرٍ والمَطِـيُّ كـأنهـا ... قطا الحَزْن قد كانت فِراخاً بُيوضُها

(١) زيادة عن «صحيح مسلم».

(٢) راجع ٧/ ١٧٠.

(٣) هو ٱبن أحمر؛ كما في «اللسان مادة» «كون».

أي صارت. وقال ٱبن فُورَك. «كان» هنا بمعنى صار خطأ تردّه «الأصول». وقال جمهور المتأوّلين: المعنى أي كان في علم الله تعالى أنه سيكفر؛ لأن الكافر حقيقةً والمؤمنَ حقيقةً هو الذي قد علم الله منه الموافاة.

قلت: وهذا صحيح؛ لقوله ﷺ في «صحيح البخاري»: «وإنما الأعمال بالخواتيم». وقيل: إن إبليس عبد الله تعالى ثمانين ألف سنة، وأُعْطي الرياسة والخِزانة في الجنة على الاستدراج؛ كما أُعْطِي المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم، وكما أُعْطي بَلْعَام[1] الاسم الأعظم على طرف لسانه؛ فكان في رياسته والكبر في نفسه متمكن. قال ٱبن عباس: كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بما عنده؛ فلذلك قال: أنا خير منه؛ ولذلك قال الله عز وجل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾[2] أي ٱستكبرت ولا كِبْر لك، ولم أتكبّر أنا حين خلقتُه بيديّ والكبر لي! فلذلك قال: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. وكان أصل خلقته من نار العِزّة؛ ولذلك حَلف بالعِزّة فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فالعِزّة أوْرثته الكِبْر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام. وعن أبي صالح قال: خُلقت الملائكة من نُور العِزّة وخُلق إبليس من نار العِزّة.

التاسعة ـ قال علماؤنا ـ رحمة الله عليهم ـ: ومَن أظهر الله تعالى على يديه ممن ليس بنبيّ كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالاً على ولايته؛ خلافاً لبعض الصُّوفية والرافضة حيث قالوا: إن ذلك يدل على أنه وَلِيّ، إذ لو لم يكن وَلِيّاً ما أظهر الله على يديه ما أظهر. ودليلنا أن العلم بأن الواحد منّا وليّ لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمناً، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمناً لم يمكنا أن نقطع على أنه وليّ لله تعالى؛ لأن الوليّ لله تعالى مَن علم الله تعالى أنه لا يوافي إلا بالإيمان. ولما ٱتفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافي بالإيمان، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافي بالإيمان، علم أن ذلك ليس

---

(١) في «تاريخ ٱبن الأثير والطبري» إنه بلعم بن باعور من ولد لوط، كان في عهد موسى عليه السلام، وهو من أهل كنعان. راجع «تاريخ ٱبن الأثير» ١/١٤٠، و «تاريخ الطبري» قسم أوّل ص ٥٠٨ طبع أوروبا.

(٢) راجع ١٥/٢٢٨.

يدلّ على ولايته لله. قالوا: ولا نمنع أن يطلع الله بعض أوليائه على حسن عاقبته وخاتمة عمله وغيره معه؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشْعَرِيّ وغيره. وذهب الطَّبَرِي إلى أن الله تعالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بني آدم، وهم اليهود الذي كفروا بمحمد عليه السلام مع علمهم بنبوّته، ومع قِدَم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم.

العاشرة ـ وٱختلف هل كان قبل إبليس كافر أو لا؟ فقيل: لا، وإن إبليس أوّل من كفر. وقيل: كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا في الأرض. وٱختلف أيضاً هل كفر إبليس جهلاً أو عناداً على قولين بين أهل السُّنة، ولا خلاف أنه كان عالماً بالله تعالى قبل كفره. فمن قال إنه كفر جهلاً قال: إنه سُلب العلم عند كفره. ومن قال كفر عناداً قال: كفر ومعه علمه. قال ٱبن عطية: والكفر [عناداً[1]] مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء.

[٣٥] ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ ٱسْكُنْ﴾ لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجه قال لآدم: ٱسكن؛ أي لازم الإقامة وٱتخذها مسكناً، وهو محل السكون. وسَكَن إليه يَسْكُن سكوناً. والسَّكَن: النار؛ قال الشاعر:

قد قُوِّمَتْ بِسَكَنٍ وأدهان

والسَّكَن: كل ما سُكن إليه. والسِّكّين معروف، سُمِّيَ به لأنه يُسَكِّن حركة المذبوح؛ ومنه المِسْكين لقلة تصرّفه وحركته. وسُكّانُ[2] السفينة عربيّ؛ لأنه يُسَكّنها عن الاضطراب.

(١) زيادة عن «تفسير ٱبن عطية».
(٢) السكان (بالضم): ذنب السفينة التي به تعدّل.

الثانية ـ في قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ﴾ تنبيه على الخروج؛ لأن السُّكْنَى لا تكون ملكاً؛ ولهذا قال بعض العارفين: السُّكْنَى تكون إلى مدّة ثم تنقطع، فدخولهما في الجنة كان دخول سُكْنَى لا دخول إقامة[١].

قلت: وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء: إن من أسكن رجلاً مسكناً له أنه لا يملكه بالسُّكْنَى، وأن له أن يخرجه إذا ٱنقضت مدّة الإسكان. وكان الشعبيّ يقول: إذا قال الرجل داري لك سُكْنَى حتى تموت فهي له حياتَه وموتَه، وإذا قال: داري هذه ٱسكنها حتى تموت فإنها ترجع إلى صاحبها إذا مات. ونَحوٌ من السُّكْنَى العُمْرَى، إلا أن الخلاف في العُمْرَى أقوى منه في السُّكْنَى. وسيأتي الكلام في العُمْرَى في «هود[٢]» إن شاء الله تعالى. قال الحَرْبيّ: سمعت ٱبن الأعرابي يقول: لم يختلف العرب في أن هذه الأشياء على مِلْك أربابها ومنافعها لمن جُعلت له العُمْرَى والرقبى والإفقار والإخبال والمِنحة والعَرِيّة والسُّكْنَى والإطراق. وهذا حجة مالك وأصحابه في أنه لا يملك شيء من العطايا إلا المنافع دون الرِّقاب؛ وهو قول اللَّيْث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قُسيط.

والعُمْرَى: هو إسكانك الرجل في دار لك مدّة عمرك أو عمره. ومثله الرُّقْبَى: وهو أن يقول: إن مُتَّ قبلي رجعتْ إليّ وإن متُّ قبلك فهي لك؛ وهي من المراقبة. والمراقبة: أن يَرْقُب كلُّ واحد منهما موتَ صاحبه؛ ولذلك اختلفوا في إجازتها ومنعها، فأجازها أبو يوسف والشافعي، وكأنها وَصِيّةٌ عندهم. ومنعها مالك والكوفيون؛ لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لا يدري هل يحصل له، ويتمنى كل واحد منهما موت صاحبه. وفي الباب حديثان أيضاً بالإجازة والمنع ذكرهما ٱبن ماجه في سُننه؛ الأوّل رواه جابر بن عبد الله قال قال رسول ﷺ: «العُمْرَى جائزةٌ لمن أُعمِرَها والرُّقْبَى جائزةٌ لمن أُرْقِبَهَا» ففي هذا الحديث التسويةُ بين العُمْرَى والرُّقْبَى في الحكم. الثاني رواه ٱبن عمر قال قال رسول ﷺ: «لا رُقْبَى فمن أُرْقِب شيئاً فهو له حياتَه ومماتَه». قال: والرُّقْبَى أن

(١) في بعض «الأصول»: «لا دخول ثواب».

(٢) راجع ٥٧/٩.

يقول هو للآخر: مِنِّي ومنك موتاً. فقوله: «لا رُقْبى» نهيٌ يدلّ على المنع؛ وقوله: «مَن أرْقِب شيئاً فهو له» يدلّ على الجواز؛ وأخرجهما أيضاً النَّسائي. وذكر عن ٱبن عباس قال: العُمْرَى والرُّقْبَى سواء. وقال ٱبن المنذر: ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «العُمْرَى جائزة لمن أُعمرها والرُّقْبَى جائزة لمن أُرْقِبها». فقد صحّح الحديث ٱبن المنذر؛ وهو حجة لمن قال بأن العُمْرَى والرُّقْبَى سواء. ورُوي عن عليّ وبه قال الثَّوْرِيّ وأحمد، وأنها لاترجع إلى الأوّل أبداً؛ وبه قال إسحاق. وقال طاوس: مَن أرقب شيئاً فهو سبيل الميراث.

والإفقار مأخوذ من فَقار الظَّهر. أفقرتك ناقتي: أعَرْتُك فَقارها لتركبها. وأفقرك الصيد إذا أمكنك من فقاره حتى ترميه. ومثله الإخبال، يقال: أخبلت فلاناً إذا أعرته ناقة يركبها أو فرساً يغزو عليه؛ قال زهير:

هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا المال يُخْبِلوا وإن يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإن يَيْسِروا يَغْلُوا

والمِنْحة: العطِيّة. والمِنْحة: مِنحة اللّبن. والمَنِيحة: النّاقةُ أو الشاة يُعطيها الرجلُ آخر يحتلبها ثم يردّها؛ قال رسول الله ﷺ: «العاريّة مُؤدّاةٌ والمنحة مردودةٌ والدَّين مقضِيّ والزَّعيم غارم». رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذيّ والدّارَقُطْنيّ وغيرهما، وهو صحيح.

والإطراق: إعارة الفحل؛ استطرق فلان فلاناً فَحْلَه: إذا طلبه ليضرب في إبله؛ فأطرقه إياه؛ ويقال: أطرِقني فحلك أي أعِزني فَحلَك ليضرب في إبلي. وطَرَق الفحلُ الناقةَ يَطْرُق طروقاً؛ أي قَعَا عليها. وطَرُوقة الفحل: أُنثاه؛ يقال: ناقة طَروقة الفحل للتي بلغت أن يضربها الفحل.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ «أنت» تأكيد للمضمر الذي في الفعل؛ ومثله ﴿فَٱذْهَبْ أَنْتَ وربُّكَ﴾. ولا يجوز ٱسكن وزوجك، ولا ٱذهب وربك، إلا في ضرورة الشعر؛ كما قال:

قلتُ إذ أقبلتْ وزُهْرٌ تَهادَى كنِعاج المَلا تَعَسَّفْنَ رَمْلاَ(١)

(١) قائله عمر بن أبي ربيعة. و «زهر» جمع زهراء، وهي البيضاء المشرقة. والتهادي: المشي الرويد الساكن. والنعاج: بقر الوحش. «تعسفن»: ركبن.

فـ «زُهْر» معطوف على المضمر في «أقبلتْ» ولم يؤكد ذلك المضمر. ويجوز في غير القرآن على بُعْد: قم وزيد.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَزَوْجُكَ﴾ لغة القرآن «زَوْجٌ» بغير هاء، وقد تقدّم القول فيه[١]. وقد جاء في «صحيح مسلم»: «زوجة» حدّثنا عبد الله بن مَسْلَمة بن قَعْنَب قال حدّثنا حماد بن سَلَمة عن ثابت البُنَانِيّ عن أنس أن النبيّ ﷺ كان مع إحدى نسائه فمرّ به رجل فدعاه فجاء فقال: «يا فلانُ هذه زوجتي فلانة»: فقال يا رسول الله، مَن كنتُ أظنّ به فلم أكن أظنّ بك؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مَجْرى الدم». وزوج آدم عليه السلام هي حوّاء عليها السلام، وهو أوّل من سمّاها بذلك حين خُلقت من ضلعه[٢] من غير أن يَحُسّ آدم عليه السلام بذلك؛ ولو ألِم بذلك لم يَعْطِف رجل على امرأته؛ فلما انتبه قيل له: من هذه؟ قال : امرأة ؛ قيل : وما اسمها ؟ قال : حوّاء ؛ قيل: ولِمَ سُمِّيت امرأة؟ قال: لأنها من المرء أخِذت؛ قيل: ولمَ سُمّيت حوّاء؟ قال: لأنها خُلقت من حيّ. روي أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرّب علمه، وأنهم قالوا له: أتحبها يا آدم؟ قال : نعم؛ قالوا لحوّاء: أتحبينه يا حوّاء؟ قالت: لا؛ وفي قلبها أضعافُ ما في قلبه من حبه. قالوا: فلو صَدَقت امرأة في حبّها لزوجها لصدَقت حوّاء. وقال ابن مسعود وابن عباس: لما أُسكِن آدم الجنة مشى فيها مستوحشاً، فلمّا نام خُلقت حوّاء مِن ضلعه القُصْرَى مِن شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها؛ فلما انتبه رآها فقال: من أنت؟! قالت: امرأة خُلقت من ضلعك لتسكن إليّ؛ وهو معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[٣]. قال العلماء: ولهذا كانت المرأة عَوْجاء؛ لأنها خُلقت من أعوج وهو الضّلع. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن المرأة خُلقت من ضلع ـ في رواية: وإنّ أعوج شيء في الضلع أعلاه ـ لن تستقيم

(١) راجع ص ٢٤٠ من هذا الجزء.
(٢) الضلع، كعنب وجذع.
(٣) راجع ٧/ ٣٣٧.

لك على طريقة واحدة فإن ٱستمتعتَ بها ٱستمعتَ [بها][١] وبها عِوَج وإن ذهبتَ تُقيمها كَسَرْتَها وكَسْرُها طلاقُها». وقال الشاعر:

هي الضِّلَع العَوجاءُ لستَ تُقيمها ... ألاَ إنّ تقويم الضلوع ٱنكسارها
أتجمع ضَعفاً وٱقتداراً على الفتى ... أليس عجيباً ضعفُها وٱقتدارها

ومن هذا الباب ٱستدل العلماء على ميراث الخنثى المُشْكل إذا تساوت فيه علامات النساء والرجال من اللِّحية والثَّدْي والمبال بنقص الأعضاء. فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المرأة أُعْطي نصيب رجل ـ روي ذلك عن عليّ رضي الله عنه ـ لخلق حوّاءَ من أحد أضلاعه، وسيأتي في المواريث بيان هذا إن شاء الله تعالى[٢].

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿الجَنّة﴾ الجنة: البُستان، وقد تقدّم القول[٣] فيها. ولا التفات لما ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن في جنة الخُلْد وإنما كان في جنة بأرض عَدَن. وٱستدلّوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما وصل إليه إبليس، فإن الله يقول: ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾[٤] وقال: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ولاَ كِذّاباً﴾[٥] وقال: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً. إلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾[٦]. وأنه لا يخرج منها أهلها لقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[٧]. وأيضاً فإن جنة الخُلْد هي دار القُدْس، قُدّست عن الخطايا والمعاصي تطهيراً لها. وقد لَغَا فيها إبليس وكَذَب، وأُخْرِج منها آدم وحواء بمعصيتهما.

قالوا: وكيف يجوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخُلْد وهو في دار الخُلْد والمُلْك الذي لا يبلىَ؟ فالجواب: أن الله تعالى عَرّف الجنة بالألف واللام؛ ومن قال: أسأل الله الجنة؛ لم يُفهم منه في تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد. ولا يستحيل في العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم؛ وقد لَقِيَ موسى آدم عليهما السلام فقال له موسى: أنت أشقيتَ ذُرّيتك وأخرجتهم من الجنة؛ فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد

(١) الزيادة عن «صحيح مسلم».
(٢) راجع ٥/ ٦٥.
(٣) راجع ص ٢٣٩ من هذا الجزء.
(٤) راجع ١٧/ ٦٨.
(٥) راجع ١٩/ ١٨٢.
(٦) راجع ١٧/ ٢٠٦.
(٧) راجع ١٠/ ٣٤.

المعروفة، فلم ينكر ذلك آدم، ولو كانت غيرها لردّ على موسى؛ فلما سكت آدم على ما قرّره موسى صحّ أن الدار التي أخرجهم الله عز وجلّ منها بخلاف الدار التي أُخرجوا إليها. وأما ما احتجوا به من الآي فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قُضي عليه بالفناء. وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم انتزعت منه بعد المعصية، وقد دخلها النبيّ ﷺ ليلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بما فيها وأنها هي جنة الخلد حقّاً. وأما قولهم: إن الجنة دار القُدْس وقد طهّرها الله تعالى من الخطايا فجهلٌ منهم؛ وذلك أن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدّسة وهي الشام، وأجمع أهل الشرائع على أن الله تعالى قدّسها وقد شُوهد فيها المعاصي والكفر والكذب ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصي؛ وكذلك دار القُدْس. قال أبو الحسن بن بطال: وقد حكى بعض المشايخ أن أهل السُّنّة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم عليه السلام، فلا معنى لقول من خالفهم. وقولهم: كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخُلْد وهو في دار الخلد؛ فيُعكس عليهم ويقال: كيف يجوز على آدم وهو في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد في دار الفناء! هذا ما لا يجوز على من له أدنى مُسْكة من عقل، فكيف بآدم الذي هو أرجح الخلق عقلاً، على ما قال أبو أمامة على ما يأتي.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ قراءة الجمهور «رَغَداً» بفتح الغين. وقرأ النَّخَعِيّ وابن وَثّاب بسكونها. والرَّغَد: العيش الدَّارُّ الهنيّ الذي لا عَناء فيه؛ قال:

بينمـا المـرء تـراه نـاعمـاً يأمن الأحداث في عيش رغد[1]

ويقال: رَغُد عيشُهم ورغِد (بضم الغين وكسرها). وأرغد القوم: أخصبوا وصاروا في رَغَد من العيش. وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف. وحَيْثُ وحيثَ وحيثِ، وحَوْثَ وحوثِ وحاث، كلّها لغات، ذكرها النحاس وغيره.

---

(١) القائل هو امرؤ القيس؛ كما في تفسير أبي حيان والطبري.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي لا تقرباها بأكل؛ لأن الإباحة[١] فيه وقعت . قال ابن العربي : سمعت الشّاسيّ في مجلس النَّضْر [ابن شُميل][٢] يقول: إذا قيل لا تقرَب (بفتح الراء) كان معناه لا تَلَبَّس بالفعل، وإذا كان (بضم الراء) فإن معناه لا تَدْنُ منه. وفي الصحاح: قَرُب الشيءُ يقرُب قُرْباً أي دنا. وقَرِبته (بالكسر) أَقْرَبه قِرْباناً أي دَنوْت منه. وقَرَبت أقرُب قِرابة ـ مثل كتبت أكتب كتابة ـ إذا سِرت إلى الماء وبينك وبينه ليلة؛ والاسم القَرَب. قال الأصمعي: قلت لأعرابيّ: ما القَرَب ؟ فقال : سَيْرُ الليل لِورْد الغد . وقال ابن عطية قال بعض الحذاق: إن الله تعالى لما أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضى الأكل وما يدعو إليه العرب وهو القرب. قال ابن عطية: وهذا مثالٌ بيّن في سدّ الذرائع. وقال بعض أرباب المعاني قوله : « ولا تَقْرَبَا » إشعار بالوقوع في الخطيئة والخروج من الجنة، وأن سكناه فيها لا يدوم، لأن المخلَّد لا يحظر عليه شيء ولا يؤمر ولا يُنْهَى. والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فدلّ على خروجه منها.

الثامنة ـ قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ الاسم المبهَم يُنعت بما فيه الألف واللام لا غير، كقولك: مررت بهذا الرجل وبهذه المرأة وهذه الشجرة. وقرأ ابن مُحَيْصن: «هذي الشجرة» بالياء وهو الأصل؛ لأن الهاء في هذه بدل من ياء ولذلك انكسر ما قبلها ، وليس في الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها ، وذلك لأن أصلها الياء.

---

(١) أي من غير تلك الشجرة.

(٢) في «الأصول»: «مجلس النظر يقول». والتصويب والزيادة عن كتاب البحر لأبي حيان. وقد عقب عليه بقوله: «وفي هذه الحكاية عن ابن العربي من التخليط ما يتعجب من حاكيها، وهو قوله: سمعت الشاشي في مجلس النضر بن شميل، وبين النضر والشاشي من السنين مئون إلا أن كان ثَمّ مكان معروف بمجلس النضر بن شميل فيمكن».

والشاشي هنا هو محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر المعروف بأبي بكر الشاشي ولد بميافارقين سنة ٤٢٩ هـ وتوفي سنة ٥٠٧ (راجع طبقات الشافعية ٤/٥٧).

أما النصر بن شميل فقد توفى سنة ثلاث وقبل أربع ومائتين (راجع بغية الوعاة ووفيات الأعيان).

وولد أبو بكر بن العربي سنة ٤٦٨ وتوفي سنة ٥٤٣ هـ (راجع طبقات المفسرين).

والشَّجَرَة والشِّجَرة والشِّيَرة؛ ثلاثُ لغات، وقرىء «الشِّجرة» بكسر الشين والشِّجرة والشِّجَرة: ما كان على ساق من نبات الأرض. وأرض شَجِيرة وشَجْراء أي كثيرة الأشجار، ووادٍ شَجير؛ ولا يقال: وادٍ أشجر. وواحد الشَّجْراء شَجَرة، ولم يأت من الجمع على هذا المثال إلا أحرف يسيرة: شَجَرة وشَجْراء، وقَصَبة وقَصْباء، وطَرَفة وطَرْفاء، وحَلَفَةٌ وحَلْفاء. وكان الأصمعي يقول في واحد الحَلْفاء: حَلِفة، بكسر اللام مخالفة لأخواتها. وقال سيبويه: الشَّجراء واحد وجَمْع، وكذلك القَصْباء والطَرْفاء والحَلْفاء. والمَشْجَرة: موضع الأشجار. وأرض مَشْجَرة، وهذه الأرض أشجر من هذه أي أكثر شجراً، قاله الجوهري.

التاسعة ـ واختلف أهل التأويل في تعيين هذه الشجرة التي نُهي عنها فأكل منها؛ فقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جُبير وجَعْدة بن هُبيرة: هي الكَرْم؛ ولذلك حُرّمت علينا الخمر. وقال ابن عباس أيضاً وأبو مالك وقَتادة: هي السُّنْبُلة، والحبّةُ منها ككُلَى البقر، أحْلَى من العسل وألْيَن من الزُّبْد؛ قاله وَهْب بن مُنَبِّه. ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه. وقال ابن جُريج عن بعض الصحابة: هي شجرة التِّين، وكذا روى سعيد[١] عن قتادة، ولذلك تُعَبَّر في الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها؛ ذكره السُّهَيْلي. قال ابن عطية: وليس في شيء من هذا التعيين ما يَعْضُده خبرٌ، وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها. وقال القُشيري أبو نصر: وكان الإمام والدي رحمه الله يقول: يُعلم على الجملة أنها كانت شجرة المِحْنَة.

العاشرة ـ واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظالِمِين﴾؛ فقال قوم: أكلا من غير التي أشير إليها، فلم يتأوّلا النهي واقعاً على جميع جنسها، كأن إبليس غَرّه [بالأخذ][٢] بالظاهر. قال ابن العربي: وهي أوّل معصية عصى الله بها على هذا القول. قال: «وفيه دليل على أن من حلف ألا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حَنث. وتحقيق المذاهب فيه أن أكثر العلماء قالوا: لا حِنْث فيه. وقال

(١) في نسخة: «شَعبة» وكلاهما يروي عن قتادة.

(٢) الزيادة من ابن العربي.

مالك وأصحابه: إن اقتضى بساط اليمين تعيين المشار إليه لم يحنَث بأكل جنسه، وإن اقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حُمل عليه وحنِث بأكل غيره، وعليه حُملت قصة آدم عليه السلام فإنه نُهِيَ عن شجرة عُيِّنت له وأريد بها جنسها؛ فحمل القول على اللفظ دون المعنى.

وقد اختلف علماؤنا في فَرْعٍ من هذا؛ وهو أنه إذا حلَف ألا يأكل هذه الحنطة فأكل خبزاً منها على قولين؛ قال في الكتاب: يحنَث؛ لأنها هكذا تؤكل. وقال ابن الموّاز: لا شيء عليه؛ لأنه لم يأكل حنطة وإنما أكل خبزاً فراعى الاسم والصفة. ولو قال في يمينه: لا آكل من هذه الحنطة لحنِث بأكل الخبز المعمول منها». وفيما اشترى بثمنها من طعام وفيما أنبتت خلاف. وقال آخرون: تأوّلا النّهي على النّدب. قال ابن العربيّ: وهذا وإن كان مسألة من أصول الفقه فقد سقط ذلك ها هنا؛ لقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فقرن النّهي بالوعيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾[1]. وقال ابن المُسَيّب: إنما أكل آدم بعد أن سَقَتهُ حَوّاء الخمر فسَكِر وكان في غير عقله. وكذلك قال يزيد بن قُسيط، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل. قال ابن العربيّ: وهذا فاسد نقلاً وعقلاً، أما النّقل فلم يصح بحال، وقد وصف الله عز وجل خمر الجنة فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾. وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوّة معصومون عما يؤدّي إلى الإخلال بالفرائض واقتحام الجرائم.

قلت: قد استنبط بعض العلماء نبوّة آدم عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فأمره الله تعالى أن ينبىء الملائكة بما ليس عندهم من علم الله جلّ وعزّ وقيل: أكلها ناسياً، ومن الممكن أنهما نَسِيَا الوعيد.

قلت: وهو الصحيح لإخبار الله تعالى في كتابه بذلك حَتْماً وجَزْماً فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[1]. ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقّظ لكثرة معارفهم وعُلُوّ منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكّر النّهي تضييعاً صار به عاصياً؛ أي مخالفاً. قال أبو أمامة: لو أن أحلام بني آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وضعت في كِفّة ميزان ووُضع حِلْم آدم في كِفّة أخرى لرجحهم؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾.

---

(١) راجع ١١/٢٥١ و ٢٥٣.

قلت: قولُ أبي أُمامة هذا عمومٌ في جميع بني آدم. وقد يحتمل أن يخصّ من ذلك نبيّنا محمدﷺ؛ فإنه كان أوفر الناس حلماً وعقلاً. وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بني آدم من غير الأنبياء. والله أعلم.

قلت: والقول الأوّل أيضاً حَسَن؛ فظنّا أن المراد العَيْن وكان المراد الجنس؛ كقول النبيّ ﷺ حين أخذ ذهباً وحريراً فقال: «هذان حرامان على ذكور أمتي». وقال في خبر آخر: «هذان مهلكان أمتي». وإنما أراد الجنس لا العين.

الحادية عشرة ـ يقال: إن أوّل مَن أكل من الشجرة حوّاء بإغواء إبليس إياها ـ على ما يأتي بيانه ـ وإن أوّل كلامه كان معها لأنها وسواس المخدّة، وهي أوّل فِتنة دخلت على الرجال من النساء؛ فقال: ما مُنعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخُلْد؛ لأنه علم منهما أنهما كانا يُحبّان الخُلْد، فأتاهما من حيث أحبّا ـ «حُبّك الشيء يُعمِي ويُصِم» ـ فلما قالت حوّاء لآدم أنكر عليها وذكر العهد؛ فألحّ على حوّاء وألَحّت حوّاء على آدم، إلى أن قالت: أنا آكل قبلك حتى إن أصابني شيء سَلِمْتَ أنت؛ فأكلتْ فلم يضرها، فأتت آدم فقالت: كُلْ فإني قد أكلتُ فلم يضرّني؛ فأكل فبدت لهما سوءاتهما وحصلا في حكم الذنب؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فجمعهما في النّهي؛ فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وُجد المنهيّ عنه منهما جميعاً، وخَفيت على آدم هذه المسألة؛ ولهذا قال بعض العلماء: إن من قال لزوجتيه أو أَمَتَيْهِ: إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حُرّتان؛ إن الطلاق والعتق لا يقع بدخول إحداهما. وقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال؛ قال ابن القاسم: لا تطلقان ولا تَعتِقان إلا باجتماعهما في الدخول؛ حملاً على هذا الأصل وأخذاً بمقتضى مطلق اللفظ. وقاله سُحْنون. وقال ابن القاسم مرة أخرى: تطلقان جميعاً وتَعتِقان جميعاً بوجود الدخول من إحداهما؛ لأن بعض الحِنْث حِنْث؛ كما لو حلف ألاّ يأكل هذين الرغيفين فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بأكل لُقمة منهما. وقال أشهب: تَعتِق وتطلُق التي دخلت وحدها؛ لأن دخول

كلّ واحدة منهما شرطٌ في طلاقها أو عتقها. قال ابن العربي: وهذا بعيد؛ لأن بعض الشرط لا يكون شرطاً إجماعاً.

قلت: الصحيح الأوّل، وإن النّهي إذا كان معلّقاً على فعلين لا تتحقق المخالفة إلا بهما؛ لأنك إذا قلت: لا تدخلا الدار؛ فدخل أحدهما ما وُجدت المخالفة منهما؛ لأن قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ نَهْيٌ لهما ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جوابه؛ فلا يكونا من الظالمين حتى يفعلا؛ فلما أكلت لم يصبها شيء؛ لأن المنهيّ عنه ما وُجد كاملاً. وخَفِيَ هذا المعنى على آدم فطمع ونسي هذا الحكم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ولَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾. وقيل: نسي قوله: ﴿إنّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنّةِ فَتَشْقى﴾. والله أعلم.

الثانية عشرة ـ واختلف العلماء في هذا الباب هل وقع من الأنبياء ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ صغائر من الذنوب يؤاخذون بها ويعاتبون عليها أم لا ـ بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رزيلة فيها شَيْن ونقص إجماعاً عند القاضي أبي بكر[١]؛ وعند الأستاذ أبي إسحاق[٢] أن ذلك مقتضى دليل المعجزة؛ وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم ـ؛ فقال الطبري وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدّثين: تقع الصغائر منهم. خلافاً للرافضة حيث قالوا: إنهم معصومون من جميع ذلك؛ واحتجّوا بما وقع من ذلك في التنزيل وثبت من تنصّلهم من ذلك في الحديث، وهذا ظاهر لا خفاء فيه. وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي: إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها؛ لأنا أُمِرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسِيَرهم أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميّز مقصده من القُرْبة والإباحة أو الحَظْر أو المعصية، ولا يصحّ أن يؤمر المرء بامتثال أمرٍ لعلّه معصية، لا سيّما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين. قال

---

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلاني.

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني. وفي «الأصول» «عند الأستاذ أبي بكر» وهو تحريف. (راجع الكلام في عصمة الأنبياء في شرح المواقف).

الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني: واختلفوا في الصغائر؛ والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة. وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأوّل: الذي ينبغي أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونَسَبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصّلوا منها وأشفقوا منها وتابوا؛ وكل ذلك وَرَد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قَبِل ذلك آحادها؛ وكل ذلك مما لا يُزْرِي بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة النُّدور وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهم سيئات؛ [بالنسبة] إلى مناصبهم وعُلوّ أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحق. ولقد أحسن الجُنَيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يُخِلّ ذلك بمناصبهم ولا قَدَح في رُتَبهم، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكّاهم واختارهم واصطفاهم؛ صلوات الله عليهم وسلامه.

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الظُّلم أصله وضع الشيء في غير موضعه. والأرض المظلومة: التي لم تُحفر قطُّ ثم حُفرت. قال النابغة:

وقفتُ فيها أُصَيْلالاً أسائلها ... عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبع مِن أحد
إلا الأَوَارِيَّ لأْياً ما أُبَيِّنها ... والنُّؤْيَ كالحَوْض بالمظلومة الجلَدَ[1]

ويُسَمَّى ذلك التراب الظَّلِيم. قال الشاعر:

فأصبَحَ في غبراءَ بعد إشاحةٍ[2] ... على العيش مردودٍ عليها ظَلِيمُها

(١) الأواري (واحدها آرى): حبل تشدّ به الدابة في محسبها. واللأي: المشقة والجهد. والنؤي: حفرة حول البيت لئلا يصل إليه الماء. والجلد (بالتحريك): الأرض الصلبة. راجع خزانة الأدب في إعرابه.

(٢) الإشاحة: الحذر والخوف لمن حاول أن يدفع الموت. قال صاحب اللسان: «يعني حفرة القبر يردّ ترابها عليه بعد دفن الميت فيها».

وإذا نُحِر البعيرُ من غير داء به فقد ظُلم؛ ومنه: * . . . ظَلاّمون للجُزُر[١] *

ويقال: سقانا ظَلِيمة طيّبة؛ إذا سقاهم اللبن قبل إدراكه. وقد ظَلَم[٢] وَطْبَه؛ إذا سَقَى منه قبل أن يَرُوب ويُخْرَج زُبْده. واللّبنُ مظلوم وظَليم. قال:

وقــائلــةٍ ظلمــتُ لكــم سقــائـي وهل يَخْفَى على العَكَدِ الظليم[٣]

ورجل ظَلِيم: شديد الظلم. والظلم: الشرك؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٤].

قوله تعالى: ﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً﴾ حُذفت النون من «كُلاَ» لأنه أَمْر، وحُذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وحذفها شاذّ. قال سيبويه: مِن العرب من يقول أُؤْكُل؛ فيُتِمّ. يقال منه: أَكَلْت الطعام أَكْلاً ومَأْكَلاً. والأَكْلة (بالفتح): المرّة الواحدة حتى تشبع. والأُكْلة (بالضم): اللُّقْمة؛ تقول: أكلت أُكْلَة واحدة؛ أي لُقْمة، وهي القُرْصة أيضاً. وهذا الشيء أُكْلَةٌ لك؛ أي طُعْمَةٌ لك. والأُكْلُ أيضاً ما أُكل. ويقال: فلان ذو أُكْل؛ إذا كان ذا حظّ من الدنيا ورزق واسع. ﴿رَغَداً﴾ نعتٌ لمصدر محذوف؛ أي أَكْلاً رَغَداً. قال ابن كَيْسان: ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال. وقال مجاهد: «رَغَداً» أي لا حساب عليهم. والرّغد في اللغة: الكثير الذي لا يُعَنّيك؛ ويقال: أرغد القوم؛ إذا وقعوا في خِصْب وسَعَة. وقد تقدّم[٥] هذا المعنى. و ﴿حَيْثُ﴾ مبنيّة على الضّم؛ لأنها خالفت أخواتها الظروف في أنها لا تضاف، فأشبهت قبلُ وبعدُ إذا أفردتا فضُمّت. قال الكسائي: لغة قيس وكِنانة الضّم، ولغة تميم الفتح. قال الكسائي: وبنو أسد يخفضونها في موضع الخفض، وينصبونها في موضع النصب؛ قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾[٦] وتُضمّ وتُفتح. ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الهاء من «هذه» بدل من ياء الأصل؛ لأن الأصل هذي. قال النحاس: ولا أعلم في العربية هاء تأنيث مكسوراً ما قبلها

---

(١) عجز بيت لابن مقبل، وهو بتمامه:

عــاد الأذلــة فــي دار وكــان بهــا هُــرْتُ الشّقــاشــق ظلاّمــون للجــزر

(٢) الوطب (بفتح فسكون): الزق الذي يكون فيه السمن واللبن.

(٣) ظلمت سقائي: سقيتهم إياه قبل أن يروب. والعكد (بضم العين وفتحها وفتح الكاف جمع العُكْدَة والعَكَدة): أصل اللسان.

(٤) راجع ١٤/ ٦٢.

(٥) راجع المسألة السادسة ص٣٠٣ من هذا الجزء.

(٦) آية ١٨٢ سورة الأعراف. و ٤٤ سورة القلم.

إلا هاء «هذه». ومن العرب من يقول: هاتا هند، ومنهم من يقول: هاتي هند. وحكى سيبويه: هذه هند؛ بإسكان الهاء. وحكى الكسائي عن العرب: ولا تقربا هذي الشجرة. وعن شِبْل بن عبّاد قال: كان ابن كَثير وابن مُحَيْصِن لا يُثبتان الهاء في «هذه» في جميع القرآن. وقراءة الجماعة «رَغَداً» بفتح الغين. وروي عن ابن وَثّاب والنَّخَعِيّ أنهما سَكّنَا الغين. وحكى سلمة عن الفرّاء قال يقال: هذه فعلت وهذي فعلت، بإثبات ياء بعد الذال. وهذِ فعلت، بكسر الذال من غير إلحاق ياء ولا هاء. وهاتا فعلت. قال هشام ويقال: تافعلت. وأنشد:

خَلِيليّ لَوْلاَ ساكنُ الدَّارِ لم أُقِمْ ... بِتَا الدَّارِ إلاّ عابرَ ابن سبيل

قال ابن الأنباري: وتا بإسقاط ها بمنزلة ذي بإسقاط ها من هذي، وبمنزلة ذه بإسقاط ها من هذه. وقد قال الفرّاء: مَن قال هذِ قامتْ لا يُسقط ها؛ لأن الاسم لا يكون على ذال واحدة.

﴿فَتَكُونَا﴾ عطف على «تقربا» فلذلك حُذفت النون. وزعم الجَرْمِيّ[1] أن الفاء هي الناصبة؛ وكلاهما جائز.

[٣٦] ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ فيه عشر مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنهَا﴾ قرأ الجماعة «فَأَزَلّهما» بغير ألف، من الزَّلة وهي الخطيئة؛ أي استزلهما وأوقعهما فيها. وقرأ حمزة «فأزالهما» بألف، من التَّنحية؛ أي نَحّاهما. يقال: أزلته فزال. قال ابن كَيسان: فأزالهما من الزوال؛ أي صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية.

قلت: وعلى هذا تكون القراءاتان بمعنىً، إلاّ أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى. يقال منه: أزْلَلْته فزَلّ. ودلّ على هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾[2]، وقوله:

(١) الجرمى (بفتح الجيم وسكون الراء): صالح بن إسحاق أبو عمر مولى جرم؛ لغوي مشهور. (عن بغية الوعاة).

(٢) راجع ٤/ ٢٤٣.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ والوسوسة إنما هي إدخالهما في الزّلل بالمعصية؛ وليس للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان، إنما قدرته [على] إدخاله في الزلل؛ فيكون ذلك سبباً إلى زواله من مكان إلى مكان بذنبه. وقد قيل: إن معنى أزلهما مِن زلّ عن المكان إذا تنحّى؛ فيكون في المعنى كقراءة حمزة من الزوال. قال امرؤ القيس:

يُـزِلّ الغـلامُ الخِـفُّ عـن صَهَـواتِـه ويُلْوِي بأثواب العَنيف المثقَّلِ[١]

وقال أيضاً:

كُمَيْتٍ يُـزِلُّ اللِّبْـدُ عـن حـال مَتْنِـه كمـا زلّـت الصّفْـواء بـالمتنـزِّل[٢]

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمّا كَانَا فِيهِ ﴾ إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله: « فأخرجهما » تأكيد وبيان للزوال؛ إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة، وليس كذلك، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض؛ لأنهما خلقا منها، وليكون آدم خليفة في الأرض. ولم يقصد إبليس ـ لعنه الله ـ إخراجه منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أبعد هو؛ فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده، بل ازداد سُخْنَةَ[٣] عَين وغَيظ نفس وخَيبة ظنّ. قال الله جلّ ثناؤه: ﴿ ثُمّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾[٤] فصار عليه السلام خليفة الله في أرضه بعد أن كان جاراً له في داره؛ فكم بين الخليفة والجار! ﷺ. ونسب ذلك إلى إبليس؛ لأنه كان بسببه وإغوائه. ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولي إغواء آدم؛ واختلف في الكيفية، فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء أغواهما مشافهة؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِيْنَ﴾ والمقاسمة ظاهرها المشافهة. وقال بعضهم، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن مُنَبِّه: دخل الجنة في فم الحيّة وهي ذات أربع كالبُخْتِيّة من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض

---

(١) الخف (بالكسر): الخفيف. والصهوة: موضع اللبد من ظهر الفرس. ويلوي بها: يذهب بها من شدّة عدوه. والعنيف: الذي لا يحسن الركوب، وليس له رفق بركوب الخيل. والمثقل: الثقيل.

(٢) الكميت: لون ليس بأشقر ولا أدهم. والحال: موضع اللبد من ظهر الفرس. والصفواء (جمع صفاة): الصخرة الملساء. والمتنزل: الذي ينزل عليها فيزلق عنها.

(٣) سخنت عينه: نقيض قرّت.

(٤) راجع ١١/٢٥٧.

نفسه على كثير من الحيوان فلم يُدخله إلا الحيّة؛ فلما دخلت به الجنة خرج من جَوْفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عنها فجاء بها إلى حوّاء فقال: ٱنظري إلى هذه الشجرة، ما أطيبَ ريحَها وأطيبَ طعمَها وأحسن لونَها! فلم يزل يُغويها حتى أخذتها حوّاء فأكلتها. ثم أغوى آدم، وقالت له حوّاء: كُلْ فإني قد أكلتُ فلم يضرّني؛ فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما وحصلا في حكم الذنب؛ فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربه: أين أنت؟ فقال: أنا هذا يا ربّ؛ قال: ألا تخرج؟ قال أستحي منك يا رب؛ قال: ٱهبط إلى الأرض التي خُلقت منها. ولُعنت الحيّة ورُدّت قوائمها في جوفها وجعلت العداوة بينها وبين بني آدم؛ ولذلك أُمِرنا بقتلها؛ على ما يأتي بيانه. وقيل لحوّاء: كما أدْمَيْت الشجرة فكذلك يصيبك الدّم كل شهر وتحملين وتضعين كرهاً تشرفين به على الموت مراراً. زاد الطبري والنقاش: وتكوني سَفيهة وقد كنت حَلِيمة. وقالت طائفة: إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعدما أخرج منها وإنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التي أعطاه الله تعالى؛ كما قال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ٱبن آدم مجرى الدم». والله أعلم. وسيأتي في الأعراف[1] أنه لما أكل بقي عُرياناً وطلب ما يستتر به فتباعدت عنه الأشجار وبَكّتوه بالمعصية، فرحمته شجرة التّين، فأخذ من ورقه فٱستتر به، فبُلِيَ بالعُرْي دون الشجر. والله أعلم. وقيل: إن الحكمة في إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا.

الثالثة ـ يُذكر أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام في الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك؛ فلما أهبطوا تأكّدت العداوة وجُعل رزقها التراب، وقيل لها: أنت عدوّ بني آدم وهم أعداؤك وحيث لَقِيَك منهم أحدٌ شَدَخ رأسك. روى ٱبن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «خمسٌ يقتلهنّ المُحْرِم» فذكر الحية فيهن. وروي أن إبليس قال لها: أدخليني الجنة وأنت في ذمّتي؛ فكان ٱبن عباس يقول: ٱخْفِرُوا[2] ذِمّة إبليس. وروَت ساكنةُ بنتُ الجَعْد عن سَرّاء[3] بنت نَبْهان الغَنَوِيّة قالت: سمعت

---

(١) راجع ٧/ ١٨١.

(٢) أي ٱنقضوا عهده وذمامه.

(٣) في «التقريب»: «بفتح أوّلها وتشديد الراء المهملة مع المدّ». وفي «أسد الغابة»: «بفتح السين وإمالة الراء المشدّدة، وآخره ياء ساكنة».

رسول الله ﷺ يقول: «اقتلوا الحيّات صغيرَها وكبيرَها وأسودَها وأبيضَها فإن مَن قتلها كانت له فداء من النار ومَن قتلته كان شهيداً». قال علماؤنا: وإنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس وإعانته على ضرر آدم وولده؛ فلذلك كان مَن قتل حيّة فكأنما قتل كافراً. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يجتمع كافرٌ وقاتلُه في النار أبداً». أخرجه مسلم وغيره.

الرابعة - روى ابن جُريج عن عمرو بن دِينار عن أبي عبيدة[1] بن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبيّ ﷺ بمنًى فمرّت حيّة فقال رسول الله ﷺ: «اقتلوها» فسبقتنا إلى جُحْر فدخلته؛ فقال رسول الله ﷺ: «هاتوا بسعفة ونار فأضرموها عليه ناراً». قال علماؤنا: وهذا الحديث يخصّ نهيه عليه السلام عن المُثْلَة وعن أن يعذّب أحد بعذاب الله تعالى؛ قالوا: فلم يُبق[2] لهذا العدوّ حُرْمة حيث فاته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر.

فإن قيل: قد رُوي عن إبراهيم النَّخَعِي أنه كره أن تُحرق العقرب بالنار، وقال: هو مُثْلَة. قيل له: يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبيّ ﷺ، وعمل على الأثر الذي جاء: «لا تعذِّبوا بعذاب الله» فكان على هذا سبيل العمل عنده.

فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبيّ ﷺ في غار وقد أنزلت عليه: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً﴾ فنحن نأخذها مِن فِيهِ رَطْبَة، إذ خرجت علينا حيّة، فقال: «اقتلوها»؛ فابتدرناها لنقتلها فسبقتنا؛ فقال رسول الله ﷺ: «وقاها الله شرّكم كما وقاكم شرّها». فلم يُضرم ناراً ولا احتال في قتلها. قيل له: يحتمل أن يكون لم يجد ناراً فتركها، أو لم يكن الجُحْر بهيئة ينتفع بالنار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيوان. والله أعلم. وقوله: «وقاها الله شركم» أي قتلَكم إيّاها «كما وقاكم شرها» أي لَسْعَها.

---

(١) كذا في جميع نسخ الأصل. وفي غيرها من التفاسير: «عن عبد الله بن مسعود». ويبدو أن الأصل: «عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله» إلخ.

(٢) الضمير للحديث؛ أي لم يبق هذا الحديث إلخ.

الخامسة ـ الأمْرُ بقتل الحَيّات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المخُوفة من الحيات؛ فما كان منها متحقَّق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله؛ لقوله: «اقتلوا الحيّات واقتلوا ذا الطُّفْيَتَين(١) والأبتَر فإنهما يَخطفان البصر ويُسقطان الحَبَل». فخصّهما بالذكر مع أنهما دخلا في العموم ونبّه على ذلك بسبب عظم ضررهما. وما لم يتحقق ضرره فما كان منها في غير البيوت قُتل أيضاً لظاهر الأمر العام، ولأن نوع الحيّات غالبه الضرر، فيستصحب ذلك فيه، ولأنه كله مروّع بصورته وبما في النفوس من النّفرة عنه؛ ولذلك قال ﷺ: «إن الله يحب الشّجاعة ولو على قتل حيّة». فشجّع على قتلها. وقال فيما خرّجه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً: «اقتلوا الحيات [كلهنّ(٢)] فمن خاف ثأرهنّ فليس مني». والله أعلم.

السادسة ـ ما كان من الحيّات في البيوت فلا يُقتل حتى يُؤذن ثلاثة أيام؛ لقوله عليه السلام: «إن بالمدينة جِنّاً قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام». وقد حمل بعض العلماء هذا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجنّ بها؛ قالوا: ولا نعلم هل أسلم مِن جنّ غير المدينة أحدٌ أو لا؛ قاله ابن نافع. وقال مالك: نهي عن قتل جِنان(٣) البيوت في جميع البلاد. وهو الصحيح؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿وإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ﴾(٤) الآية. وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «أتاني داعي الجنّ فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن» وفيه: وسألوه الزاد وكانوا من جِنّ الجزيرة؛ الحديث. وسيأتي بكماله في سورة «الجن»(٥) إن شاء الله تعالى. وإذا ثبت هذا فلا يقتل شيء منها حتى يُحرَّج(٦) عليه ويُنذر؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

---

(١) ذو الطفيتين: حية لها خطان أسودان كالطفيتين أي الخوصتين.

(٢) الزيادة عن «سنن أبي داود».

(٣) جنان (بتشديد النون الأولى، جمع جان): ضرب من الحيات الدقيق الخفيف يضرب إلى الصفرة ليس بسام، وهو كثير في بيوت الناس.

(٤) راجع ١٦/ ٢١٠.

(٥) راجع ١٩/ ١ فما بعد.

(٦) في هامش نسخة من الأصل: «التحريج هو أن يقول لها: أنت في حرج ـ أي في ضيق ـ إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نضيق عليك بالتتبع والطرد والقتل». وكذلك هو في نهاية ابن الأثير واللسان.

السابعة ـ روى الأئمة عن أبي السائب مَوْلى هشام بن زُهـرة أنه دخل على أبي سعيد الخُدْريّ في بيته، قال: فوجدته يصلّي، فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته، فسمعت تحريكاً في عَراجينَ ناحية البيت ، فالتفتّ فإذا حيّة ، فوثبتُ لأقتلها ؛ فأشار إليّ أن اجلس فجلست؛ فلما ٱنصرف أشار إلى بيت في الدار فقال: أترى هذا البيت؟ فقلت نعم ؛ فقال: كان فيه فَتًى منّا حديثُ عهد بعُرْس ، قال : فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخَنْدَق؛ فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله؛ فٱستأذنه يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «خُذ عليك سلاحك فإني أخشى عليك قُرَيْظَة» . فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع ؛ فإذا ٱمرأتُه بين البابين قائمة فأهْـوَى إليها بالرُّمح ليطعُنَها به وأصابته غيْرَة؛ فقالت له: ٱكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني! فدخل فإذا بحيّة عظيمة منطوِية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فٱنتظمها به ، ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه، فما يُدْرَى أيُّهما كان أسرعَ موتاً ، الحيّةُ أمِ الفتى! قال : فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له ، وقلنـا : ٱدع الله يحييه [لنا[1]]؛ فقال: «ٱستغفروا لأخيكم[2] ـ ثم قال: ـ إنّ بالمدينة جِنّاً قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذِنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان» . وفي طريق أخرى فقال رسول الله ﷺ : « إن لهذه البيوت عوامـر[3] فـإذا رأيتم شيئاً منها فحرِّجوا عليها ثلاثاً فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر ـ وقال لهم : ـ ٱذهبـوا فٱدفِنـوا صاحبكم » . قال علماؤنا رحمـة الله عليهم : لا يُفهـم من هـذا الحديـث أن هذا الجان الذي قتله هذا الفتى كان مسلِماً وأن الجن قتلته به قصاصاً؛ لأنه لو سُلِّم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون في العمد المحض؛ وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمّد قتل نفس مسلمة ، إذ لم يكن عنده علم من ذلـك ، وإنما قصـد إلى قتل ما سُوّغ قتل نوعه شرعاً؛ فهذا قتل خطأ ولا قصاص فيه. فالأولى

(١) الزيادة عن «صحيح مسلم».

(٢) في «صحيح مسلم»: «لصاحبكم».

(٣) العوامر: الحيات التي تكون في البيوت، واحدها عامر وعامرة.

أن يقال: إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عَدْواً وٱنتقاماً. وقد قتلت سعد بن عُبَادة رضي الله عنه؛ وذلك أنه وُجد ميتاً في مغتسله وقد ٱخضرّ جسده، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلاً يقول ولا يروْن أحداً:

قد قتلنا سيّد الخَزْ رَج سعدَ بن عُبادَه
ورميناه بسهميـ ـن فلم نُخْطِ فؤاده

وإنما قال النبيّ ﷺ: «إن بالمدينة جِنّاً قد أسلموا» ليبيّن طريقاً يحصل به التحرّز من قتل المسلم منهم ويتسلط به على قتل الكافر منهم. رُوِي من وجوه أن عائشةَ زوج النبيّ ﷺ قتلت جانّاً فأُرِيتْ في المنام أن قائلاً يقول لها: لقد قتلت مسلماً، فقالت: لو كان مسلماً لم يدخل على أزواج النبيّ ﷺ؛ قال: ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك. فأصبحت فأمرت بٱثني عشر ألف درهم فجعلت في سبيل الله. وفي رواية: ما دخل عليك إلا وأنت مستترة؛ فتصدّقت وأعتقت رِقاباً. وقال الربيع بن بدر: الجان من الحيّات التي نَهى النبيّ ﷺ عن قتلها هي التي تمشي ولا تلتوي؛ وعن علقمة نحوه.

الثامنة ـ في صفة الإنذار؛ قال مالك: أحَبُّ إليّ أن يُنذَروا ثلاثة أيام. وقاله عيسى بن دينار؛ وإن ظهر في اليوم مراراً. ولا يُقتصر على إنذاره ثلاث مرار في يوم واحد حتى يكون في ثلاثة أيام. وقيل: يكفي ثلاث مرار؛ لقوله عليه السلام: «فليؤذنه ثلاثاً»، وقوله: «حرِّجوا عليه ثلاثاً» ولأن ثلاثاً للعدد المؤنث؛ فظهر أن المراد ثلاث مرات. وقول مالك أولى؛ لقوله عليه السلام: «ثلاثة أيام». وهو نص صحيح مقيّد لتلك المطلقات، ويحمل ثلاثاً على إرادة ليالي الأيام الثلاث، فغلب الليلة على عادة العرب في باب التاريخ فإنها تغلب فيها التأنيث. قال مالك: ويكفي في الإنذار أن يقول: أحرّج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدوا لنا ولا تؤذونا. وذكر ثابت البُنَاني عن عبد الرحمن بن أبي لَيْلَى أنه ذكر عنده حيات البيوت فقال: إذا رأيتم منها شيئاً في مساكنكم فقولوا: أنشدكم بالعهد الذي أخذ عليكم نوح

عليه السلام، وأنشدكم بالعهد الذي أخذ عليكم سليمان عليه السلام؛ فإذا رأيتم منهن شيئاً بعدُ فاقتلوه.

قلت: وهذا يدلّ بظاهره أنه يكفي في الإذن مرّة واحدة؛ والحديث يردّه. والله أعلم. وقد حكى ٱبن حبيب عن النبيّ ﷺ أنه يقول: «أنشدكنّ بالعهد الذي أخذ عليكنّ سليمان ـ عليه السلام ـ ألاّ تؤذيننا وألاّ تظهرنّ علينا.

التاسعة - روى جُبير عن نُفير عن أبي ثعلبة الخُشَنِيّ ـ وٱسمه جرثوم ـ أن رسول الله ﷺ قال: «الجنّ على ثلاثة أثلاث فثلثٌ لهم أجنحة يطيرون في الهواء وثلث حيات وكلاب وثلث يَحلّون ويَظعَنون». وروى أبو الدَّرداء ـ وٱسمه عُوَيْمر ـ قال قال رسول الله ﷺ: «خلق الجنّ ثلاثة أثلاث فثلث كلاب وحيّات وخَشاش الأرض وثلث ريح هفّافة وثلث كبني آدم لهم الثواب وعليهم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث فثلث لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يُبصرون بها وأذان لا يسمعون بها إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً وثلث أجسادهم كأجساد بني آدم وقلوبهم قلوب الشياطين وثلث في ظلّ الله يوم لا ظِلّ إلا ظلّه».

العاشرة - ما كان من الحيوان أصله الإذاية فإنه يُقتل ٱبتداء، لأجل إذايته من غير خلاف؛ كالحيّة والعَقْرب والفأر والوَزَغ، وشبهه. وقد قال رسول الله ﷺ: «خمسٌ فواسقُ يُقتلن في الحِلّ والحَرَم...». وذكر الحديث.

فالحيّة أبدت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنة بين فكّيها؛ ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به. وقال لها إبليس أنت في ذمتي؛ فأمر رسول الله ﷺ بقتلها وقال: «ٱقتلوها ولو كنتم في الصلاة» يعني الحية والعقرب.

والوَزَغة[1] نفخت على نار إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فلُعنت. وهذا من نوع ما يُرْوَى في الحية. ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن قتل وَزَغة فكأنما

(١) الوزغة (بالتحريك): هي التي يقال لها سامّ أبرص.

قتل كافراً». وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «مَن قَتل وَزَغة في أوّل ضربة كُتبت له مائةُ حسنة وفي الثانية دون ذلك وفي الثالثة دون ذلك» وفي رواية أنه قال: «في أوّل ضربة سبعون حسنة».

والفأرة أبدت جوهرها بأن عمدت إلى حبال سفينة نوح عليه السلام فقطعتها. وروى عبد الرحمن بن أبي نُعْم عن أبي سعيد الخُدْرِيّ أن رسول الله ﷺ قال: «يَقتل المُحْرِمُ الحيّةَ والعقرب والحدأة والسَّبُع العادي والكلب العقور والفُوَيْسقة». وٱستيقظ رسول الله ﷺ وقد أخذت فَتِيلة لتحرق البيت فأمر رسول الله ﷺ بقتلها.

والغراب أبدى جوهره حيث بعثه نبيّ الله نوح عليه السلام من السفينة ليأتيه بخبر الأرض فترك أمره وأقبل على جِيفة. هذا كلّه في معنى الحيّة؛ فلذلك ذكرناه. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في التعليل في «المائدة[1]» وغيرها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا﴾ حُذفت الألف من «ٱهبطوا» في اللفظ لأنها ألف وصل. وحُذفت الألف من «قلنا» في اللفظ لسكونها وسكون الهاء بعدها. وروى محمد بن مصَفَّى عن أبي حَيْوَةَ ضمّ الباء في «ٱهبطوا»، وهي لغة يقوّيها أنه غير متعدّ والأكثر في غير المتعدّي أن يأتي على يَفْعُل. والخطاب لآدم وحواء والحية والشيطان؛ في قول ٱبن عباس. وقال الحسن: آدم وحواء والوسوسة. وقال مجاهد والحسن أيضاً: بنو آدم وبنو إبليس. والهبوط: النزول من فوق إلى أسفل؛ فأهبط آدم بسَرَنْدِيبَ في الهند بجبل يقال له «بوذ[2]» ومعه ريح الجنة فعلِق بشجرها وأوديتها فٱمتلأ ما هناك طِيباً؛ فمن ثَمَّ يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام. وكان السحاب يمسح رأسه فأصلع، فأورث ولده الصلع. وفي «البخاريّ» عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «خلق الله آدم

---

(١) راجع ٦/٣٠٣.

(٢) في «اللسان والقاموس ومعجم البلدان ومروج الذهب»: «راهون».

وطوله ستون ذراعاً» الحديث. وأخرجه مسلم وسيأتي. وأهبطت حوّاء بجُدّة وإبليس بالأُبُلّة(١)، والحيّة ببَيْسان(٢)، وقيل: بسَجِسْتان(٣). وسجستان أكثر بلاد الله حيات، ولولا العِرْبَدّ(٤) الذي يأكلها ويفني كثيراً منها لأُخليت سجستان من أجل الحياتِ؛ ذكره أبو الحسن المسعودي.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ «بعضكم» مبتدأ، «عدوّ» خبره، والجملة في موضع نصب على الحال؛ والتقدير وهذه حالكم. وحذفت الواو من و «بعضكم» لأن في الكلام عائداً؛ كما يقال: رأيتك السماء تمطر عليك. والعدوّ: خلاف الصديق؛ وهو من عدا إذا ظلم. وذئب عَدَوان: يَعْدُو على الناس. والعُدْوان: الظلم الصُّراح. وقيل: هو مأخوذ من المجاوزة؛ من قولك: لا يَعْدُوك هذا الأمر؛ أي لا يتجاوزك. وعداه إذا جاوزه؛ فسمّي عدوّاً لمجاوزة الحد في مكروه صاحبه؛ ومنه العَدْوُ بالقَدَم لمجاوزة الشيء، والمعنيان متقاربان؛ فإن من ظلم فقد تجاوز.

قلت: وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ على الإنسان نفسه، وفيه بُعْدٌ وإن كان صحيحاً معنًى. يدلّ عليه قوله عليه السلام: «إن العبد إذا أصبح تقول جوارحه للسانه ٱتق الله فينا فإنك إذا ٱستقمت ٱستقمنا وإن ٱعوججت ٱعوججنا».
فإن قيل: كيف قال «عدوّ» ولم يقل أعداء؛ ففيه جوابان أحدهما: أن بَعْضاً وكُلاًّ يُخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى، وذلك في القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْداً﴾(٥) على اللفظ، وقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾(٦) على المعنى. والجواب الآخر: أن عدوّاً يفرد في موضع الجمع؛ قال الله عز وجل: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾(٧) بمعنى أعداء، وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾(٨). وقال ٱبن فارس: العدوّ ٱسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يجمع.

---

(١) الأبلة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها): البلد المعروف قرب البصرة من جانبها البحري.
(٢) بيسان: بلدة بمرو وبالشام وموضع باليمامة.
(٣) سجستان (بكسر أوله وثانيه وقد يفتح أوله): ٱسم مدينة من مدن خراسان. عن «شرح القاموس».
(٤) العربدّ (بكسر العين وسكون الراء وفتح الباء وكسرها وتشديد الدال): حية تنفخ ولا تؤذي.
(٥) راجع ١١/ ١٦٠.
(٦) راجع ١٣/ ٢٤١.
(٧) راجع ١٠/ ٤٢٠.
(٨) راجع ١٨/ ١٢٥.

الثالثة ـ لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِل توبته، وإنما أهبطه إمّا تأديباً وإمّا تغليظاً للمِحْنة. والصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزليّة في ذلك، وهي نشر نَسله فيها ليكلّفهم ويمتحنهم، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأُخْرَوِيّ؛ إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف؛ فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة. ولله أن يفعل ما يشاء. وقد قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وهذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة؛ وقد تقدّمت الإشارة إليها مع أنه خُلق من الأرض. وإنما قلنا إنما أهبطه بعد أن تاب عليه لقوله ثانية: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾ وسيأتي[١].

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ ابتداء وخبر؛ أي موضع استقرار. قاله أبو العالية وابن زيد. وقال السُّدِّيّ: «مُسْتَقَرّ» يعني القبور.

قلت: وقول الله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً﴾[٢] يحتمل المعنيين. والله أعلم.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَمَتَاعٌ﴾ المتاع ما يُستمتع به من أكل ولُبْس وحياة وحديث وأنس وغير ذلك؛ ومنه سُمِّيت مُتعة النكاح لأنها يُتَمَتَّع بها. وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه:

وقفتُ على قبرٍ غريبٍ بقَفْرةٍ متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارِق

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ اختلف المتأوّلون في الحين على أقوال؛ فقالت فرقة: إلى الموت؛ وهذا قول من يقول: المستقَرّ هو المقام في الدنيا. وقيل: إلى قيام الساعة؛ وهذا قول من يقول: المستقَرّ هو القبور. وقال الربيع: «إلى حين» إلى أجل. والحين: الوقت البعيد؛ فحينئذ تبعيدٌ من قولك الآن. قال خويلد:

كابِي[٣] الرَّماد عظيمُ القِدْرِ جَفْنَتُه حِينَ الشتاءِ كحوْض المَنْهَلِ اللَّقِفِ

لَقِف الحوض لَقَفاً؛ أي تهوّر من أسفله واتّسع. وربما أدخلوا عليه التاء. قال أبو وَجْزَة:

العاطفون تَحِين ما مِن عاطفٍ والمُطْعِمون زمانَ أيْنَ المُطْعِمُ

(١) ص ٣٢٧. (٢) راجع ١٥/٣٢٨. (٣) كابي الرماد: أي عظيم الرماد.

والحِين أيضاً: المدّة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾[١]. والحِين: الساعة؛ قال الله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾[٢]. قال ٱبن عَرَفة: الحِين القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها. وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾[٣] أي حتى تفنى آجالهم. وقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾[٤] أي كل سنة؛ وقيل: بل كل ستة أشهر؛ وقيل: بل غُدْوَةً وَعَشِيًّا. قال الأزهريّ: الحِين ٱسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت. والمعنى أنه ينتفع بها في كل وقت ولا ينقطع نفعها البَتّةَ. قال: والحِين يوم القيامة. والحين: الغُدْوَة والعَشِيّة؛ قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[٥]. ويقال: عاملته محايَنَةً؛ من الحِين. وأحينت بالمكان: إذا أقمت به حِيناً. وحان حينُ كذا أي قرب. قالت بُثَيْنَةُ:

وإنّ سُلُـوّي عــن جميــلٍ لسـاعــةٌ ... من الدهر ما حانت ولا حان حِينُهَا

السابعة ـ لما ٱختلف أهل اللسان في الحِين ٱختلف فيه أيضاً علماؤنا وغيرهم؛ فقال الفَرّاء: الحين حِينان: حِين لا يوقف على حدّه، والحِين الذي ذكر الله جل ثناؤه: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[٥] ستة أشهر. قال ٱبن العربي: الحِين المجهول لا يتعلّق به حُكم، والحِين المعلوم هو الذي تتعلق به الأحكام ويرتبط به التكليف؛ وأكثر المعلوم سنة. ومالك يرى في الأحكام والأيمان أعمّ الأسماء والأزمنة. والشافعي يرى الأقل. وأبو حنيفة توسط فقال: ستة أشهر. ولا معنى لقوله؛ لأن المقدّرات عنده لا تثبت قياساً، وليس فيه نص عن صاحب الشريعة، وإنما المعوّل على المعنى بعد معرفة مقتضى اللفظ لغة. فمن نَذَر أن يصلّي حِيناً فيُحمل على ركعة عند الشافعي؛ لأنه أقل النافلة، قياساً على ركعة الوتر. وقال مالك وأصحابه: أقل النافلة ركعتان؛ فيتقدّر الزمان بقدر الفعل. وذكر ٱبن خُوَيْزِ مَنْداد في أحكامه: أن من حلف ألاّ يكلم فلاناً حيناً، أو لا يفعل كذا حيناً أن الحين سنة. قال: وٱتفقوا في الأحكام أن من حلف ألاّ يفعل كذا حيناً أو لا يُكلّم فلاناً حيناً، أن الزيادة على سنة لم تدخل في يمينه.

---

(١) راجع ١٩/١١٦.
(٢) راجع ١٥/٢٧٢.
(٣) راجع ١٢/١٣٠.
(٤) راجع ٩/٣٦٠. (٥) راجع ١٤/١٤.

قلت: هذا الاتفاق إنما هو في المذهب. قال مالك رحمه الله: مَنْ حلف ألا يفعل شيئاً إلى حِينٍ أو زمان أو دهر، فذلك كلّه سنة. وقال عنه ٱبن وهب: إنه شك في الدهر أن يكون سنة. وحكى ٱبن المنذر عن يعقوب وٱبن الحسن: أن الدهر ستة أشهر. وعن ٱبن عباس وأصحاب الرأي وعكرمة وسعيد بن جُبير وعامر الشَّعْبيّ وعَبِيدة في قوله تعالى: ﴿تُؤتِي أُكلها كُلّ حِينٍ بِإذْنِ رَبِّها﴾ أنه ستة أشهر. وقال الأوزاعي وأبو عبيد: الحين ستة أشهر. وليس عند الشافعي في الحين وقت معلوم، ولا للحين غاية؛ قد يكون الحين عنده مدّة الدنيا. وقال: لا نُحنثه أبداً، والوَرَع أن يقضيه قبل ٱنقضاء يوم. وقال أبو ثَور وغيره: الحين والزمان على ما تحتمله اللغة، يقال: قد جئت من حين، ولعلّه لم يجىء من نصف يوم. قال الكِيَا الطبري الشافعي: وبالجملة، الحين له مصارف، ولم ير الشافعيّ تعيين محمل من هذه المحامل؛ لأنه مجمل لم يوضع في اللغة لمعنًى معيّن. وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿إلى حِينٍ﴾ فائدة بشارة إلى آدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ومنتقل إلى الجنة التي وعد بالرجوع إليها؛ وهي لغير آدم دالة على المعاد فحسب؛ والله أعلم.

[٣٧] ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ فيه ثمان مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ تلقّى قيل معناه: فَهِم وفَطِنَ. وقيل: قَبِل وأخذ؛ وكان عليه السلام يتلقّى الوَحْي؛ أي يستقبله ويأخذه ويتلقّفه. تقول: خرجنا نتلقّى الحجيج؛ أي نستقبلهم. وقيل: معنى تلقّى تلقّن. وهذا في المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلقّي مِن التلقّن في الأصل؛ لأن أحد الحرفين إنما يُقلب ياء إذا تجانسا، مثل تظنَّى مِن تظنّن، وتقصّى من تقصّص. ومثله تسرّيت من تسرّرت، وأمليت من أمللت وشبه ذلك؛ ولهذا لا يقال: تَقبَّى مِن تقبّل، ولا تلقّى مِن تلقّن؛ فٱعلم. وحَكَى مكيّ أنه أُلهمها فٱنتفع بها. وقال الحسن: قبولُها تعلّمه لها وعمله بها.

الثانية ـ وٱختلف أهل التأويل في الكلمات؛ فقال ٱبن عباس والحسن وسعيد بن جبير والضحاك ومجاهد هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١). وعن مجاهد أيضاً: سبحانك اللَّهُمَّ لا إلٰهَ إلاّ أنت ربّي ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم. وقالت طائفة: رأى مكتوباً على ساق العرش «محمد رسول الله» فتشفّع بذلك، فهي الكلمات. وقالت طائفة: المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء. وقيل: الندم والاستغفار والحزن. قال ٱبن عطية: وهذا يقتضي أن آدم عليه السلام لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود. وسئل بعض السلف عما ينبغي أن يقوله المذنب؛ فقال: يقول ما قاله أبواه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الآية. وقال موسى: ﴿رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرِ لِي﴾(٢). وقال يونس: ﴿لا إلٰهَ إلاّ أنتَ سُبْحَانَك إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين﴾(٣). وعن ٱبن عباس ووهب بن مُنَبِّه: أن الكلمات «سبحانك اللّهُمّ وبحمدك، لا إلٰهَ إلا أنتَ عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فٱغفر لي إنك خير الغافرين، سبحانك اللّهُمّ وبحمدك، لا إلٰهَ إلا أنتَ عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فتُبْ عليّ إنك أنت التوّاب الرحيم». وقال محمد بن كعب هي قوله: «لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فتُبْ عليّ إنك أنت التوّاب الرحيم. لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فٱرحمني إنك أنت الغفور الرحيم. لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فٱرحمني إنك أرحم الراحمين». وقيل: الكلمات قوله حين عطس: «الحمد لله». والكلمات: جمع كلمة؛ والكلمة تقع على القليل والكثير. وقد تقدّم(٤).

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي قَبِل توبته، أو وفّقه للتّوْبة. وكان ذلك في يوم عاشوراء في يوم جمعة؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وتاب العبد: رجع إلى طاعة ربه. وعبد توّاب: كثير الرجوع إلى الطاعة. وأصل التوبة الرجوع؛ يقال: تاب وثاب وآب وأناب: رجع.

---

(١) راجع ٧/ ١٨١.
(٢) راجع ١٣/ ٢٦١.
(٣) راجع ١١/ ٣٣٣.
(٤) راجع ص ٦٧ من هذا الجزء.

الرابعة ـ إن قيل: لم قال «عليه» ولم يقل عليهما، وحوّاء مشاركة له في الذنب بإجماع، وقد قال: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ و ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾. فالجواب: أن آدم عليه السلام لما خوطب في أوّل القصة بقوله: «اسْكُنْ» خصّه بالذكر في التلقّي؛ فلذلك كملت القصة بذكره وحده. وأيضاً فلأن المرأة حُرمة ومستورة فأراد الله السّتر لها؛ ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. وأيضاً لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تُذكر؛ كما لم يذكر فَتَى موسى مع موسى في قوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾. وقيل: إنه دلّ بذكر التوبة عليه أنه تاب عليها إذ أمرهما سواء؛ قاله الحسن. وقيل: إنه مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾[1] أي التجارة لأنها كانت مقصود القوم، فأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما؛ والمعنى متقارب. وقال الشاعر[2]:

رَماني بأمر كنتُ منه ووالدِي ... بريئاً ومِن فوق[3] الطَّوِيّ رمانِي

وفي التنزيل: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ[4]﴾ فحذف إيجازاً واختصاراً.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه التوّاب؛ وتكرر في القرآن معرّفاً ومنكراً واسماً وفعلاً. وقد يُطلق على العبد أيضاً توّاب؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[5]. قال ابن العربي: ولعلمائنا في وصف الربّ بأنه توّاب ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنه يجوز في حق الربّ سبحانه وتعالى فيُدْعَى به كما في الكتاب والسُّنّة ولا يتأوّل. وقال آخرون: هو وصف حقيقيّ لله سبحانه وتعالى؛ وتوبة الله على العبد رجوعُه من حال المعصية إلى حال الطاعة. وقال آخرون: توبة الله على العبد قبوله توبته؛ وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى: قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع في قلب المسيء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة.

---

(١) راجع ١٨/١٠٩. (٢) هو عمرو بن أحمر الباهلي.

(٣) الذي في «شرح شواهد سيبويه»: «ومن أجل الطوى». والطوى: البئر المطوية بالحجارة. قال الشنتمري: «وصف في البيت رجلاً كانت بينه وبينه مشاجرة في بئر؛ فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التي كانت بينهما».

(٤) راجع ٨/١٩٣. (٥) راجع ٣/٩١.

السادسة ـ لا يجوز أن يقال في حق الله تعالى: تائب، اسم فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نُطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه أو نبيّه عليه السلام أو جماعة المسلمين؛ وإن كان في اللغة محتملاً جائزاً. هذا هو الصحيح في هذا الباب، على ما بيّناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى). قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾(١). وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾(٢). وإنما قيل لله عز وجل: توّاب، لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه.

السابعة ـ اعلم أنه ليس لأحد قُدرة على خلق التّوبة؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بخلق الأعمال؛ خلافاً للمعتزلة ومَن قال بقولهم. وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه. قال علماؤنا: وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدِّين ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُون اللهِ﴾ جلّ وعزّ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتي الحَبْرَ أو الراهب فيعطيه شيئاً ويحطّ عنه ذنوبه ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين﴾(٣).

الثامنة ـ قرأ ابن كَثير: ﴿ فتلقّى آدمَ مِنْ رَبِّهِ كَلماتٌ ﴾. والباقون برفع «آدم» ونصب «كلمات». والقراءتان ترجعان إلى معنًى؛ لأن آدم إذا تلقّى الكلمات فقد تلقته. وقيل: لما كانت الكلمات هي المنقذة لآدم بتوفيق الله تعالى له لقبوله إياها ودعائه بها كانت الكلمات فاعلة، وكأن الأصل على هذه القراءة «فتلقّت آدمَ مِن ربه كلماتٌ»؛ لكن لمّا بعد ما بين المؤنث وفعله حَسُن حذف علامة التأنيث. وهذا أصل يجري في كل القرآن والكلام إذا جاء فعل المؤنث بغير علامة؛ ومنه قولهم: حضر القاضي اليوم امرأة. وقيل: إن الكلمات لمّا لم يكن تأنيثه حقيقياً حُمِل على معنى الكَلِم، فذُكّر. وقرأ الأعمش: «آدمْ مِّن ربه» مدغماً. وقرأ أبو نَوفل بن أبي عقرب: «أنه» بفتح الهمزة، على معنى لأنه؛ وكسر الباقون على الاستئناف. وأدغم الهاء في الهاء أبو عمرو وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهم. وقيل: لا يجوز؛

---

(١) راجع ٨/ ٢٧٧.

(٢) راجع ١٦/ ٢٦.

(٣) راجع ٧/ ٩٦.

لأن بينهما واواً في اللفظ لا في الخط. قال النحاس: أجاز سيبويه أن تحذف هذه الواو، وأنشد:

لـه زَجَـلٌ كـأنّـهُ صَـوْتُ حـادٍ إذا طَلَـب الـوَسِيقـةَ أو زَميـرُ[1]

فعلى هذا يجوز الإدغام، وهو رفع بالابتداء. «التوّاب» خبره، والجملة خبر « إنّ » . ويجوز أن يكون « هو » توكيداً للهاء ، ويجوز أن تكون فاصلة ؛ على ما تقـدّم.

وقال سعيد بن جبير: لما أهبط آدم إلى الأرض لم يكن فيها شيء غير النَّسر في البـر ، والحوت في البحر ؛ فكان النسر يأوي إلى الحوت فيبيت عنـده ؛ فلما رأى النسـر آدم قال: يا حوت، لقد أهبط اليوم إلى الأرض شيء يمشي على رجليه ويبطش بيديه! فقال الحوت: لئن كنتَ صادقاً مالي منه في البحر مَنْجى، ولا لك في البر منه مَخْلَص! .

[٣٨] ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا﴾ كرّر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده؛ كما تقول لرجل: قُمْ قُمْ. وقيل: كرّر الأمر لما علّق بكل أمر منهما حُكماً غيرَ حُكم الآخر؛ فعلّق بالأوّل العداوة، وبالثاني إتيان الهدى. وقيل: الهبوط الأوّل من الجنة إلى السماء، والثاني من السماء إلى الأرض. وعلى هذا يكون فيه دليل على أن الجنة في السماء السابعة، كما دلّ عليه حديث الإسراء؛ على ما يأتي[2].

﴿جَمِيعاً﴾ نصب على الحال. وقال وهب بن مُنَبِّه: لما هبط آدم عليه السلام إلى الأرض قال إبليس للسباع: إن هذا عدوّ لكم فأهلكوه؛ فاجتمعوا وولّوْا أمرهم إلى الكلب

---

(١) البيت للشماخ. وصف حمار وحش هائجاً؛ فيقول: إذا طلب وسيقته ـ وهي أتناه التي يضمها ـ صوّت بها، وكأن صوته لما فيه من الزجل والحنين ومن حسن الترجيع والتطريب صوت حاد بإبل يتغنى ويطربها، أو صوت مزمار. والزجل: صوت فيه حنين وترنم. عن «شرح الشواهد».

(٢) راجع ١٠/ ٢٠٥.

وقالوا: أنت أشجعنا، وجعلوه رئيساً؛ فلما رأى ذلك آدم عليه السلام تحيّر في ذلك؛ فجاءه جبريل عليه السلام وقال له: امسح يدك على رأس الكلب؛ ففعل، فلما رأت السباع أن الكلب أَلِف آدم تفرّقوا. وأستأمنه الكلب فأمنه آدم، فبقي معه ومع أولاده. وقال الترمذيّ الحكيم نحو هذا، وأن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض جاء إبليس إلى السباع فأشلاهم[1] على آدم ليؤذوه؛ وكان أشدّهم عليه الكلب، فأُمِيت فؤاده؛ فروي في الخبر أن جبريل عليه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعها فاطمأن إليه وألفه؛ فصار ممن يحرسه ويحرس ولده ويألفهم. وبموت فؤاده يفزع من الآدميين؛ فلو رُمي بمَدَرٍ ولّى هارباً ثم يعود آلفاً لهم. ففيه شعبة من إبليس، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام؛ فهو بشعبة إبليس ينبح ويَهِرّ ويعدو على الآدميّ، وبمسحة آدم مات فؤاده حتى ذل وانقاد وألف به وبولده يحرسهم، ولَهَثُه[2] على كل أحواله من موت فؤاده؛ ولذلك شبّه الله سبحانه وتعالى العلماء السوء بالكلب، على ما يأتي بيانه في «الأعراف[3]» إن شاء الله تعالى. ونزلت عليه تلك العصا التي جعلها الله آية لموسى، فكان يطرد بها السباع عن نفسه.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ اختلف في معنى قوله: «هُدًى»؛ فقيل: كتاب الله؛ قاله السُّدِّي. وقيل: التوفيق للهداية. وقالت فرقة: الهُدَى الرسل، وهي إلى آدم من الملائكة، وإلى بنيه من البشر؛ كما جاء في حديث أبي ذَرّ، وخرجه الآجُرِّي. وفي قوله: «مِنِّي» إشارة إلى أن أفعال العباد خَلْقٌ لله تعالى؛ خلافاً للقدرية وغيرهم؛ كما تقدّم[4] وقرأ الجَحْدَرِيّ «هُدَيّ» وهو لغة هذيل، يقولون: هُدَيّ وعَصَيّ ومَحْيَيّ. وأنشد النحويون لأبي ذُؤَيْب يرثي بنيه:

سَبقُوا هَوَيّ وأعنقوا لهواهُم فتُخُرِّموا ولكل جَنْبٍ مَصْرَعُ[5]

---

(١) أشلاهم: أغراهم.
(٢) لهث الكلب: إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش.
(٣) راجع ٧/ ٣٢٣.
(٤) راجع المسألة الثالثة ص ١٨٦ من هذا الجزء.
(٥) « هوي » : يريد هواي ؛ أي ماتوا قبلي وكنت أحب أن أموت قبلهم . « وأعنقوا لهواهم » جعلهم كأنهم هووا الذهاب إلى المنية لسرعتهم إليها وهم لم يهووها. «فتخرموا» أي أخذوا واحداً واحداً.

قال النحاس: وعلّة هذه اللغة عند الخليل وسيبويه أن سبيل ياء الإضافة أن يُكسر ما قبلها؛ فلمّا لم يَجُز أن تتحرك الألف أبدلت ياء وأدغمت. و «ما» في قوله: ﴿إِمّا﴾ زائدة على «إنْ» التي للشرط، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثاني في قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ﴾. و «مَن» في موضع رفع بالابتداء. و «تبع» في موضع جزم بالشرط. «فَلاَ خَوْفٌ» جوابه. قال سيبويه: الشرط الثاني وجوابه هما جواب الأوّل. وقال الكسائي: «فلا خَوْفٌ عليهِم» جواب الشرطين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الخوف هو الذعر ولا يكون إلا في المستقبل. وخاوفني فلان فَخُفْتُه؛ أي كنت أشدّ خوفاً منه. والتخوُّف: التنقّص؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾(١). وقرأ الزُّهْرِيّ والحسن وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق ويعقوب: «فلا خوفَ» بفتح الفاء على التبرئة. والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء؛ لأن الثاني معرفة لا يكون فيه إلا الرفع؛ لأن «لا» لا تعمل في معرفة، فاختاروا في الأوّل الرفع أيضاً ليكون الكلام من وجه واحد. ويجوز أن تكون «لا» في قولك: فلا خوف؛ بمعنى ليس.

والحُزْن والحَزَن: ضدّ السرور، ولا يكون إلا على ماض. وحَزِن الرجل (بالكسر) فهو حزِن وحزين؛ وأحزنه غيره وحَزَنه أيضاً، مثل أسلكه وسلكه؛ ومحزون بُنِيَ عليه. قال اليزيدي: حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم؛ وقد قرىء بهما. واحتزن وتحزّن بمعنًى. والمعنى في الآية: فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا. وقيل: ليس فيه دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين، وإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا. والله أعلم.

[٣٩] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) راجع ١٠/١٠٩.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أشركوا؛ لقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الصحبة: الاقتران بالشيء في حالة مّا، في زمان مّا؛ فإن كانت الملازمة والخُلْطة فهي كمال الصحبة؛ وهكذا هي صحبة أهل النار لها. وبهذا القول ينفك الخلاف في تسمية الصحابة رضي الله عنهم إذ مراتبهم متباينة، على ما نبيّنه في «براءة[1]» إن شاء الله. وباقي ألفاظ الآية تقدّم معناها والحمد لله.

[٤٠] ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ نداء مضاف، علامة النصب فيه الياء، وحذفت منه النون للإضافة. الواحد ٱبن، والأصل فيه بني، وقيل: بَنَوٌ؛ فمن قال: المحذوف منه واو ٱحتج بقولهم: البنوّة. وهذا لا حجة فيه؛ لأنهم قد قالوا: الفتوّة، وأصله الياء. وقال الزجاج: المحذوف منه عندي ياء كأنه من بنيت. الأخفش: اختار أن يكون المحذوف منه الواو؛ لأن حذفها أكثر لثقلها. ويقال: ٱبن بيّن البنوّة، والتصغير بُنَيّ. قال الفراء: يقال: يا بُنَيِّ ويا بُنَيَّ لغتان، مثل يا أبتِ ويا أبتَ؛ وقرىء بهما. وهو مشتق من البناء وهو وضع الشيء على الشيء؛ والابن فرع للأب وهو موضوع عليه.

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. قال أبو الفرج الجَوْزِيّ: وليس في الأنبياء من له ٱسمان غيره، إلا نبيّنا محمد ﷺ فإن له أسماء كثيرة. ذكره في كتاب «فهوم الآثار» له.

قلت: وقد قيل في المسيح إنه ٱسم عَلَم لعيسى عليه السلام غير مشتق، وقد سمّاه الله رُوحاً وكَلِمة، وكانوا يسمّونه أَبِيل الأَبِيلين؛ ذكره الجوهري في «الصحاح». وذكر البيهقي في «دلائل النبوّة» عن الخليل بن أحمد: خمسة من الأنبياء ذوو ٱسمين، محمد وأحمد نبيّنا ﷺ، وعيسى والمسيح، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل، صلى الله عليهم وسلم.

(١) راجع ١٤٨/٨.

قلت: ذكرنا أن لعيسى أربعة أسماء، وأمّا نبيّناﷺ فله أسماء كثيرة، بيانها في مواضعها.

وإسرائيل: ٱسم أعجمي، ولذلك لم ينصرف؛ وهو في موضع خفض بالإضافة. وفيه سبع لغات: إسرائيل، وهي لغة القرآن. وإسرائيل، بمدّة مهموزة مختلسة، حكاها شنّبوذ عن وَرْش. وإسرائيل، بمدّة بعد الياء من غير همز، وهي قراءة الأعمش وعيسى بن عمر؛ وقرأ الحسن والزهريّ بغير همز ولا مدّ. وإسرائل، بغير ياء بهمزة مكسورة. وإسراءَل، بهمزة مفتوحة. وتميم يقولون: إسرائين، بالنون. ومعنى إسرائيل: عبد الله. قال ٱبن عباس: إسرا بالعبرانية هو عبد، وإيل هو الله. وقيل: إسرا هو صفوة الله، وإيل هو الله. وقيل: إسرا من الشدّ؛ فكأن إسرائيل الذي شدّه الله وأتقن خلقه؛ ذكره المهدَوِي. وقال السُّهيلي: سميّ إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى؛ فسمى إسرائيل أي أسرى إلى الله ونحو هذا؛ فيكون بعض الاسم عبرانياً وبعضه موافقاً للعرب. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ الذكر ٱسم مشترك، فالذكر بالقلب ضدّ النسيان، والذكر باللسان ضدّ الإنصات. وذكرت الشيء بلساني وقلبي ذِكراً. وٱجعله منك على ذُكر (بضم الذال) أي لا تنسه . قال الكسائي : ما كان بالضمير فهو مضموم الذال ، وما كان باللسان فهو مكسور الذال . وقال غيره : هما لغتان ، يقال : ذِكر وذُكر ، ومعناهما واحد . والذَّكر (بفتح الذال) خلاف الأنثى . والذِّكر أيضاً الشرف؛ ومنه قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[١] . قال ٱبن الأنباري : والمعنى في الآية ٱذكروا شكر نعمتي ؛ فحذف الشكر ٱكتفاء بذكر النعمة . وقيل: إنه أراد الذكر بالقلب وهو المطلوب؛ أي لا تغفلوا عن نعمتي التي أنعمت عليكم ولا تناسوها؛ وهو حسن. والنعمة هنا ٱسم جنس، فهي مفردة بمعنى الجمع، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾[٢] أي نِعمَه. ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون، وجعل منهم أنبياء، وأنزل عليهم الكتب والمنّ والسَّلْوَى، وفجّر لهم

(١) راجع ١٦/ ٩٣.
(٢) راجع ٩/ ٣٦٧.

من الحجر الماء، إلى ما أستودعهم من التوراة التي فيها صفة محمد ﷺ ونعته ورسالته. والنعم على الآباء نعم على الأبناء؛ لأنهم يشرفون بشرف آبائهم.

تنبيه ـ قال أرباب المعاني: ربط سبحانه وتعالى بني إسرائيل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد ﷺ ودعاهم إلى ذكره، فقال: ﴿ٱذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(١) ليكون نظر الأمم من النعمة إلى المنعم، ونظر أمة محمد ﷺ من المنعم إلى النعمة.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أمْرٌ وجوابه. وقرأ الزهريّ: «أُوَفّ» (بفتح الواو وشد الفاء) للتكثير. وٱختلف في هذا العهد ما هو؛ فقال الحسن: عهده قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوّةٍ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾(٣). وقيل هو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِين أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾(٤). وقال الزجاج: «أوْفُوا بعهدي» الذي عهدت إليكم في «التوراة» من ٱتباع محمد ﷺ، «أوفِ بعهدكم» بما ضمنت لكم على ذلك، إن أوفيتم به فلكم الجنة. وقيل: «أوْفُوا بعهدي» في أداء الفرائض على السنة والإخلاص، «أوف» بقبولها منكم ومجازاتكم عليها. وقال بعضهم: «أَوْفُوا بعهدي» في العبادات، «أوف بعهدكم» أي أوصلكم إلى منازل الرعايات. وقيل: «أَوْفُوا بعهدي» في حفظ آداب الظواهر، «أوف بعهدكم» بتزيين سرائركم. وقيل: هو عام في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه؛ فيدخل في ذلك ذكر محمد ﷺ الذي في «التوراة» وغيره. هذا قول الجمهور من العلماء، وهو الصحيح. وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة.

قلت: وما طلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا؛ قال الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ﴾، ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللهِ﴾؛ وهو كثير. ووفاؤهم بعهد الله أمارة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له، بل ذلك تفضُّلٌ منه عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي خافون. والرُّهْبُ والرَّهْبُ والرَّهْبَة: الخوف. ويتضمّن الأمر به معنى التهديد. وسقطت الياء بعد النون لأنها رأس آية. وقرأ ٱبن

(١) راجع ٢/ ١٧١.
(٢) راجع ص ٤٣٧ من هذا الجزء.
(٣) راجع ٦/ ١١٢.
(٤) راجع ٤/ ٣٠٤

أبي إسحاق: «فَارْهَبونِي» بالياء، وكذا «فاتّقوني»؛ على الأصل. «وإيّايَ» منصوب بإضمار فعل، وكذا الاختيار في الأمر والنهي والاستفهام؛ التقدير: وإياي ارهبوا فارهبون. ويجوز في الكلام وأنا فارهبون؛ على الابتداء والخبر. وكون «فارهبون» الخبر على تقدير الحذف؛ المعنى وأنا ربكم فارهبون.

[٤١] ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ﴾ أي صدِّقوا؛ يعني بالقرآن. ﴿مُصَدِّقاً﴾ حال من الضمير في «أنزلت»؛ التقدير بما أنزلته مصدقاً؛ والعامل فيه أنزلت. ويجوز أن يكون حالاً من ما، والعامل فيه آمنوا؛ التقدير آمنوا بالقرآن مصدقاً. ويجوز أن تكون مصدرية؛ التقدير آمنوا بإنزال. ﴿ لِمَا مَعَكُمْ ﴾ يعني من التوراة.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ الضمير في «به» قيل هو عائد على محمد ﷺ؛ قاله أبو العالية. وقال ابن جُريج: هو عائد على القرآن، إذ تضمنه قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾. وقيل: على التوراة، إذ تضمنها قوله: ﴿لِما معكم﴾.

فإن قيل: كيف قال «كافر» ولم يقل كافرين؛ قيل: التقدير ولا تكونوا أوّل فريق كافر به. وزعم الأخفش والفرّاء أنه محمول على معنى الفعل؛ لأن المعنى أوّل من كفر به. وحكى سيبويه: هو أظرف الفتيان وأجمله؛ وكان ظاهر الكلام هو أظرف فتىً وأجمله. وقال: «أوّلَ كافرٍ به» وقد كان قد كفر قبلهم كفار قريش، فإنما معناه من أهل الكتاب؛ إذ هم منظور إليهم في مثل هذا؛ لأنهم حجة مظنون بهم عِلم. و «أوّل» عند سيبويه نصب على خبر كان. وهو مما لم ينطق منه بفعل؛ وهو على أفعل، عينه وفاؤه واو. وإنما لم ينطق منه بفعل لئلا يعتل من جهتين: العين والفاء؛ وهذا مذهب البصريين. وقال الكوفيون: هو مِن وَأَلَ إذا نجا؛ فأصله أوْأَل، ثم خُفِّفت الهمزة وأبدلت واواً وأدغمت

فقيل أوّل، كما تخفف همزة خطيئة. قال الجوهري: «والجمع الأوائل والأوالِي أيضاً على القلب. وقال قوم: أصله وَوَّل على فَوْعَل؛ فقلبت الواو الأولى همزة. وإنما لم يجمع على أواوِل لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع». وقيل: هو أفعل من آل يؤول، فأصله أَأْوَل؛ قلب فجاء أعفل مقلوباً من أفعل، فسُهّل وأُبدل وأُدغم.

مسألة ـ لا حُجَّةَ في هذه الآية لمن يمنع القول بدليلِ الخطاب، وهم الكوفيون ومن وافقهم؛ لأن المقصود من الكلام النهي عن الكفر أوّلاً وآخراً، وخصّ الأوّل بالذكر لأن التقدّم[1] فيه أغلظ، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحداً؛ وهذا واضح.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلاَ تَكُونُوا﴾. نهاهم عن أن يكونوا أوّل من كفر وألا يأخذوا على آيات الله ثمناً؛ أي على تغيير صفة محمد ﷺ رُشىً. وكان الأحبار يفعلون ذلك فنُهوا عنه؛ قاله قوم من أهل التأويل، منهم الحسن وغيره. وقيل: كانت لهم مآكل يأكلونها على العلم كالراتب؛ فنُهوا عن ذلك. وقيل: إن الأحبار كانوا يعلّمون دينهم بالأجرة فنُهوا عن ذلك. وفي كتبهم: يابنَ آدمَ عَلّم مَجّاناً كما عُلّمت مَجّاناً؛ أي باطلاً بغير أجرة؛ قاله أبو بالعالية. وقيل: المعنى ولا تشتروا بأوامري ونواهيّ وآياتي ثمناً قليلاً، يعني الدنيا ومدّتها والعيش الذي هو نزر لا خطر له، فسُمّي ما اعتاضوه عن ذلك ثمناً؛ لأنهم جعلوه عوضاً؛ فانطلق عليه اسم الثمن وإن لم يكن ثمناً. وقد تقدّم هذا المعنى. وقال الشاعر:

إن كنتَ حاولتَ ذنباً أو ظفِرتَ به فما أصبتَ بترك الحج مِن ثَمَن

قلت: وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول مَن فعل فعلهم. فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله، أو امتنع من تعليم ما وَجَب عليه، أو أداء ما علمه

---

(١) في نسخة من الأصل: «. . . لأن النقل منه أعظم».

وقد تعيّن عليه حتى يأخذ عليه أجراً فقد دخل في مقتضى الآية. والله أعلم. وقد روى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مَن تعلّم علماً مما يُبتغَى به وجه الله عز وجل لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة» يعني ريحها.

الثانية ـ وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم ـ لهذه الآية وما كان في معناها ـ؛ فمنع ذلك الزُّهْرِيّ وأصحاب الرأي وقالوا: لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نيّة التقرّب والإخلاص؛ فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام. وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ تَشْتَرُوْا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾. وروى ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «معلّمُو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين». وروى أبو هريرة قال: قلت يا رسول الله ما تقول في المعلمين؟ قال: «درهمهم حرام وثوبهم سُحْت وكلامهم رياء». وروى عُبادة بن الصّامت قال: علّمت ناساً من أهل الصُّفّة القرآن والكتابة، فأهدى إليّ رجل منهم قوساً؛ فقلت: ليست بمال وأرمِي عنها في سبيل الله، فسألت عنها رسول الله ﷺ؛ فقال: «إنْ سرّك أن تُطوّق بها طوقاً من نار فاقبلها». وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء؛ لقوله عليه السلام في حديث ابن عباس ـ حدِيث الرُّقْيَة ـ: «إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتابُ الله». أخرجه البخاري؛ وهو نصٌّ يرفع الخلاف، فينبغي أن يعوّل عليه.

وأمّا ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد؛ لأنه في مقابلة النص؛ ثم إن بينهما فُرقاناً، وهو أن الصلاة والصوم عباداتٌ مختصّة بالفاعل، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلّم؛ فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن. قال ابن المنذر: وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة؛ ويجوّز أن يستأجر الرجلَ يكتب له لوحاً أو شِعراً أو غناء معلوماً بأجرٍ معلوم؛ فيجوّز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة.

وأما الجواب عن الآية ـ فالمراد بها بنو إسرائيل، وشَرْعُ مَن قبلنا هل هو شَرْع لنا؛ فيه خلاف، وهو لا يقول به.

جواب ثان ـ وهو أن تكون الآية فيمن تعيّن عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجراً. فأما إذا لم يتعيّن فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السُّنّة في ذلك، وقد يتعيّن عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحِرفته. ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدِّين إعانته، وإلا فعلى المسلمين؛ لأن الصدّيق رضي الله عنه لما ولي الخلافة وعُيّن لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله، فأخذ ثياباً وخرج إلى السوق؛ فقيل له في ذلك، فقال: ومن أين أنفق على عيالي! فردّوه وفرضوا له كفايته. وأما الأحاديث فليس شيء منها يقوم على ساق، ولا يصح منها شيء عند أهل العلم بالنقل. أما حديث ابن عباس فرواه سعيد بن طَريف عن عكرمة عنه؛ وسعيد متروك. وأما حديث أبي هريرة فرواه عليّ بن عاصم عن حماد بن سَلَمة عن أبي جرهم عنه؛ وأبو جرهم مجهول لا يعرف، ولم يرو حماد بن سَلَمة عن أحد يقال له أبو جرهم، وإنما رواه عن أبي المُهَزِّم وهو متروك الحديث أيضاً، وهو حديث لا أصل له. وأما حديث عُبَادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصليّ عن عبادة بن نُسيّ عن الأسود بن ثعلبة عنه؛ والمغيرة معروف عند[1] أهل العلم ولكنه له مناكير، هذا منها، قاله أبو عمر. ثم قال: وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العلم؛ لأنه روي عن عبادة من وجهين، وروي عن أُبَيّ بن كعب من حديث موسى بن عليّ عن أبيه عن أُبيّ، وهو منقطع. وليس في الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل، وحديث عبادة وأُبَيّ يحتمل التأويل؛ لأنه جائز أن يكون علّمه لله ثم أخذ عليه أجراً. وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «خير الناس وخير من يمشي على جديد الأرض المعلّمون كلما خلق الدِّين جدّدوه أُعطوهم ولا تستأجروهم فتحرِّجوهم فإن المعلّم إذا قال للصبيّ قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال الصبيّ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبيّ وبراءة للمعلم وبراءة لأبويه من النار».

---

(١) في نسخة: «معروف بحمل العلم».

الثالثة ـ واختلف العلماء في حكم المصلّي بأجرة؛ فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من استُؤْجِر في رمضان يقوم للناس؛ فقال: أرجو ألا يكون به بأس؛ وهو أشد كراهة له في الفريضة. وقال الشافعي وأصحابه وأبو ثور: لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه. وقال الأوزاعي: لا صلاة له. وكرهه أبو حنيفة وأصحابه؛ على ما تقدّم. قال ابن عبد البر: وهذه المسألة معلّقة من التي قبلها وأصلهما واحد.

قلت: ويأتي لهذا أصل آخر من الكتاب في «براءة» إن شاء الله تعالى. وكره ابن القاسم أخذ الأجرة على تعليم الشعر والنحو. وقال ابن حبيب: لا بأس بالإجارة على تعليم الشعر والرسائل وأيام العرب؛ ويكره من الشعر ما فيه الخمر والخنا والهجاء. قال أبو الحسن اللَّخْمِيّ: ويلزم على قوله أن يُجيز الإجارة على كتبه ويُجيز بيع كتبه. وأما الغناء والنَّوح فممنوع على كل حال.

الرابعة ـ روى الدارميّ أبو محمد في مسنده أخبرنا يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا محمد بن عمر بن الكُمَيْت قال حدثنا علي بن وهب الهمدانيّ قال أخبرنا الضحاك بن موسى قال: مرّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة ـ وهو يريد مكة ـ فأقام بها أياماً؛ فقال: هل بالمدينة أحد أدرك أحداً من أصحاب النبيّ ﷺ؟ قالوا له: أبو حازم؛ فأرسل إليه؛ فلما دخل عليه قال له: يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟ قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين وأيّ جفاء رأيت مني؟ قال: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني! قال: يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عَرَفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك! قال: فالتفت إلى محمد بن شهاب الزهريّ فقال: أصاب الشيخ وأخطأت. قال سليمان: يا أبا حازم، مالنا نكره الموت؟! قال: لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب؛ قال: أصبت يا أبا حازم، فكيف القدوم غداً على الله تعالى؟ قال: أمّا المحسن فكالغائب يَقْدَم على أهله، وأمّا المسيء فكالآبق يَقْدَم عَلى مولاه. فبكى سليمان وقال: ليت شعري! ما لنا عند الله؟ قال: أعرض عملك على كتاب الله. قال: وأيّ مكان أجده؟ قال:

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[1]. قال سليمان: فأين رحمة الله يا أبا حازم؟ قال أبو حازم: رحمة الله قريب من المحسنين. قال له سليمان: يا أبا حازم، فأيّ عباد الله أكرم؟ قال: أولو المروءة والنُّهى. قال له سليمان: فأيّ الأعمال أفضل؟ قال أبو حازم: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم. قال سليمان: فأي الدعاء أسمع؟ قال: دعاء المحسَن إليه للمحسِن. فقال: أيّ الصدقة أفضل؟ قال: للسائل البائس، وجُهْد المُقِلّ[2]، ليس فيها مَنٌّ ولا أذىً. قال: فأيّ القول أعدل؟ قال: قولُ الحق عند مَن تخافه أو ترجوه. قال: فأيّ المؤمنين أكْيَس؟ قال: رجلٌ عَمِل بطاعة الله ودلّ الناس عليها. قال: فأيّ المؤمنين أحمق؟ قال: رجل انحطّ في هوَى أخيه وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره. قال له سليمان: أصبتَ، فما تقول فيما نحن فيه؟ قال: يا أمير المؤمنين أوَ تُعفيني؟ قال له سليمان: لا! ولكن نصيحة تُلقيها إليّ. قال: يا أمير المؤمنين، إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا المُلْكَ عَنْوَة على غير مَشُورة من المسلمين ولا رضاهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة؛ فقد ارتحلوا عنها، فلو شعرتَ ما قالوه وما قيل لهم!. فقال له رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا أبا حازم! قال أبو حازم: كذبتَ، إن الله أخذ ميثاق العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه. قال له سليمان: فكيف لنا أن نُصلح؟ قال: تدَعون الصَّلَف وتمسّكُون بالمروءة وتقسمون بالسّويّة. قال له سليمان: فكيف لنا بالمأخذ به؟ قال أبو حازم: تأخذه مِن حِلّه وتضعه في أهله. قال له سليمان: هل لك يا أبا حازم أن تَصْحَبنا فتُصِيبَ منا ونُصيبَ منك؟ قال: أعوذ بالله! قال له سليمان: ولم ذاك؟ قال: أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيُذيقني الله ضِعفَ الحياة وضعف الممات. قال له سليمان: ارفع إلينا حوائجك. قال: تنجيني من النار وتدخلني الجنة. قال له سليمان: ليس ذاك إليّ! قال له أبو حازم: فمالي إليك حاجة غيرها. قال: فادع لي. قال أبو حازم: اللَّهُمّ إن كان سليمان وَلِيّك فيَسِّرْه لخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحبّ وترضى. قال له سليمان: قَطّ! قال أبو حازم: قد أوجزتُ وأكثرتُ

---

(١) راجع ١٩/٢٤٧.

(٢) جد المقل: أي قدر ما يحتمله حال القليل المال.

إن كنت من أهله، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي أن أرمي عن قَوس ليس لها وَتَر. قال له سليمان: أوْصني؛ قال: سأُوصيك وأُوجِز: عظِّم ربك، ونزِّهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقِدك حيث أمرك. فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار، وكتب [إليه[١]] أن أنفقها ولك عندي مثلها كثير. قال: فردّها عليه وكتب إليه: يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إيّاي هَزْلاً أو ردّي عليك بَذْلاً[٢]، وما أرضاها لك، فكيف [أرضاها[١]] لنفسي! إن موسى بن عِمران لما ورَدَ ماءَ مَدْين وجد عليه رِعاءً يَسقون، ووجد من دونهم جاريتين تذودان [فسألهما، فقالتا: لا نَسقي حتى يُصدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير[١]]؛ فسقى لهما ثم تولّى إلى الظّل فقال: رَبِّ إني لما أنزلتَ إليّ من خير فقير. وذلك أنه كان جائعاً خائفاً لا يأمن، فسأل ربّه ولم يسأل الناس. فلم يفطن الرعاء، وفطنت الجاريتان. فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله. فقال أبوهما وهو شُعَيب عليه السلام: هذا رجل جائع. فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه. فلما أتته عظّمته وغطّت وجهها وقالت: إن أبي يدعوك ليَجزِيَك أجْرَ ما سقيتَ لنا؛ فشقّ على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيتَ لنا» ولم يجد بُدًّا من أن يتبعها؛ لأنه كان بين الجبال جائعاً مستوْحشاً. فلما تبعها هبّت الريح فجعلت تصفّق ثيابها على ظهرها فتِصفُ له عجيزتها ـ وكانت ذات عَجُز ـ وجعل موسى يُعرِض مَرّة ويغضّ أخرى؛ فلما عِيل صبره ناداها: يا أَمَةَ الله كوني خلفي، وأرِيني السّمت بقولك. فلما دخل على شُعَيب إذ هو بالعَشاء مُهَيّأ؛ فقال له شعيب: اجلس يا شاب فتعشّ؛ فقال له موسى عليه السلام: أعوذ بالله! فقال له شعيب: لِم! أمَا أنت جائع؟ قال: بلى، ولكني أخاف أن يكون هذا عِوضاً لَما سقيتُ لهما، وأنا مِن أهل بيت لا نبيع شيئاً من ديننا بملء الأرض ذهباً. فقال له شعيب: لا يا شابّ، ولكنها عادتي وعادة آبائي : نَقْرِي الضيف ونطعم الطعام ؛ فجلس موسى فأكل . فإن كانت هذه المائة دينار عوضاً لما حدّثتُ فالميتة والدّمُ ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحلّ من هذه، وإن كان لحق في بيت المال فلي فيها نظراء؛ فإن ساوَيْت بيننا وإلا فليس لي فيها حاجة.

(١) الزيادة عن مسند الدارمي.

(٢) بذلاً: أي راجياً بَذْلَك وعطاءك.

قلت: هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء. انظروا إلى هذا الإمام الفاضل والحبر العالم كيف لم يأخذ على عمله عِوَضاً، ولا على وصيّته بَذْلاً، ولا على نصيحته صَفَداً[١]؛ بل بيّن الحق وصَدَع، ولم يلحقه في ذلك خوف ولا فَزَع. قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعنّ أحدَكم هيبةُ أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان». وفي التنزيل: ﴿يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِيّايَ فَاتَّقُونِ﴾ قد تقدّم معنى التقوى[٣]. وقرىء «فاتقوني» بالياء، وقد تقدّم. وقال سهل بن عبد الله: قوله: ﴿وإِيَّايَ فاتقونِ﴾ قال: موضع علمي السابق فيكم. ﴿وإيّايَ فارهبونِ﴾ قال: موضع المكر والاستدراج[٤]؛ لقول الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٥]، وقوله: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾[٥]. فما استثنى نبيًّا ولا صدّيقاً.

[٤٢] ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ﴾ اللَّبْس: الخلط. لَبَست عليه الأمر ألبِسه، إذا مزجتَ بيّنه بمُشْكله وحقَّه بباطله؛ قال الله تعالى: ﴿ولَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُون﴾[٦]. وفي الأمر لُبْسة؛ أي ليس بواضح. ومن هذا المعنى قول عليّ رضي الله عنه للحارث بن حوط: يا حارث إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يُعْرَف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله. وقالت الخنساء:

ترى الجليسَ يقول الحقّ تحسبَه ... رُشْداً وهيهات فانظر ما به التبسا
صَـدِّق مقـالَتـه واحـذَر عـداوتـه ... والبـس عليـه أمـوراً مثـلَ مـا لَبَسـا

---

(١) الصفد (بالتحريك): العطاء.
(٢) راجع ٦/ ٢٢٠.
(٣) راجع ص ١٦١ وما بعدها.
(٤) العبارة ها هنا غير واضحة. والذي في البحر لأبي حيان: «وقال سهل: «وإياي فارهبون» موضع اليقين بمعرفته، «وإياي فاتقون» موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج».
(٥) راجع ٧/ ٣٢٩ و ٢٥٤.
(٦) راجع ٦/ ٣٩٤.

وقال العَجّاج:

لمـا لَبَسْـنَ الحـقَّ بـالتَّجَنِّـي غَنِيـن واستبـدَلْـن زيـداً منِّـي

روى سعيد عن قتادة في قوله: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الحقَّ بِالباطِلِ﴾، يقول: لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله ـ الذي لا يقبل غيره ولا يجزي إلا به ـ الإسلامُ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله. والظاهر من قول عنترة:

وكَتِيبةٍ لَبّستها بكتيبة

أنه من هذا المعنى؛ ويحتمل أن يكون من اللباس. وقد قيل هذا في معنى الآية؛ أي لا تُغَطّوا. ومنه لبس الثوب؛ يقال: لبِست الثوب ألْبَسه. ولباس الرجل زوجته، وزوجها لباسها. قال الجَعْدِيّ:

إذا مـا الضّجيـع ثَنـى جِيـدَهـا تَثَنَّـتْ عليـه فكـانـت لبـاسَـا

وقال الأخْطل:

وقـد لَبِسـتُ لهـذا الأمـر أعْصُـرَه حتى تجلّل رأسي الشيبُ فاشتعلا

واللَّبوس: كل ما يُلبس من ثياب ودرع؛ قال الله تعالى: ﴿وعَلّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُم﴾[(١)] . ولابست فلاناً حتى عرفتُ باطنه. وفي فلان مَلْبَس؛ أي مستمتع. قال:

ألاَ إن بعـد العُـدْم للمـرء قِنْـوَة[(٢)] وبعد المشيب طولَ عُمْرٍ ومَلْبَسَا

ولِبْس الكعبة والهودج: ما عليهما من لِباس (بكسر اللام).

قوله تعالى: ﴿بِالباطِل﴾ الباطل في كلام العرب خلاف الحق، ومعناه الزائل. قال لبِيد:

ألاَ كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ

وبطل الشيء يبطل بُطْلاً وبُطولاً وبُطلاناً [ذهب ضياعاً وخسراً][(٣)]، وأبطله غيره. ويقال: ذهب دمه بُطْلاً؛ أي هَدَراً. والباطل: الشيطان. والبَطَل: الشجاع، سُمِّيَ بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه. قال النابغة:

لهـم لـواء بـأيـدي مـاجِدٍ بطـلٍ لا يقطع الخرق إلا طرفُه سامي

---

(١) راجع ١١/ ٣٢٠. (٢) القنوة (بكسر الأول وضمه): الكِسْبة. (٣) الزيادة عن اللسان.

والمرأةُ بَطَلة. وقد بُطل الرجل (بالضم) يبطُل بُطولة وبَطَالة[١]؛ أي صار شجاعاً. وبطَل الأجير (بالفتح) بِطَالة؛ أي تعطّل، فهو بطّال. واختلف أهل التأويل في المراد بقوله: ﴿الحَقَّ بِالباطِلِ﴾؛ فرُوي عن ابن عباس وغيره: لا تخلطوا ما عندكم من الحق في الكتاب بالباطل؛ وهو التغيير والتبديل. وقال أبو العالية: قالت اليهود: محمد مبعوث ولكن إلى غيرنا. فإقرارهم ببعثه حقّ، وجحدهم أنه بُعث إليهم باطل. وقال ابن زيد: المراد بالحق التوراة، والباطل ما بدّلوا فيها من ذكر محمد عليه السلام وغيره. وقال مجاهد: لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام. وقاله قتادة؛ وقد تقدم.

قلت: وقول ابن عباس أصوب؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال. والله المستعان.

قوله تعالى: ﴿وتَكْتُمُوا الحَقَّ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على «تَلْبِسُوا» فيكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن، التقدير: لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه؛ أي وأن تكتموه. قال ابن عباس: يعني كتمانهم أمر النبيّ ﷺ وهم يعرفونه. وقال محمد بن سِيرِين: نزل عصابة من ولد هارون يَثْرِبَ لما أصاب بني إسرائيل ما أصابهم من ظهور العدوّ عليهم والذلة، وتلك العصابة هم حملة التوراة يومئذ، فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد ﷺ بين ظهرانيهم، وهم مؤمنون مصدّقون بنبوّته، فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنون وخلف الأبناء وأبناء الأبناء فأدركوا محمداً ﷺ فكفروا به وهم يعرفونه؛ وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة في موضع الحال؛ أي أن محمداً عليه السلام حق؛ فكفرهم كان كفر عناد؛ ولم يشهد تعالى لهم بعلم، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا. ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل. وسيأتي بيان هذا عند قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ﴾[٣] الآية.

[٤٣] ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

فيه أربع وثلاثون مسألة:

---

(١) في «تاج العروس»: «والبطالة بالكسر والضم لغتان في البطالة بالفتح بمعنى الشجاعة. الكسر نقله الليث، والضم حكاه بعض ونقله صاحب المصباح».

(٢) راجع ٢/٢٦.

(٣) ص ٣٦٥.

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمْرٌ معناه الوجوب، ولا خلاف فيه؛ وقد تقدّم القول في معنى إقامة الصلاة واشتقاقها وفي جملة من أحكامها[١]، والحمد لله.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أمْرٌ أيضاً يقتضي الوجوب. والإيتاء: الإعطاء. آتيته: أعطيته؛ قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾. وأتيته ـ بالقصر من غير مَدّ ـ جئته؛ فإذا كان المجيء بمعنى الاستقبال مُدّ؛ ومنه الحديث: «ولآتين رسول الله ﷺ فلأخبرنّه». وسيأتي.

الثالثة ـ الزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد؛ يقال: زكا الزرعُ والمالُ يزكو؛ إذا كثر وزاد. ورجل زكي؛ أي زائد الخير. وسُمّيَ الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذي يثاب به المزكّى. ويقال: زرع زاكٍ بيّن الزكاء. وزكأت الناقة بولدها تزكأ به: إذا رمتْ به من بين رجليها. وزكا الفرد: إذا صار زوجاً بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعاً. قال الشاعر:

كانوا خَساً أو زَكاً من دون أربعة ... لم يَخْلَقُوا وجدود الناس تَعْتَلِجُ

جمع جَدّ؛ وهو الحظّ والبخت. تعتلج أي ترتفع. اعتلجت الأرض: طال نباتها. فخساً: الفردُ، وزكاً: الزّوْج.

وقيل: أصلها الثناء الجميل؛ ومنه زكّى القاضي الشاهد. فكأن مَن يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل. وقيل: الزكاة مأخوذة من التطهير؛ كما يقال: زكا فلان؛ أي طهر من دنس الجَرْحة والإغفال[٢]. فكأن الخارج من المال يطهّره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين. ألا ترى أن النبيّ ﷺ سمّى ما يخرج من الزكاة أوساخَ الناس؛ وقد قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[٣].

الرابعة ـ واختلف في المراد بالزكاة هنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة، لمقارنتها بالصلاة. وقيل: صدقة الفطر؛ قاله مالك في سماع ابن القاسم.

---

(١) راجع ص ١٦٤ ـ ١٧٧ من هذا الجزء.
(٢) في نسخة: «أو الإغفال» وكذا في تفسير ابن عطية.
(٣) راجع ٨/ ٢٤٤.

قلت: فعلى الأوّل ـ وهو قول أكثر العلماء ـ فالزكاة في الكتاب مجملة بيّنها النبيّ ﷺ؛ فروى الأئمة عن أبي سعيد الخدريّ أن النبي ﷺ قال: «ليس في حَبّ ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أَوْسُق[١] ولا فيما دون خمسِ ذَوْدٍ[٢] صدقة ولا فيما دون خمسِ أواقٍ صدقة». وقال البخاري: «خمس أواق من الورِق». وروى البخاريّ عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال: «فيما سَقتِ السماء والعيون أو كان عَثَرِيًّا[٣] العُشْرُ وما سُقي بالنَّضح[٤] نصفُ العُشر». وسيأتي بيان هذا الباب في «الأنعام»[٥] إن شاء الله تعالى. ويأتي في «براءة» زكاة العين والماشية، وبيان المال الذي لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً﴾[٦]. وأما زكاة الفطر فليس لها في الكتاب نصٌّ عليها إلا ما تأوّله مالك هنا، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[٧]. والمفسرون يذكرون الكلام عليها في سورة «الأعلى»، ورأيت الكلام عليها في هذه السورة عند كلامنا على آي الصيام؛ لأن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر في رمضان، الحديث. وسيأتي، فأضافها إلى رمضان.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا﴾ الركوع في اللغة الانحناء بالشخص؛ وكل منحن راكع. قال لَبيد:

أُخَبِّرُ أخبارَ القرون التي مضت ... أَدِبُّ كأني كلما قمت راكعُ

وقال ابن دُريد: الركعة الهُوّة في الأرض، لغة يمانية. وقيل: الانحناء يعم الركوع والسجود؛ ويستعار أيضاً في الانحطاط في المنزلة. قال:

ولا تُعادِ الضعيفَ عَلّك أن ... تركع يوماً والدهر قد رفعه

---

(١) الوسق (بالفتح): ستون صاعا، وهو ثلثمائة وعشرون رطلاً عند أهل الحجاز.

(٢) الذود من الإبل: ما بين الثنتين إلى التسع. وقيل: ما بين الثلاث إلى العشر. واللفظة مؤنثة، ولا واحد لها من لفظها.

(٣) العثري (بفتح المهملة والثاء المثلثة المخففة وكسر الراءوتشديد الياء). قال ابن الأثير: «هو من النخيل الذي يشرب بعروقه من ماء المطر يجتمع في حفيرة. وقيل: هو العذى (الزرع الذي لا يسقى إلا من ماء المطر لبعده من المياه، وقيل فيه غير ذلك). وقيل: هو ما يسقى سبحاً، والأوّل أشهر».

(٤) النضح (بفتح النون وسكون المعجمة بعدها مهملة): ما سقي من الآبار.

(٥) راجع ٧/ ٩٩.

(٦) راجع ٨/ ٢٤٤.

(٧) راجع ٢٠/ ٢١.

السادسة ـ واختلف الناس في تخصيص الركوع بالذكر؛ فقال قوم: جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة.

قلت: وهذا ليس مختصّاً بالركوع وحده؛ فقد جعل الشرع القراءَة [عبارة[١]] عن الصلاة، والسجودَ عبارة عن الركعة بكمالها؛ فقال: ﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ﴾ أي صلاة الفجر، وقال رسول الله ﷺ: «من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة». وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة. وقيل: إنما خص الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع. وقيل: لأنه كان أثقل على القوم في الجاهلية؛ حتى لقد قال بعض من أسلم ـ أظنه عمران بن حُصين ـ للنبيّ ﷺ: على ألاّ أخِرّ إلا قائماً. فمن تأويله على ألاّ أركع؛ فلمّا تمكن الإسلام مِن قلبه اطمأنت بذلك نفسه وامتثل ما أمر به من الركوع.

السابعة ـ الركوع الشرعي هو أن يحني الرجل صلبه ويمدّ ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطئمن راكعاً يقول: سبحان ربي العظيم ثلاثاً؛ وذلك أدناه. روى مسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين؛ وكان إذا ركع لم يُشخص رأسه ولم يصوّبه[٢] ولكن بين ذلك. وروى البخارى عن أبي حُميد الساعدي قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ منكبيه، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر[٣] ظهره؛ الحديث.

الثامنة ـ الركوع فرض، قرآناً وسُنّة، وكذلك السجود؛ لقوله تعالى في آخر الحج: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾[٤]. وزادت السُّنة الطمأنينَة فيهما والفصل بينهما. وقد تقدّم القول في ذلك، وبيّنا صفة الركوع آنفاً. وأما السجود فقد جاء مبيَّناً من حديث أبي حُميد الساعديّ أن النبيّ ﷺ كان إذا سجد مكّن جبهته وأنفه من الأرض ونحّى يديه عن جنبيه ووضع كفّيه حذْو منكبيه. خرّجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «اعتدلوا في السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الإشخاص: الرفع والتصويب: الخفض.

(٣) هصر ظهره: أي ثناه إلى الأرض.

(٤) راجع ١٢/٩٨.

انبساط الكلب». وعن البَراء قال قال رسول الله ﷺ: «إذا سجدتَ فضَع كفيك وارفع مرفقيك». وعن ميمونة زوج النبيّ ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سجد خَوّى بيديه ـ يعني جنح حتى يرى وَضَح إبطيه من ورائه ـ وإذا قعد اطمأن على فخذه اليسرى.

التاسعة ـ واختلف العلماء فيمن وضع جبهته في السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته؛ فقال مالك: يسجد على جبهته وأنفه؛ وبه قال الثوريّ وأحمد، وهو قول النَّخَعِيّ. قال أحمد: لا يجزئه السجود على أحدهما دون الآخر؛ وبه قال أبو خَيْثَمَة[1] وابن أبي شيبة. قال إسحاق: إن سجد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة. وقال الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز، ورُوي عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وعبد الرحمن بن أبي ليلى كلهم أمر بالسجود على الأنف. وقالت طائفة: يجزىء أن يسجد على جبهته دون أنفه؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وابن سِيرين والحسن البصري؛ وبه قال الشافعي وأبو ثور ويعقوب ومحمد. قال ابن المنذر: وقال قائل: إن وضع جبهته ولم يضع أنفه أو وضع أنفه ولم يضع جبهته فقد أساء وصلاته تامة؛ هذا قول النعمان. قال ابن المنذر: ولا أعلم أحداً سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه.

قلت: الصحيح في السجود وضع الجبهة والأنف؛ لحديث أبي حُميد، وقد تقدّم. وروى البخاري عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «أمِرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة ـ وأشار بيده إلى أنفه ـ واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نَكْفِتُ[2] الثياب والشَّعَر». وهذا كله بيان لمجمل الصلاة، فتعيّن القول به. والله أعلم وروي عن مالك أنه يجزيه أن يسجد على جبهته دون أنفه؛ كقول عطاء والشافعي. والمختار عندنا قوله الأوّل، ولا يجزىء عند مالك إذا لم يسجد على جبهته.

---

(١) كذا في بعض نسخ الأصل وتفسير العلامي نقلاً عن القرطبي. وفي نسخة: «أبو حنيفة».

(٢) قوله: «ولا نكفت»: أي لا نضمها ونجمعها. يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود.

العاشرة ـ ويكره السجود على كَوْر العمامة؛ وإن كان طاقة أو طاقتين، مثل الثياب التي تستر الركب والقدمين فلا بأس؛ والأفضل مباشرة الأرض أو ما يسجد عليه. فإن كان هناك ما يؤذيه أزاله قبل دخوله في الصلاة، فإن لم يفعل فليمسحه مسحة واحدة. وروى مسلم عن مُعَيْقِيب أن رسول الله ﷺ قال في الرجل يسوّي التراب حيث يسجد قال: «إن كنتَ فاعلاً فواحدة». وروي عن أنس بن مالك قال: «كنا نصلي مع رسول الله ﷺ في شدّة الحرّ؛ فإذا لم يستطع أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه.

الحادية عشرة ـ لما قال تعالى: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ قال بعض علمائنا وغيرهم: يكفي منها ما يُسمَّى ركوعاً وسجوداً، وكذلك من القيام. ولم يشترطوا الطمأنينة في ذلك؛ فأخذوا بأقلّ الاسم في ذلك؛ وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتة في إلغاء الصلاة. قال ابن عبد البر: ولا يجزي ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع، ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتدل راكعاً وواقفاً وساجداً وجالساً. وهو الصحيح في الأثر، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر؛ وهي رواية ابن وهب وأبي مصعب عن مالك. وقال القاضي أبو بكر بن العربي: وقد تكاثرت الرواية عن ابن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة؛ وهو وَهَم عظيم؛ لأن النبيّ ﷺ فعلها وأمر بها وعلّمها. فإن كان لابن القاسم عذر أن كان لم يطلع عليها فما لكم أنتم وقد انتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم! روى النسائي والدّارَقُطْنِيّ وعليّ بن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فدخل المسجد فصلّى، فلما قضى الصلاة جاء فسلّم على رسول الله ﷺ وعلى القوم ؛ فقال رسول الله ﷺ: «ارجع فصلّ فإنك لم تُصلّ» وجعل الرجل يصلي وجعلنا نرمق صلاته لا ندري ما يعيب منها؛ فلما جاء فسلّم على النبيّ ﷺ وعلى القوم، فقال له النبيّ ﷺ: «وعليك ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ». قال همام[1]: فلا ندري، أمره بذلك مرتين أو ثلاثاً؛ فقال له الرجل:

(١) همام هذا، أحد رجال سند هذا الحديث.

ما أَلَوْتُ، فلا أدري ما عِبتَ عليّ من صلاتي؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله فيَغْسِل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبّر الله تعالى ويُثني عليه ثم يقرأ أمّ القرآن وما أذن له فيه وتيسّر ثم يكبّر فيركع فيضع كفّيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخي ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوي قائماً حتى يقيم صُلبه ويأخذ كل عظمٍ مأخذه ثم يكبّر فيسجد فيمكّن وجهه ـ قال همّام: وربما قال: جبهته ـ من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخي ثم يكبّر فيستوي قاعداً على مقعده ويقيم صلبه ـ فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ، ثم قال: ـ لا تَتمّ صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك». ومثله حديث أبي هريرة خرّجه مسلم، وقد تقدّم.

قلت: فهذا بيان الصلاة المجملة في الكتاب بتعليم النبيّ عليه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام، فمن لم يقف عند هذا البيان وأخلّ بما فرض عليه الرحمن، ولم يمتثل ما بلغه عن نبيّه عليه السلام كان من جملة من دخل في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاَةَ واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾. على ما يأتي بيانه هناك[1] إن شاء الله تعالى. روى البخاريّ عن زيد بن وهب قال: رأى حُذيفة رجلاً لا يتم الركوع ولا السجود فقال: ما صلّيت ولو متَّ لمتَّ على غير الفِطرة التي فَطَر الله عليها محمداً ﷺ.

الثانية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ «مع» تقتضي المَعِيّة والجمعيّة؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن: إن الأمر بالصلاة أوّلاً لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله « مع » شهود الجماعة . وقد اختلف العلماء في شهود الجماعة على قولين؛ فالذي عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة. وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضاً على الكفاية. قال ابن عبد البر: وهذا قول صحيح؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات. فإذا قامت الجماعة في المسجد فصلاة المنفرد في بيته جائزة؛ لقوله عليه السلام: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ[2] بسبع وعشرين درجةً». أخرجه مسلم من حديث ابن عمر. وروي عن أبي هريرة رضي الله

(١) راجع ١١/١٢١. (٢) الفذ: المنفرد.

عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءاً». وقال داود: الصلاة في الجماعة فرض على كل أحد في خاصته كالجمعة؛ واحتج بقوله عليه السلام: «لا صلاةَ لجار المسجد إلا في المسجد» خرّجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق؛ وهو قول عطاء بن أبي رباح وأحمد بن حنبل وأبي ثَوْر وغيرهم. وقال الشافعي: لا أرخّص لمن قدر على الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر؛ حكاه ابن المنذر. وروى مسلم عن أبي هريرة قال: أتى النبيّ ﷺ رجلٌ أعمى فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد؛ فسأل رسولَ الله ﷺ أن يرخّص له فيصلي في بيته؛ فرخص له؛ فلما وَلّى دعاه فقال: «[هل[1]] تسمع النداء بالصلاة» قال نعم؛ قال: «فأجب». وقال أبو داود في هذا الحديث: «لا أجد لك رخصة». خرجه من حديث ابن أم مَكْتُوم؛ وذكر أنه كان هو السائل. وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «مَن سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر ـ قالوا: وما العذر؟ قال: خوفٌ أو مرض ـ لم تُقبل منه الصلاة التي صلى». قال أبو محمد عبد الحق: هذا يرويه مغراء العبدي. والصحيح موقوف على ابن عباس: «من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له». على أن قاسم بن أَصْبَغ ذكره في كتابه فقال: حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، قال حدّثنا سليمان بن حرب، حدّثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «مَن سمع النداء فلم يُجب فلا صلاة له إلا من عذر». وحسبك بهذا الإسناد صحة. ومَغراء العبدي روى عنه أبو إسحاق. وقال ابن مسعود: ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنها إلا منافق معلوم النفاق. وقال عليه السلام: «بيننا وبين المنافقين شهود العَتَمة والصُّبح لا يستطيعونهما». قال ابن المنذر: ولقد روينا عن غير واحد من أصحاب النبيّ ﷺ أنهم قالوا: «من سمع النداء فلم يُجب من غير عذر فلا صلاة له» منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعريّ. وروى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول ﷺ:

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم

«لقد هَمَمت أن آمر فِتْيتي فيجمعوا حُزَماً من حطب ثم آتي قوماً يصلون في بيوتهم ليست لهم عِلّة فأحرقها عليهم». هذا ما احتج به من أوجب الصلاة في الجماعة فرضاً، وهي ظاهرة في الوجوب، وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات في الجماعة؛ بدليل حديث ابن عمر وأبي هريرة. وحملوا قول الصحابة وما جاء في الحديث من أنه «لا صلاة له» على الكمال والفضل؛ وكذلك قوله عليه السلام لابن أم مكتوم: «فأجب» على الندب. وقوله عليه السلام: «لقد هممت» لا يدل على الوجوب الحتم؛ لأنه هَمَّ ولم يفعل؛ وإنما مخرجه مخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلّفون عن الجماعة والجمعة . يبيّن هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبد الله قال: «مَن سرّه أن يلقى الله غداً مسلِماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادَى بهن ، فإن الله شرع لنبيّكم ﷺ سُنن الهُدَى ، وإنهن من سنن الهدي ؛ ولو أنكم صلّيتم في بيوتكم كما يصلّي هذا المتخلّف في بيته لتركتم سُنّة نبيّكم ﷺ ، ولو تركتم سُنة نبيّكم ﷺ لَضلَلتم ؛ وما من رجل يتطهّر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خُطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحطّ عنه بها سيئة ، ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتَى به يُهادَى بين الرجلين[١] حتى يقام في الصّف». فبيّن رضي الله عنه في حديثه أن الاجتماع سُنّة من سُنن الهُدَى وتركه ضلال؛ ولهذا قال القاضي أبو الفضل عِياضَ: اختلِف في التمالؤ على ترك ظاهر السنن؛ هل يقاتل عليها أو لا؛ والصحيح قتالهم؛ لأن في التمالؤ عليها إماتتها.

قلت: فعلى هذا إذا أقيمت السُّنة وظهرت جازت صلاة المنفرد وصحّت. روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضْعاً وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنْهَزُه[٢] إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يَخْط خُطوة إلا رُفع له بها درجةٌ

(١) معناه: يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما.

(٢) النهز: الدفع. أي لا يقيمه من موضعه؛ وهو بمعنى قوله بعده: «لا يريد إلا الصلاة».

وحطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبِسه والملائكة يصلّون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلّى فيه يقولون اللَّهُمّ ارحمه اللَّهُمّ اغفر له اللَّهُمّ تُبْ عليه ما لم يُؤْذِ فيه ما لم يُحْدِث فيه». قيل لأبي هريرة: ما يحدث؟ قال: يَفْسُو أو يَضْرِط.

الثالثة عشرة ـ واختلف العلماء في هذا الفضل المضاف للجماعة؛ هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت، أو إنما يكون ذلك الفضل للجماعة التي تكون في المسجد؛ لما يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء في الحديث؛ قولان. والأول أظهر؛ لأن الجماعة هو الوصف الذي عُلّق عليه الحُكم. والله أعلم. وما كان من إكثار الخطا إلى المساجد وقصد الإتيان إليها والمُكْث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة. والله أعلم.

الرابعة عشرة ـ واختلفوا أيضاً هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك: لا. وقال ابن حبيب: نعم؛ لأن النبيّ ﷺ قال: «صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كَثُر فهو أحبّ إلى الله». رواه أُبيّ بن كعب وأخرجه أبو داود، وفي إسناده لين.

الخامسة عشرة ـ واختلفوا أيضاً فيمن صلّى في جماعة هل يُعيد صلاته تلك في جماعة أخرى؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعي وأصحابهم: إنما يعيد الصلاة في جماعة مع الإمام مَن صلّى وحده في بيته وأهلِه أو في غير بيته؛ وأمّا من صلّى في جماعة وإن قلّت فإنه لا يعيد في جماعة أكثر منها ولا أقل. وقال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوَيْه وداود بن عليّ: جائز لمن صلى في جماعة ووجد جماعة أخرى في تلك الصلاة أن يعيدها معهم إن شاء؛ لأنها نافلة وسنة. وروي ذلك عن حُذيفة بن اليَمان وأبي موسى الأشعريّ وأنس بن مالك وصلة بن زفر والشَّعْبي والنَّخَعِي، وبه قال حمد بن زيد وسليمان بن حرب.

احتج مالك بقوله ﷺ: «لا تُصلَّى صلاةٌ في يوم مرتين». ومنهم من يقول: لا تصلّوا. رواه سليمان بن يَسار عن ابن عمر. واتفق أحمد وإسحاق على أن معنى

هذا الحديث أن يصلي الإنسان الفريضة، ثم يقوم فيصلّيها ثانية ينوي بها الفرض مرة أخرى؛ فأمّا إذا صلاّها مع الإمام على أنها سُنّة أو تطوّع فليس بإعادة الصلاة، وقد قال رسول الله ﷺ للذين أمرهم بإعادة الصلاة في جماعة: «إنها لكم نافلة». من حديث أبي ذرّ وغيره.

السادسة عشرة - روى مسلم عن أبي مسعود عن النبي ﷺ قال: «يَؤُمّ القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلَمهم بالسُّنة فإن كانوا في السنة سواءً فأقدمهم هجرةً فإن كانوا في الهجرة سواءً فأقدَمُهم سِلْماً ولا يؤمّن الرجلُ الرجلَ في سلطانه ولا يقعد في بيته على تَكْرِمتِه إلا بإذنه» وفي رواية «سِنّاً» مكان «سِلْماً». وأخرجه أبو داود وقال: قال شعبة: فقلت لإسماعيل ما تَكْرِمَتُهُ؟ قال: فراشه. وأخرجه الترمذي وقال: حديث أبي مسعود حديث حسن صحيح، والعمل عليه عند أهل العلم.

قالوا: أحق الناس بالإمامة أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بالسُّنّة. وقالوا: صاحب المنزل أحق بالإمامة. وقال بعضهم: إذا أذِن صاحب المنزل لغيره فلا بأس أن يصلّي به. وكَرِهه بعضهم وقالوا: السُّنة أن يصلّي صاحب البيت. قال ابن المنذر: رَوَينا عن الأشعث بن قيس أنه قدّم غلاماً وقال: إنما أقدّم القرآن. وممن قال: يؤم القوم أقرؤهم ابن سِيرين والثوريُّ وإسحاقُ وأصحابُ الرأي. قال ابن المنذر: بهذا نقول؛ لأنه موافق للسُّنة. وقال مالك: يتقدّم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة، وإن للسنّ حقاً. وقال الأوزاعيّ: يؤمّهم أفقههم؛ وكذلك قال الشافعي وأبو ثور إذا كان يقرأ القرآن؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بما ينوبه من الحوادث في الصلاة . وتأوّلوا الحديث بأن الأقرأ من الصحابة كان الأفقه ؛ لأنهم كانوا يتفقهون في القرآن، وقد كان مِن عُرفهم الغالب تسميتهم الفقهاء بالقرّاء؛ واستدلّوا بتقديم النبيّ ﷺ في مرضه الذي مات فيه أبا بكر لفضله وعلمه. وقال إسحاق: إنما قدّمه النبيّ ﷺ ليدل على أنه خليفته بعده. ذكره أبو عمر في التمهيد. وروى أبو بكر البزار بإسناد حسن عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ:

«إذا سافرتم فليؤمّكم أقرؤكم وإن كان أصغرَكم وإذا أمّكم فهو أميركم». قال: لا نعلمه يروي عن النبيّ ﷺ إلا من رواية أبي هريرة بهذا الإسناد.

قلت: إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئاً. ثبت في «صحيح البخاريّ» عن عمرو بن سَلِمة قال: كنا بماء ممَرٍّ[١] الناس وكان يمرّ بنا الركبان فنسألهم ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوْحَى إليه كذا! أوْحى إليه كذا! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يُقرّ[٢] في صدري؛ وكانت العرب تَلَوَّم[٣] بإسلامها فيقولون: ٱتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيّ صادق؛ فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند نبيّ الله حقّاً، قال: «صلوا صلاة كذا في حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذّن أحدكم وليؤمّكم أكثركم قرآناً». فنظروا فلم يكن أحد أكثر مني قرآناً لِمَا كنت أتلقّى من الركبان، فقدّموني بين أيديهم وأنا ٱبن ست أو سبع سنين، وكانت عليّ بُرْدة إذا سجدت تقلّصت عني، فقالت ٱمرأة من الحَيّ: ألا تغطّون[٤] عنا ٱسْتَ قارئكم! فٱشترَوْا فقطعوا لي قميصاً، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص. وممن أجاز إمامة الصبيّ غير البالغ الحسنُ البصري وإسحاقُ بن راهَوَيْه، وٱختاره ٱبن المنذر إذا عقل الصلاة وقام بها؛ لدخوله في جملة قوله ﷺ: «يؤمّ القوم أقرؤهم» ولم يستثن، ولحديث عمرو بن سَلِمة. وقال الشافعي في أحد قوليه: يؤمّ في سائر الصلوات ولا يؤمّ في يوم الجمعة؛ وقد كان قبلُ يقول: ومن أجزأتْ إمامته في المكتوبة أجزأت إمامته في الأعياد، غير أني أكره فيها إمامة غير الوالي. وقال الأوزاعيّ: لا يؤمّ الغلام في الصلاة المكتوبة حتى يحتلم، إلا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شيء فإنه يؤمّهم الغلام المراهق. وقال الزهري: إن اضطرّوا إليه أمّهم. ومنع ذلك جملةً مالكٌ والثوريُّ وأصحابُ الرأي.

السابعة عشرة ـ الائتمام بكل إمام بالغ مسلم حُرٍّ على ٱستقامة جائزٌ من غير خلاف، إذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن في أمّ القرآن لحناً يُخِلّ بالمعنى؛ مثل أن يكسر الكاف

(١) بتشديد الراء مجرورة صفة لماء، ويجوز فتحها؛ أي موضع مرورهم.

(٢) يقرّ (بقاف مفتوحة) من القرار. وفي رواية «يقرى» بألف مقصورة أي يجمع، أو بهمزة من القراءة. وفي رواية «يغرى» أي يلصق.

(٣) تلوَّم: تنتظر.

(٤) في «الأصول»: «ألا تغطوا...» بحذف النون، ولا مقتضى له.

من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ويضم التاء في ﴿أَنْعَمْتَ﴾. ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضاد؛ وإن لم يفرّق بينهما لا تصح إمامته؛ لأن معناهما يختلف. ومنهم من رخّص في ذلك كله إذا كان جاهلاً بالقراءة وأمّ مثلَه. ولا يجوز الائتمام بأمرأة ولا خُنثَى مُشْكل ولا كافرٍ ولا مجنونٍ ولا أمّيٍّ، ولا يكون واحدٌ من هؤلاء إماماً بحال من الأحوال عند أكثر العلماء، على ما يأتي ذكره، إلا الأمّيّ لمثله. قال علماؤنا: لا تصح إمامة الأُمّيّ الذي لا يُحسن القراءة مع حضور القارىء له ولا لغيره؛ وكذلك قال الشافعي. فإن أمّ أمّياً مثلَه صحّت صلاتهم عندنا وعند الشافعي. وقال أبو حنيفة: إذا صلّى الأُمّيّ بقوم يقرءون وبقوم أمّيين فصلاتهم كلهم فاسدة. وخالفه أبو يوسف فقال: صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامّة. وقالت فرقة: صلاتهم كلهم جائزة؛ لأن كلاًّ مؤدٍّ فرضه، وذلك مثل المتيمم يصلي بالمتطهرين بالماء والمصلي قاعداً يصلي بقوم قيام صلاتهم مجزئة في قول من خالفنا؛ لأن كلاًّ مؤدّ فرض نفسه.

قلت: وقد يحتج لهذا القول بقوله عليه السلام: «ألا ينظر المصلي [إذا صلى[1]] كيف يصلي فإنما يصلي لنفسه» أخرجه مسلم. وإن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام، والله أعلم. وكان عطاء بن أبي رباح يقول: إذا كانت أمرأته تقرأ كبّر هو وتقرأ هي؛ فإذا فرغت من القراءة كبّر وركع وسجد وهي خلفه تصلّي. ورُوِيَ هذا المعنى عن قتادة.

الثامنة عشرة ـ ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشلّ والأقطع والخِصيّ والعبد إذا كان كل واحد منهم عالماً بالصلاة. وقال أبن وهب: لا أرى أن يؤمّ الأقطع والأشل؛ لأنه منتقص عن درجة الكمال، وكرهت إمامته لأجل النقص. وخالفه جمهور أصحابه وهو الصحيح؛ لأنه عضو لا يمنع فقده فرضاً من فروض الصلاة فجازت الإمامة الراتبة مع فقده كالعين؛ وقد روى أنس أن النبيّ ﷺ أستخلف أبن أم مكتوم يؤمّ الناس وهو أعمى، وكذا الأعرج والأقطع والأشل والخصيّ قياساً ونَظَراً، والله أعلم. وقد روي عن أنس بن مالك أنه قال في الأعمى: وما حاجتهم إليه! وكان أبن عباس وعِتْبان بن مالك يؤمّان وكلاهما أعمى؛ وعليه عامّة العلماء.

---

(١) الزيادة عن «صحيح مسلم».

التاسعة عشرة ـ وٱختلفوا في إمامة ولد الزنى؛ فقال مالك: أكره أن يكون إماماً راتباً. وكره ذلك عمر بن عبد العزيز. وكان عطاء بن أبي رَباح يقول: له أن يؤم إذا كان مرضياً، وهو قول الحسن البصري والزُّهري والنَّخَعيّ وسفيان الثوري والأوزاعي وأحمد وإسحاق. وتجزىء الصلاة خلفه عند أصحاب الرأي، وغيره أحبّ إليهم. وقال الشافعي: أكره أن ينصب إماماً راتباً مَن لا يُعرف أبوه، ومَن صلى خلفه أجزأه. وقال عيسى بن دينار: لا أقول بقول مالك في إمامة ولد الزنى وليس عليه من ذنب أبويه شيء. ونحوه قال ٱبن عبد الحكم إذا كان في نفسه أهلاً للإمامة. قال ٱبن المنذر: يؤم لدخوله في جملة قول رسول الله ﷺ: «يؤم القومَ أقرؤهم». وقال أبو عمر: ليس في شيء من الآثار الواردة في شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب؛ وإنما فيها الدلالة على الفقه والقراءة والصلاح في الدِّين.

الموفية عشرين ـ وأما العبد فروَى البخاريّ عن ٱبن عمر قال: لما قدم المهاجرون الأوّلون العَصَبة ـ موضع بقُبَاء ـ قبل مقدم النبيّ ﷺ كان يؤمّهم سالم مَوْلَى أبي حُذيفة وكان أكثرهم قرآناً. وعنه قال: كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الأوّلين وأصحاب النبيّ ﷺ في مسجد قُبَاء، فيهم أبو بكر وعمر وزيد وعامر بن ربيعة؛ وكانت عائشة يؤمّها عبدها ذكوان من المصحف. قال ٱبن المنذر: وأَمّ أبو سعيد مولى أبي أسيد ـ وهو عبد ـ نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم حذيفة وأبو مسعود.

ورخّص في إمامة العبد النَّخَعِيُّ والشعبيُّ والحسنُ البصريّ والحكمُ والثوريُّ والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأصحابُ الرأي؛ وكره ذلك أبو مِجْلَز. وقال مالك: لا يؤمّهم إلا أن يكون العبد قارئاً ومَن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أن يكون في عيد أو جمعة فإن العبد لا يؤمهم فيها؛ ويجزىء عند الأوزاعي إن صلوا وراءه. قال ٱبن المنذر: العبد داخل في جملة قول النبيّ ﷺ: «يؤم القوم أقرؤهم».

الحادية والعشرون ـ وأما المرأة فروَى البخاريّ عن أبي بكرة قال: لما بلغ رسول الله ﷺ أنّ أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولّوْا أمرهم

امرأة». وذكر أبو داود عن عبد الرحمن بن خلّاد عن أمّ ورقة بنت عبد الله قال: وكان رسول الله ﷺ يزورها في بيتها، قال: وجعل لها مؤذّناً يؤذّن لها وأمرها أن تؤم أهل دارها. قال عبد الرحمن: فأنا رأيت مؤذنها شيخاً كبيراً. قال ابن المنذر: والشافعي يوجب الإعادة على مَن صلّى من الرجال خلف المرأة. وقال أبو ثور: لا إعادة عليهم. وهذا قياس قول المُزَنِيّ.

قلت: وقال علماؤنا لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء. وروى ابن[1] أيمن جواز إمامتها للنساء. وأما الخُنْثَى المشكل فقال الشافعي: لا يؤم الرجال ويؤم النساء. وقال مالك: لا يكون إماماً بحال؛ وهو قول أكثر الفقهاء.

الثانية والعشرون ـ الكافر المخالف للشرع كاليهودي والنصراني يؤم المسلمين وهم لا يعلمون بكفره. وكان الشافعي وأحمد يقولان: لا يجزئهم ويعيدون. وقاله مالك وأصحابه؛ لأنه ليس من أهل القُربة. وقال الأوزاعي: يعاقب. وقال أبو ثَور والمُزَنِيّ لا إعادة على مَن صلى خلفه، ولا يكون بصلاته مسلماً عند الشافعي وأبي ثور. وقال أحمد: يجبر على الإسلام.

الثالثة والعشرون ـ وأما أهل البِدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمِية وغيرهما فذكر البخاري عن الحسن: صلّ، وعليه بدعته. وقال أحمد: لا يصلي خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه. وقال مالك: ويصلي خلف أئمة الجَور، ولا يصلى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم. وقال ابن المنذر: كل من أخرجته بدعته إلى الكفر لم تجز الصلاة خلفه، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة؛ ولا يجوز تقديم مَن هذه صفته.

الرابعة والعشرون ـ وأما الفاسق بجوارحه كالزاني وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه؛ فقال ابن حبيب: من صلى وراء من شرب الخمر فإنه يعيد أبداً، إلا أن يكون الوالي الذي تؤدّى إليه الطاعة، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران. قاله

(١) في نسخة: «ابن أبي أيمن».

من لقيت من أصحاب مالك. وروي من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال على المنبر: «لا تَؤمّنّ امرأة رجلاً ولا يؤمّنّ أعرابي مهاجراً ولا يَؤمّنّ فاجر برّاً إلا أن يكون ذلك ذا سلطان». قال أبو محمد عبد الحق: هذا يرويه عليّ بن زيد بن جُدْعان عن سعيد بن المسيّب، والأكثر يضعّف عليّ بن زيد. وروى الدّارَقُطْنِيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن سرّكم أن تُزَكُّوا صلاتكم فقدّموا خياركم». في إسناده أبو الوليد خالد بن إسماعيل المخزومي وهو ضعيف؛ قاله الدّارَقُطْنِي. وقال فيه أبو أحمد بن عَديّ: كان يضع الحديث على ثقات المسلمين؛ وحديثه هذا يرويه عن ابن جُريج عن عطاء عن أبي هريرة. وذكر الدّارَقُطْنِيّ عن سلام بن سليمان عن عمر عن محمد بن واسع عن سعيد بن جُبير عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «اجعلوا أئمتكم خياركم فإنهم وَفْدٌ فيما بينكم وبين الله». قال الدّارقطني: عمر هذا هو عندي عمر بن يزيد قاضي المدائن، وسلام بن سليمان أيضاً مدائني ليس بالقوي؛ قاله عبد الحق.

الخامسة والعشرون ـ روى الأئمة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما جُعل الإمام ليُؤتم به فلا تختلفوا عليه فإذا كبّر فكبّروا وإذا ركع فاركعوا وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللّهُمّ ربّنا ولك الحمد وإذا سجد فاسجدوا وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً أجمعون».

وقد اختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامداً على قولين: أحدهما ـ أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو في أكثرها؛ وهو قول أهل الظاهر ورُوِيَ عن ابن عمر . ذكر سُنيد قال حدّثنا ابن عُلَيّة عن أيوب عن أبي قِلابة عن أبي الورد الأنصاري قال: صلّيت إلى جنب ابن عمر فجعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله، فلما سلّم الإمام أخذ ابن عمر بيدي فلواني وجذبني، فقلت: مالك! قال: مَن أنت؟ قلتُ: فلان بن فلان؛ قال: أنتَ من أهل بيت صدق! فما يمنعك أن تصليّ ؟ قلت : أو ما رأيتني إلى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبله وإنه لا صلاة لمن خالف الإمام. وقال الحسن بن حَيّ فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الإمام أو يسجد:

لم يعتدّ بذلك ولم يجزه. وقال أكثر الفقهاء: مَن فعل ذلك فقد أساء ولم تفسد صلاته؛ لأن الأصل في صلاة الجماعة والائتمام فيها بالأئمة سُنّة حسنة، فمن خالفها بعد أن أدّى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها وإن أسقط بعض سننها؛ لأنه لو شاء أن ينفرد فصلّى قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه؛ وبئس ما فعل في تركه الجماعة. قالوا: ومن دخل في صلاة الإمام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن في ركعة وإمامه في أخرى فقد ٱقتدى وإن كان يرفع قبله ويخفض قبله؛ لأنه بركوعه يركع وبسجوده يسجد ويرفع وهو في ذلك تبع له، إلا أنه مسيء في فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها.

قلت: ما حكاه ٱبن عبد البر عن الجمهور ينبيء على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصلاة الإمام؛ لأن الإتباع الحسيّ والشرعي مفقود، وليس الأمر هكذا عند أكثرهم. والصحيح في الأثر والنظر القول الأوّل؛ فإن الإمام إنما جُعل ليؤتم به ويُقتدَى به بأفعاله؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[1] أي يأتّمون بك؛ على ما يأتي بيانه.

هذا حقيقة الإمام لغة وشرعاً، فمن خالف إمامه لم يتبعه؛ ثم أن النبيّ ﷺ بيّن فقال: «إذا كبّر فكبّروا» الحديث. فأتى بالفاء التي توجب التعقيب، وهو المبيِّن عن الله مراده. ثم أوعد من رفع أو ركع قبلُ وعيداً شديداً فقال: «أمَا يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار». أخرجه المُوَطّأ والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم. وقال أبو هريرة: إنما ناصيته بيد شيطان. وقال رسول الله ﷺ: «كلُّ عملٍ ليس عليه أَمْرُنا فهو رَدٌّ». يعني مردود. فمن تعمّد خلاف إمامه عالماً بأنه مأمور بٱتباعه منهيّ عن مخالفته فقد ٱستخف بصلاته وخالف ما أُمِر به؛ فواجب ألاّ تجزي عنه صلاته تلك؛ والله أعلم.

السادسة والعشرون ـ فإن رفع رأسه ساهياً قبل الإمام فقال مالك رحمه الله: السُّنّة فيمن سها ففعل ذلك في ركوع أو في سجود أن يرجع راكعاً أو ساجداً وينتظر الإمام، وذلك خطأ ممن فعله؛ لأن النبيّ ﷺ قال: «إنما جُعل الإمام ليؤتم به

(١) راجع ٢/١٠٧.

فلا تختلفوا عليه». قال أبن عبد البر: ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عامداً؛ لقوله: «وذلك خطأ ممن فعله»؛ لأن الساهي الإثمُ عنه موضوع.

السابعة والعشرون ـ وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام، أما السلام فقد تقدّم القول فيه. وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون إلا بعد تكبير الإمام، إلا ما رُوِيَ عن الشافعيّ في أحد قوليه: أنه إن كبّر قبل إمامه تكبيرة الإحرام أجزأت عنه؛ لحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ جاء إلى الصلاة فلما كبّر أنصرف وأوْمأ إليهم ـ أي كما أنتم ـ ثم خرج ثم جاء ورأسه تقطر فصلّى بهم؛ فلما انصرف قال: «إني كنت جُنُباً فنسيتُ أن أغتسل». ومن حديث أنس «فكبّر وكبّرنا معه» وسيأتي بيان هذا عند قوله تعالى: ﴿وَلاَ جُنُباً﴾ في «النساء[1]» إن شاء الله تعالى.

الثامنة والعشرون ـ وروى مسلم عن أبي مسعود قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «أستوُوا ولا تختلفوا فتختلفَ قلوبكم لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنُّهَى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». قال أبو مسعود: فأنتم اليوم أشدّ أختلافاً. زاد من حديث عبد الله: «وإيّاكم وهَيْشات[2] الأسواق». وقوله: «أستوُوا» أمْرٌ بتسوية الصفوف وخاصّةً الصف الأوّل وهو الذي يلي الإمام، على ما يأتي بيانه في سورة «الحجر[3]» إن شاء الله تعالى. وهناك يأتي الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى.

التاسعة والعشرون ـ وأختلف العلماء في كيفية الجلوس في الصلاة لاختلاف الآثار في ذلك؛ فقال مالك وأصحابه: يُفْضِي المصلّي بألْيَتَيْه إلى الأرض وينصب رجله اليمنى ويَثْنِي رجله اليسرى؛ لما رواه في مُوَطَّئه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس في التشهد فنصب رجله اليمنى وثنى رجله اليسرى وجلس على وَرِكه الأيسر ولم يجلس على قدمه، ثم قال: أراني هذا عبدُ الله بن عمر، وحدّثني أن أباه كان يفعل ذلك.

---

(١) راجع ٥/٢٠٤.

(٢) الهيشة (مثل الهوشة): الاختلاط والمنازعة وأرتفاع الأصوات.

(٣) راجع ١٠/٢٠.

قلت: وهذا المعنى قد جاء في «صحيح مسلم» عن عائشة قالت. كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يُشْخِص رأسه ولم يُصَوّبه، ولكن بين ذلك، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوي قائماً، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوي جالساً، وكان يقول في كل ركعتين التحية، وكان يفرُش رجله اليسرى وينصب رجله اليمنى، وكان يَنْهَى عن عُقْبة[1] الشيطان، ويَنْهَى أن يفترِش الرجل ذراعيه أفتراش السّبُع، وكان يختم الصلاة بالتسليم.

قلت: ولهذا الحديث ـ والله أعلم ـ قال آبن عمر: إنما سُنّة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثني اليسرى. وقال الثَّوْري وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حَيّ: ينصب اليمنى ويقعد على اليسرى، لحديث وائل بن حُجْر؛ وكذلك قال الشافعيّ وأحمد وإسحاق في الجلسة الوسطى. وقالوا في الآخرة من الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء كقول مالك؛ لحديث أبي حُميد الساعدي رواه البخاريّ قال: رأيت النبيّ ﷺ إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ مَنْكِبَيه، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هَصَر ظهره، فإذا رفع آستوى حتى يعود كل فقار مكانه، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما وآستقبل بأطراف أصابع رجليه القِبلة، وإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب الأخرى، وإذا جلس في الركعة الآخرة قدّم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته. قال الطبري: إن فعل هذا فحسن، كل ذلك قد ثبت عن النبيّ ﷺ.

الموفية الثلاثين ـ مالك عن مسلم بن أبي مريم عن عليّ بن عبد الرحمن المُعَاويّ أنه قال: رآني عبد الله بن عمر وأنا أعبث بالحصباء في الصلاة؛ فلما آنصرف نهاني فقال: آصنع كما كان رسول الله ﷺ يصنع؛ قلت: وكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قال: كان إذا جلس في الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه

---

(١) عقبة الشيطان: قال آبن الأثير: «هو أن يضع أليتيه على عقبيه بين السجدتين، وهو الذي يجعله بعض الناس الإقعاء. وقيل: هو أن يترك عقبيه غير مغسولين في الوضوء».

كلها وأشار بأصبعه التي تلي الإبهام، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى؛ وقال: هكذا كان يفعل. قال ٱبن عبد البر: وما وصفه ٱبن عمر من وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بها، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع؛ كل ذلك سنة في الجلوس في الصلاة مُجْمَعٌ عليه، لا خلاف عَلِمته بين العلماء فيها، وحسبك بهذا. إلا أنهم ٱختلفوا في تحريك أصبعه السبابة، فمنهم من رأى تحريكها، ومنهم من لم يره. وكل ذلك مروِيّ في «الآثار الصحاح» المسندة عن النبيّ ﷺ، وجميعه مباح، والحمد لله. وروى سفيان بن عُيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبي مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه: قال سفيان: وكان يحيى بن سعيد حدّثناه عن مسلم ثم لقيته فسمعته منه وزادني فيه: قال: «هي مذبّة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بإصبعه ويقول هكذا».

قلت: روى أبو داود في حديث ٱبن الزبير أنه عليه السلام كان يشير بإصبعه إذا دعا ولا يحركها. وإلى هذا ذهب بعض العراقيين، فمنع من تحريكها. وبعض علمائنا رأوا أن مدّها إشارة إلى دوام التوحيد. وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم إلى تحريكها، إلا أنهم ٱختلفوا في الموالاة بالتحريك على قولين؛ تأوّل مَن والاه بأن قال: إن ذلك يذكر بموالاة الحضور في الصلاة؛ وبأنها مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان. ومن لم يوال رأى تحريكها عند التلفظ بكلمتي الشهادة ، وتأوّل في الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد ؛ والله أعلم.

الحادية والثلاثون ـ وٱختلفوا في جلوس المرأة في الصلاة؛ فقال مالك: هي كالرجل، ولا تخالفه فيما بعد الإحرام إلا في اللباس والجهر. وقال الثوريّ: تسدُل المرأة جلبابها من جانب واحد؛ ورواه عن إبراهيم النَّخَعِيّ. وقال أبو حنيفة وأصحابه: تجلس المرأة كأيسر ما يكون لها. وهو قول الشَّعْبي: تقعد كيف تيسر لها. وقال الشافعيّ: تجلس بأستر ما يكون لها.

الثانية والثلاثون ـ روى مسلم عن طاوس قال: قلنا لابن عباس في الإقعاء على القدمين؛ فقال: هي السُّنّة؛ فقلنا له إنا لنراه جفاء بالرجل؛ فقال ٱبن عباس: [بل[1]] هي سُنّة نبيك ﷺ. وقد ٱختلف العلماء في صفة الإقعاء ما هو؛ فقال أبو عبيد: الإقعاء جلوس الرجل على أليتيه ناصباً فخذيه مثل إقعاء الكلب والسَّبُع. قال ٱبن عبد البر: وهذا إقعاء مجتمَع عليه لا يختلف العلماء فيه. وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهل الفقه. وقال أبو عبيد: وأما أهل الحديث فإنهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين. قال القاضي عياض: والأشبه عندي في تأويل الإقعاء الذي قال فيه ٱبن عباس إنه من السُّنّة؛ الذي فسّر به الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدتين؛ وكذا جاء مفسَّراً عن ٱبن عباس: من السُّنة أن تمس عقبك أليتك. رواه إبراهيم بن مَيْسرة عن طاوس عنه؛ ذكره أبو عمر. قال القاضي: وقد رُوي عن جماعة من السلف والصحابة أنهم كانوا يفعلونه، ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسمّوْه إقعاء. ذكر عبد الرزاق عن مَعمر عن ٱبن طاوس عن أبيه أنه رأى ٱبن عمر وٱبن عباس وٱبن الزبير يَقْعون بين السجدتين.

الثالثة والثلاثون ـ لم يختلف من قال من العلماء بوجوب التسليم وبعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض، إلا ما روي عن الحسن بن حَيّ أنه أوجب التسليمتين معاً. قال أبو جعفر الطحاوِيّ: لم نجد عن أحد من أهل العلم الذين ذهبوا إلى التسليمتين أنّ الثانية من فرائضها غيره. قال ابن عبد البرّ: من حجّة الحسن بن صالح في إيجابه التسليمتين جميعاً ـ وقوله: إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانية فسدت صلاته ـ قولُه ﷺ: «تحليلها التسليم». ثم بيّن كيف التسليم فكان يسلّم عن يمينه وعن يساره. ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله ﷺ: «تحليلها التسليم» قالوا: والتسليمة الواحدة يقع عليها ٱسم تسليم.

(١) الزيادة عن «صحيح مسلم».

قلت: هذه المسألة مبنية على الأخذ بأقل الاسم أو بآخره، ولما كان الدخول في الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة، إلا أنه تواردت[١] السنن الثابتة من حديث ٱبن مسعود ـ وهو أكثرها تواتراً ـ ومن حديث وائل بن حُجْر الحضرميّ وحديثِ عمّار وحديث البَراء بن عازب وحديثِ ٱبن عمر وحديثِ سعد بن أبي وَقّاص أن النبيّ ﷺ كان يسلم تسليمتين. روى ٱبن جُريج وسليمان بن بلال وعبد العزيز بن محمد الدّراوَرْدِيّ كلُّهم عن عمرو بن يحيى المازني عن محمد بن يحيى بن حَبّان عن عمه واسع بن حَبّان قال قلت لابن عمر: حدّثني عن صلاة رسول الله ﷺ كيف كانت؟ فذكر التكبير كلما رفع رأسه وكلما خفضه، وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره. قال ٱبن عبد البر: وهذا إسناد مدني صحيح، والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة، وهو عمل قد توارثه أهل المدينة كابراً عن كابر، ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل في كل بلد؛ لأنه لا يخفى لوقوعه في كل يوم مراراً. وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عندهم بالتسليمتين ومتوارث عندهم أيضاً. وكل ما جرى هذا المجرى فهو ٱختلاف في المباح كالأذان، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجاز ولا بالعراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة ولا إنكار التسليمتين بل ذلك عندهم معروف، وحديث التسليمة الواحدة رواه سعد بن أبي وقّاص وعائشة وأنس؛ إلا أنها معلولة لا يصححها أهل العلم بالحديث.

الرابعة والثلاثون ـ روى الدّارَقُطْنيّ عن ٱبن مسعود أنه قال: من السُّنة أن يخفي التشهّد. وٱختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو، التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصلوات لله، السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وٱختار الشافعي وأصحابه واللَّيث بن سعد تشهّد ٱبن عباس؛ قال: كان رسول الله ﷺ يعلّمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن، فكان يقول: «التحيات المباركات الصلوات الطيبات

---

(١) في نسخة «تواترت».

لله، السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله». وٱختار الثّوْرِي والكوفيون وأكثر أهل الحديث تشهد ٱبن مسعود الذي رواه مسلم أيضاً قال: كنا نقول في الصلاة خلف رسول الله ﷺ: السلام على الله، السلام على فلان؛ فقال رسول الله ﷺ ذات يوم: «إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التحيّات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ـ فإذا قالها أصابت كل عبد [لله[1]] صالح في السماء والأرض ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ما شاء». وبه قال أحمد وإسحاق وداود. وكان أحمد بن خالد بالأندلس يختاره ويميل إليه. وروي عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً وموقوفاً نحو تشهد ٱبن مسعود. وهذا كله ٱختلاف في مباح ليس شيء منه على الوجوب، والحمد لله وحده. فهذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمّنها قوله جل وعز: ﴿وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ﴾. وسيأتي القول في القيام في الصلاة عند قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾[2]. ويأتي هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصلاة، ويأتي في «آل عمران[3]» حكم صلاة المريض غير الإمام، ويأتي في «النساء[4]» في صلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل، ويأتي في سورة «مريم[5]» حكم الإمام يصلي أرفع من المأموم، إلى غير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد؛ وهذا كله بيان لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾. وقد تقدّم في أوّل السورة جملة من أحكامها، والحمد لله على ذلك.

[٤٤] ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

فيه تسع مسائل:

---

(١) الزيادة عن مسلم.
(٢) راجع ٣/٢١٣.
(٣) راجع ٤/٣١١.
(٤) راجع ٥/٣٥١.
(٥) راجع ١١/٨٥.

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ هذا ٱستفهام معناه التوبيخ، والمراد في قول أهل التأويل علماءُ اليهود. قال ٱبن عباس: كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذي قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين: ٱثبت على الذي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل ـ يريدون محمداً ﷺ ـ فإن أمره حق؛ فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه. وعن ٱبن عباس أيضاً: كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم بٱتباع التوراة، وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة محمد ﷺ. وقال ٱبن جُريج: كان الأحبار يحضّون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعاصي. وقالت فرقة: كانوا يحضّون على الصدقة ويبخلون. والمعنى متقارب. وقال بعض أهل الإشارات: المعنى أتطالبون الناس بحقائق المعاني وأنتم تخالفون عن ظواهر رسومها!.

الثانية ـ في شدّة عذاب من هذه صفته؛ روى حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «ليلة أسري بي مررت على ناس تُقرض شفاههم بمقاريضَ من نار، فقلت يا جبريل من هؤلاء؟ قال هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا[(١)] يأمرون الناس بالبر وينسوْن أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون». وروى أبو أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الذين يأمرون الناس بالبر وينسوْن أنفسهم يجرّون قُصْبَهم[(٢)] في نار جهنم فيقال لهم من أنتم؟ فيقولون نحن الذين كنا نأمر الناس بالخير وننسى أنفسنا».

قلت: وهذا الحديث وإن كان فيه لين؛ لأن في سنده الخصيب بن جَحْدر كان الإمام أحمد يستضعفه وكذلك ٱبن مَعين يرويه عن أبي غالب عن أبي أمامة صُديّ بن عجلان الباهلي، وأبو غالب هو ـ فيما حكى يحيى بن مَعين ـ حَزَوّر القرشي مولى خالد بن عبد الله بن أسيد. وقيل: مولى باهلة. وقيل: مولى عبد الرحمن الحضرمي، كان يختلف إلى

---

(١) كذا في مسند الإمام أحمد بن حنبل (٣/ ١٢٠) وتفسير الفخر الرازي (١/ ٤٩٦). وفي «الأصول»: «من أمتك».

(٢) سيأتي معنى «القصب».

الشام في تجارته. قال يحيى بن مَعين: هو صالح الحديث، فقد رواه مسلم في صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتَى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار [بالرحى[1]] فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم [تكن[1]] تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه».

القُصْب (بضم القاف): المِعَى، وجمعه أقصاب. والأقتاب: الأمعاء، واحدها قِتب، ومعنى «فتندلق»: فتخرج بسرعة. وروينا «فتنفلق».

قلت: فقد دلّ الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالماً بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشدّ ممن لم يعلمه؛ وإنما ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى، ومستخفّ بأحكامه، وهو ممن لا ينتفع بعلمه؛ قال رسول الله ﷺ: «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه». أخرجه ابن ماجه في سُننه.

الثالثة ـ اعلم وفّقك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر، ولهذا ذمّ الله تعالى في كتابه قوماً كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها؛ وبّخهم به توبيخاً يُتْلَى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ الآية. وقال منصور الفقيه فأحسن:

إن قـومـاً يـأمـرونـا ... بـالـذي لا يفعلـونـا
لمجـانيـن وإن هـم ... لـم يكـونـوا يصـرعـونـا

وقال أبو العتاهية:

وصفتَ التُّقَى حتى كأنك ذو تُقًى ... وريحُ الخطايا من ثيابك تسطع

---

(١) الزيادة من «صحيح مسلم».

وقال أبو الأسْود الدُّؤَلِيّ:

لا تَنْهَ عن خُلقٍ وتأتيَ مثلَه ... عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ
وأبدأ بنفسك فأنهها عن غيّها ... فإن أنتهتْ عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبَل إن وَعظتَ ويُقتدَى ... بالقول منك وينفع التعليمُ

وقال أبو عمرو بن مطر: حضرت مجلس أبي عثمان الحِيري الزاهد فخرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته؛ فناداه رجل كان يعرف بأبي العباس: ترى أن تقول في سكوتك شيئاً؟ فأنشأ يقول:

وغير تَقِيٍّ يأمر الناس بالتُّقَى ... طبيبٌ يداوي وَالطبيبُ مريضُ

قال: فأرتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج.

الرابعة ـ قال إبراهيم النَّخَعِيّ: إني لأكره القَصص لثلاث آيات، قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ الآية، وقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[١]، وقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[٢]. وقال سَلْم بن[٣] عمرو:

ما أقبحَ التزهيدَ من واعظٍ ... يُزَهِّد الناسَ ولا يَزْهَدُ
لو كان في تزهيده صادقا ... أَضحى وأمسى بيتُه المسجدُ
إنْ رفض الدنيا فما بالُه ... يَستمنح الناس ويسترفِدُ
والرزق مقسومٌ على من تَرى ... ينالُه[٤] الأبيضُ والأسودُ

وقال الحسن لمطرِّف بن عبد الله: عِظ أصحابك؛ فقال إني أخاف أن أقول ما لا أفعل؛ قال: يرحمك الله! وأيّنا يفعل ما يقول! ويودّ الشيطان أنه قد ظَفِر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر. وقال مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن سمعت سعيد بن جُبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر

---

(١) راجع ١٨/ ٧٧.
(٢) راجع ٩/ ٨٩.
(٣) كذا في «الأصول». والصحيح أن الأبيات للجماز، وهو ابن أخت سلم بن عمرو الخاسر. يراجع «الأغاني» (٤/ ٧٦) طبع دار الكتب المصرية.
(٤) كذا في «الأغاني». وفي «الأصول»: «يسعى له».

أحد بمعروف ولا نَهَى عن منكر. قال مالك: وصدق، من ذا الذي ليس فيه[١] شيء!.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿بِالْبِرِّ﴾ البِرّ هنا الطاعة والعمل الصالح. والبِرّ: الصدق. والبِرّ: ولد الثعلب. والبِرّ: سَوق الغنم؛ ومنه قولهم: «لا يعرف هِرّاً من بِر» أي لا يعرف دعاء الغنم من سَوقها. فهو مشترك؛ وقال الشاعر:

لا هُـمّ رَبّ إن بكـراً[٢] دونكـا ... يَبَـرُّك النـاسُ ويفجـرونكـا

أراد بقوله «يبرّك الناس»: أي يطيعونك. ويقال: إن البِرّ الفؤادُ في قوله:

أكون مكان البِرّ منه ودونه[٣] ... وأجعـل مـالـي دونـه وأوامِـرُه

والبُرُّ (بضم الباء) معروف، و (بفتحها) الإجلال والتعظيم؛ ومنه ولد بَرٌّ وبارّ؛ أي يُعظّم والديه ويكرمهما.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تتركون. والنسيان (بكسر النون) يكون بمعنى التَّرك؛ وهو المراد هنا، وفي قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[٤]، وقوله: ﴿فلما نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به﴾[٥]، وقوله: ﴿وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[٦]. ويكون خلاف الذِّكر والحفظ؛ ومنه الحديث: «نَسِيَ آدمُ فنسيَتْ ذرّيتُه». وسيأتي. يقال: رجل نَسْيان (بفتح النون): كثير النِّسيان للشيء. وقد نَسِيت الشيء نِسْياناً، ولا تقل نَسَيانا (بالتحريك)؛ لأن النّسَيان إنما هو تثنية نَسَا العِرْق. وأنفس: جمع نَفْس، جمع قِلّة. والنَّفْس: الروح؛ يقال: خرجت نَفْسُه، قال أبو خراش:

نجا سالم والنَّفْس منه بشِدْقِهِ ... ولم يَنْج إلا جَفْن سَيفٍ ومِئزرا

أي بجفن سيف ومئزر. ومن الدليل على أن النفس الروح قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٧] يريد الأرواح؛ في قول جماعة من أهل التأويل على ما يأتي. وذلك

---

(١) في نسخة: «عليه».

(٢) كذا في «البحر المحيط» لأبي حيان. وفي «الأصول»: «بكوا» بالواو. وفي «تفسير الشوكاني»: «إن يكونوا».

(٣) كذا في «الأصول واللسان مادة» «برر». وفي «شرح القاموس»: * يكون مكان البر مني ودونه *

(٤) راجع ٨/ ١٩٩. (٥) راجع ٦/ ٤٢٦. (٦) راجع ٣/ ٢٠٨.

(٧) راجع ١٥/ ٢٦٠.

بين في قول بلال للنبيّ ﷺ في حديث ابن شهاب: أخذ بنفسي يا رسول الله الذي أخذ بنفسك. وقوله عليه السلام في حديث زيد بن أسلم: «إنّ الله قبض أرواحنا ولو شاء لردّها إلينا في حين غير هذا». رواهما مالك؛ وهو أوْلى ما يقال به. والنّفْس أيضاً الدم؛ يقال: سالت نفسه؛ قال الشاعر[١]:

تسيل على حدّ السّيوف[٢] نفوسُنا ... وليست على غير الظُّبات تسيل

وقال إبراهيم النَّخَعِيّ: ما ليس له نَفْس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا مات فيه. والنفس أيضاً الجسد؛ قال الشاعر[٣]:

نُبِّئتُ أن بني سُحَيم أدخلوا ... أبياتَهم تامُورَ نَفْسِ المُنذرِ

والتامور أيضاً: الدم.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾ توبيخ عظيم لمن فَهِم. «وتَتْلُون»: تقرءون. «الكتاب»: التوراة. وكذا مَن فعل فعلهم كان مثلَهم. وأصل التلاوة الاتباع، ولذلك استعمل في القراءة؛ لأنه يتبع بعض الكلام ببعض في حروفه حتى يأتي على نَسَقه؛ يقال: تلوته إذا تبعته تُلُوّاً، وتلوتُ القرآن تِلاوة. وتلوتُ الرجلَ تُلُوّاً إذا خذلته. والتَّلِيّة والتُّلاوة (بضم التاء): البقية؛ يقال: تَلِيَتْ لي من حقي تُلاوة وتَلِية؛ أي بقيت. وأتليت: أبقيت. وتتلّيتُ حقي إذا تتبعته حتى تستوفيه. قال أبو زيد: تَلَّى الرجلُ إذا كان بآخر رَمق.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المردية لكم. والعقل: المنع؛ ومنه عِقال البعير؛ لأنه يمنع عن الحركة. ومنه العقل للدّية؛ لأنه يمنع وليّ المقتول عن قتل الجاني. ومنه اعتقال البطن واللّسان. ومنه يقال للحصن: مَعْقِل. والعقل. نقيض الجهل. والعقل: ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تُغشّي به الهوادج؛ قال عَلقمة:

عَقْلاً ورَقْماً تكاد الطير تخطفه ... كأنه من دم الأجواف مَدمومُ

---

(١) هو السموأل. (٢) في «اللسان»: «حد الظبات». (٣) هو أوس بن حجر؛ يحرّض عمرو بن هند على بني حنيفة وهم قتلة أبيه المنذر بن ماء السماء. أي حملوا دمه إلى أبياتهم. عن «اللسان».

المدموم (بالدال المهملة) : الأحمر ، وهو المراد هنا . والمدموم: الممتلىء شحماً من البعير وغيره . ويقال : هما ضربان من البرود. قال ٱبن فارس: والعقل من شِيات الثياب ما كان نقشه طولاً ؛ وما كان نقشه مستديراً فهو الرَّقْم. وقال الزجاج: العاقل مَن عمل بما أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل.

التاسعة ـ ٱتفق أهل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقديم ولا معدوم؛ لأنه لو كان معدوماً لما ٱختصّ بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض؛ وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه؛ إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى، على ما يأتي بيانه في هذه السورة وغيرها، إن شاء الله تعالى.

وقد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم؛ ثم منهم من صار إلى أنه جوهر لطيف في البدن ينبثّ شعاعه منه بمنزلة السراج في البيت، يفصل به بين حقائق المعلومات. ومنهم من قال: إنه جوهر بسيط؛ أي غير مركب. ثم ٱختلفوا في محله؛ فقالت طائفة منهم: محله الدماغ؛ لأن الدماغ محل الحِسّ. وقالت طائفة أخرى: محله القلب، لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس. وهذا القول في العقل بأنه جوهر فاسد، من حيث إن الجواهر متماثلة؛ فلو كان جوهر عقلاً لكان كل جوهر عقلاً. وقيل: إن العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعاني. وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحيّ، والعقل عَرَض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذاً ومشتهياً. وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري والأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني وغيرهما من المحققين: العقل هو العلم، بدليل أنه لا يقال: عَقَلت وما علمت، أو علمت وما عقلت. وقال القاضي أبو بكر: العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات؛ وهو ٱختيار أبي المعالي في الإرشاد؛ وٱختار في البرهان أنه صفة يتأتَّى بها درك العلوم. وٱعترض على مذهب القاضي وٱستدل على فساد مذهبه. وحكي في البرهان عن المحاسبي أنه قال: العقل غريزة. وحكى الأستاذ

أبو بكر عن الشافعي وأبي عبد الله بن مجاهد أنهما قالا: العقل آلة التمييز. وحكي عن أبي العباس القَلَانسيّ أنه قال: العقل قوّة التمييز. وحكى عن المحاسبي أنه قال: العقل أنوار وبصائر. ثم رتّب هذه الأقوال وحملها على محامل فقال: والأوْلى ألا يصح هذا النقل عن الشافعيّ ولا عن ٱبن مجاهد، فإن الآلة إنما تستعمل في الآلة المثبتة[1] وٱستعمالها في الأعراض مجاز. وكذلك قول من قال: إنه قوّة، فإنه لا يعقل من القوّة إلا القدرة؛ والقلانسيّ أطلق ما أطلقه تَوسُّعاً في العبارات، وكذلك المحاسبي. والعقل ليس بصورة ولا نور، ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر. وسيأتي في هذه السورة بيان فائدته في آية[2] التوحيد إن شاء الله تعالى.

[٤٥] ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

فيه ثمان مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وٱلصَّلاَةِ﴾ الصبر: الحبس في اللغة. وقُتِل فلان صَبْزاً؛ أي أُمْسِك وحُبِس حتى أُتلف. وصَبَرْتُ نفسي على الشيء: حبستها. والمصبورة التي نُهي عنها في الحديث هي المحبوسة على الموت، وهي المُجَثَّمة. وقال عنترة:

فصَبَـرْتُ عـارفـةً لـذلـك حُـرّةً تَـرسُـو إذا نَفْسُ الجبـان تَطلّـعُ

الثانية ـ أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة في كتابه فقال: «وَٱصْبِرُوا». يقال: فلان صابر عن المعاصي؛ وإذا صبر عن المعاصي فقد صبر على الطاعة؛ هذا أصح ما قيل. قال النحاس: ولا يقال لمن صبر على المصيبة: صابر؛ إنما يقال: صابر على كذا. فإذا قلت: صابر مطلقاً فهو على ما ذكرنا؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّلاَةِ﴾ خصّ الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها. وكان عليه السلام إذا حَزَبَه[4] أمْرٌ فَزَع إلى الصلاة؛ ومنه ما روي أن عبد الله

---

(١) في بعض نسخ الأصل: «في الآلة المبنية».
(٢) راجع ٢/ ١٩١.
(٣) راجع ١٥/ ٢٤١. (٤) حزبه: أي نزل به مُهمّ أو أصابه غم.

آبن عباس نُعِيَ له أخوه قُثَم ـ وقيل بنت له ـ وهو في سفر فاسترجع وقال: عَوْرة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجرٌ ساقه الله. ثم تنحَّى عن الطريق وصلّى، ثم آنصرف إلى راحلته وهو يقرأ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾. فالصلاة على هذا التأويل هي الشرعية. وقال قوم: هي الدعاء على عُرْفها في اللغة؛ فتكون الآية على هذا التأويل مشبهة لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا اللهَ﴾؛ لأن الثبات هو الصبر، والذكر هو الدعاء. وقول ثالث، قال مجاهد: الصبر في هذه الآية الصوم؛ ومنه قيل لرمضان: شهر الصبر، فجاء الصوم والصلاة على هذا القول في الآية متناسباً في أن الصيام يمنع من الشهوات ويزهّد في الدنيا، والصلاة تنهَى عن الفحشاء والمنكر، وتُخشع ويُقرأ فيها القرآن الذي يذكّر الآخرة. والله أعلم.

الرابعة ـ الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها من تطاولها، وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين. قال يحيى بن اليَمان: الصبر ألا تتمنّى حالة سوى ما رزقك الله، والرضا بما قضى الله من أمر دنياك وآخرتك. وقال الشعبيّ: قال عليّ رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. قال الطبري: وصدق عليّ رضي الله عنه؛ وذلك أن الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح؛ فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمان بالإطلاق. فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذي لا تمام له إلا به.

الخامسة ـ وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدّاً فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(١). وجعل جزاء الصدقة في سبيل الله فوق هذا فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾(٢) الآية. وجعل أجر الصابرين بغير حساب، ومدح أهله فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وقال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٣). وقد قيل: إن المراد بالصابرين في قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ أي الصائمون؛ لقوله تعالى في صحيح السُّنّة عن النبيّ ﷺ: «الصيام لي وأنا أَجْزِي به» فلم يذكر ثواباً مقدّراً كما لم يذكره في الصبر. والله أعلم.

---

(١) راجع ٧/ ١٥٠.
(٢) راجع ٣/ ٣٠٢.
(٣) راجع ١٦/ ٤٤.

السادسة ـ مِن فَضْل الصّبر وصفَ الله تعالى نفسه به؛ كما في حديث أبي موسى عن النبيّ ﷺ قال: «ليس أحد أو ليس شيء أصبَر على أذىً سمعه من الله تعالى إنهم ليَدْعُون له ولداً وإنه ليعافيهم ويرزقهم». أخرجه البخاري. قال علماؤنا: وصفُ الله تعالى بالصبر إنما هو بمعنى الحِلم، ومعنى وصفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها، ووصفه تعالى بالصبر لم يَرِد في التنزيل وإنما ورد في حديث أبي موسى، وتأوّله أهل السُّنة على تأويل الحلم؛ قاله ابن فُورَك وغيره. وجاء في أسمائه «الصبور» للمبالغة في الحلم عمن عصاه.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وإنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ اختلف المتأوّلون في عود الضمير من قوله: «وإنها»؛ فقيل: على الصلاة وحدها خاصة؛ لأنها تكبر على النفوس ما لا يكبر الصوم. والصبر هنا: الصوم. فالصلاة فيها سجن النفوس، والصوم إنما فيه منع الشهوة؛ فليس مَن مُنع شهوة واحدة أو شهوتين كمن مُنع جميع الشهوات. فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب، ثم ينبسط في سائر الشهوات من الكلام والمشي والنظر إلى غير ذلك من ملاقاة الخلق، فيتسلّى بتلك الأشياء عما مُنع. والمصلّي يمتنع من جميع ذلك، فجوارحه كلها مقيَّدة بالصلاة عن جميع الشهوات. وإذا كان ذلك كانت الصلاة أصعَب على النفس ومكابدتها أشدّ، فلذلك قال: ﴿وإنَّها لكبِيرةٌ﴾. وقيل: عليهما، ولكنه كَنَى عن الأغلب وهو الصلاة؛ كقوله: ﴿والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سِبِيلِ اللهِ﴾[١]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾[٢]. فردّ الكناية إلى الفضة؛ لأنها الأغلب والأعم، وإلى التجارة؛ لأنها الأفضل والأهم. وقيل: إن الصبر لمّا كان داخلاً في الصلاة أعاد عليها؛ كما قال: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾[٣]. ولم يقل: يرضوهما؛ لأن رضا الرسول داخل في رضا الله جل وعز؛ ومنه قول الشاعر[٤]:

إنّ شَرْخَ الشَّبابِ والشَّعَرَ الأسـ ـودَ ما لم يُعاصَ كان جنونا

(١) راجع ٨/ ١٢٣ ـ ١٢٧.
(٢) راجع ١٨/ ١٠٩.
(٣) راجع ٨/ ١٩٣.
(٤) هو حسان بن ثابت.

ولم يقل يعاصيا، ردّ إلى الشباب لأن الشَّعَر داخل فيه. وقيل: ردّ الكناية إلى كل واحد منهما لكن حذف اختصاراً؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾[١] ولم يقل آيتين؛ ومنه قول الشاعر[٢]:

فمن يك أمْسَى بالمدينة رَحْلُه ... فـإنـي وقَيَّـارٌ بهـا لغـرِيـبُ

وقال آخر[٣]:

لكـلِّ هـمٌّ مـن الهمـوم سَعَـة ... والصُّبـح والمسـيُ لا فـلاح معـه

أراد: لغريبان، لا فلاح معهما. وقيل: على العبادة التي يتضمّنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة. وقيل: على المصدر، وهي الاستعانة التي يقتضيها قوله: ﴿واستعِينُوا﴾. وقيل: على إجابة محمد عليه السلام؛ لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه. وقيل: على الكعبة؛ لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها. «وكبيرةٌ» معناه ثقيلة شاقة، خبر «إنّ». ويجوز في غير القرآن: وإنه لكبيرة. «إلا على الخاشعين» فإنها خفيفة عليهم. قال أرباب المعاني: إلا على من أُيِّد في الأزل بخصائص الاجتباء والهدى.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿عَلَى الخَاشِعِينَ﴾ الخاشعون جمع خاشع وهو المتواضع. والخشوع: هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع. وقال قتادة: الخشوع في القلب، وهو الخوف وغض البصر في الصلاة. قال الزجاج: الخاشع الذي يُرَى أثر الذل والخشوع عليه؛ كخشوع الدار بعد الإقواء. هذا هو الأصل. قال النابغة:

رَمـادٌ ككُحْـل العيـن لأيـاً أُبَيِّنـه ... ونؤيٌ كجذْم الحوض أَثْلَمُ خاشِعُ

ومكان خاشع: لا يُهتَدى له. وخَشَعت الأصوات أي سكنت. وخَشَعت خَراشِيُّ صدرِه إذا ألقى بُصاقاً لزِجاً. وخَشَع ببصره إذا غَضّه. والخُشْعة: قطعة من الأرض رِخوة؛ وفي الحديث: «كانت خُشْعة على الماء ثم دُحيت بعد»[٤]. وبلدة خاشعة: مغبرّة لا منزل

(١) راجع ١٢/١٢٦.
(٢) هو ضابىء البرجمي؛ كما في اللسان مادة (قير) والكامل للمبرد (١/ ١٨١) طبع أوروبا.
(٣) هو الأضبط بن قريع السعدي؛ عن اللسان مادة (مسا).
(٤) الذي في نهاية ابن الأثير مادة (خشع): «كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض».

بها. قال سفيان الثوريّ: سألت الأعمش عن الخشوع فقال: يا ثوريّ، أنت تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع! سألت إبراهيم النخعيّ عن الخشوع؛ فقال: أُعَيْمِش! تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء، وتخشع لله في كل فرض افترض عليك. ونظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال: يا هذا! ارفع رأسك، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب. وقال عليّ بن أبي طالب: الخشوع في القلب، وأن تلين كفّيك للمرء المسلم، وألاّ تلتفت في صلاتك. وسيأتي هذا المعنى مجوّداً عنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1]. فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقاً على نفاق. قال سهل بن عبد الله: لا يكون خاشعاً حتى تخشع كل شعرة على جسده؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾[2].

قلت: هذا هو الخشوع المحمود؛ لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه، فتراه مطرقاً متأدّباً متذلّلاً. وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك؛ وأما المذموم فتكلّفه والتباكي ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليُرَوْا بعين البر والإجلال، وذلك خدع من الشيطان، وتسويل من نفس الإنسان. روى الحسن أن رجلاً تنفّس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن؛ فلكزه عمر، أو قال لكمه. وكان عمر رضي الله عنه إذا تكلّم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وكان ناسكاً صدقاً، وخاشعاً حقّاً. وروى ابن أبي نَجِيح عن مجاهد قال: الخاشعون هم المؤمنون حقّاً.

[٤٦] ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ «الذين» في موضع خفض على النعت للخاشعين، ويجوز الرفع على القطع. والظن هنا في قول الجمهور بمعنى اليقين؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[3] وقوله: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾[4]. قال دُريد بن الصِّمّة:

فقلت لهم ظُنُّوا بألفَيْ مدجَّج   سَراتُهم في الفارسيّ المُسَرَّد

(١) راجع ١٢/١٠٢. (٢) راجع ١٥/٢٤٨. (٣) راجع ١٨/٢٧. (٤) راجع ١١/٣.

وقال أبو دُواد:

رُبَّ هَمّ فرّجته بغريم ... وغيوب كشفتها بظنون

وقد قيل: إن الظن في الآية يصح أن يكون على بابه، ويضمر في الكلام بذنوبهم؛ فكأنهم يتوقّعون لقاءه مذنبين؛ ذكر المهدوِيّ والماوَرْدِي. قال ابن عطية: وهذا تعسُّف. وزعم الفَرّاء أن الظنّ قد يقع بمعنى الكذب؛ ولا يعرف ذلك البصريون. وأصل الظن وقاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه، وقد يوقع موقع اليقين؛ كما في هذه الآية وغيرها، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحِسّ؛ لا تقول العرب في رجل مرئيّ حاضر: أظن هذا إنساناً. وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحِسّ بعد؛ كهذه الآية والشعر، وكقوله تعالى: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوهَا﴾. وقد يجيء اليقين بمعنى الظن، وقد تقدّم بيانه أوّل السورة. وتقول: سُؤت به ظنّاً، وأسأت به الظن. يدخلون الألف إذا جاءوا بالألف واللام. ومعنى: ﴿مُلاقُو رَبِّهِمْ﴾ جزاء رَبّهم. وقيل: جاء على المفاعلة وهو من واحد؛ مثل عافاه الله. ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ بفتح الهمزة عطف على الأوّل، ويجوز «وإنهم» بكسرها على القطع. ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى ربهم، وقيل إلى جزائه. ﴿رَاجِعُونَ﴾ إقرار بالبعث والجزاء والعَرْض على الملك الأعلى.

[٤٧] ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم﴾ تقدّم[1]. ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾ يريد على عالَمي زمانهم، وأهل كل زمان عالَم. وقيل: على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء. وهذا خاصّة لهم وليست لغيرهم.

[٤٨] ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾.

(١) راجع ص ٣٣٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ أمْرٌ معناه الوعيد؛ وقد مضى الكلام في التقوى(١). «يوماً» يريد عذابه وهَوْله، وهو يوم القيامة. وانتصب على المفعول بـ «اتقوا». ويجوز في غير القرآن يوم لا تجزي، على الإضافة. وفي الكلام حذف بين النحويين فيه اختلاف. قال البصريون: التقدير يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً، ثم حذف فيه؛ كما قال:

ويوماً شهدناه سُليماً وعامراً(٢)

أي شهدنا فيه. وقال الكسائي: هذا خطأ لا يجوز حذف «فيه» ولكن التقدير: واتقوا يوماً لا تجزيه نفس، ثم حذف الهاء. وإنما يجوز حذف الهاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها. قال: لا يجوز أن تقول: هذا رجلاً قصدت، ولا رأيت رجلاً أرغب؛ وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه. قال: ولو جاز ذلك لجاز: الذي تكلمت زيد؛ بمعنى تكلمت فيه زيد. وقال الفَرّاء: يجوز أن تحذف الهاء وفيه. وحكى المهدويّ أن الوجهين جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج.

ومعنى ﴿لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾: أي لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئاً؛ تقول: جَزَى عنّي هذا الأمر يَجْزِي؛ كما تقول: قَضَى عني. واجتزأت بالشيء اجتزاء إذا اكتفيت به؛ قال الشاعر:

فإنّ الغدر في الأقوام عارٌ وأن الحرّ يَجزأ بالكُراع

أي يكتفي بها. وفي حديث عمر: «إذا أجريت الماء على الماء جَزَى عنك». يريد إذا صببت الماء على البول في الأرض فجرى عليه طهر المكان، ولا حاجة بك إلى غسل ذلك الموضع وتنشيف الماء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس. وفي صحيح الحديث عن أبي بُردة بن نِيَار في الأُضْحِيّة: «لن تَجزِيَ عن أحد بعدك» أي لن تغني. فمعنى لا تجزي: لا تقضي ولا تغني ولا تكفي إن لم يكن عليها شيء؛ فإن كان فإنها تجزي وتقضي وتغني،

(١) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء.
(٢) سليم وعامر: قبيلتان من قيس عيلان.

بغير اختيارها من حسناتها ما عليها من الحقوق؛ كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت عنده مَظلِمة لأخيه من عِرْضه أو شيءٌ فليتحلّله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مظلِمته وإن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه». خرّجه البخاري. ومثله حديثه الآخر في المُفْلِس، وقد ذكرناه في التذكرة خرّجه مسلم[1]. وقرىء «تُجزِىء» بضم التاء والهمز. ويقال: جَزَى وأجزى بمعنىً واحد. وقد فرّق بينهما قوم فقالوا: جَزَى بمعنى قضى وكافأ. وأجزى بمعنى أغنى وكفى. أجزأني الشيء يجزئني أي كفاني؛ قال الشاعر:

وأجزأتَ أمر العالمين ولم يكن ليجزىء إلا كاملٌ وابنُ كامل

الثالثة[2] - قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشَّفع وهما الاثنان؛ تقول: كان وَتْراً فشفَعتُه شَفْعاً؛ والشُّفْعة منه؛ لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك. والشفيع: صاحب الشُّفْعة وصاحب الشفاعة. وناقة شافع: إذا اجتمع لها حَمْل وولد يتبعها؛ تقول منه: شَفعتِ الناقة شَفْعاً. وناقة شَفُوع وهي التي تجمع بين مِحْلَبين في حَلْبة واحدة. واستشفعته إلى فلان: سألته أن يشفع لي إليه. وتشفّعت إليه في فلان فَشفّعني فيه؛ فالشفاعة إذاً ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك؛ فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفَّع، وإيصال منفعته للمشفوع.

الرابعة - مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق؛ وأنكرها المعتزلة وخلّدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار في العذاب. والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحّدين من أمم النبيين هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيّين والشهداء والصالحين. وقد تمسّك القاضي عليهم في الردّ بشيئين: **أحدهما** - الأخبار الكثيرة التي تواترت في المعنى. **والثاني**: الإجماع من السلف على تلقّي هذه الأخبار بالقبول؛ ولم يَبْدُ من

---

(١) راجع صحيح مسلم، باب تحريم الظلم (٢/ ٢٨٣) طبع بولاق.

(٢) يلاحظ أن جميع نسخ الأصل التي بأيدينا لم تذكر المسألة الأولى والثانية في هذه الآية.

أحد منهم في عصر من الأعصار نكير؛ فظهور روايتها وإطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة.

فإن قالوا: قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب ردّ هذه الأخبار؛ مثل قوله: ﴿مَا للظَّالِمينَ مِنْ حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾. قالوا: وأصحاب الكبائر ظالمون. وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾[1]، ﴿ولا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾. قلنا: ليست هذه الآيات عامة في كل ظالم، والعموم لا صيغة له؛ فلا تعمّ هذه الآيات كل من يعمل سوءاً وكل نفس، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك. وأيضاً فإن الله تعالى أثبت شفاعةً لأقوام ونفاها عن أقوام؛ فقال في صفة الكافرين: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[2] وقال: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[3] وقال: ﴿وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلاّ لِمنْ أَذِنَ لَهُ﴾[4]. فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين. وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى: ﴿واتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ولاَ يُقْبَلُ مِنها شَفَاعَةٌ﴾ النفسُ الكافرة لا كل نفس. ونحن وإن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص فلا نقول: إنهم مخلَّدون فيها بدليل الأخبار التي رويناها، وبدليل قوله: ﴿ويَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[5]، وقوله: ﴿إنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاّ القَوْمُ الكافِرُونَ﴾.

فإن قالوا: فقد قال تعالى: ﴿ولا يَشْفَعُونَ إلاّ لِمَنِ ارتَضَى﴾ والفاسق غير مُرْتَضىً. قلنا: لم يقل لمن لا يرضى، وإنما قال: ﴿لِمَنِ ارتَضَىَ﴾ ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحّدون؛ بدليل قوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلاّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾[6]. وقيل للنبيّ ﷺ: ما عهد الله مع خلقه؟ قال: «أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئاً». وقال المفسرون: إلا من قال لا إله إلا الله.

فإن قالوا: المرتَضَى هو التائب الذي اتخذ عند الله عهداً بالإنابة إليه، بدليل أن الملائكة استغفروا لهم؛ وقال: ﴿فاغْفِرْ لِلذينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾. وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هي لأهل التوبة دون أهل الكبائر. قلنا: عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة،

---

(١) راجع ٥/٣٩٦. (٢) راجع ١٩/٨٦. (٣) راجع ١١/٢٨١.
(٤) راجع ١٤/٢٩٥. (٥) راجع ٥/٢٤٥. (٦) راجع ١١/١٥٣.

فإذا قبل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشفاعة ولا إلى الاستغفار. وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله: ﴿فاغْفِر لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي من الشرك ﴿واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي سبيل المؤمنين. سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾.

فإن قالوا: جميع الأمة يرغبون في شفاعة النبيّ ﷺ، فلو كانت لأهل الكبائر خاصّة بطل سؤالهم.

قلنا: إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ويرغب إلى الله في أن تناله؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما افترض عليه؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة؛ وقال ﷺ: «لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى ـ فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ ـ فقال: ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته».

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُقْبَلُ﴾ قرأ ابن كَثير وأبو عمرو «تُقبل» بالتاء؛ لأن الشفاعة مؤنثة. وقرأ الباقون بالياء على التذكير؛ لأنها بمعنى الشفيع. وقال الأخفش: حَسُن التذكير، لأنك قد فرّقت؛ كما تقدّم في قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّه كَلِماتٍ﴾[1].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فِداء. والعدل (بفتح العين): الفِداء، و (بكسرها): المِثْل؛ يقال: عِدْل وعَدِيل للذي يماثلك في الوزن والقدر. ويقال: عَدْلُ الشيء هو الذي يساويه قيمةً وقدراً وإن لم يكن من جنسه. والعِدل (بالكسر): هو الذي يساوي الشيء من جنسه وفي جِرْمه. وحكى الطبريّ: أن من العرب من يكسر العين من معنى الفِدية. فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي يعانون. والنَّصْر: العَوْن. والأنصار: الأعوان؛ ومنه قوله: ﴿مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ﴾[2] أي من يضم نُصرته إلى نصرتي. وانتصر الرجل: انتقم. والنصر: الإتيان؛ يقال: نصرتُ أرضَ بني فلان: أتيتها؛ قال الشاعر[3]:

(١) راجع ص ٣٢٦. (٢) راجع ١٨/ ٨٩.
(٣) هو الراعي يخاطب خيلاً (عن اللسان).

إذا دخل الشهرُ الحرامُ فوَدِّعِي بلادَ تميم وانْصُرِي أرضَ عامِرِ

والنصر: المطر؛ يقال: نُصِرَت الأرض: مُطِرت. والنصر العطاء؛ قال:

إنـي وأَسْطـارٍ سُطِـرن سطـرَا لقـائـلٌ يـا نصـرُ نصـراً نصـرَا

وكان سبب هذه الآية فيما ذكروا أن بني إسرائيل قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنا آباؤنا؛ فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فدْية. وإنما خص الشفاعة والفِدية والنصر بالذكر؛ لأنها هي المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا؛ فإن الواقع في الشدّة لا يتخلص إلا بأن يُشفع له أو يُنصر أو يُفتدى.

[٤٩] ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ «إذ» في موضع نصب عطف على ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾. وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم؛ أي اذكروا نعمتي بإنجائكم من عدوّكم وجعل الأنبياء فيكم. والخطاب للموجودين والمراد من سلف من الآباء؛ كما قال: ﴿إنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارِيَةِ﴾[١] أي حملنا آباءكم. وقيل: إنما قال: «نجيناكم» لأن نجاة الآباء كانت سبباً لنجاة هؤلاء الموجودين. ومعنى «نجيناكم» ألقيناكم على نَجْوَة من الأرض، وهي ما ارتفع منها. هذا هو الأصل، ثم سُمِّيَ كل فائز ناجياً. فالنّاجي مَن خرج من ضيق إلى سَعة. وقرىء: «وإذ نَجَيْتُكم» على التوحيد.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ « آل فرعون » قومه وأتباعه وأهل دينه. وكذلك آل الرسول ﷺ من هو على دينه وملّته في عصره وسائر الأعصار؛ سواء كان نسيباً له أو لم يكن. ومن لم يكن على دينه وملّته فليس من آله ولا أهله، وإن كان نسيبه وقريبه. خلافاً للرافضة حيث قالت: إن آل رسول الله ﷺ فاطمة

(١) راجع ١٨/ ٢٦٣.

والحسن والحسين فقط. دليلنا قوله تعالى: ﴿وأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾[١] أي آل دينه؛ إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عمّ ولا أخٌ ولا عَصَبة. ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا مُوَحّد فإنه ليس من آل محمد وإن كان قريباً له؛ ولأجل هذا يقال: إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله؛ وإن كان بينهما وبين النبيّ ﷺ قرابة؛ ولأجل هذا قال الله تعالى في ابن نوح: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[٢]. وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ جِهاراً غيرَ سِرّ يقول: «[ألا[٣]] إن آل أبي - يعني[٤] فلاناً - ليسوا [لي[٣]] بأولياء إنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين». وقالت طائفة: آل محمد أزواجُه وذريَّته خاصة؛ لحديث أبي حُميد السَّاعدي أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلّي عليك؟ قال: «قولوا اللَّهُمّ صلِّ على محمد وعلى أزواجه وذُرّيته كما صلّيت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذُرّيته كما باركتَ على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». رواه مسلم. وقالت طائفة من أهل العلم: الأهل معلوم، والآل: الأتباع. والأوّل أصح لما ذكرناه؛ ولحديث عبد الله بن أبِي أَوْفَى أن رسول الله ﷺ كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهمّ صلّ عليهم» فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهُمّ صلّ على آل أبي أَوْفَى».

الثالثة - اختلف النحاة هل يضاف الآل إلى البلدان أو لا ؟ فقال الكسائي : إنما يقال آل فلان وآل فلانة ، ولا يقال في البلدان هو من آلِ حمص ولا من آل المدينة . قال الأخفش: إنما يقال في الرئيس الأعظم، نحو آل محمد ﷺ، وآل فرعون لأنه رئيسهم في الضلالة . قال : وقد سمعناه في البلدان ، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة.

---

(١) راجع ١٥/٣١٩.

(٢) راجع ٩/٤٦.

(٣) الزيادة عن صحيح مسلم.

(٤) قوله: يعني فلاناً. وروى «ألا إن آل أبي فلان». قال النووي: «هذه الكناية هي من بعض الرواة، خشي أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة... قال القاضي عياض: قيل إن المكنى عنه ها هنا هو الحكم ابن أبي العاص».

والحكم هذا، من النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ في بيته. راجع سيرة ابن هشام (١/٢٧٦) طبع أوروبا.

الرابعة ـ وٱختلف النحاة أيضاً هل يضاف الآل إلى المضمر أو لا؟ فمنع من ذلك النحاس والزبيدي والكسائيّ ؛ فلا يقال إلا اللَّهُمّ صلّ على محمد وآل محمد ، ولا يقال وآله ، والصواب أن يقال : أهله . وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك يقال ؛ منهم ٱبن السيِّد وهو الصواب؛ لأن السماع الصحيح يَعْضُده، فإنه قد جاء في قول عبد المطلب:

لا هُـــمّ إن العبـــد يمـ ـنع رَحْلَه فـٱمنع حِلالَكْ[1]
وٱنصـــر علـــى آل الصّليـ ـب وعـابـديـه اليـومَ آلَـكْ

وقال نُدْبة:

أنا الفارس الحامي حقيقةَ والدي وآلـى كمـا تحْمِـي حقيقـةَ آلِكَـا

الحقيقة (بقافين): ما يَحُقّ على الإنسان أن يحميه؛ أي تجب عليه حمايته.

الخامسة ـ وٱختلفوا أيضاً في أصل آل؛ فقال النحاس: أصله أهل، ثم أبدل من الهاء ألفاً، فإن صغّرته رددته إلى أصله فقلت: أُهَيْل. وقال المهدَوِيّ: أصله أوْل. وقيل: أهل؛ قُلبت الهاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفاً. وجمعه آلون، وتصغيره أُوَيْل؛ فيما حكى الكسائي. وحكى غيره أهيل، وقد ذكرناه عن النحاس. وقال أبو الحسن بن كَيْسان: إذا جمعت آلاً قلت آلون؛ فإن جمعت آلاً الذي هو السراب قلت آوال؛ مثل مال وأموال.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿فِرْعَوْنَ﴾ «فرعون» قيل: إنه ٱسم ذلك المَلِك بعينه. وقيل إنه ٱسم كل ملك من ملوك العمالقة؛ مثل كسرى للفرس، وقَيْصر للروم، والنجاشي للحبشة. وإن ٱسم فرعون موسى: قابوس؛ في قول أهل الكتاب. وقال وهب: ٱسمه الوليد بن مصعب بن الريّان، ويكنى أبا مُرّة وهو من بني عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. قال السهيليّ: وكل من وَلِي القبط ومصر فهو فرعون. وكان فارسيّاً من أهل اصْطَخر. قال المسعودي: لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية. قال الجوهري: فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر؛ وكل عاتٍ فرعون. والعتاة: الفراعنة؛ وقد تفرعن،

(١) الحلال (بالكسر): القوم المقيمون المتجاورون. يريد بهم سكان الحرم.

وهو ذو فرعنة؛ أي دهاء ونكر. وفي الحديث: «أخذنا فرعون هذه الأمة». «وفرعونَ» في موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعُجْمته.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ قيل: معناه يذيقونكم ويلزمونكم إياه. وقال أبو عبيدة: يُولُونكم؛ يقال: سامه خُطّة خَسْف إذا أوْلاه إياها؛ ومنه قول عمرو بن كُلثوم:

إذا ما المَلْك سام الناسَ خَسْفاً ... أبَينا أن نُقرّ الخسف فينا

وقيل: يديمون تعذيبكم. والسَّوْم: الدوام؛ ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرَّعْي. قال الأخفش: وهو في موضع رفع على الابتداء[١]، وإن شئت كان في موضع نصب على الحال؛ أي سائمين لكم.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ مفعول ثان لـ«يسومونكم» ومعناه أشدّ العذاب. ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب. وقد يجوز أن يكون نعتاً؛ بمعنى سوماً سيئاً. فروي أن فرعون جعل بني إسرائيل خَدَماً وخَوَلاً وصنفهم في أعماله؛ فصِنف يبنون، وصِنف يحرثون ويزرعون، وصِنف يتخدّمون ـ وكان قومه جنداً ملوكاً ـ ومن لم يكن منهم في عمل من هذه الأعمال ضُربت عليه الجِزْية؛ فذلك سوء العذاب.

التاسعة ـ قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ «يذبّحون» بغير واو على البدل من قوله: «يسومونكم» كما قال ـ أنشده سيبويه ـ:

مَتَى تأتنا تُلْمِم بنا في ديارنا ... تجد حطباً جَزْلاً وناراً تأجّجَا

قال الفَرّاء وغيره: «يذبحون» بغير واو على التفسير لقوله: ﴿يَسُومُونكم سُوءَ العذابِ﴾ كما تقول: أتاني القوم زيد وعمرو؛ فلا تحتاج إلى الواو في زيد؛ ونظيره: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾[٢]، وفي سورة إبراهيم: ﴿ويذبّحون﴾ بالواو، لأن المعنى

---

(١) يريد أنها مستأنفة. وعبارة البحر لأبي حيان: «يحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفة وهي حكاية حال ماضية، ويحتمل أن تكون في موضع الحال؛ أي سائميكم».

(٢) راجع ١٣/٧٦.

يعذّبونكم بالذّبح وبغير الذّبح. فقوله: ﴿وَيُذَبِّحون أبناءَكم﴾ جنس آخر من العذاب، لا تفسير لما قبله. والله أعلم.

قلت: قد يحتمل أن يقال: إن الواو زائدة بدليل سورة «البقرة» والواو قد تزاد، كما قال:

فلمّا أجزنا ساحة الحيّ وٱنتحى

أي قد ٱنتحى. وقال آخر:

إلى المَلِك القَرْم وٱبن الهمام ... وليثِ الكتيبة في المُزْدحم

أراد إلى الملك القرم ٱبن الهمام ليث الكتيبة؛ وهو كثير.

العاشرة ـ قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير. وقرأ ابن مُحَيْصِن «يَذْبَحون» بفتح الباء. والذَّبح: الشّق. والذِّبح: المذبوح. والذُّبَاح: تشقق في أصول الأصابع. وذبحت الدَّن: بزلته؛ أي كشفته. وسعدٌ الذّابحُ: أحد السعود. والمذابح: المحاريب. والمذابح: جمع مذبح، وهو إذا جاء السيل فخدّ في الأرض، فما كان كالشبر ونحوه سمي مذبحاً. فكان فرعون يَذْبح الأطفال ويُبقي البنات، وعبّر عنهم بٱسم النساء بالمآل. وقالت طائفة: ﴿يذبِّحون أبناءكم﴾ يعني الرجال، وسُمُّوا أبناء لما كانوا كذلك؛ واستدل هذا القائل بقوله: «نِساءكم». والأوّل أصحّ؛ لأنه الأظهر، والله أعلم.

الحادية عشرة ـ نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون؛ وهم إنما كانوا يفعلون بأمره وسلطانه؛ لتولّيهم ذلك بأنفسهم؛ وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله. قال الطبريّ: ويقتضي أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ بـه.

قلت: وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: يُقتلان جميعاً، هذا بأمره والمأمور بمباشرته. هكذا قال النَّخَعِيّ؛ وقاله الشافعيّ ومالك في تفصيل لهما. قال الشافعي: إذا أمر السلطان رجلاً بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظُلماً كان عليه وعلى الإمام القَوَد كقاتلَين معاً، وإن أكرهه الإمام عليه وعلم أنه يقتله ظلماً كان على الإمام القَوَد. وفي المأمور

قولان: أحدهما ـ أن عليه القَوَد. والآخر لا قَوَد عليه وعليه نصف الدِّيَة؛ حكاه ابن المنذر. وقال علماؤنا: لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر ويخاف شره كالسلطان والسيد لعبده، فالقَوَد في ذلك لازم لهما؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيُقتَل المباشرُ وحده دون الآمر؛ وذلك كالأب يأمر ولده، أو المعلّم بعضَ صبيانه، أو الصانع بعضَ متعلّميه إذا كان مُحْتَلِماً؛ فإن كان غير محتلم فالقتل على الآمر، وعلى عاقلة الصبيّ نصف الدية. وقال ابن نافع: لا يُقتل السيد إذا أمر عبده ـ وإن كان أعجمياً ـ بقتل إنسان. قال ابن حبيب: وبقول ابن القاسم أقول إن القتل عليهما. فأما أمر من لا خوف على المأمور في مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يُقتل المأمور دون الآمر، ويُضرب الآمر ويُحبس. وقال أحمد في السيّد يأمر عبده أن يقتل رجلاً: يُقتل السيّد. وروي هذا القول عن عليّ بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهما. وقال عليّ: ويُستودع العبد السجن. وقال أحمد: ويُحبس العبد ويُضرب ويؤدّب. وقال الثوريّ: يُعَزَّر السيد. وقال الحكم وحمّاد: يُقتل العبد. وقال قتادة: يُقتلان جميعاً. وقال الشافعيّ: إن كان العبد فصيحاً يَعقِل قُتل العبد وعُوقب السيد؛ وإن كان العبد أعجِمِيّاً فعلى السيّد القَود. وقال سليمان بن موسى: لا يُقتل الآمر ولكن تُقطع يديه ثم يُعاقب ويُحبس ـ وهو القول الثاني ـ ويقتل المأمور للمباشرة. كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعيّ وأحمد وإسحاق في الرجل يأمر الرجلَ بقتل الرجل؛ وذكره ابن المنذر. وقال زُفَر: لا يُقتل واحد منهما ـ وهو القول الثالث ـ حكاه أبو المعالي في البرهان؛ ورأى أن الآمر والمباشر ليس كل واحد منهما مستقلاً في القَوَد؛ فلذلك لا يُقتل واحد منهما عنده. والله أعلم.

الثانية عشرة ـ قرأ الجمهور «يذبّحون» بالتشديد على المبالغة. وقرأ ابن مُحَيْصِن «يَذْبَحون» بالتخفيف. والأولى أرجح إذ الذّبح متكرر. وكان فرعون على ما رُوِيَ قد رأى في منامه ناراً خرجت من بيت المَقْدِس فأحرقت بيوت مصر؛ فأُوِّلت له رؤياه: أن مولوداً من بني إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه. وقيل غير هذا؛ والمعنى متقارب.

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وفِي ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر؛ أي وفي فعلهم ذلك بكم بلاء، أي امتحان واختبار. و ﴿بَلَاءٌ﴾ نعمة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً﴾. قال أبو الهيثم: البلاء يكون حَسَناً ويكون سيئاً، وأصله المِحنة؛ والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوَى التي يكرهها ليمتحن صبره؛ فقيل للحَسَن بلاء، وللسّيء بلاء؛ حكاه الهَرَوِيّ. وقال قوم: الإشارة بـ «ذلكم» إلى التنجية؛ فيكون البلاء على هذا في الخير، أي تنجيتكم نعمة من الله عليكم. وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء هنا في الشر؛ والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان. وقال ابن كَيْسان: ويقال في الخير أبلاه الله وبلاه؛ وأنشد:

جزَى اللهُ بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خيرَ البلاء الذي يَبْلُو(١)

فجمع بين اللغتين. والأكثر في الخير أبليته، وفي الشر بلوته، وفي الاختبار أبتليته وبلوته؛ قاله النحاس.

[٥٠] ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ «إذ» في موضع نصب. و «فَرَقْنا» فلقنا؛ فكان كل فِرْق كالطَّوْد العظيم، أي الجبل العظيم. وأصل الفَرْق الفصل؛ ومنه فَرْق الشّعر؛ ومنه الفُرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل أي يفصل؛ ومنه: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾(٢) يعني الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل؛ ومنه: ﴿يَوْمَ الْفُرْقانِ﴾(٣) يعني يوم بَدْر، كان فيه فرق بين الحق والباطل: ومنه: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ﴾(٤) أي فصّلناه وأحكمناه. وقرأ الزُّهْرِيّ: «فرّقنا» بتشديد الراء؛ أي جعلناه فرقاً. ومعنى «بكم» أي لكم، فالباء بمعنى اللام. وقيل: الباء في مكانها؛ أي فرقنا البحر بدخولكم إياه. أي صاروا بين الماءين، فصار الفرق بهم؛ وهذا أوْلَى، يبيّنه «فانفلق».

---

(١) قائله زهير.
(٢) راجع ١٥٣/١٩.
(٣) راجع ٢٠/٨.
(٤) راجع ٣٣٩/١٠.

قوله تعالى: ﴿الْبَحْرَ﴾ البحر معروف، سُمّي بذلك لاتساعه. ويقال: فَرَسٌ بَحْرٌ إذا كان واسع الجَرْي؛ أي كثيره. ومن ذلك قول رسول الله ﷺ في مَنْدُوبٍ فرس أبي طلحة: «وإنْ وجدناه لبحراً». والبحر: الماء الملح. ويقال: أبحر الماء: مَلُح؛ قال نُصَيب:

وقد عاد ماءُ الأرض بَحْراً فزادني إلى مَرَضِي أن أبْحَرَ المَشْربُ العذْبُ

والبحر: البلدة؛ يقال: هذه بَحْرَتُنا؛ أي بلدتنا. قاله الأمويّ. والبَحَر: السُّلال[1] يصيب الإنسان. ويقولون: لقيته صَحْرَةً بَحْرَةً؛ أي بارزاً مكشوفاً. وفي الخبر عن كعب الأحبار قال: إن لله ملَكاً يقال له: صند فاييل، البحار كلها في نقرة إبهامه. ذكره أبو نعيم عن ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أي أخرجناكم منه؛ يقال: نجوت من كذا نجاء، ممدود، ونجاة، مقصور. والصدق منجاة. وأنجيت غيري ونجّيته؛ وقرىء بهما «وإذ نجيناكم»، «فأنجيناكم».

قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يقال: غَرق في الماء غَرَقاً فهو غَرِق وغارق أيضاً؛ ومنه قول أبي النَّجْم:

من بين مقتولٍ وطافٍ غارِقِ[2]

وأغرقه غيره وغَرّقه فهو مغرَّق وغريق، ولجام مغرّق بالفضة؛ أي مُحَلًّى. والتغريق: القتل؛ قال الأعشى:

ألا ليت قَيْساً غَرّقته القوابل[3]

وذلك أن القابلة كانت تغرّق المولود في ماء السَّلَى عام القحط، ذكراً كان أو أنثى حتى يموت، ثم جعل كل قتل تغريقاً؛ ومنه قول ذي الرُّمّة:

---

(١) السلال (كغراب): قرحة تحدث في الرئة أو زكام ونوازل او سعال طويل، وتلزمها حمى هادئة. (عن القاموس).

(٢) صدر البيت: *فأصبحوا في الماء والخنادق*

(٣) المراد به قيس بن مسعود الشيباني. وصدر البيت:

*أطورين في عام غزاة ورحلة *

إذا غَرَّقَتْ أرباضُها ثِنْيَ بَكْرةٍ بتَيْهاءَ لم تُصبح رَءُوماً سَلُوبُهَا

والأرباض: الحبال. والبَكْرة: الناقة الفتِيّة. وثِنْيُها: بطنها الثاني؛ وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب.

القول في اختلاف العلماء في كيفية إنجاء بني إسرائيل

فذكر الطبري أن موسى عليه السلام أُوحِيَ إليه أن يسريَ من مصر ببني إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحليّ والمتاع من القبط، وأحلّ الله ذلك لبني إسرائيل؛ فسرى بهم موسى من أول الليل؛ فأُعلم فرعون فقال: لا يتبعهم أحد حتى تصيح الدِّيكَة، فلم يصِح تلك الليلة بمصر ديك؛ وأمات الله تلك الليلة كثيراً من أبناء القبط فاشتغلوا في الدفن وخرجوا في الأتباع مشرقين؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوْهُمْ مُشْرِقِينَ﴾[1]. وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه. وكانت عِدّة بني إسرائيل نَيِّفاً على ستمائة ألف. وكانت عدّة فرعون ألف ألف ومائتي ألف. وقيل: إن فرعون اتّبعه في ألف ألف حصان سوى الإناث. وقيل: دخل إسرائيل ـ وهو يعقوب عليه السلام ـ مصر في ستة وسبعين نفساً من ولده وولد ولده؛ فأنمى الله عددهم وبارك في ذرّيته؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرية والنساء. وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة قال حدّثنا شَبابَة بن سَوّار عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببني إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت، ثم قال: لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لي ستمائة ألف من القبط؛ قال: فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر؛ فقال له: افْرُق؛ فقال له البحر: لقد استكبرت يا موسى! وهل فَرقْت لأحد من ولد آدم فأفرق لك! قال: ومع موسى رجل على حصان له؛ قال: فقال له ذلك الرجل: أين أُمرتَ يا نبيّ الله؟ قال: ما أُمِرتُ إلا بهذا الوجه؛ قال: فأقحم فرسه فسَبَح فخرج. فقال أين أُمرتَ يا نبيّ الله؟ قال ما أُمِرْتُ إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ؛ ثم اقتحم الثانية فسَبَح به حتى خرج؛ فقال: أين أُمرتَ يا نبيّ الله؟ فقال: ما أمرتُ

(١) راجع ١٣/١٠٥.

إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ؛ قال فأوحى الله إليه: ﴿أنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه موسى بعصاه؛ ﴿فانْفَلَقَ فكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْطَّوْدِ الْعَظِيم﴾. فكان فيه اثنا عشر فِرقاً، لاثني عشر سِبْطاً، لكل سبط طريق يتراءون؛ وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقاناً وشبابيك يرى منها بعضهم بعضاً؛ فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم. ويذكر أن البحر هو بحر القُلْزم، وأن الرجل الذي كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون. وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب؛ فحين أصبح ضرب البحر وكنّاه أبا خالد(١). ذكره ابن أبي شيبة أيضاً. وقد أكثر المفسرون في قصص هذا المعنى؛ وما ذكرناه كافٍ، وسيأتي في سورة «يونس، والشعراء»(٢) زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

فصل ـ ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق، ولم يذكر اليوم الذي كان ذلك فيه. فروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغَرّق فرعونَ وقومه، فصامه موسى شكراً؛ فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه. وأخرجه البخاري أيضاً عن ابن عباس، وأن النبيّ ﷺ قال لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموا».

مسألة ـ ظاهر هذه الأحاديث تدل على أن النبيّ ﷺ إنما صام عاشوراء وأمر بصيامه اقتداء بموسى عليه السلام على ما أخبره به اليهود. وليس كذلك؛ لما روته عائشة رضي الله عنها قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه في الجاهلية؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه؛ فلما فُرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه. أخرجه البخاريّ ومسلم.

---

(١) أي كنى موسى البحر.

(٢) راجع ٨/ ٣٧٧ و ١٣/ ١٠٥.

فإن قيل: يحتمل أن تكون قريش إنما صامته بإخبار اليهود لها لأنهم كانوا يسمعون منهم؛ لأنهم كانوا عندهم أهل علم؛ فصامه النبيّ عليه السلام كذلك في الجاهلية، أي بمكة؛ فلما قدم المدينة ووجد اليهود يصومونه قال: «نحن أحقّ وأوْلى بموسى منكم» فصامه اتباعاً لموسى. «وأمر بصيامه» أي أوجبه وأكّد أمره، حتى كانوا يصومونه الصغار. قلنا: هذه شبهة من قال: إن النبيّ ﷺ لعلّه كان متعبّداً بشريعة موسى؛ وليس كذلك، على ما يأتي بيانه في «الأنعام»[1] عند قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾.

مسألة ـ اختلف في يوم عاشوراء؛ هل هو التاسع من المحرّم أو العاشر؟ فذهب الشافعيّ إلى أنه التاسع؛ لحديث الحكم بن الأعرج قال: انتهيت إلى ابن عباس رضي الله عنهما وهو متوَسِّد رداءه في زمزم، فقلت له: أخبرني عن صوم عاشوراء؛ فقال: إذا رأيت هلال المحرّم فاعدُد وأصْبِحْ يوم التاسع صائماً. قلت: هكذا كان محمد ﷺ يصومه؟ قال نعم. خرّجه مسلم. وذهب سعيد بن المسيّب والحسن البصري ومالك وجماعة من السلف إلى أنه العاشر. وذكر الترمذي حديث الحَكَم ولم يصفه بصحة ولا حسن. ثم أردفه: أنبأنا قُتيبة أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ بصوم عاشوراء يوم العاشر. قال أبو عيسى: حديث ابن عباس حديث حسن صحيح. قال الترمذيّ: ورُوي عن ابن عباس أنه قال: صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود. وبهذا الحديث يقول الشافعيّ وأحمد بن حنبل وإسحاق. قال غيره: وقول ابن عباس للسائل: «فاعدُد وأصبح يوم التاسع صائماً» ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر، بل وعد أن يصوم التاسع مضافاً إلى العاشر. قالوا: فصيام اليومين جَمْع بين الأحاديث. وقول ابن عباس للحَكَم لما قال له: هكذا كان محمد ﷺ يصومه؟ قال: نعم. معناه أن لو عاش؛ وإلا فما كان النبيّ ﷺ صام التاسع قطّ. يبيّنه ما خرّجه ابن ماجه في سُننه ومسلم في صحيحه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «لئن بَقِيت إلى قابلٍ لأصومنّ اليوم التاسع».

---

(١) راجع ٧/ ٣٥.

فضيلة ـ روى أبو قتادة أن النبيّ ﷺ قال: «صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفّر السَّنة التي قبله». أخرجه مسلم والترمذيّ، وقال: لا نعلم في شيء من الروايات أنه قال: «صيام يوم عاشوراء كفّارة سنة» إلا في حديث أبي قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ جملة في موضع الحال، ومعناه بأبصاركم؛ فيقال إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم يغرقون، وإلى أنفسهم ينجون؛ ففي هذا أعظم المِنّة. وقد قيل: إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم. فهذه مِنّة بعد مِنّة. وقيل: المعنى «وأنتم تنظرون» أي ببصائركم الاعتبار؛ لأنهم كانوا في شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار. وقيل: المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر؛ كما تقول: هذا الأمر منك بمرأى ومسمع؛ أي بحال تراه وتسمعه إن شئت. وهذا القول والأوّل أشبه بأحوال بني إسرائيل لتوالي عدم الاعتبار فيما صدر من بني إسرائيل بعد خروجهم من البحر؛ وذلك أن الله تعالى لما أنجاهم وغرّق عدوّهم قالوا: يا موسى إن قلوبنا لا تطمئن، إن فرعون قد غَرق! حتى أمر الله البحر فلَفَظَه فنظروا إليه.

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن قيس بن عُبَاد أن بني إسرائيل قالت: ما مات فرعون وما كان ليموت أبداً! قال: فلما أن سمع الله[1] تكذيبهم نبيه عليه السلام، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل؛ فلما اطمأنوا وبُعثوا من طريق البر إلى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرِقوا في النعمة، رأوا قوماً يعكُفون على أصنام لهم؛ قالوا يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة؛ حتى زجرهم موسى وقال: أغير الله أبغيكم إلٰهاً وهو فضّلكم على العالمين؛ أي عالمي زمانه. ثم أمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدّسة التي كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض فرعون. وكانت الأرض المقدّسة في أيدي الجبارين قد غُلبوا عليها فاحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال؛ فقالوا: أتريد أن تجعلنا لُحمة للجبارين! فلو أنك تركتنا في يد فرعون كان خيراً لنا. قال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ إلى قوله «قَاعِدُونَ» حتى دعا عليهم وسمّاهم فاسقين. فبقوا في التّيه أربعين سنة عقوبة ثم رحمهم فمنّ عليهم بالسّلْوَى وبالغمام ـ على ما يأتي بيانه ـ، ثم سار موسى إلى طُورِ سَيْناء

---

(١) في نسخة: «فلم يَعْدُ أن سمع الله...» إلخ.

ليجيئهم بالتوراة؛ فاتخذوا العجل ـ على ما يأتي بيانه[١] ـ، ثم قيل لهم: قد وصلتم إلى بيت المقدس فٱدخلوا الباب سُجّداً وقولوا حِطّة ـ على ما يأتي ـ، وكان عليه السلام شديد الحياء سِتّيراً؛ فقالوا: إنه آدر[٢]. فلما ٱغتسل وضع على الحجر ثوبه؛ فعدا الحجر بثوبه إلى مجالس بني إسرائيل، وموسى على أثره عُريان وهو يقول: يا حجر ثوبي! فذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا﴾ ـ على ما يأتي بيانه[٣] ـ، ثم لما مات هارون قالوا له: أنت قتلت هارون وحسدته؛ حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه ـ وسيأتي في المائدة[٤] ـ، ثم سألوه أن يعلَموا آية في قبول قربانهم؛ فجعلت نار تجيء من السماء فتقبل قربانهم؛ ثم سألوه أنْ بيّن لنا كفارات ذنوبنا في الدنيا، فكان من أذنب ذنباً أصبح على بابه مكتوب: «عملت كذا، وكفارته قطع عضو من أعضائك» يسمّيه له؛ ومن أصابه بول لم يطهر حتى يَقرِضه ويزيل جلدته من بدنه؛ ثم بدّلوا التوراة وٱفتروا على الله وكتبوا بأيديهم وٱشتروْا به عَرَضاً؛ ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم. فهذه معاملتهم مع ربّهم وسيرتهم في دينهم وسوء أخلاقهم. وسيأتي بيان كل فصل من هذه الفصول مستوفًى في موضعه إن شاء الله تعالى. وقال الطبري: وفي أخبار القرآن على لسان محمد عليه السلام بهذه المغيّبات التي لم تكن من علم العرب ولا وقعت إلا في حق بني إسرائيل دليل واضح عند بني إسرائيل قائم عليهم بنبوّة محمد ﷺ.

[٥١] ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

فيه ست مسائل:

---

(١) راجع ٧/ ٢٧٣.

(٢) الأدرة (بالضم): نفخة في الخصية.

(٣) راجع ١٤/ ٢٥٠.

(٤) راجع ٦/ ١٣٠.

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قرأ أبو عمرو «وَعَدْنَا» بغير ألفٍ، وآختاره أبو عبيد ورجّحه وأنكر «واعدنا» قال: لأن المواعدة إنما تكون من البشر، فأما الله جل وعز فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد. على هذا وجدنا القرآن؛ كقوله عز وجل: ﴿وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾[1] وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ﴾. قال مكيّ: وأيضاً فإن ظاهر اللفظ فيه وَعْدٌ من الله تعالى لموسى، وليس فيه وعد من موسى؛ فوجب حمله على الواحد، لظاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده؛ وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمر؛ وبه قرأ قتادة وآبن أبي إسحاق. قال أبو حاتم: قراءة العامة عندنا «وعدنا» بغير ألف؛ لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين، كل واحد منهما يَعِد صاحبه. قال الجوهري: الميعاد: المواعدة والوقت والموضع. قال مكيّ: المواعدة أصلها من آثنين، وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب؛ قالوا: طارقت النّعل، وداويت العليل، وعاقبت اللص؛ والفعل من واحد. فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى وعدنا؛ فتكون القراءتان بمعنًى واحد. والاختيار «واعدنا» بالألف لأنه بمعنى «وعدنا» في أحد معنييه، ولأنه لا بدّ لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة. قال النحاس: وقراءة «واعدنا» بالألف أجود وأحسن، وهي قراءة مجاهد والأعرج وآبن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائي؛ وليس قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من هذا في شيء؛ لأن «واعدنا موسى» إنما هو من باب الموافاة؛ وليس هذا من الوعد والوعيد في شيء، وإنما هو من قولك: موعدك يوم الجمعة، وموعدك موضع كذا. والفصيح في هذا أن يقال: واعدته. قال أبو إسحاق الزجاج: «واعدنا» هاهنا بالألف جيّد؛ لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة؛ فمن الله جل وعز وَعْد، ومن موسى قبول وآتباع يجري مجرى المواعدة. قال آبن عطية. ورجّح أبو عبيدة «وعدنا» وليس بصحيح؛ لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وآرتقابه يشبه المواعدة.

---

(١) راجع ٩/٣٥٦.
(٢) راجع ١٢/٢٩٧.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿مُوسَىٰ﴾ موسى اسم أعجمي لا ينصرف للعُجْمة والتعريف. والقبط على ـ ما يروى ـ يقولون للماء: مو، وللشجر: شا[١]. فلما وُجِد موسى في التابوت عند ماء وشجر، سُمّيَ موسى قال السُّدّي: لما خافت عليه أمّه جعلته في التابوت وألقته في اليَمّ ـ كما أوحى الله إليها ـ فألقته في اليَمّ بين أشجار عند بيت فرعون؛ فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدنه؛ فسُمِّيَ باسم المكان. وذكر النقاش وغيره: أن اسم الذي التقطته صابوث. قال ابن إسحاق: وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله[٢] بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أربعين نصب على المفعول الثاني، وفي الكلام حذف؛ قال الأخفش: التقدير وإذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة؛ كما قال: ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ والأربعون كلها داخلة في الميعاد.

والأربعون في قول أكثر المفسرين: ذو القعدة وعشرة من ذي الحجة. وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله؛ فخرج إلى الطور في سبعين من خيار بني إسرائيل، وصعِدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة؛ فعدّوا ـ فيما ذكر المفسرين ـ عشرين يوماً وعشرين ليلة، وقالوا قد أخلفنا موعده. فاتخذوا العجل؛ وقال لهم السامريّ: هذا إلهكم وإله موسى، فاطمأنّوا إلى قوله. ونهاهم هارون وقال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُم الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾[٣]. فلم يتبع هارون ولم يطعه في ترك عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً فيما روي في الخبر. وتهافت في عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفي ألف؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال، ألقى الألواح فرفع من جملتها ستة أجزاء وبقي جزء واحد وهو الحلال والحرام وما يحتاجون؛ وأحرق العجل وذراه في البحر؛ فشربوا من مائه حُبّاً للعجل؛ فظهرت على شفاههم صفرة

---

(١) كذا في بعض نسخ الأصل، وفي بعضها: «سا» بالسين المهملة. وفي القاموس وشرحه: «. . . وسا الشجر؛ كذا في سائر النسخ؛ وقال ابن الجواليقي: هو بالشين المعجمة».

(٢) كذا في «الأصول»، واسم الجلالة زائد، ولا يبعد أن يكون الأصل: عبد الله، وهو معنى إسرائيل. راجع ص ٣٣١ من هذا الجزء. (٣) راجع ١١/٢٣٦.

وورِمت بطونهم؛ فتابوا ولم تُقبل توبتهم دون أن يَقتلوا أنفسهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم إلى بعض من لَدُن طلوع الشمس إلى ٱرتفاع الضّحى؛ فقتل بعضهم بعضاً، لا يسأل والد عن ولده ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحدٍ؛ كل من ٱستقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثله؛ حتى عَجَّ موسى إلى الله صارخاً: يا ربّاه، قد فنيت بنو إسرائيل! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله؛ فقبل توبةَ من بقي وجعل مَن قُتل في الشهداء؛ على ما يأتي.

الرابعة ـ إن قيل: لم خصّ الليالي بالذكر دون الأيام؟ قيل له: لأن الليلة أسبق من اليوم فهي قبله في الرتبة، ولذلك وقع بها التاريخ، فالليالي أوّل الشهور والأيام تَبَع لها.

الخامسة ـ قال النقاش: في هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم؛ لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نصّ على الليالي ٱقتضت قوّة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين يوماً بلياليها. قال ٱبن عطية: سمعت أبي يقول: سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهريّ رحمه الله يعظ الناس في الخلوة بالله والدنُوّ منه في الصلاة ونحوه، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب، ويقول: أين حال موسى في القرب من الله! ووِصال ثمانين من الدهر من قوله حين سار إلى الخضر لفتاه في بعض يوم: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾.

قلت: وبهذا ٱستدل علماء الصوفية على الوصال، وأن أفضله أربعون يوماً. وسيأتي الكلام في الوصال في آي الصيام[١] من هذه السورة إن شاء الله تعالى. ويأتي في «الأعراف[٢]» زيادة أحكام لهذه الآية عند قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾، ويأتي لقصة العجل بيانٌ في كيفيته وخُواره هناك وفي «طه[٣]» إن شاء الله تعالى.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي ٱتخذتموه إلٰهاً من بعد موسى. وأصل ٱتخذتم ائتخذتم، من الأخذ، ووزنه ٱفتعلتم، سهلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين فجاء إيتخذتم، فٱضطربت الياء في التصريف جاءت ألفاً في ياتخذ، وواواً في موتخذ،

---

(١) راجع ٢/ ٣٢٩. (٢) راجع ٧/ ٢٧٤ و ٢٨٤. (٣) راجع ١١/ ٢٣٥.

فبُدِلت بحرف جَلْد ثابت من جنس ما بعدها وهي التاء وأدغمت؛ ثم ٱجتُلِبت ألف الوصل للنطق، وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً﴾ فٱستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير؛ قال الشاعر[١]:

أَسْتحدَثَ الرّكبُ عن أشياعهم خَبَراً ... أم راجع القلبَ من أطرابه طَرَبُ

ونحوه في القرآن: ﴿أَطَّلَعَ الغَيْبَ﴾. ﴿أَصْطَفَى البَنَاتِ﴾. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ﴾. ومذهب أبي عليّ الفارسيّ أن «ٱتخذتم»، من تخذ لا من أخذ. ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال. وقد تقدّم معنى الظلم[٢]. والحمد لله.

[٥٢] ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمْ﴾ العَفْوُ: عفوُ الله جل وعز عن خلقه؛ وقد يكون بعد العقوبة وقبلها، بخلاف الغُفران فإنه لا يكون معه عقوبةٌ الْبَتّةَ. وكل من ٱستحق عقوبة فتُرِكت له فقد عُفِيَ عنه. فالعفو: مَحْوُ الذنب؛ أي محوْنا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم. مأخوذ من قولك: عَفَتِ الريح الأثر؛ أي أذهبته. وعفا الشيءُ: كثر. فهو من الأضداد؛ ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد عبادتكم العجل. وسُمِّيَ العجل عجلاً لاستعجالهم عبادته. والله أعلم. والعجل: ولد البقرة. والعِجّوْل مثله، والجمع العجاجيل؛ والأنثى عِجْلة. عن أبي الجرّاح.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تشكروا عفو الله عنكم. وقد تقدّم معنى لعل[٣]. وأما الشكر فهو في اللغة الظهور؛ من قوله: دابة شَكور؛ إذا ظهر عليها من السِّمَن فوق ما تُعْطَى من العَلَف. وحقيقته الثناء على الإنسان بمعروف يُولِيكه. كما تقدّم

(١) هو ذو الرمة.
(٢) راجع ص ٣٠٩.
(٣) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء.

في الفاتحة[١]. قال الجوهري: الشكر: الثناء على المحسِن بما أوْلاكه من المعروف؛ يقال: شكرته وشكرت له؛ وباللام أفصح. والشكران: خلاف الكُفران. وتشكّرت له مثل شَكَرت له. وروى الترمذيّ وأبو داود عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». قال الخطابي: هذا الكلام يتأوّل على معنيين: أحدهما ـ أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله عزّ وجلّ وترك الشكر له. والوجه الآخر ـ أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه ويكفر معروفهم؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر.

الرابعة ـ في عبارات العلماء في معنى الشكر؛ فقال سَهْل بن عبد الله: الشكر: الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السر والعلانية. وقالت فرقة أخرى: الشكر هو الاعتراف في تقصير الشكر للمنعم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً﴾[٢]. فقال داود: كيف أشكرك يا رب، والشكر نعمة منك! قال: الآن قد عرفتني وشكرتني؛ إذ قد عرفت أن الشكر مني نعمة. قال: يا ربّ فأرني أخْفَى نعمك عليّ. قال: يا داود تنفّس؛ فتنفّس داود. فقال الله تعالى: مَن يُحصي هذه النعمة الليلَ والنهارَ. وقال موسى عليه السلام: كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدي من نعمك لا يجازي بها عملي كله! فأوحى الله إليه: يا موسى الآن شكرتني. وقال الجُنَيْد: حقيقة الشكر العجز عن الشكر. وعنه قال: كنت بين يدي السَّرِيّ السَّقَطِيّ ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: ألا يُعْصَى الله بنعمه. فقال لي: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك. قال الجنيد: فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السرِيّ لي. وقال الشبليّ: الشكر: التواضع والمحافظة على الحسنات، ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات، ومراقبة جبّار الأرض والسموات. وقال ذو النُّون المصريّ أبو الفَيْض: الشكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان والإفضال.

---

(١) راجع ص ١٣٣ من هذا الجزء.

(٢) راجع ١٤/ ٢٧٦.

[٥٣] ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝﴾.

«إذ» ٱسم للوقت الماضي. و «إذا» ٱسم للوقت المستقبل. و «آتينا»: أعطينا. وقد تقدّم جميع هذا[١]. والكتاب: التوراة بإجماعٍ من المتأوّلين. وٱختلف في الفرقان؛ فقال الفرّاء وقُطْرُب: المعنى آتينا موسى التوراة، ومحمداً عليه السلام الفرقان. قال النحاس: هذا خطأ في الإعراب والمعنى؛ أما الإعراب فإن المعطوف على الشيء مثله؛ وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافه. وأما المعنى فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾. قال أبو إسحاق الزجاج: يكون الفرقان هو الكتاب؛ أعيد ذكره بإسمين تأكيداً. وحكى عن الفرّاء؛ ومنه قول الشاعر:

وقَـدّمـتِ[٢] الأدِيـمَ لـراهِشَيْـهِ وألْفَـى قـولَهـا كـذِبـاً ومَيْنَـا

وقال آخر[٣]:

ألاَ حبّـذا هِنـدٌ وأرضٌ بهـا هِنـدٌ وهندٌ أتى من دونها النّأيُ والبُعْدُ

فنسق البُعْد على النّأي، والمَيْنُ على الكذب؛ لاختلاف اللفظين تأكيداً؛ ومنه قول عنترة:

حُيّيـتِ مِـن طَلَـل تقـادمَ عهـدهُ أقْـوَى وأقفـرَ بعـد أمّ الهيْثَـمِ

قال النحاس: وهذا إنما يجيء في الشعر، وأحسن ما قيل في هذا قول مجاهد: فرقا بين الحق والباطل؛ أي الذي علمه إياه. وقال ٱبن زيد: الفرقان ٱنفراق البحر له حتى صار فِرَقاً فعبروا. وقيل: الفرقان الفرج من الكرب؛ لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا ٱللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ أي فرجاً ومخرجاً. وقيل: إنه الحجة والبيان. قاله ٱبن بحر. وقيل: الواو صلة، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان، والواو قد تزاد في النعوت؛ كقولهم: فلان حسن وطويل؛ وأنشد:

إلى المَلِك القَرْم وٱبن الهمام وليـثِ الكَتيبـةِ فـي المُـزْدَحـمْ

---

(١) راجع ص ٢٦١، ٣٤٣. (٢) الرواية المشهورة في البيت: «فقددت الأديم» وهو لعدي بن زيد. والقد: القطع. والأديم: الجلد. والراهشان: عرقان في باطن الذراع. (٣) هو الحطيئة.

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة. ودليل هذا التأويل قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(١) أي بين الحرام والحلال والكفر والإيمان والوعد والوعيد، وغير ذلك. وقيل: الفرقان الفَرْق بينهم وبين قوم فرعون؛ أنجى هؤلاء وأغرق أولئك. ونظيره: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾. فقيل: يعني به يوم بَدْر؛ نصر الله فيه محمداً ﷺ وأصحابه، وأهلك أبا جهل وأصحابه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا من الضلالة. وقد تقدّم(٢).

[٥٤] ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ القوم: الجماعة الرجال دون النساء؛ قال الله تعالى: ﴿لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ ثم قال: ﴿وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾. وقال زُهير:

وما أدرِي وسوف إخال أدرِي ... أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

وقال تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أراد الرجال دون النساء. وقد يقع القوم على الرجال والنساء؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ وكذا كل نبيّ مرسَل إلى النساء والرجال جميعاً.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ﴾ منادَى مضاف. وحذفت الياء في «يا قَوْم» لأنه موضع حذفٍ والكسرة تدل عليها؛ وهي بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد. ويجوز في غير القرآن إثباتها ساكنة؛ فتقول: يا قومي؛ لأنها اسم وهي في موضع خفض. وإن شئت فتحتها وإن شئت ألحقت معها هاء؛ فقلت: يا قومِيَهْ. وإن شئت أبدلت منها ألفاً لأنها أخفّ؛ فقلت: يا قوماً، وإن شئت قلت: يا قوم؛ بمعنى يا أيها القوم. وإن جعلتهم نكرة نصبت ونوّنت. وواحد القوم امرؤ على غير اللفظ. وتقول: قوم وأقوام؛ وأقاوم جمع الجمع. والمراد هنا بالقوم عَبَدة العجل، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى.

---

(١) راجع ٧/ ١٤٢. (٢) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ٱستغنى بالجمع القليل عن الكثير؛ والكثير نفوس. وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القِلة، والقليل موضع الكثرة؛ قال الله تعالى: ﴿ثَلاَثَةَ قروءٍ﴾. وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ﴾. ويقال لكل مَن فعل فعلاً يعود عليه ضرره: إنما أسأتَ إلى نفسك. وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه. ثم قال تعالى: ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ قال بعض أرباب المعاني: عِجلُ كلّ إنسان نفسه؛ فمن أسقطه وخالف مراده فقد برىء من ظلمه. والصحيح أنه هنا عِجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ لما قال لهم: فتوبوا إلى بارئكم؛ قالوا: كيف؟ قال: ﴿فَٱقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. قال أرباب الخواطر: ذَلِّلوها بالطاعات وكُفّوها عن الشهوات. والصحيح أنه قَتْلٌ على الحقيقة هنا. والقتل: إماتة الحركة. وقتلت الخمر: كسرت شدّتها بالماء. قال سفيان بن عُيَيْنَة: التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم؛ وكانت توبة بني إسرائيل القتل. وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العِجل بأن يقتل نفسه بيده. قال الزُّهرِيّ: لما قيل لهم: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قاموا صفّين وقتل بعضهم بعضاً؛ حتى قيل لهم: كُفّوا. فكان ذلك شهادةً للمقتول وتوبةً للحيّ؛ على ما تقدّم. وقال بعض المفسرين: أرسل الله عليهم ظلاماً ففعلوا ذلك. وقيل: وقف الذين عبدوا العجل صفّاً، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم. وقيل: قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتَلُوا ـ إذ لم يعبدوا العجل ـ مَن عبد العجل. ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم مُحْتَبُون فقال: معلون من حلّ حَبْوَته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو ٱتقاه بيد أو رِجل. فما حلّ أحد منهم حبوته حتى قتل منهم ـ يعني من قتل ـ وأقبل الرجل يقتل من يليه. ذكره النحاس وغيره. وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم ـ على القول الأوّل ـ؛ لأنهم لم يغيّروا المنكر حين عبدوه؛ وإنما ٱعتزلوا، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده. وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يُغيَّرَ عوقب الجميع. روى جَرِير قال قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يُعمل فيهم

بالمعاصي هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيّرون إلا عَمّهم الله بعقاب». أخرجه ٱبن ماجه في سُننه. وسيأتي الكلام في هذا المعنى إن شاء الله تعالى. فلما ٱسْتَحَرّ[١] فيهم القتل وبلغ سبعين ألفاً عفا الله عنهم. قاله ٱبن عباس وعليّ رضي الله عنهما. وإنما رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا المجهود في قتل أنفسهم. فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هي أفضل من التوبة. وقرأ قتادة: فأقيلوا أنفسكم ـ من الإقالة ـ؛ أي ٱستقيلوها من العثرة بالقتل.

قوله تعالى: ﴿بَارِئِكُمْ﴾ البارىء: الخالق؛ وبينهما فرق، وذلك أن البارىء هو المبدع المحدِث. والخالق هو المقدّر الناقل من حال إلى حال. والبَرِيّة: الخلق؛ وهي فَعِيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تُهمز. وقرأ أبو عمرو «بارئْكم» ـ بسكون الهمزة ـ ويشعركم وينصركم ويأمركم. وٱختلف النحاة في هذا؛ فمنهم من يُسكن الضمة والكسرة في الوصل؛ وذلك في الشعر. وقال أبو العباس المبرد: لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب في كلام ولا شِعر. وقراءة أبي عمرو لحن. قال النحاس وغيره: وقد أجاز ذلك النحويون القدماء الأئمة؛ وأنشدوا:

إذا اعْوَجَجْنَ قلتُ صاحبْ قَوِّمِ ... بالدَّوِّ أمثالَ السَّفِين العُوَّمِ[٢]

وقال ٱمرؤ القيس:

فاليومَ أشربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إثْماً من الله ولا واغِلِ[٣]

وقال آخر:

قالتَ سُليمَى ٱشترْ لنا سَوِيقا

وقال الآخر:

رُحتِ وفي رجليكِ ما فيهما ... وقد بدا هَنْكِ من المِئْزرِ

---

(١) استحرّ: اشتدّ وكثر. (٢) الدو (بفتح الدال وتشديد الواو): الصحراء. وأراد بأمثال السفين رواحل محملة تقطع الصحراء قطع السفن البحر. (٣) المستحقب: المتكسب. والواغل: الذي يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه. يقول هذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمر حتى يثأر به؛ فلما أدرك ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم بشربها، إذ وفّى بنذره فيها.

فمن أنكر التسكين في حرف الإعراب فحجّته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علماً للإعراب. قال أبو عليّ: وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة في جواز تسكينها مع توالي الحركات. وأصل برأ من تبرّي الشيء من الشيء وهو انفصاله منه. فالخلق قد فُصلوا من العدم إلى الوجود؛ ومنه بَرَأت من المرض بَرْءاً (بالفتح) كذا يقول أهل الحجاز. وغيرهم يقول: برِئت من المرض بُرْءاً (بالضم)؛ وبرئت منك ومن الديون والعيوب براءة؛ ومنه المبارأة للمرأة. وقد بارأ شريكه وامرأته.

قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ في الكلام حذف، تقديره ففعلتم «فتاب عليكم»؛ أي فتجاوز عنكم، أي على الباقين منكم. ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تقدّم(١) معناه، والحمد لله.

[٥٥] ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

[٥٦] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وإِذْ قُلْتُمْ﴾ معطوف. ﴿يا مُوسَى﴾ نداء مفرد. ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي نصدّقك. ﴿حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ قيل: هم السبعون الذين اختارهم موسى؛ وذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لكَ﴾. والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم. فأرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقهم؛ ثم دعا موسى ربه فأحياهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعدِ مَوْتِكُم﴾. وستأتي قصة السبعين في الأعراف(٢) إن شاء الله تعالى. قال ابْن فُورَك: يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام.

وقد اختُلِف في جواز رؤية الله تعالى؛ فأكثر المبتدعة على إنكارها في الدنيا والآخرة. وأهل السُّنَّة والسلف على جوازها فيهما ووقوعها في الآخرة؛ فعلى هذا لم يطلبوا من الرؤية

---

(١) راجع ص ١٠٣ فما بعدها وص ٣٢٥.
(٢) راجع ٧/ ٢٩٤.

محالاً؛ وقد سألها موسى عليه السلام. وسيأتي الكلام في الرؤية في «الأنعام» و «الأعراف»[(١)] إن شاء الله تعالى.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿جَهْرَةً﴾ مصدر في موضع الحال، ومعناه علانية. وقيل عِياناً؛ قاله ابن عباس. وأصل الجهر الظهور؛ ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها. والمجاهرة بالمعاصي: المظاهرة بها. ورأيت الأمير جِهاراً وجهرة؛ أي غير مستتر بشيء. وقرأ ابن عباس «جَهَرة» بفتح الهاء. وهما لغتان؛ مثل زَهْرة وزَهَرة. وفي الجهر وجهان: **أحدهما** ـ أنه صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا؛ فيكون في الكلام تقديم وتأخير؛ والتقدير: وإذ قلتم جهرة يا موسى. **الثاني** ـ أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهرة وعياناً؛ فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير. وأكّد بالجهر فرقاً بين رؤية العيان ورؤية المنام.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ قد تقدّم في أوّل السورة معنى الصاعقة[(٢)]. وقرأ عمر وعثمان وعليّ «الصَّعْقة»، وهي قراءة ابن مُحَيْصِن في جميع القرآن. ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ جملة في موضع الحال. ويقال: كيف يموتون وهم ينظرون؟ فالجواب أن العرب تقول: دور آل فلان تراءى؛ أي يقابل بعضها بعضاً. وقيل: المعنى «تنظرون» أي إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصعقة.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أي أحييناكم. قال قتادة: ماتوا وذهبت أرواحهم ثُمّ ردوا لاستيفاء آجالهم. قال النحاس: وهذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا، والمعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ما فعل بكم من البعث بعد الموت. وقيل: ماتوا مَوْتَ همودٍ يعتبر به الغير، ثم أرسلوا. وأصل البعث الإرسال. وقيل: بل أصله إثارة الشيء من محله؛ يقال: بعثت الناقة: أثرتها، أي حركتها؛ قال امرؤ القيس:

---

(١) راجع ٧/ ٥٤ و ٢٧٨.

(٢) راجع ص ٢١٩ من هذا الجزء.

وفتيان صدْق قد بعثتُ بسُحرة[١] فقاموا جميعاً بين عاثٍ ونَشْوان

وقال عنترة:

وصحابةٍ شُمّ الأنوف بعثتهم ليلا وقد مال الكرى بطُلاها[٢]

وقال بعضهم: ﴿بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ علّمناكم من بعد جهلكم.

قلت: والأوّل أصح؛ لأن الأصل الحقيقةُ، وكان موت عقوبة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾. على ما يأتي[٣].

الخامسة ـ قال الماوَرْدِيّ: واختُلِف في بقاء تكليف مَن أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين: أحدهما ـ بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل مِن تعبّد. **الثاني**: سقوط تكليفهم معتبراً بالاستدلال دون الاضطرار.

قلت: والأوّل أصح؛ فإن بني إسرائيل قد رأوا الجبل في الهواء ساقطاً عليهم والنار محيطة بهم؛ وذلك مما اضطرهم إلى الإيمان، وبقاء التكليف ثابت عليهم؛ ومثلهم قوم يونس. ومحال أن يكونوا غير مكلَّفين. والله أعلم.

[٥٧] ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾.

فيه ثماني مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلناه عليكم كالظُّلّة. والغمام جمع غمامة، كسحابة وسحاب؛ قاله الأخفش سعيد. قال الفراء: ويجوز غمائم وهي السحاب؛ لأنها تغمّ السماء أي تسترها؛ وكل مغطّى فهو مغموم؛ ومنه المغموم على عقله. وغُمّ الهلال

(١) السحرة (بضم أوله): السَّحَر. وقيل: أعلى السحر. وقيل: هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر.

(٢) الطلى (بضم ففتح) الأعناق.

(٣) راجع ٣/ ٢٣٠.

إذا غطّاه الغَيْم. والغين مثل الغيم؛ ومنه قوله عليه السلام: «إنه ليُغان على قلبي». قال صاحب العين: غِين عليه: غُطّي عليه. والغَيْن: شجر ملتفّ. وقال السُّدّي: الغمام السحاب الأبيض. وفعل هذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهاراً، وينجلي في آخره ليستضيئوا بالقمر ليلاً. وذكر المفسرون أن هذا جرى في التِّيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبّارين وقتالهم؛ وقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾[1]. فعوقبوا في ذلك الفَحْصِ[2] أربعين سنة يتيهون في خمسة فراسخ أو ستة. رُوي أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للمبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس. وإذ كانوا بأجمعهم في التِّيه قالوا لموسى: مَن لنا بالطعام! فأنزل الله عليهم المنّ والسَّلْوَى. قالوا: مَن لنا من حَرّ الشمس! فظلّل عليهم الغمام. قالوا: فبم نستصبح! فضرب لهم عمود نور في وسط محلّتهم. وذكر مكيّ: عمود من نار. قالوا: من لنا بالماء! فأمر موسى بضرب الحجر. قالوا: من لنا باللباس! فأعطوا؛ ألاّ يبلى لهم ثوب ولا يُخْلَق ولا يدرَن؛ وأن تنمو صغارها حسب نموّ الصبيان. والله أعلم.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوَى﴾ اختُلِف في المنّ ما هو وتعيينه على أقوال؛ فقيل: التّرَنْجِبِين[3] ـ بتشديد الراء وتسكين النون، ذكره النحاس، ويقال: الطّرنْجِبين بالطاء ـ وعلى هذا أكثر المفسرين. وقيل: صمغة حُلوة. وقيل عسل: وقيل شراب حلو. وقيل: خبز «الرُّقاق» عن وهب بن مُنَبّه. وقيل: «المنّ» مصدر يعمّ جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع؛ ومنه قول رسول الله ﷺ في حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل: «الكمأة من المنّ الذي أنزل الله على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين» في رواية «من المنّ الذي أنزل الله على موسى». رواه مسلم. قال علماؤنا: وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بني إسرائيل؛ أي مما خلقه الله لهم في التِّيه. قال أبو عبيد: إنما شبهها بالمنّ لأنه لا مؤونة فيها ببذر ولا سقي ولا علاج؛ فهي منه. أي مِن جنس مَنّ

---

(١) راجع ٦/١٢٨.

(٢) الفحص: كل موضع يسكن. وفي حديث كعب: «إن الله بارك في الشام وخص بالتقديس من فحص الأردنّ إلى رفح. . .» وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه. (عن القاموس والنهاية).

(٣) الترنجبين: طل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب (عن مفردات ابن البيطار).

بني إسرائيل في أنه كان دون تكلّف. روي أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج؛ فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه، فإن ادّخر منه شيئاً فسد عليه، إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم؛ لأن يوم السبت يوم عبادة، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شيء.

الثالثة ـ لما نصّ عليه السلام على أن ماء الكمأة شفاء للعين قال بعض أهل العلم بالطب: أما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة، وأما لغير ذلك فمركبة مع غيرها. وذهب أبو هريرة رضي الله عنه إلى استعمالها بحتاً في جميع مرض العين. وهذا كما استعمل أبو وَجْزَة العسلَ في جميع الأمراض كلّها حتى في الكحل، على ما يأتي بيانه في سورة «النحل»[١] إن شاء الله تعالى. وقال أهل اللغة: الكمء واحد، وكمآن اثنان، وأكمؤ ثلاثة، فإذا زادوا قالوا: كمأة ـ بالتاء ـ على عكس شجرة وشجر. والمنّ اسم جنس لا واحد له من لفظه؛ مثل الخير والشر؛ قاله الأخفش.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَالسَّلْوَى﴾ اختُلِف في السَّلْوَى، فقيل: هو السُّمَانَى بعينه؛ قاله الضحاك. قال ابن عطية: السَّلْوَى طير بإجماع المفسرين؛ وقد غَلِط الهُذَليّ[٢] فقال:

وقـاسمهـا بـالله جَهْـداً لأَنتُـمُ ألذّ من السّلوَى إذا ما نَشُورُهَا

ظنّ السلوى العسل.

قلت: ما ادّعاه من الإجماع لا يصح؛ وقد قال المؤرّج[٣] أحد علماء اللغة والتفسير: إنه العسل؛ واستدلّ ببيت الهذليّ، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة؛ سُمّيَ به لأنه يسلى به؛ ومنه عين السُّلوان[٤]؛ وأنشد:

لـو أشـرب السُّلـوان مـا سَلِيـتُ ما بي غنىً عنكِ وإن غَنِيتُ[٥]

(١) راجع ١٠/١٣٦.
(٢) هو خالد بن زهير.
(٣) هو مؤرّج بن عمر السدوسي، ويكنى أبا فيد. كان من أصحاب الخليل بن أحمد؛ مات سنة خمس وتسعين ومائة.
(٤) عين السلوان: عين نضاخة يتبرك بها ويستشفى منها بالبيت المقدس. (عن معجم ياقوت).
(٥) البيت لرؤبة.

وقال الجوهري: والسلوى العسل؛ وذكر بيت الهُذَليّ:

ألذّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُهَا

ولم يذكر غلطاً. والسُّلوانة (بالضم): خرزة كانوا يقولون إذا صُبّ عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا؛ قال:

شربتُ على سُلوانةٍ ماءَ مُزْنةٍ ... فلا وجدِيد العيش يا مَيّ ما أسْلُو

واسم ذلك الماء السُّلوان. وقال بعضهم: السلوان دواء يُسقاه الحزين فيسلو؛ والأطباء يسمونه المُفَرِّح. يقال: سَلِيت وسلوْت؛ لغتان. وهو في سَلْوة من العيش، أي في رغد؛ عن أبي زيد.

الخامسة ـ واختُلِف في السَّلْوَى هل هو جمع أو مفرد؛ فقال الأخفش: جمع لا واحد له من لفظه؛ مثل الخير والشر؛ وهو يشبه أن يكون واحده سَلْوَى مثل جماعته؛ كما قالوا: دِفْلَى[1] للواحد والجماعة، وسُمَانَى وشُكاعَى[2] في الواحد والجميع. وقال الخليل: واحده سَلواة؛ وأنشد:

وإني لتعروني لذكرك هزّةٌ[3] ... كما انتفض السَّلواة من بلل القطر

وقال الكسائي: السَّلْوَى واحدة، وجمعه سلاوى.

السادسة ـ «السَّلْوَى» عطفٌ على «المنّ» ولم يظهر فيه الإعراب، لأنه مقصور. ووجب هذا في المقصور كله؛ لأنه لا يخلو من أن يكون في آخره ألف. قال الخليل: والألف حرف هوائي لا مستقرّ له؛ فأشبه الحركة فاستحالت حركته. وقال الفرّاء: لو حرّكت الألف صارت همزة.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ «كلوا» فيه حذف، تقديره وقلنا كلوا؛ فحذف اختصاراً لدلالة الظاهر عليه. والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ.

---

(١) الدفلى (كذكرى) شجر مر أخضر حسن المنظر يكون في الأودية. (٢) الشكاعى (كحبارى وقد تفتح): من دق النبات، وهي دقيقة العيدان صغيرة خضراء، والناس يتداوون بها.

(٣) في الأصول: «سلوة» وهو تحريف.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النّعم بالشكر. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصي.

[٥٨] ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

فيه تسع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ حُذفت الألف من «قلنا» لسكونها وسكون الدال بعدها، والألف التي يُبتدأ بها قبل الدال ألف وصل؛ لأنه من يدخل.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي المدينة؛ سُمِّيت بذلك لأنها تقرّت أي اجتمعت؛ ومنه قَرَيت الماء في الحوض؛ أي جمعته؛ واسم ذلك الماء قرىً (بكسر القاف) مقصور. وكذلك ما قُرِيَ به الضيف؛ قاله الجوهري. والمِقْراة للحوض. والقَرِيّ لمسيل الماء. والقَرَا للظهر؛ ومنه قوله[١]:

لاحِقُ بطنٍ بَقَراً سمينِ

والمقارِي: الجِفان الكبار؛ قال:

عظام المقاري ضيفهم لا يُفزَّع

وواحد المقاري مِقراة؛ وكله بمعنى الجمع غير مهموز. والقِرية (بكسر القاف) لغة اليمن. واختلُف في تعيينها؛ فقال الجمهور: هي بيت المقدس. وقيل: أرِيحاء من بيت المقدس. قال عمر بن شَبّة: كانت قاعدة ومسكن ملوك. ابن كَيْسان: الشام. الضحاك: الرَّمْلة والأُرْدُنّ وفلسطين وتَدْمُر. وهذه نعمة أخرى، وهي أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التّيه.

---

(١) هو حميد الأرقط. وصف فرساً بضمور البطن ثم نفى أن يكون ضمره من هزال، فقال: «بقرا سمين». واللاحق الضامر. (عن شرح الشواهد).

الثالثة - قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا﴾ إباحة. و ﴿رَغَداً﴾ كثيراً واسعاً؛ وهو نعت لمصدر محذوف؛ أي أكلاً رَغَداً. ويجوز أن يكون في موضع الحال؛ على ما تقدّم. وكانت أرضاً مباركة عظيمة الغَلّة، فلذلك قال: «رغداً».

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ الباب يُجمع أبواباً؛ وقد قالوا: أبْوِبَة للازدواج؛ قال الشاعر[1]:

هتّـــاك أخْبِيَـــةٍ ولاّج أبْـــوِبَـــة ... يَخْلِط بالبِرّ منه الجِدَّ واللِّينا

ولو أفرده لم يجز. ومثله قوله عليه السلام: «مرحباً بالقوم ـ أو بالوفد ـ غير خَزَايا ولا نَدامَى». وتبوّبت بوّاباً اتخذته. وأبواب مبوّبة؛ كما قالوا: أصناف مُصنّفة. وهذا شيء من بابَتِك؛ أي يصلح لك. وقد تقدّم معنى السجود[2] فلا معنى لإعادته. والحمد لله.

والباب الذي أمِروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بـ «باب حِطّة»؛ عن مجاهد وغيره. وقيل: باب القُبّة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل. و «سجداً» قال ابن عباس: منحنين ركوعاً. وقيل: متواضعين خضوعاً لا على هيئة متعينة.

الخامسة - قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا﴾ عطف على ادخلوا. و (حِطَّةٌ) بالرفع قراءة الجمهور؛ على إضمار مبتدأ، أي مسألتنا حطة، أو يكون حكاية. قال الأخفش: وقرئت «حِطّةً» بالنصب، على معنى احطط عنا ذنوبنا حِطة. قال النحاس: الحديث[3] عن ابن عباس أنه قيل لهم: قولوا لا إله إلا الله، وفي حديث آخر عنه قيل لهم: قولوا مغفرة ـ تفسير للنصب؛ أي قولوا شيئاً يحط ذنوبكم؛ كما يقال: قل خيراً. والأئمة من القراء على الرفع. وهو أولى في اللغة؛ لما حكي عن العرب في معنى بدّل، قال أحمد بن يحيى: يقال بدّلته؛ أي غيرته ولم أزِل عينه. وأبدلته أزلت عينه وشخصه؛ كما قال[4]:

عَزْل الأمير للأمير المُبْدَل

---

(١) هو القلاخ بن جناب. وقيل: هو ابن مقبل. (عن اللسان) (٢) راجع ص ٣٤٥.
(٣) في «الأصول»: «قال النحاس جاء الحديث...» والتصويب عن إعراب القرآن للنحاس. و «الحديث» مبتدأ، وخبره «تفسير». (٤) هو أبو النجم. (عن إعراب القرآن للنحاس).

وقال الله عز وجل: ﴿قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾. وحديث[١] ابن مسعود قالوا: «حِطّة» تفسير على الرفع. هذا كله قول النحاس. وقال الحسن وعكرمة: «حِطّة» بمعنى حُطّ ذنوبنا؛ أُمِروا أن يقولوا: لا إله إلا الله ليحطّ بها ذنوبهم. وقال ابن جبير: معناه الاستغفار. أبان بن تَغْلِب: التوبة؛ قال الشاعر:

فـاز بـالحطـة التـي جعـل اللّـ ـــه بهـا ذنـب عبـده مغفـوراً

وقال ابن فارس في المُجْمَل: «حِطّة» كلمة أُمِر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم. وقاله الجوهري أيضاً في الصحاح.

قلت: يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللفظ بعينه، وهو الظاهر من الحديث. روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حِطّةٌ يُغفر لكم خطاياكم [فبدّلوا[٢]] فدخلوا الباب يَزْحَفُون على أستاههم وقالوا حَبّة في شَعَرة». وأخرجه البخاريّ وقال: «فبدّلوا وقالوا حِطّةٌ حبّةٌ في شعَرة». في غير الصحيحين: « حنطة في شَعَر » . وقيل : قالوا هِطّاً سُمْهاناً. وهي لفظة عبرانية، تفسيرها: حنطة حمراء؛ حكاها ابن قتيبة، وحكاه الهرِوي عن السدّي ومجاهد. وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمرّدوا واستهزءوا؛ فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب. وقال ابن زيد: كان طاعوناً أهلك منهم سبعين ألفاً. ورُوِيَ أن الباب جُعل قصيراً ليدخلوه ركّعاً فدخلوه متورّكين على أستاههم. والله أعلم.

السادسة ـ استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبُّد بلفظها أو بمعناها؛ فإن كان التعبُّد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها؛ لذمّ الله تعالى مَن بدّل ما أمره بقوله. وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدّي إلى ذلك المعنى؛ ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه.

---

(١) في الأصل: «ولحديث ابن مسعود». والتصويب عن النحاس.
(٢) الزيادة عن صحيح مسلم.

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى؛ فحُكِيَ عن مالك والشافعيّ وأبي حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله؛ وهو قول الجمهور. ومنع ذلك جمعٌ كثير من العلماء منهم ابنِ سِيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حَيْوَة. وقال مجاهد: انْقُص من الحديث إن شئت ولا تزد فيه. وكان مالك بن أنس يشدّد في حديث رسول الله ﷺ في التاء والياء ونحو هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى إنهم يسمعون ملحوناً ويعلمون ذلك ولا يغيّرونه. وروى أبو مِجْلَز عن قيس بن عُبَاد قال قال عمر بن الخطاب: مَن سمع حديثاً فحدّث به كما سمع فقد سلم. وروي نحوه عن عبد الله بن عمرو وزيد بن أرقم. وكذا الخلاف في التقديم والتأخير والزيادة والنقصان؛ فإن منهم من يعتدّ بالمعنى ولا يعتدّ باللفظ، ومنهم من يشدّد في ذلك ولا يفارق اللفظ. وذلك هو الأحوط في الدّين والأتقى والأولى؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه. والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضي الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة ، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعاني ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها. وروي عن واثلة بن الأسْقع أنه قال: ليس كل ما أخبرنا به رسول الله ﷺ نقلناه إليكم؛ حسبكم المعنى. وقال قتادة عن زُرارة بن أوْفَى: لقيت عدّة من أصحاب النبيّ ﷺ فاختلفوا عليّ في اللفظ واجتمعوا في المعنى. وكان النّخَعِيّ والحسن والشعبيّ رحمهم الله يأتون بالحديث على المعاني. وقال الحسن: إذا أصبت المعنى أجزأك. وقال سفيان الثوريّ رحمه الله: إذا قلت لكم إني أحدثكم كما سمعت فلا تصدّقوني؛ إنما هو المعنى. وقال وَكِيع رحمه الله: إن لم يكن المعنى واسعاً فقد هلك الناس. واتفق العلماء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهم وترجمته لهم؛ وذلك هو النقل بالمعنى. وقد فعل الله ذلك في كتابه فيما قص من أنباء ما قد سلف ، فقصّ قِصصاً ذكر بعضها في مواضع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربيّ وهو مخالف لها في التقديم والتأخير، والحذف والإلغاء،

والزيادة والنقصان. وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فَلأن يجوز بالعربية أوْلى. ٱحتج بهذا المعنى الحسن والشافعيّ، وهو الصحيح في الباب.

فإن قيل: فقد قال النبيّ ﷺ: «نَضَّر الله ٱمرأً سمع مقالتي فبلّغها كما سمعها» وذكر الحديث. وما ثبت عنه ﷺ أنه أمر رجلاً أن يقول عند مضجعه في دعاء علمه: «آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيّك الذي أرسلت»؛ فقال الرجل: ورسولك الذي أرسلت؛ فقال النبيّ ﷺ: «ونبيّك الذي أرسلت». قالوا: أفلا ترى أنه لم يسوّغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ وقال: «فأدّاها كما سمعها». قيل لهم: أما قوله «فأدّاها كما سمعها» فالمراد حكمها لا لفظها؛ لأن اللفظ غير معتدٍّ به. ويدلّك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله: «فرُبّ حامِل فقه غير فقيه ورُبّ حاملِ فقه إلى من هو أفقه منه». ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد؛ وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبيّ ﷺ في أوقات مختلفة؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة؛ وذلك أدلّ دليل على الجواز. وأما ردّه عليه السلام الرجلَ من قوله: «ورسولك ـ إلى قوله ـ ونبيك»؛ لأن لفظ النبيّ ﷺ أمدح؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع. ألا ترى أن ٱسم الرسول يقع على الكافة، وٱسم النبيّ لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام! وإنما فُضّل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوّة والرسالة. فلما قال: «ونبيك»، جاء بالنعت الأمدح، ثم قيّده بالرسالة بقوله: «الذي أرسلت». وأيضاً فإن نقله من قوله: «ورسولك ـ إلى قوله ـ ونبيك» ليجمع بين النبوّة والرسالة. ومستقبح في الكلام أن تقول: هذا رسول فلان الذي أرسله، وهذا قتيل زيد الذي قتله؛ لأنك تجتزىء بقولك: رسول فلان، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل؛ إذ كنت لا تفيد به إلا المعنى الأوّل. وإنما يحسن أن تقول: هذا رسول عبد الله الذي أرسله إلى عمرو، وهذا قتيل زيد الذي قتله بالأمس أو في وقعة كذا. والله وليّ التوفيق.

فإن قيل: إذا جاز للرّاوي الأوّل تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثاني تغيير ألفاظ الأوّل، ويؤدّي ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لدقة الفروق وخفائها. قيل له: الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا؛ فإن عُدمت لم يجز. قال ٱبن العربيّ: الخلاف في هذه المسألة إنما يُتصوّر بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم في معرفة اللغة الجِبِلّية الذّوقية؛ وأما من بعدهم فلا نشك في أن ذلك لا يجوز؛ إذ الطباع قد تغيّرت، والفهوم قد تباينت، والعوائد قد ٱختلفت؛ وهذا هو الحق. والله أعلم.

قال بعض علمائنا: لقد تعاجم ٱبن العربيّ رحمه الله؛ فإن الجواز إذا كان مشروطاً بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم؛ ولهذا لم يفصّل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل. نعم، لو قال: المطابقة في زمنه أبعد كان أقرب، والله أعلم.

السابعة - قوله تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ قراءة نافع بالياء مع ضمها. وٱبن عامر بالتاء مع ضمها، وهي قراءة مجاهد. وقرأها الباقون بالنون مع نصبها، وهي أبينها؛ لأن قبلها ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا﴾ فجرى «نَغْفِرْ» على الإخبار عن الله تعالى؛ والتقدير وقلنا ٱدخلوا الباب سُجّداً نغفر، ولأن بعده «وسَنَزِيدُ» بالنون. و «خطاياكم» ٱتباعاً للسواد وأنه على بابه. ووجه من قرأ بالتاء أنه أنث لتأنيث لفظ الخطايا؛ لأنها جمع خطيئة على التكسير. ووجه القراءة بالياء أنه ذكّر لما حال بين المؤنث وبين فعله؛ على ما تقدّم في قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٌ﴾. وحَسُن الياء والتاء وإن كان قبله إخبار عن الله تعالى في قوله: «وإذ قلنا» لأنه قد عُلِم أن ذنوب الخاطئين لا يغفرها إلا الله تعالى؛ فٱستغنى عن النون وردّ الفعل إلى الخطايا المغفورة.

الثامنة - واختلف في أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة؛ فقال الخليل: الأصل في خطايا أن يقول: خطاييء، ثم قلب فقيل: خطائي بهمزة بعدها ياء، ثم تبدل من الياء ألفاً بدلاً لازماً فتقول: خطاءاً؛ فلما ٱجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات، فأبدلت من الهمزة ياء فقلت: خطايا. وأما سيبويه فمذهبه أن الأصل مثل الأوّل خطاييء، ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها في مدائن فتقول:

خطائيء ، ولا تجتمع همزتان في كلمة ؛ فأبدلت من الثانية ياء فقلت: خطائي، ثم عملت كما عملت في الأول. وقال الفرّاء: خطايا جمع خطية بلا همز؛ كما تقول : هديّة وهدايا . قال الفراء: ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت: خطاءاً. وقال الكسائي : لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة في الهمزة ؛ كما قلت : دواب.

التاسعة ـ قوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي في إحسان من لم يعبد العجل. ويقال: يغفر خطايا من رفع المنّ والسَّلْوَى للغد، وسنزيد في إحسان من لم يرفع للغد. ويقال: يغفر خطايا من هو عاص، وسيزيد في إحسان من هو محسن؛ أي نزيدهم إحساناً على الإحسان المتقدّم عندهم. وهو اسم فاعل من أحسن. والمحسن: من صحح عقد توحيده، وأحسن سياسة نفسه، وأقبل على أداء فرائضه، وكفى المسلمين شرّه. وفي حديث جبريل عليه السلام: «ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال صدقت» وذكر الحديث. خرّجه مسلم.

[٥٩] ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً﴾ «الذين» في موضع رفع؛ أي فبدّل الظالمون منهم قولاً غير الذي قيل لهم. وذلك أنه قيل لهم: قولوا حِطّة؛ فقالوا حنطة، على ما تقدم؛ فزادوا حرفاً في الكلام فلقوا من البلاء ما لقوا؛ تعريفاً أن الزيادة في الدِّين والابتداع في الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر. هذا في تغيير كلمة هي عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب؛ فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود! هذا والقول أنقص من العمل، فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ﴾ تقدم معنى بدّل وأبدل؛ وقُرىء ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا﴾ على الوجهين. قال الجوهري: وأبدلت الشيء بغيره. وبدّله الله من الخوف

أمْناً. وتبديل الشيء أيضاً تغييره وإن لم يأت ببدَل. وٱستبدل الشيء بغيره، وتبدّله به إذا أخذه مكانه. والمبادلة التبادل. والأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم؛ إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر. قال ٱبن دُرَيد: الواحد بديل. والبدِيل: البدل. وبدَلُ الشيء: غيره؛ يقال: بَدَلٌ وبِدْلٌ، لغتان؛ مثل: شَبَه وشِبْه، ومَثَل ومِثْل، ونكَل ونِكْل. قال أبو عبيد[١]: لم يُسمع في فَعَل وفِعْل غير هذه الأربعة الأحرف. والبَدَل: وَجَع يكون في اليدين والرجلين. وقد بَدِل (بالكسر) يَبْدَلُ بَدَلاً.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كرر لفظ «ظلموا» ولم يضمره تعظيماً للأمر. والتكرير يكون على ضربين؛ **أحدهما**: استعماله بعد تمام الكلام؛ كما في هذه الآية وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ثم قال بعدُ: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ولم يقل: مما كتبوا. وكرر الويل تغليظاً لفعلهم؛ ومنه قول الخنساء:

تَعَرّقني الدهرُ نَهْساً[٢] وحَزّاً   وأوجعني الدهرُ قَرْعاً وغَمْزاً

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها. **والضرب الثاني**: مجيء تكرير الظاهر في موضع المضمر قبل أن يتم الكلام؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَاقَّةُ. مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ و ﴿ٱلْقَارِعَةُ. مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ كان القياس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم: الحاقة ما هي، والقارعة ما هي، ومثله: ﴿فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ﴾. كرر «أصحاب الميمنة» تفخيماً لما ينيلهم من جزيل الثواب؛ وكرر لفظ «أصحاب المشأمة» لما ينالهم من أليم العذاب. ومن هذا الضرب قول الشاعر:

ليتَ الغرابَ غداةَ ينعَبُ دائباً   كان الغرابُ مقطّع الأوداج

وقد جمع عَدِيّ بن زيد المعنيين فقال:

---

(١) في الأصل: «أبو عبيدة» والتصويب عن «اللسان وصحاح الجوهري».

(٢) في بعض «الأصول»: «نهشا» بالشين المعجمة. والنهش: أن يتناول المرء الشيء بفمه ليعضه فيؤثر فيه ولا يجرحه. والنهس: القبض على اللحم ونتره، أي جذبه.

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ نغَّص المـوتُ ذا الغِنَـى والفقيـرا

فكرر لفظ الموت ثلاثاً، وهو من الضرب الأوّل؛ ومنه قول الآخر:

ألا حبّـذا هنـدٌ وأرضٌ بهـا هنـدُ وهندٌ أتى مِن دونها النّأيُ والبُعْدُ

فكرر ذكر محبوبته ثلاثاً تفخيماً لها.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿رِجْزاً﴾ قراءة الجماعة «رِجْزاً» بكسر الراء، وأبن مُحَيْصِن بضم الراء. والرجز: العذاب (بالزاي)، و (بالسين): النَّتْن والقَذَر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾؛ أي نَتْناً إلى نَتْنِهم؛ قاله الكِسائي. وقال الفرّاء: الرِّجْز هو الرِّجْس. قال أبو عبيد: كما يقال السُّدْغ والزُّدْغ، وكذا رِجْس ورِجْز بمعنًى. قال الفرّاء: وذكر بعضهم أن الرُّجْز (بالضم): أسم صنم كانوا يعبدونه؛ وقرىء بذلك في قوله تعالى: ﴿والرُّجْزَ فَاْهْجُرْ﴾[1]. والرَّجَز (بفتح الراء والجيم): نوع من الشِّعْر؛ وأنكر الخليل أن يكون شِعراً. وهو مشتق من الرَّجَز؛ وهو داء يصيب الإبل في أعجازها، فإذا ثارت أرتعشت أفخاذها. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بفسقهم. والفِسْق الخروج، وقد تقدّم[2]. وقرأ أبن وَثّاب والنَّخَعِيّ: «يَفْسِقُون» بكسر السين.

[٦٠] ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

فيه ثماني مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ كُسرت الذال لالتقاء الساكنين. والسين سين السؤال؛ مثل: أستعلم وأستخبر وأستنصر، ونحو ذلك؛ أي طلب وسأل السَّقْيَ لقومه. والعرب تقول: سقيته وأسقيته، لغتان بمعنًى؛ قال[3]:

---

(١) راجع ١٩/ ٦٥.

(٢) يراجع ص ٢٤٥ من هذا الجزء. (٣) هو لبيد كما في «اللسان».

سقى قومي بني مَجْدٍ وأَسْقَى نُمَيْـراً والقبـائـلَ مـن هِـلال

وقيل: سقيتُه مِن سقي الشَّفَة، وأسقيته دَلَلْته على الماء.

الثانية ـ الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذِّلة مع التوبة النَّصوح. وقد ٱستسقى نبيّنا محمد ﷺ فخرج إلى المصلّى متواضعاً متذلّلاً متخشعاً مترسِّلاً متضرّعاً، وحسبك به! فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد؛ فأنّى نُسْقَى! لكن قد قال ﷺ في حديث ٱبن عمر: «ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا» الحديث. وسيأتي بكماله إن شاء الله.

الثالثة ـ سُنّة الاستسقاء الخروج إلى المصلّى ـ على الصفة التي ذكرنا ـ والخطبة والصلاة؛ وبهذا قال جمهور العلماء. وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس من سُنّته صلاة ولا خروج، وإنما هو دعاء لا غير. وٱحتج بحديث أنس الصحيح، أخرجه البخاريّ ومسلم. ولا حجة له فيه؛ فإن ذلك كان دعاء عُجِّلت إجابته فٱكتفى به عما سواه، ولم يقصد بذلك بيان سُنّة؛ ولما قصد البيان بيّن بفعله، حسب ما رواه عبد الله بن زيد المازنيّ قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المصلى فاستسقى وحوّل رداءه ثم صلى ركعتين. رواه مسلم. وسيأتي من أحكام الاستسقاء زيادة في سورة «هود[1]» إن شاء الله.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ العصا: معروف، وهو ٱسم مقصور مؤنّث وألفه منقلبة عن واو؛ قال[2]:

على عَصَوَيْهَا[3] سابِرِيٌّ مُشَبْرَقُ

---

(١) لم يذكر المصنف شيئاً عن الاستسقاء في سورة «هود»، وإنما هو مذكور في سورة «نوح» ١٨/٣٠٢.

(٢) هو ذو الرمة. وصدر البيت:
فجاءت بنسج العنكبوت كأنه

(٣) عصويها: عرقوتي الدلو، وهما الخشبتان اللتان يعترضان على الدلو كالصليب. والسابري: الدقيق من الثياب. والمشبرق: المخرق.

والجمع عُصِيّ وعِصِيّ، وهو فعول، وإنما كُسرت العين لما بعدها من الكسرة؛ وأعْصٍ أيضاً مثله؛ مثل زَمَنٍ وأزْمُنٍ. وفي المثل: «العَصَا من العُصَيّة» أي بعض الأمر من بعض. وقولهم: «أَلْقَى عصاه» أي أقام وترك الأسفار؛ وهو مَثَل. قال:

فألقتْ عصاها وٱستقرّ بها النَّوَى كما قَرّ عَيْناً بالإياب المسافِرُ

وفي التنزيل: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾. وهناك[1] يأتي الكلام في منافعها إن شاء الله تعالى. قال الفرّاء: أوّل لحن سُمع بالعراق هذه عصاتي. وقد يعبرّ بالعصا عن الاجتماع والافتراق؛ ومنه يقال في الخوارج: قد شَقُّوا عصا المسلمين؛ أي ٱجتماعهم وٱئتلافهم. وٱنشقّت العصا؛ أي وقع الخلاف؛ قال الشاعر:

إذا كانت الهَيْجاءُ وٱنشقّتِ العصا فحسْبُكَ والضّحاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدُ

أي يكفيك ويكفي الضحاك. وقولهم: لا ترفع عصاك عن أهلك؛ يراد به الأدب. والله أعلم.

والحجر معروف، وقياس جمعه في أدنى العدد أحجار، وفي الكثير حِجار وحجارة؛ والحجارة نادر. وهو كقولنا: جَمَل وجِمَالة، وذَكَر وذِكَارة؛ كذا قال ٱبن فارس والجوهري.

قلت: وفي القرآنِ ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾. ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾. ﴿قُلْ كُونُوا حِجارَةً﴾. ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارةٍ﴾. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارةً﴾ فكيف يكون نادراً، إلا أن يريدا أنه نادر في القياس كثير في الاستعمال فصيح. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَٱنْفَجَرَتْ﴾ في الكلام حذف؛ تقديره فضرب فٱنفجرت. وقد كان تعالى قادراً على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب؛ لكن أراد أن يربط المسبّبات بالأسباب حكمةً منه للعباد في وصولهم إلى المراد؛ وليرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد. والانفجار: الانشقاق؛ ومنه ٱنشق الفجر. وٱنفجر الماء ٱنفجاراً: ٱنفتح. والفُجْرة: موضع تفجّر الماء. والانبجاس أضيق من الانفجار؛ لأنه يكون ٱنبجاساً ثم يصير ٱنفجاراً. وقيل: ٱنبجس وتبجّس وتفجّر وتفتّق، بمعنًى واحد؛ حكاه الهَرَوِيّ وغيره.

---

(١) راجع ١١/١٨٦.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ «اثنتا» في موضع رفع بـ «ـانفجرت» وعلامة الرفع فيها الألف. وأُعربت دون نظائرها لأن التثنية معرَبة أبداً لصحة معناها. «عَيْناً» نُصب على البيان. وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى «عَشِرة» بكسر الشين؛ وفي لغة بني تميم، وهذا من لغتهم نادر؛ لأن سبيلهم التخفيف. ولغة أهل الحجاز «عشْرة» وسبيلهم التثقيل. قال جميعه النحاس. والعَيْن من الأسماء المشتركة؛ يقال: عَيْنُ الماء، وعَيْنُ الإنسان، وعينُ الرُّكْبة[1]، وعين الشمس. والعَيْن: سحابة تُقبل من ناحية القِبلة. والعين: مطر يدوم خمساً أو سِتّاً لا يقلع. وبلد قليل العَيْن: أي قليل الناس. وما بها عين، محرّكة الياء[2]. والعين: الثقب في المزادة. والعَيْنُ من الماء مُشَبّهة بالعين من الحيوان؛ لخروج الماء منها كخروج الدمع من عين الحيوان. وقيل: لما كان عين الحيوان أشرف ما فيه، شُبّهت به عين الماء؛ لأنها أشرف ما في الأرض.

السادسة ـ لما استسقى موسى عليه السلام لقومه أمر أن يضرب عند استسقائه بعصاه حجراً؛ قيل: مربّعاً طُورِيّاً (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقى في كسر جُوالق ويُرحل به؛ فإذا نزلوا وُضع في وسط محلّتهم. وذُكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى؛ وهذا أعظم في الآية والإعجاز. وقيل: إنه أطلق له ٱسم الحجر ليضرب موسى أيّ حجر شاء؛ وهذا أبلغ في الإعجاز. وقيل: إن الله تعالى أمره أن يضرب حجراً بعينه بيّنه لموسى عليه السلام؛ ولذلك ذكر بلفظ التعريف. قال سعيد بن جُبير: هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه لما اغتسل، وفرّ بثوبه حتى بَرّأه الله مما رماه به قومه. قال ٱبن عطية: ولا خلاف أنه كان حجراً منفصلاً مربّعاً، تطّرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفّت العيون.

---

(١) كذا في بعض نسخ الأصل. وعين الركبة (براء مضمومة وباء موحدة): نقرة في مقدمها عند الساق، ولكل ركبة عينان؛ على التشبيه بنقرة العين الحاسة. وفي البعض الآخر: «عين الركية» (براء مفتوحة وياء مثناة من تحت) وهي مفجر ماء البئر ومنبعها.

(٢) الذي في القاموس أن الياء تحرّك وتسكن في العين بهذا المعنى.

قلت: ما أوتي نبيّنا محمد ﷺ من نبع الماء وانفجاره من يده وبين أصابعه أعظم في المعجزة؛ فإنا نشاهد الماء يتفجّر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار؛ ومعجزة نبيّنا عليه السلام لم تكن لنبيّ قبل نبيّنا ﷺ، يخرج الماء من بين لحم ودم!. روى الأئمة الثّقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال: كنا مع النبيّ ﷺ فلم نجد ماء فأُتِيَ بتَوْر[1] فأدخل يده فيه؛ فلقد رأيت الماء يتفجّر من بين أصابعه ويقول: «حيّ على الطّهور». قال الأعمش: فحدّثني سالم بن أبي الجَعْد قال قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: ألفاً وخمسمائة. لفظ النسائي.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ يعني أن لكل سِبْط منهم عيناً قد عرفها لا يشرب من غيرها. والمَشْرَب: موضع الشرب. وقيل: المشروب. والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وهم ذُرّية الاثني عشر أولاد يعقوب عليه السلام؛ وكان لكل سِبْط عَيْنٌ من تلك العيون لا يتعدّاها. قال عطاء: كان للحَجَر أربعة أوجه، يخرج من كل وجه ثلاث أعين؛ لكل سِبط عَين لا يخالطهم سواهم. وبلغنا أنه كان في كل سبط خمسون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم. قال عطاء: كان يظهر على كل موضع من ضربة موسى مثل ثدي المرأة على الحجر فيعرق أوّلاً ثم يسيل.

الثامنة ـ قوله تعالى ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا﴾ في الكلام حذف تقديره وقلنا لهم كلوا المنّ والسلوى، واشربوا الماء المتفجّر من الحجر المنفصل. ﴿وَلاَ تَعْثَوْا﴾ أي لا تفسدوا. والعيث: شدّة الفساد؛ نهاهم عن ذلك. يقال: عَثِيَ يَعْثَى عُثِيّاً، وعثا يَعْثُو عُثُوّاً، وعاث يَعِيث عَيْثاً وعُيُوثاً ومَعَاثاً؛ والأوّل لغة القرآن. ويقال: عَثّ يَعُثّ في المضاعف: أفسد؛ ومنه العُثّة، وهي السُّوسة التي تَلْحَس الصّوف. و ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال؛ وتكرر المعنى تأكيداً لاختلاف اللفظ. وفي هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها، والتقدّم في المعاصي والنهي عنها.

(١) التور (بالتاء المثناة): إناء من صُفْر أو حجارة يشرب منه أو يتوضأ.

[٦١] ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ كان هذا القول منهم في التِّيه حين مَلُّوا المنّ والسَّلْوَى، وتذكّروا عيشهم الأوّل بمصر. قال الحسن: كانوا نَتَانَى أهل كُرّاث وأبصال وأعداس، فنزعوا إلى عِكْرهم[١] عِكرِ السّوء، وٱشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا: لن نصبر على طعام واحد. وكَنوا عن المنّ والسلوى بطعام واحد وهما ٱثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر؛ فلذلك قالوا: طعام واحد. وقيل: لتكرارهما في كل يوم غذاء؛ كما تقول لمن يداوم على الصوم والصلاة والقراءة: هو على أمر واحد؛ لملازمته لذلك. وقيل: المعنى لن نصبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الاستعانة ببعض؛ لاستغناء كل واحد منّا بنفسه. وكذلك كانوا؛ فهم أوّل من ٱتخذ العبيد والخَدَم.

قوله تعالى: ﴿عَلَى طَعَامٍ﴾ الطعام يُطلق على ما يُطعم ويُشرب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فإنَّهُ مِنِّي﴾ وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ أي ما شربوه من الخمر، على ما يأتي بيانه[٢]. وإن كان السلوى العسل ـ كما حكى المؤرِّج ـ فهو مشروب أيضاً. وربما خُصّ بالطعام البرُّ والتمرُ، كما في حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ قال: كنا نُخرج صدقةَ الفطر على عهد رسول الله ﷺ صاعاً من طعام أو صاعاً من

(١) العكر (بكسر أوّله وسكون ثانيه): الأصل. قيل: العادة والديدن. والعكر (بالتحريك): دُرْدِيّ كل شيء.

(٢) راجع ٦/ ٢٩٣.

شعير؛ الحديث. والعرف جارٍ بأن القائل: ذهبت إلى سوق الطعام، فليس يفهم منه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يُشرب. والطَّعْم (بالفتح): هو ما يؤدّيه الذوق؛ يقال: طعمه مرّ. والطَّعْم أيضاً: ما يشتهى منه؛ يقال: ليس له طعم. وما فلان بذي طعم: إذا كان غثًّا. والطُّعم (بالضم): الطعام؛ قال أبو خِراش:

أَرُدُّ شُجاعَ البطن لو[1] تعلمينه ... وأُوثِرُ غيري من عِيالِكِ بالطُّعْمِ
وأغتبِق الماء القَراحَ فأنتهي ... إذا الزادُ أمسى للمُزَلَّج[2] ذا طَعْمِ

أراد بالأوّل الطعام، وبالثاني ما يُشتهى منه. وقد طَعِم يَطْعَمُ فهو طاعم إذا أكل وذاق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي من لم يذقه. وقال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ أي أكلتم. وقال رسول الله ﷺ في زمزم: «إنها طَعامُ طُعْمٍ وشِفَاءُ سُقْم»[3] واستطعمني فلان الحديث إذا أراد أن تحدّثه. وفي الحديث: «إذا استطعمكم الإمامُ فأطعموه». يقول: إذا استفتح فافتحوا عليه. وفلان ما يَطْعَم النوم إلا قائماً. وقال الشاعر:

نَعاماً بَوْجَرَةَ صُفر الخدو ... د ما تَطْعَم النومَ إلا صِياماً[4]

قوله تعالى: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخرِجْ لنا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ﴾ لغة بني عامر «فادِعِ» بكسر العين لالتقاء الساكنين؛ يُجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحذوف. و «يُخْرِجْ» مجزوم على معنى سَلْه وقل له: أَخْرِجْ، يُخْرِج. وقيل: هو على معنى الدعاء على تقدير حذف

---

(١) في ديوان الهذلين واللسان مادّة (طعم): «قد تعلمينه».
(٢) المزلج: من معانيه البخيل. والملزق بالقوم وليس منهم. وكلاهما محتمل.
(٣) أي يشبع الإنسان إذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام.
(٤) كذا في نسخ الأصل. ووجرة (بفتح فسكون): موضع بين مكة والبصرة. والذي في كتب اللغة ومعاجم البلدان:

نعاماً بخطمة صعر الخدو ... د لا تطعم الماء إلا صياماً

وقبله:

فأما بنو عامر بالنسار ... غداة لقونا فكانوا نعاماً

وهو لبشر بن أبي خازم. وخطمة (بفتح فسكون): موضع أعلى المدينة. وفي اللسان بعد البيت: «يقول: هي صائمة منه لا تطعمه؛ قال. . . وذلك لأن النعام لا ترد الماء ولا تطعمه».

اللام ، وضعّفه الزجاج . و « مِن » ، في قوله « مِمّا » زائدة في قول الأخفش ، وغير زائدة في قول سيبويه؛ لأن الكلام موجب. قال النحاس: وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولاً لـ «يُخرِج» فأراد أن يجعل «ما» مفعولاً. والأولى أن يكون المفعول محذوفاً دلّ عليه سائر الكلام؛ التقدير: يخرج لنا مما تُنبت الأرض مأكولاً. فـ «مِن» الأولى على هذا للتبعيض، والثانية للتخصيص. و ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ بدل من «ما» بإعادة الحرف. ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ عطف عليه، وكذا ما بعده؛ فاعلمه. والبَقْلُ معروف، وهو كل نبات ليس له ساق. والشجر: ما له ساق. والقِثّاء أيضاً معروف، وقد تُضمّ قافه، وهي قراءة يحيى بن وَثّاب وطلحة بن مُصَرِّف، لغتان والكسر أكثر. وقيل في جمعِ قِثّاء: قَثَائِيّ؛ مثلُ عِلْبَاء وعَلاَبِيّ؛ إلا أن قثاء من ذوات الواو؛ تقول: أقثأتُ القوم؛ أي أطعمتهم ذلك:

[وفَثَأَت[1] القِدْرَ سكّنت غليانها بالماء؛ قال الجَعْدِيّ:

تَفُـور علينـا قِـدْرُهـم فنُـدِيمُهـا ... ونَفْثَـؤُهـا عنّـا إذا حَمْيُهـا غـلا

وفثأت الرجل إذا كسرته عنك بقول أو غيره وسكّنت غضبه . وعدا حتى أفثأ ؛ أي أعْيَا وانبهر. وأفثأ الحَرُّ أي سكن وفتَر. ومن أمثالهم في اليسير من البِرّ قولهم: إنّ الرَّثِيئة تفثأ في الغضب » . وأصله أن رجلاً كان غَضِـب على قوم وكان مع غضبه جائعاً ، فسَقَوْه رَثِيئة فسكن غضبه وكف عنهم. الرثيئة: اللبن المحلوب على الحامض ليَخْثُر . رَثَأْتُ اللبن رَثْأً إذا حلبته على حامض فَخُثِرَ؛ والاسم الرَّثِيئة. وارتثأ اللبن خثر].

وروى ابن ماجه حدّثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا يونس بن بُكير حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كانت أمّي تعالجني للسِّمْنة، تريد أن تُدخلني على رسول الله ﷺ، فما استقام لها ذلك حتى أكلت القِثّاء بالرُّطَب فسَمِنتُ كأحسن سِمنة. وهذا إسناد صحيح.

---

(١) الكلام الموضوع بين المربعين نقله المؤلف من معاجم اللغة سهواً على أنه من مادة «قثأ» بالقاف؛ والواقع أنه من مادة «فثأ» بالفاء.

قوله تعالى: ﴿وَفُومِهَا﴾ اختلف في الفُوم، فقيل: هو الثُّوم؛ لأنه المشاكل للبصل. رواه جُوَيْبر عن الضحاك. والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا: مغافير ومغاثير[١]. وجَدَثٌ وجَدَفٌ؛ للقبر. وقرأ ابن مسعود «ثومها» بالثاء المثلثة؛ وروي ذلك عن ابن عباس. وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت:

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً فيها الفَرادِيسُ والفُومانُ والبَصَلُ

الفراديس: واحدها فرديس. وكَرْم مُفَرْدَس؛ أي معرّش.

وقال حسّان:

وأنتم أناسٌ لئامُ الأصول طعامُكُم الفُومُ والحَوْقَلُ

يعني الثّوم والبصل؛ وهو قول الكسائي والنّضر بن شُمَيل. وقيل: الفُوم الحنطة؛ روي عن ابن عباس أيضاً وأكثر المفسرين؛ واختاره النحاس، قال: وهو أوْلى، ومن قال به أعلى، وأسانيده صحاح؛ وليس جُوَيْبر بنظير لروايته؛ وإن كان الكسائي والفراء قد اختارا القول الأوّل، لإبدال العرب الفاء من الثاء؛ والإبدال لا يقاس عليه؛ وليس ذلك بكثير في كلام العرب. وأنشد ابن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة، قول أُحَيْحَة بن الجُلاح:

قد كنتُ أغنَى الناسِ شخصاً واجداً ورَدَ المدينةَ عن زراعة فُومِ

وقال أبو إسحاق الزجاج: وكيف يطلب القوم طعاماً لا بُرّ فيه، والبرّ أصل الغذاء!. وقال الجوهري أبو نصر: الفوم الحنطة. وأنشد الأخفش:

قد كنت أحسبني كأغنى واجد نزل المدينة عن زراعة فُومِ[٢]

وقال ابن دُرَيد: الفُومة السُّنبلة؛ وأنشد:

وقال رَبِيئهم[٣] لمّا أتانا بِكَفّهِ فومةٌ أو فُومتان

(١) المغافير: قيل: هو صمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست بطيبة.

(٢) في الأغاني (٢١/ ٢١١) طبع أوروبا: «عن زراعة فول». وقبل البيت:

ولقد نظرت إلى الشموس ودونها حرج من الرحمن غير قليل

وعلى هذا فالقافية لامية.

(٣) في بعض الأصول: «وقال رئيسهم». الربى. (ومثله الربيئة): العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو، ولا يكون إلا على جبل أو شَرف ينظر منه.

والهاء في «كَفّه» غير مشبعة. وقال بعضهم: الفُوم: الحِمَّص؛ لغةٌ شاميّة. وبائعه فاميّ، مغيَّر عن فُوميْ؛ لأنهم قد يغيّرون في النسب؛ كما قالوا: سُهْلِيّ ودُهْرِيّ. ويقال: فَوِّموا لنا؛ أي اختبزوا. قال الفرّاء: هي لغة قديمة. وقال عطاء وقتادة: الفُوم كل حب يُخْتَبز.

مسألة ـ اختلف العلماء في أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول. فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك؛ للأحاديث الثابتة في ذلك. وذهبت طائفة من أهل الظاهر ـ القائلين بوجوب الصلاة في الجماعة فرضاً ـ إلى المنع، وقالوا: كل ما مَنَع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والتشاغل به. واحتجّوا بأن رسول الله ﷺ سمّاها خبيثة؛ والله عز وجل قد وصف نبيّه عليه السلام بأنه يحرّم الخبائث. ومن الحجة للجمهور ما ثبت عن جابر أن النبيّ ﷺ أُتِيَ ببَدْر[1] فيه خَضِرات من بقول فوجد لها ريحاً؛ قال: فأُخبِر بما فيها من البقول؛ فقال: «قرّبوها» ـ إلى بعض أصحابه كان معه ـ فلما رآه كره أكلها، قال: «كُلْ فإنّي أناجِي مَن لا تُناجِي». أخرجه مسلم وأبو داود. فهذا بَيِّنٌ في الخصوص له والإباحة لغيره. وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي أيوب أن النبيّ ﷺ نزل على أبي أيوب، فصنع للنبيّ ﷺ طعاماً فيه ثُوم، فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيّ ﷺ، فقيل له: لم يأكل. ففزِع وصعِد إليه فقال: أحرامٌ هو؟ قال النبيّ ﷺ: «لا ولكني أكْرهُه». قال: فإني أكره ما تكره أو ما كرهت، قال: وكان النبيّ ﷺ يُؤْتَى (يعني يأتيه الوحى). فهذا نصّ على عدم التحريم. وكذلك ما رواه أبو سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ ﷺ حين أكلوا الثّوم زمنَ خَيْبَر وفتحها: «أيها الناس إنه ليس لي تحريمُ ما أحلّ الله ولكنها شجرة أكره ريحها». فهذه الأحاديث تُشعر بأن الحكم خاصّ به، إذ هو المخصوص بمناجاة المَلَك. لكن قد علمنا هذا الحكم في حديث جابر بما يقتضي التسوية بينه وبين غيره في هذا الحكم حيث قال: «من أكل من هذه البقلةِ الثومِ ـ وقال مرة: من أكل البصل والثوم

---

(١) في الأصول: «بقدر». والتصويب عن سنن أبي داود. يعني بالبدر الطبق؛ شبه بالبدر لاستدارتـه.

والكُرَّاث ـ فلا يَقْرَبَنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذّى مما يتأذّى منه بنو آدم» . وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في حديث فيه طُول: إنكم أيها الناس، تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين، هذا البصل والثوم . ولقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد أمر به فأُخرِج إلى البَقيع، فمن أكلهما فَلْيُمِتْهما طبخاً. خرّجه مسلم.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ العدس معروف. والعَدَسَةُ: بَثْرَةٌ تخرج بالإنسان، وربما قتلت. وعَدَسْ: زَجْرٌ للبغال؛ قال:

عَـدَسْ مـا لِعبّـادٍ عليـكِ إمـارةٌ ... نَجوْتِ وهذا تحملين طَلِيق[1]

والعَدْس: شدّة الوطء، والكَدْح أيضاً؛ يقال: عَدَسه. وعَدَس في الأرض: ذهب فيها. وعَدَستْ إليه المنيّة أي سارت؛ قال الكُمَيْت:

أُكلّفهـا هَـوْلَ الظـلامِ ولـم أزَلْ ... أخا الليلِ مَعْدوساً إليّ وعادِسَا

أي يسار إلّي بالليل. وعَدَسْ: لغة في حَدَس؛ قاله الجوهري. ويؤثَرُ عن النبيّ ﷺ من حديث علّي أنه قال: «عليكم بالعدس فإنه مبارَك مقدّس وإنه يَرِقّ القلب ويكثر الدَّمعة فإنه بارك فيه سبعون نبياً آخرهم عيسى ابن مريم»؛ ذكره الثعلبي وغيره. وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوماً خبزاً بزيت، ويوماً بلحم[2]، ويوماً بعدس. قال الحَلِيميّ: والعدس والزيت طعام الصالحين؛ ولو لم يكن له فضيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام في مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية. وهو مما يخفّف البدن فيخِفّ للعبادة، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم. والحِنْطة من جملة الحبوب وهي الفُوم على الصحيح، والشعير قريب منها وكان طعام أهل المدينة، كما كان العدس من طعام قرية إبراهيم عليه السلام؛ فصار لكل واحد من الحبتين بأحد النبيين عليهما السلام فضيلة. وقد روي أن النبيّ ﷺ

---

(١) البيت ليزيد بن مفرغ.

(٢) في بعض نسخ الأصل: «بملح».

لم يَشبع هو وأهله من خُبْزِ بُرٍّ ثلاثة أيام متتابعة منذ قدم المدينة إلى أن توفاه الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ الاستبدال: وضع الشيء موضع الآخر؛ ومنه البدل، وقد تقدّم. و «أدْنَى» مأخوذ ـ عند الزجاج ـ من الدُّنُوّ أي القُرْب في القيمة؛ من قولهم: ثَوْبٌ مقارِب؛ أي قليل الثمن. وقال عليّ بن سليمان: هو مهموز من الدنيء البيّن الدناءة بمعنى الأخس، إلا أنه خفّف همزته. وقيل: هو مأخوذ من الدُّون أي الأحط؛ فأصله أَدْوَن، أفعَل، قُلِب فجاء أفْلَع؛ وحُوّلت الواو ألفاً لتطرُّفها. وقُرىء في الشّواذّ أدنى[1]». ومعنى الآية: أتستبدلون البَقْل والقِثّاء والفُومَ والعَدَس والبَصل الذي هو أدنى بالمنّ والسَّلْوَى الذي هو خير.

واختُلِف في الوجوه التي توجب فضل المنّ والسّلْوَى على الشيء الذي طلبوه وهي خمسة:

الأوّل ـ أن البقول لما كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المنّ والسلوى كانا أفضل؛ قاله الزجاج.

الثاني ـ لمّا كان المنّ والسلوى طعاماً منّ الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان في استدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذُخْرٌ في الآخرة، والذي طلبوه عارٍ من هذه الخصائل، كان أدنى في هذا الوجه.

الثالث ـ لمّا كان ما منّ الله به عليهم أطيب وألذّ من الذي سألوه، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة.

الرابع ـ لمّا كان ما أُعْطُوا لا كُلْفةَ فيه ولا تعب، والذي طلبوه لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب، كان أدنى.

الخامس ـ لمّا كان ما ينزل عليهم لا مِزْيةَ في حِلّه وخُلوصه لنزوله من عند الله، والحبوب والأرض يتخلّلها البيوع والغصوب وتدخلها الشُّبه، كانت أدنى من هذا الوجه.

(١) كذا في نسخ الأصل: والذي في كتب الشواذ: «أدنأ بالهمز، وهي قراءة زهير الفرقبي».

مسألة ـ في هذه الآية دليلٌ على جواز أكل الطّيبات والمطاعم المستلذّات، وكان النبيّ ﷺ يحبّ الحَلْوى والعَسَل، ويشرب الماء البارد العَذْب؛ وسيأتي هذا المعنى في «المائدة[١]» و «النحل[٢]» إن شاء الله مستوفىً.

قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ تقدّم معنى الهبوط[٣]؛ وهذا أمر معناه التعجيز؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيْداً﴾. لأنهم كانوا في التِّيه وهذا عقوبة لهم. وقيل: إنهم أُعطوا ما طلبوه. و «مِصْراً» بالتنوين منكَّراً قراءة الجمهور، وهو خطّ المصحف. قال مجاهد وغيره: فمن صَرَفها أراد مِصْراً من الأمصار غير معيَّن. وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ قال: مِصْراً من هذه الأمصار. وقالت طائفة ممن صَرَفها أيضاً: أراد مِصْرَ فرعون بعينها. استدلّ الأوّلون بما اقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التِّيه. واستدلّ الآخرون بما في القرآن من أن الله أوْرث بني إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم، وأجازوا صرفها. قال الأخفش والكسائي: لخفّتها وشبهها بِهِنْد ودَعْد؛ وأنشد:

لم تَتَلَفَّع بفضل مئزرها ... دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ في العُلَبِ[٤]

فجمع بين اللغتين. وسيبويه والخليل والفرّاء لا يجيزون هذا؛ لأنك لو سَمّيت امرأة بزيد لم تَصْرِف. وقال غير الأخفش: أراد المكان فَصَرف. وقرأ الحسن وأبانَ بن تَغْلِب وطلحة: «مِصْرَ» بترك الصرف. وكذلك هي في مصحف أُبيّ بن كعب وقراءة ابن مسعود. وقالوا: هي مصر فرعون. قال أشهب قال لي مالك: هي عندي مصر قريتك مسكن فرعون؛ ذكره ابن عطية. والمِصر أصله في اللغة الحدّ. ومِصر الدّار: حدودها. قال ابن فارس ويقال: إن أهل هَجَر يكتبون في شروطهم «اشترى فلان الدار بمُصُورها» أي حدودها؛ قال عَدِيّ:

وجاعلُ الشمسِ مصراً لا خفاءَ به ... بين النهار وبين الليل قد فَصلاَ

---

(١) راجع ٦/ ٢٦٣. (٢) راجع ١٠/ ١٣٦. (٣) راجع ص ٣١٩.

(٤) البيت لجرير والعلب: أقداح من جلود يحلب فيها اللبن ويشرب. يقول هي حضرية رقيقة العيش لا تلبس لبس الأعراب ولا تتغذى غذاءهم. (شرح الشواهد).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ «ما» نصب بإن. وقرأ ابن وَثّاب والنَّخَعِيّ «سِألتم» بكسر السين؛ يقال: سألت وسلت بغير همز. وهو من ذوات الواو، بدليل قولهم: يتساولان. ومعنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ﴾ أي أُلزِموهما وقُضِيَ عليهم بهما؛ مأخوذ من ضرب القباب، قال الفرزدق في جَرِير:

ضربتْ عليك العنكبوتُ بنَسجها وقَضَى عليك به الكتابُ المُنزَلُ

وضرب الحاكم على اليد؛ أي حمل وألزم. والذِّلّة: الذُّلّ والصَّغار. والمسكنة: الفقر. فلا يوجد يهوديّ وإن كان غَنِيّاً خالياً من زِيّ الفقر وخضوعه ومهانته. وقيل: الذلة فرض الجِزْية؛ عن الحسن وقتادة. والمسكنة الخضوع، وهي مأخوذة من السكون؛ أي قلّل الفقر حركته؛ قاله الزجاج. وقال أبو عبيدة: الذِّلة الصَّغار. والمسكنة مصدر المسكين. وروى الضّحاك بن مُزاحم عن ابن عباس: ﴿وضُرِبَتْ عليهم الذِّلةُ والمسكنةُ﴾ قال: هم أصحاب القَبَالات[1].

قوله تعالى: ﴿وبَاءُوا﴾ أي انقلبوا ورجعوا؛ أي لزمهم ذلك. ومنه قوله عليه السلام في دعائه ومناجاته: «أبُوءُ بنعمتك عليّ» أي أُقِرّ بها وأُلزمها نفسي. وأصله في اللغة الرجوع؛ يقال باء بكذا، أي رجع به. وباء إلى المَبَاءة ـ وهي المنزل ـ أي رجع. والبواء: الرجوع بالقَوَد. وهم في هذا الأمر بَواء؛ أي سواء، يرجعون فيه إلى معنىً واحد. وقال الشاعر[2]:

ألاَ تَنتَهِي عنّا ملوكٌ وتَتَقِي محارِمَنا لا يَبْؤُؤُ الدّمُ بالدّمِ

أي لا يرجع الدّم بالدم في القَوَد. وقال:

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايَا وأُبْنَا بالملوكِ[3] مُصَفَّدِينَا

أي رجعوا ورجعنا. وقد تقدّم معنى الغضب في الفاتحة[4].

---

(١) في تفسير ابن كثير: «... القبالات يعني الجزية».

(٢) هو جابر بن جبير التغلبي (عن شرح الشواهد).

(٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي، ولا شاهد فيه، إذ الرواية فيه: «فآبوا... وأبنا» ومادة «آب» غير مادة «باء» وإن كان معنى المادتين واحداً.

(٤) راجع ص ١٤٩.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ «ذلك» تعليل. ﴿بِأَنَّهُمْ كانُوْا يَكْفُرُونَ﴾ أي يكذّبون ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ أي بكتابه ومعجزات أنبيائه؛ كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم السلام. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّين﴾ معطوف على «يكفرون». ورُوِيَ عن الحسن «يُقَتِّلُون» وعنه أيضاً كالجماعة. وقرأ نافع «النَّبِيئين» بالهمز حيث وقع في القرآن إلا في موضعين: في سورة الأحزاب: ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ﴾[1]. و ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلاَّ﴾ فإنه قرأ بلا مَدّ ولا همز. وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين. وتَرَكَ الهمزَ في جميع ذلك الباقون. فأمّا من همز فهو عنده من أنبأ إذا أخبر؛ واسم فاعله مُنْبِىء. ويجمع نبيء أنبياء، وقد جاء في جميع نبيّ نُبَآء؛ قال العباس بن مِرْدَاس السُّلَميّ يمدح النبيّ ﷺ:

يـا خـاتَـمَ النُّبَـآءِ إنـك مُـرْسَـلٌ بالحق كلُّ هُدَى السبيلِ هُداكَا

هذا معنى قراءة الهمز. واختلف القائلون بترك الهمز؛ فمنهم من اشتق اشتقاق من همز، ثم سهّل الهمز. ومنهم من قال: هو مشتق من نَبَا يَنْبُو إذا ظهر. فالنبيّ من النبوّة وهو الارتفاع؛ فمنزلة النبيّ رفيعة. والنبيّ بترك الهمز أيضاً الطريق، فسُمِّيَ الرسول نَبِيّاً لاهتداء الخلق به كالطريق؛ قال الشاعر[2]:

لأصبح رَتْمـاً دُقـاق الحَصَـى مكـانَ النَّبِـيّ مـن الكـاثِـبِ

رَتَمْت الشيء: كسرته؛ يقال: رتم أنفه ورثمه، بالتاء والثاء جميعاً. والرتم أيضاً المرتوم أي المكسور. والكاثب اسم جبل. فالأنبياء لنا كالسُّبُل في الأرض. ويروى أن رجلاً قال للنبيّ ﷺ: السلام عليك يا نبيء الله؛ وهمز. فقال النبيّ ﷺ: «لستُ بنبيء الله ـ وهمز ـ ولكني نبيّ الله» ولم يهمز. قال أبو عليّ: ضُعِّف سند هذا الحديث؛ ومما يقوّي ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المادح: *يا خاتَمَ النُّبَآء. . .* ولم يُؤْثَر في ذلك إنكار.

---

(١) راجع ١٤/ ٢١٠ و ٢٢٣.

(٢) هو أوس بن حجر (كما في اللسان).

قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ تعظيم للشُّنعة والذّنب الذي أتوه.

فإن قيل: هذا دليل على أنه قد يصح أن يُقتلوا بالحق؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به. قيل له: ليس كذلك؛ وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظُلم وليس بحق؛ فكان هذا تعظيماً للشُّنْعة عليهم؛ ومعلوم أنه لا يُقتل نبيّ بحق، ولكن يُقتل على الحق؛ فصرّح قوله: ﴿بِغَيْرِ الحقّ﴾ عن شُنعة الذنب ووضوحه؛ ولم يأت نبيّ قط بشيء يوجب قتله.

فإن قيل: كيف جاز أن يخلّي بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل: ذلك كرامة لهم وزيادة في منازلهم؛ كمثل من يُقتل في سبيل الله من المؤمنين، وليس ذلك بخِذلان لهم. قال ابن عباس والحسن: لم يُقتل نبيّ قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، وكلُّ مَن أمر بقتال نُصِر.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ «ذلك» ردّ على الأوّل وتأكيد للإشارة إليه. والباء في «بما» باء السبب. قال الأخفش: أي بعصيانهم. والعصيان: خلاف الطاعة. واعتصتِ النّواةُ إذا اشتدّت. والاعتداء: تجاوز الحدّ في كل شيء؛ وعُرِف في الظلم والمعاصي.

[٦٢] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

فيه ثماني مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنوا﴾ أي صدّقوا بمحمد ﷺ. وقال سُفيان: المراد المنافقون. كأنه قال: الذين آمنوا في ظاهر أمرهم؛ فلذلك قَرَنهم باليهود والنصارى والصابئين، ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ معناه صاروا يهوداً؛ نُسِبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام؛ فقلبت العرب الذال دالاً؛ لأن الأعجمية إذا عُرِّبت غُيِّرت

عن لفظها. وقيل: سُمُّوا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل. هاد: تاب. والهائد: التائب؛ قال الشاعر:

إني آمرؤ من حُبّه هائِدُ

أي تائب. وفي التنزيل: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تُبْنَا. وهاد القوم يهودون هَوْداً وهيادة إذا تابوا. وقال آبن عرفة: «هُدْنَا إليك» أي سكنّا إلى أمرك. والهوادة السكون والموادعة. قال: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾. وقرأ أبو السَّمّال: «هادَوْا» بفتح الدال.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَالنَّصَارَى﴾ جمع، واحده نَصْرانيّ. وقيل: نَصْرَان بإسقاط الياء؛ وهذا قول سيبويه. والأنثى نصرانة؛ كندمان وندمانة. وهو نكرة يعرّف بالألف واللام؛ قال الشاعر(١):

صدّتْ كما صدّ عما لا يَحِلّ له ساقي نَصارَى قُبيل الفِصْحِ(٢) صُوّامِ

فوصفه بالنكرة. وقال الخليل: واحد النصارى نَصْريّ؛ كمَهْرِيّ ومَهارَى. وأنشد سيبويه شاهداً على قوله:

تــراه إذا دار العِشَــا مُتَحَنِّفــاً ويُضْحي لديه وهو نَصْرانُ شامِس

وأنشد:

فكلتاهما خَـرّتْ وأسجـد رأسُهـا كما أسجدتْ نَصرانةٌ لم تَحَنَّفِ(٣)

يقال: أسجد إذا مال. ولكن لا يستعمل نَصران ونَصرانة إلا بياءي النسب؛ لأنهم قالوا: رجل نصرانيّ وآمرأة نصرانية. ونَصّره: جعله نَصرانيّاً. وفي الحديث: «فأبواه يُهَوّدانِهِ أو يُنَصِّرانِهِ». وقال عليه السلام: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يَهُوديّ ولا نَصرانيّ

---

(١) هو النمر بن تولب. يصف ناقة عرض عليها الماء فعافته.

(٢) في نسخ الأصل: «الصبح» بالباء. والتصويب عن كتاب سيبويه. والفصح. فطر النصارى، وهو عيد لهم.

(٣) البيت لأبي الأخزر الحماني، يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء. فشبه رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته في صلاتها. (عن شرح القاموس واللسان).

ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل واحدها؛ وقياسه النصرانيون. ثم قيل: سُمُّوا بذلك لقرية تسمّى «ناصِرة» كان ينزلها عيسى عليه السلام فنُسِب إليها فقيل: عيسى الناصريّ؛ فلما نُسب أصحابه إليه قيل النصارى؛ قاله ٱبن عباس وقتادة. وقال الجوهري: ونصران قرية بالشام يُنسب إليها النصارى، ويقال ناصرة. وقيل: سُمُّوا بذلك لنُصرة بعضهم بعضاً؛ قال الشاعر:

لمــا رأيــتُ نَبَطــاً أنصــارَا شَمَّــرت عــن ركبتــيَ الإزارا
كنتُ لهم من النصارى جارا

وقيل: سُمُّوا بذلك لقوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿والصَّابِئِينَ﴾ جمع صابىء، وقيل: صابٍ؛ ولذلك ٱختلفوا في همزِهِ، وهمزه الجمهور إلا نافعاً. فمن همزه جعله من صَبأتِ النّجوم إذا طلعت، وصبأت ثنِية الغلامِ إذا خرجت. ومن لم يهمز جعله من صبا يصبو إذا مال. فالصابىء في اللغة: من خرج ومال من دين إلى دين؛ ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ. فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب.

الخامسة ـ لا خلاف في أن اليهود والنصارى أهل كتاب ولأجل كتابهم جاز نكاحُ نسائهم وأكلُ طعامهم ـ على ما يأتي بيانه في المائدة[١] ـ وضَرْبُ الجِزْية عليهم؛ على ما يأتي في سورة «براءة[٢]» إن شاء الله. وٱختُلف في الصابئين؛ فقال السُّدّي: هم فرقة من أهل الكتاب، وقاله إسحاق بن رَاهَوَيْه. قال ٱبن المنذر وقال إسحاق: لا بأس بذبائح الصابئين لأنهم طائفة من أهل الكتاب. وقال أبو حنيفة: لا بأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم. وقال الخليل: هم قوم يُشْبه دينُهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام. وقال مجاهد والحسن وٱبن أبي نَجِيح: هم قوم تركّب دينهم بين اليهودية والمجوسيّة، لا تؤكل ذبائحهم. ٱبن عباس: ولا تنكح نساؤهم. وقال الحسن أيضاً وقتادة هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القِبلة ويقرءون الزّبور ويصلّون الخمس؛ رآهم زياد

(١) راجع ٦/ ٧٦.
(٢) راجع ٨/ ١١٠.

ابن أبي سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة. والذي تحصّل من مذهبهم ـ فيما ذكره بعض علمائنا ـ أنهم مُوَحّدون معتقِدون تأثير النجوم وأنها فعالة؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الإِصْطَخْرِيّ القادرَ بالله بكفرهم حين سأله عنهم.

السادسة - قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ أي صدّق. و «مَن» في قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ في موضع نصب بدل من «الذين». والفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ﴾ داخلة بسبب الإبهام الذي في «مَن». و «لَهُمْ أَجْرُهُمْ» ابتداء وخبر في موضع خبر إنّ. ويحسن أن يكون «من» في موضع رفع بالابتداء، ومعناها الشرط. و «آمن» في موضع جزم بالشرط، والفاء الجواب. و «لهم أجرهم» خبر «من»، والجملة كلها خبر «إنّ»؛ والعائد على «الذين» محذوف؛ تقديره من آمن منهم بالله. وفي الإيمان بالله واليوم الآخر اندارج الإيمان بالرسل والكتب والبعث.

السابعة - إن قال قائل: لِم جُمِع الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ و «آمن» لفظ مفرد ليس بجمع، وإنما كان يستقيم لو قال: له أجره. فالجواب أنّ «مَن» يقع على الواحد والتثنية والجمع، فجائز أن يرجع الضمير مفرداً ومثنّىً ومجموعاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ على المعنى. وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ على اللفظ. وقال الشاعر:

أَلِمّا بسَلْمَى عنكما إنْ عَرَضْتُمَا ... وقُولاَ لها عُوجِي على مَن تَخَلّفُوا

وقال الفرزدق:

تعالَ فإنْ عاهدتَني لا تخونُني ... نكن مثلَ مَن يا ذئبُ يصطحبانِ

فحمل على المعنى، ولو حمل على اللفظ لقال: يصطحب، وتخلّف. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ فحمل على اللفظ. ثم قال: ﴿خَالِدِينَ﴾ فحمل على المعنى؛ ولو راعى اللفظ لقال: خالداً فيها. وإذا جرى ما بعد «مَن» على اللفظ فجائز أن يخالف به بعدُ على المعنى كما في هذه الآية. وإذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعدُ على اللفظ؛ لأن الإلباس يدخل في الكلام. وقد مضى الكلام في قوله تعالى: ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]. والحمد لله.

---

(١) راجع ص ٣٢٩ من هذا الجزء.

الثامنة - رُوِيَ عن ابن عباس أن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية. منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية. وقال غيره: ليست بمنسوخة. وهي فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبيّ عليه السلام.

[٦٣] ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

[٦٤] ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ هذه الآية تفسّر معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾.(١) قال أبو عبيدة: المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه. قال: وكل شيء قلعته فرمَيْتَ به فقد نتقته. وقيل: نتقناه رفعناه. قال ابن الأعرابيّ: الناتقُ الرافعُ، والناتقُ الباسطُ، والناتقُ الفاتقُ. وامرأة ناتق ومِنتاق: كثيرة الولد. وقال القُتَبِيّ: أُخذ ذلك مِن نَتْق السِّقَاء، وهو نفضه حتى تُقتلع الزُّبْدة منه. قال وقوله: ﴿وإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ قال: قُلع من أصله.

واختلف في الطور؛ فقيل: الطور اسم للجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره؛ رواه ابن جريج عن ابن عباس. وروى الضحاك عنه أن الطور ما أنبتَ من الجبال خاصة دون ما لم ينبِت. وقال مجاهد وقتادة: أي جبل كان. إلا أن مجاهداً قال: هو اسم لكل جبل بالسريانية؛ وقاله أبو العالية. وقد مضى الكلام هل وقع في القرآن ألفاظ مفردة غير معرّبة من غير كلام العرب في مقدمة الكتاب(٢). والحمد لله. وزعم البكري أنه سُمِّيَ بطور بن إسماعيل عليه السلام. والله تعالى أعلم.

القول في سبب رفع الطور

وذلك أن موسى عليه السلام لما جاء بني إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة قال لهم: خذوها والتزموها. فقالوا: لا! إلا أن يكلّمنا الله بها كما كلّمك. فصعِقوا ثم أُحْيُوا. فقال لهم: خذوها. فقالوا لا. فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله

(١) راجع ٧/ ٣١٣. (٢) راجع ص ٦٨ من هذا الجزء.

فرسخ في مثله؛ وكذلك كان عسكرهم؛ فجُعل عليهم مثل الظُّلة، وأُتوا ببحر مِن خَلْفِهم، ونار من قِبَل وجوههم، وقيل لهم: خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيّعوها، وإلا سقط عليكم الجبل. فسجدوا توبةً لله وأخذوا التوراة بالميثاق. قال الطبري عن بعض العلماء: لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق. وكان سجودهم على شِقّ؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً؛ فلما رحمهم الله قالوا: لا سجدة أفضل من سجدة تقبّلها الله ورَحِم بها عباده، فأمَرّوا سجودَهم على شِق واحد. قال ٱبن عطية: والذي لا يصح سواه أن الله تعالى ٱخترع وقت سجودهم الإيمان [في قلوبهم[1]] لا أنهم آمنوا كرهاً وقلوبهم غير مطمئنة بذلك.

قوله تعالى: ﴿خُذُوا﴾ أي فقلنا خذوا؛ فحذف. ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ أعطيناكم. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بجِد وٱجتهاد؛ قاله ٱبن عباس وقتادة والسدّي. وقيل: بنيّةٍ وإخلاص. مجاهد: القوّة العمل بما فيه. وقيل: بقوّة، بكثرة درس. ﴿وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي تدبّروه وٱحفظوا أوامره ووعيده، ولا تنسوه ولا تضيّعوه.

قلت: هذا هو المقصود من الكُتب، العملُ بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها؛ فإن ذلك نَبْذٌ لها؛ على ما قاله الشعبي وٱبن عُيَيْنة؛ وسيأتي قولهما عند قوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾[2]. وقد روى النسائيّ عن أبي سعيد الخُدْرِيّ أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ مِن شرّ الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن لا يَرْعَوِي إلى شيء منه». فبيّن ﷺ أن المقصود العمل كما بيّنا. وقال مالك: قد يَقرأ القرآنَ مَن لا خير فيه. فما لزم إذاً مَن قبلنا وأُخذ عليهم لازمٌ لنا وواجبٌ علينا. قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ﴾[3]. فأُمِرنا باتّباع كتابه والعمل بمقتضاه؛ لكن تركنا ذلك، كما تركت اليهود والنصارى، وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئاً؛ لغلبة الجهل وطلب الرياسة وٱتباع الأهواء. روى الترمذيّ عن جُبَيْر بن نُفَيْر عن أبي الدّرداء قال: كنا مع النبيّ ﷺ، فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «هذا أوانٌ

---

(١) زيادة عن «تفسير ابن عطية».
(٢) راجع ٢/ ٤١.
(٣) راجع ١٥/ ٢٧٠.

يُختلسُ فيه العلمُ من الناس حتى لا يقدِروا منه على شيء». فقال زياد بن لَبِيد الأنصاريّ: كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن! فوالله لنَقْرَأنه ولنُقرِئنّه نساءنا وأبناءنا. فقال: «ثَكِلَتْك أمُّك يا زياد أن كنتُ لأعُدّك من فقهاء المدينة هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تُغني عنهم» وذكر الحديث، وسيأتي. وخرّجه النسائي من حديث جُبير بن نُفير أيضاً عن عَوف بن مالك الأشجعيّ من طريق صحيحة، وأن النبيّ ﷺ قال لزياد: «ثَكِلَتْك أُمُّك يا زياد هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى». وفي المُوَطّأ عن عبد الله بن مسعود قال لإنسان: «إنك في زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه، قليلٍ قُرّاؤه، تُحفظ فيه حدودُ القرآن وتُضَيّع حروفه، قليلٍ مَن يسأل، كثيرٍ مَن يُعطِي، يطيلون الصلاة ويُقْصِرون فيه الخطبة، يبدءون فيه أعمالهم قبل أهوائهم. وسيأتي على الناس زمان قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ قرّاؤه، تُحفظ فيه حروف القرآن، وتُضيّع حدوده؛ كثيرٌ من يسأل، قليلٌ من يعطي، يطيلون فيه الخطبة، ويقصِرون الصلاة، يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم». وهذه نصوص تدل على ما ذكرنا. وقد قال يحيى: سألت ٱبن نافع عن قوله: يبدءون أهواءهم قبل أعمالهم؟ قال يقول: يتبعون أهواءهم ويتركون العمل بالذي ٱفترض عليهم. وتقدّم القول في معنى قوله: ﴿لعلكم تتقون[1]﴾. فلا معنى لإعادته.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ تولّى تفعّل، وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم؛ ثم ٱستعمل في الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقدات إتساعاً ومجازاً. وقوله: ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من بعد البرهان؛ وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل. وقوله: ﴿ فَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ « فضلُ » مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره؛ لأن العرب ٱستغنت عن إظهاره؛ إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأنّ، فإذا جاءوا بها لم يحذفوا الخبر. والتقدير فلولا فضل الله تداركِكم. ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عطف على «فضل» أي

(١) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء.

لطفه وإمهاله. ﴿لَكُنتُمْ﴾ جواب «لولا». ﴿مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ خبر كنتم. والخسران: النقصان؛ وقد تقدّم[١]. وقيل: فضله قبول التوبة، و «رحمته» العفو. والفضل: الزيادة على ما وجب. والإفضال: فعل ما لم يجب. قال ابن فارس في المُجمَل: الفضل الزيادة والخير، والإفضال: الإحسان.

[٦٥] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ «علمتم» معناه عرفتم أعيانهم. وقيل: علمتم أحكامهم. والفرق بينهما أن المعرفة متوجّهة إلى ذات المُسَمَّى. والعلم متوجّه إلى أحوال المسمَّى. فإذا قلت: عرفت زيداً؛ فالمراد شخصه. وإذا قلت: علمت زيداً؛ فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص. فعلى الأوّل يتعدّى الفعل إلى مفعول واحد، وهو قول سيبويه: «علمتم» بمعنى عرفتم. وعلى الثاني إلى مفعولين. وحكى الأخفش: ولقد علمت زيداً ولم أكن أعلمه. وفي التنزيل: ﴿لاَ تَعْلَمُونَهُمُ ٱللهُ يَعْلَمُهُم﴾. كل هذا بمعنى المعرفة؛ فأعلم. ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي ٱلسَّبْت﴾ صلة «الذين». والاعتداء. التجاوز، وقد تقدّم[٢].

الثانية ـ روى النّسائي عن صفوان بن عسّال قال: قال يهوديّ لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبيّ. فقال له صاحبه: لا تقل نبيّ لو سمعك! فإن له أربعة أعين[٣]. فأتيا رسول الله ﷺ وسألاه عن تسع آيات بينات؛ فقال لهم: «لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا تمشُوا ببريء إلى سلطان ولا تَسْحَرُوا ولا تأكلوا الربا ولا تَقْذِفُوا المُحْصَنة ولا تُوَلُّوا يوم الزّحف وعليكم خاصّةً يهودُ ألاّ تعدوا في السّبت». فقبّلوا يديه ورجليه وقالوا: نشهد أنك نبيّ. قال: «فما

(١) راجع ص ٢٤٨.

(٢) راجع ص ٤٣٢.

(٣) الذي في نسخة النسائي: «لو سمعك كان له أربعة أعين» مع تأنيث العدد أيضاً.

يمنعكم أن تتبعوني»!. قالوا: إن داود دعا بألاّ يزال من ذُرِّيته نبيّ، وإنا نخاف إن ٱتبعناك أن تقتلنا يهود. وخرّجه الترمذيّ وقال: حديث حسن صحيح. وسيأتي لفظه في سورة «سبحان[1]» إن شاء الله تعالى.

الثالثة ـ ﴿فِي ٱلسَّبْتِ﴾ معناه في يوم السبت؛ ويحتمل أن يريد في حكم السبت. والأوّل قول الحسن وأنهم أخذوا فيه الحِيتان على جهة الاستحلال. وروى أشهب عن مالك قال: زعم ٱبن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خَيْطاً ويضع فيه وَهْقَة[2] وألقاها في ذَنَب الحوت، وفي الطرف الآخر من الخيط وَتِد وتركه كذلك إلى الأحد؛ ثم تطرّق الناس حين رأوا مَن صَنَع لا يُبتلَى، حتى كثر صيد الحوت ومُشِيَ به في الأسواق، وأعلن الفَسَقة بصيده. فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنّهي وٱعتزلت. ويقال: إن الناهين قالوا: لانساكنكم؛ فقسموا القرية بجدار. فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد؛ فقالوا: إنّ للناس لشأناً؛ فعَلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القِردة؛ فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس فتَشُمّ ثيابه وتبكي؛ فيقول: ألم نَنْهَكم! فتقول برأسها نعم. قال قتادة: صار الشبان قِردة، والشيوخ خنازير؛ فما نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم. وسيأتي في «الأعراف[3]» قول من قال: إنهم كانوا ثلاث فرق. وهو أصح من قول من قال: إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين. والله أعلم.

والسَّبْت مأخوذ من السَّبْت وهو القطع؛ فقيل: إن الأشياء فيه سَبَتت وتمّت خِلْقتها. وقيل: هو مأخوذ من السّبُوت الذي هو الراحة والدعة.

وٱختلف العلماء في الممسوخ هل يَنْسُل على قولين. قال الزجاج: قال قوم يجوز أن تكون هذه القِردة منهم. وٱختاره القاضي أبو بكر بن العربي. وقال الجمهور: الممسوخ لا يَنْسِل وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك؛ والذين مسخهم الله قد هلكوا

---

(١) راجع ١٠/ ٣٣٥. (٢) الوهق (بالتحريك وتسكن الهاء): الحبل في طرفيه أنشوطة تطرح في عنق الدابة أو الإنسان حتى تؤخذ. والأنشوطة عقدة يسهل انحلالها كعقدة التكة عند جذبها. راجع ٣٠٦/٧. (٣) راجع ٣٠٧/٧.

ولم يبق لهم نسل؛ لأنه قد أصابهم السّخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار في الدنيا بعد ثلاثة أيام. قال ٱبن عباس: لم يعش مَسْخٌ قطّ فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. قال ٱبن عطية: وروي عن النبيّ ﷺ وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام.

قلت: هذا هو الصحيح من القولين. وأما ما ٱحتج به ٱبن العربي وغيره على صحة القول الأوّل من قوله ﷺ: «فُقِدتْ أمّةٌ من بني إسرائيل لا يُدْرَى ما فعلت ولا أراها إلا الفأر ألاَ ترونها إذا وُضِع لها ألبانُ الإبل لم تشربه وإذا وُضِع لها ألبانُ الشاء شربته». رواه أبو هريرة أخرجه مسلم، وبحديث الضّبّ رواه مسلم أيضاً عن أبي سعيد وجابر؛ قال جابر: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بضبّ فأبى أن يأكل منه؛ وقال: «لا أدري لعله من القرون التي مُسخت» فمتأوّل على ما يأتي. قال ٱبن العربي: وفي البخاري عن عمرو بن مَيْمُون أنه قال: رأيت في الجاهلية قِردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم. ثبت في بعض نسخ البخاري وسقط في بعضها، وثبت في نص الحديث «قد زنت» وسقط هذا اللفظ عند بعضهم. قال ٱبن العربي: فإن قيل: وكأن البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خَلفاً عن سَلَف إلى زمان عمرو؟ قلنا: نعم كذلك كان؛ لأن اليهود غيّروا الرجم فأراد الله أن يقيمه في مُسُوخهم[1] حتى يكون أبلغ في الحجة على ما أنكروه من ذلك وغيّروه، حتى تشهد عليهم كتبهم وأحبارهم ومسوخهم[1]، حتى يعلموا أن الله يعلم ما يُسِرّون وما يُعلنون، ويُحصي ما يُبدّلون وما يغيّرون، ويُقيم عليهم الحجة من حيث لا يشعرون، وينصر نبيّه عليه السلام وهم لا يُنصرون.

قلت: هذا كلامه في الأحكام، ولا حجة في شيء منه. وأما ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدي في جمع الصحيحين: حكى أبو مسعود الدمشقي أن لعمرو بن ميمون الأَوْديّ في الصحيحين حكايةً من رواية حُصين عنه قال: رأيت في الجاهلية قردة ٱجتمع عليها قردة.

---

(١) في «الأصول»: «ممسوخهم». والتصويب عن «أحكام القرآن» لابن العربي.

فرجموها فرجمتها معهم. كذا حكى أبو مسعود ولم يذكر في أي موضع أخرجه البخاريّ من كتابه؛ فبحثنا عن ذلك فوجدناه في بعض النسخ لا في كلها؛ فذكر في كتاب أيام الجاهلية. وليس في رواية النعيميّ عن الفَرَبْرِيّ أصلاً شيء من هذا الخبر في القِردة؛ ولعلها من المُقْحَمات في كتاب البخاري. والذي قال البخاريّ في «التاريخ الكبير»: قال لي نُعيم بن حمّاد أخبرنا هُشَيم عن أبي بَلْج وحُصين عن عمرو بن مَيمون قال: رأيت في الجاهلية قِردة اُجتمع عليها قرود فرجموها فرجمتها معهم. وليس فيه «قد زنت». فإن صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخاريّ دلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية ولم يُبال بظنّه الذي ظنّه في الجاهلية. وذكر أبو عمر في الاستيعاب عمرَو بن ميمون وأنّ كنيته أبو عبد الله «معدود في كبار التابعين من الكوفيين، وهو الذي رأى الرجم في الجاهلية من القردة إن صح ذلك؛ لأنّ رواته مجهولون. وقد ذكره البخاريّ عن نُعيم عن هُشَيم عن حُصين عن عمرو بن ميمون الأَوْدِيّ مختصراً قال: رأيت في الجاهلية قردة زنت فرجموها ـ يعني القردة ـ فرجمتها معهم. ورواه عباد بن العوّام عن حُصين كما رواه هُشيم مختصراً. وأما القصة بطولها فإنها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حِطّان؛ وليسا ممن يُحتجّ بهما. وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنى إلى غير مكلَّف، وإقامة الحدود في البهائم. ولو صح لكانوا من الجن؛ لأن العبادات في الإنس والجن دون غيرهما». وأمّا قوله عليه السلام في حديث أبي هريرة: « ولا أراها إلا الفأر » وفي الضب: « لا أدري لعله من القرون التي مُسِخت» وما كان مثله، فإنما كان ظنّاً وخوفاً لأن يكون الضب والفأر وغيرهما مما مُسخ، وكان هذا حَدْساً منه ﷺ قبل أن يُوحَى إليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلاً؛ فلما أوحي إليه بذلك زال عنه ذلك التخوّف، وعلم أن الضبّ والفأر ليسا مما مُسِخ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله ﷺ لمن سأله عن القردة والخنازير: هي مما مسخ؟ فقال: «إنّ الله لم يُهلكْ قوماً أو يعذّب قوماً فيجعل لهم نسلاً وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك». وهذا نص صريح صحيح رواه عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم في كتاب «القَدَر». وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم يُنكر؛

فدلّ على صحة ما ذكرنا. وبالله توفيقنا. ورُوِيَ عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه إنما مُسِختْ قلوبُهم فقط، ورُدّت أفهامهم كأفهام القِردة. ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ «قردة» خبر كان. ﴿خاسِئِينَ﴾ نعت، وإن شئت جعلته خبراً ثانياً لكان، أو حالاً من الضمير في «كونوا». ومعناه مبعَدين. يقال: خَسَأته فَخَسأ وخَسِىء وانخسأ؛ أي أبعدته فبَعُدَ. وقوله تعالى: ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البصَرُ خاسِئاً﴾[1] أي مبعَداً. وقوله: ﴿اخْسَؤُوا فِيها﴾[2] أي تباعدوا تباعد سخط. قال الكسائي خَسَأ الرجل خُسُوءاً، وخَسَأته خَسْأً. ويكون الخاسىء بمعنى الصاغر القَمِيء. يقال: قَمُؤَ الرجل قماء وقماءة صار قميئاً، وهو الصاغر الذليل. وأقمأته: صغّرته وذلّلته، فهو قميء على فعيل.

[٦٦] ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً﴾ نصب على المفعول الثاني. وفي المجعول نكالاً أقاويل؛ قيل: العقوبة. وقيل: القرية؛ إذ معنى الكلام يقتضيها. وقيل: الأمّة التي مُسِخت. وقيل: الحِيتان؛ وفيه بُعْدٌ. والنّكال: الزجر والعقاب. والنِّكْل والأنكال: القيود. وسُمِّيت القيود أنكالاً لأنها يُنْكل بها؛ أي يمنع. ويقال للجام الثقيل: نَكْل[3] ونِكْل؛ لأن الدابة تُمنع به. ونكَل عن الأمر يَنْكُل، ونكِل يَنكَل إذا امتنع. والتّنكيل: إصابة الأعداء بعقوبة تُنكِّل مَن وراءهم؛ أي تُجَبِّنهم. وقال الأزهري: النكال العقوبة. ابن دُرَيْد: والمَنْكَل: الشيء الذي يُنكّل بالإنسان؛ قال[4]:

فارمِ على أقفائهم بمَنْكَل

---

(١) راجع ١٨/٢٠٩. (٢) راجع ١٢/١٥٣. (٣) هذه الكلمة موجودة في بعض نسخ الأصل؛ ومعاجم اللغة لا تؤيده. والذي بها إنما هو بالكسر لا غير.

(٤) القائل رياح المؤملي. وقبله:

يا رب أشقاني بنو مؤمل وبعده: *بصخرة أو عرض جيش جحفل*

(عن شرح القاموس).

قوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال ابن عباس والسُّدّي: لِمَا بين يدي المَسْخة ما قبلها من ذنوب القوم. ﴿وَمَا خلفها﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب. قال الفرّاء: جُعلت المسخة نكالاً لما مضى من الذنوب؛ ولَما يُعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم. قال ابن عطية: وهذا قول جيّد، والضميران للعقوبة. وروى الحكم عن مجاهد عن ابن عباس: لمن حضر معهم ولمن يأتي بعدهم. واختاره النحاس؛ قال: وهو أشبه بالمعنى، والله أعلم. وعن ابن عباس أيضاً: «لما بين يديها وما خلفها» من القُرَى. وقال قتادة: «لما بين يديها» من ذنوبهم، «وما خلفها» من صيد الحيتان.

قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطف على نكال، ووَزْنُها مَفْعِلة من الاتعاظ والانزجار. والوعظ: التخويف. والعِظَة الاسم. قال الخليل: الوَعْظ التّذكير بالخير فيما يَرِقّ له القلب. قال الماوَرْدِيّ: وخصّ المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفرّدهم بها عن الكافرين المعاندين. قال ابن عطية: واللفظ يعمّ كل مُتّقٍ من كل أمّة. وقال الزجاج: «وموعظة للمتقين» لأمة محمد ﷺ أن ينتهكوا مِن حُرَم الله جلّ وعَزّ ما نهاهم عنه، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ انتهكوا حُرَم الله في سَبْتهم.

[٦٧] ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَومِهِ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ حُكي عن أبي عمرو أنه قرأ «يَأْمُرْكم» بالسكون، وحذف الضمة من الراء لثقلها. قال أبو العباس المبرد: لا يجوز هذا لأن الراء حرف الإعراب، وإنما الصحيح عن أبي عمرو أنه كان يختلس الحركة. ﴿أَنْ تَذْبَحُوا﴾ في موضع نصب بـ «يأمركم»؛ أي بأن تذبحوا. ﴿بَقَرَةً﴾ نصب بـ «تذبحوا». وقد تقدّم[١] معنى الذبح، فلا معنى لإعادته.

---

(١) راجع المسألة العاشرة ص ٣٨٥ من هذا الجزء.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ مقدّم في التلاوة، وقوله: ﴿قَتَلْتُمْ نَفْساً﴾ مقدّم في المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة. ويجوز أن يكون قوله: «قتلتم» في النزول مقدّماً، والأمر بالذبح مؤخراً. ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها؛ فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل، فأمروا أن يضربوه ببعضها؛ ويكون «وإذ قتلتم» مقدَّماً في المعنى على القول الأوّل حسب ما ذكرنا، لأن الواو لا توجب الترتيب. ونظيره في التنزيل في قصة نوح بعد ذكر الطُّوفان وانقضائه في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ـ إلى قوله ـ إِلاَّ قَلِيلٌ[(١)]﴾. فذكر إهلاك مَن هلك منهم ثم عطف عليه بقوله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا ومُرْسَاهَا﴾. فذكر الركوب متأخراً في الخطاب؛ ومعلومٌ أن ركوبهم كان قبل الهلاك. وكذلك قوله تعالى: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً﴾[(٢)]. وتقديره: أنزل على عبده الكتاب قَيِّماً ولم يجعل له عوجاً؛ ومثله في القرآن كثير.

الثالثة ـ لا خلاف بين العلماء أن الذّبح أوْلى في الغنم، والنحر أوْلى في الإبل، والتخيّر في البقر. وقيل: الذبح أوْلى؛ لأنه الذي ذكره الله، ولقُرب المنحَر من المذبح. قال ابن المنذر: لا أعلم أحداً حَرّم أكل ما نُحر مما يُذبح، أو ذُبح مما يُنحر. وكره مالك ذلك. وقد يكره المرء الشيء ولا يحرّمه. وسيأتي في سورة «المائدة» أحكام الذبح والذابح وشرائطهما عند قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ مستوفىً[(٣)] إن شاء الله تعالى. قال الماوردي: وإنما أمروا ـ والله أعلم ـ بذبح بقرة دون غيرها؛ لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهوّن عندهم ما كان يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم ما كان في نفوسهم من عبادته. وهذا المعنى علّة في ذبح البقرة، وليس بعلة في جواب السائل؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حيّ، فيكون أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أضدادها.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿بَقَرَةً﴾ البقرة اسم للأنثى، والثّور اسم للذكر؛ مثل ناقة وجمل، وامرأة ورجل. وقيل: البقرة واحد البقر؛ الأنثى والذكر سواء. وأصله من قولك:

---

(١) راجع ٩/ ٣٣. (٢) راجع ١٠/ ٣٤٦. (٣) راجع ٦/ ٥٤.

بقَرَ بطنه؛ أي شقه؛ فالبقرة تشقّ الأرض بالحرث وتثيره. ومنه الباقر لأبي جعفر محمد بن علي زين العابدين؛ لأنه بقَرَ العلم وعرف أصله، أي شقه. والبَقِيرة: ثوب يُشقّ فتلقيه المرأة في عنقها من غير كُمَّين. وفي حديث ابن عباس في شأن الهُدهد «فبقر الأرض». قال شَمِر: بَقَر نَظَر موضع الماء، فرأى الماء تحت الأرض. قال الأزهريّ: البقر اسم للجنس وجمعه[1] باقر. ابن عرفة: يقال بقير وباقر وبَيْقور. وقرأ عكرمة وابن يَعمر «إن الباقر». والثَّور: واحد الثيران. والثّور: السيّد من الرجال: والثّور القطعة من الأقِطِ. والثّور: الطُّحْلُب. وثَوْر: جبل. وثَور: قبيلة من العرب. وفي الحديث: «ووقت العشاء ما لم يغب ثَور الشّفق» يعني انتشاره؛ يقال: ثار يثور ثوراً وثوراناً إذا انتشر في الأفق. وفي الحديث: «من أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن». قال شَمِر: تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لما قال لهم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ وذلك أنهم وجدوا قتيلاً بين أظهرهم ـ قيل: اسمه عاميل واشتبه أمر قاتله عليهم، ووقع بينهم خلاف؛ فقالوا: نقتتل ورسول الله بين أظهرنا؛ فأتَوه وسألوه البيان ـ وذلك قبل نزول القَسامة[2] في التوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله ـ فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة؛ فلما سمعوا ذلك من موسى وليس في ظاهره جواب عما سألوه عنه واحتكموا فيه عنده؛ قالوا: أتتخذنا هزؤاً؟ والهزء: اللّعب والسُّخرية؛ وقد تقدّم[3]. وقرأ الجَحْدَرِي «أيتخذنا» بالياء؛ أي قال ذلك بعضهم لبعض فأجابهم موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهِلِينَ﴾ لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل؛ فاستعاذ منه عليه السلام؛ لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء. والجهل نقيض العلم. فاستعاذ من الجهل، كما جهلوا في قولهم: أتتخذنا هزؤاً؛

---

(١) في لسان العرب: فأما بقر وباقر وبقير وبيقور وباقور وباقورة فأسماء للجميع.

(٢) سيتكلم المؤلف رحمه الله على القسامة وحكمها عند قوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ راجع ص ٤٥٧ من هذا الجزء.

(٣) راجع ص ٢٠٧.

لمن يخبرهم عن الله تعالى، وظاهر هذا القول يدلّ على فساد اعتقاد من قاله. ولا يصحّ إيمان من قال لنبيٍّ قد ظهرت معجزته، ـ وقال: إن الله يأمرك بكذا ـ أتتّخذنا هُزُواً؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ ﷺ لوجب تكفيره. وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية؛ على نحو ما قال القائل للنبيّ ﷺ في قسمة غنائم حُنَين: إن هذه لَقِسمةٌ ما أريد بها وجه الله. وكما قال له الآخر: اعدل يا محمد. وفي هذا كلّه أدلّ دليل على قبح الجهل، وأنه مفسد للدّين.

قوله تعالى: ﴿هُزُواً﴾ مفعول ثان، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة. وجعَلَها حَفْص واواً مفتوحة، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهي تجري على البدل؛ كقوله: «السفهاء ولكن»، ويجوز حذف الضمة من الزاي كما تحذفها من عَضُد، فتقول: هزْؤاً، كما قرأ أهل الكوفة؛ وكذلك ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْؤاً أحد﴾. وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم ففيه لغتان: التخفيف والتثقيل؛ نحو العسر واليسر والهزء. ومثله ما كان من الجمع على فُعُل ككُتُب وكُتْب، ورُسُل ورُسْل، وعُوُن وعُون. وأما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً﴾ فليس مثل هزء وكفء؛ لأنه على فُعْل من الأصل. على ما يأتي في موضعه[1] إن شاء الله تعالى.

مسألة ـ في الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحقّ للوعيد. وليس المُزاح من الاستهزاء بسبيل؛ ألا ترى أن النبيّ ﷺ كان يمزح والأئمة بعده. قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد: وقد بلغنا أن رجلاً تقدّم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضي الكوفة فمازحه عبيد الله فقال: جُبّتُكَ هذه من صوف نعجة أو صوف كَبْش؟ فقال له: لا تجهل أيها القاضي! فقال له عبيد الله: وأين وجدت المزاح جهلاً! فتلا عليه هذه الآية؛ فأعرض عنه عبيد الله؛ لأنه رآه جاهلاً لا يعرف المزح من الاستهزاء، وليس أحدهما من الآخر بسبيل.

---

(١) راجع ١٦/٦٩.

[٦٨] ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ۝٦٨﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ هذا تعنيت منهم وقلّة طواعية؛ ولو امتثلوا الأمر وذبحوا أيّ بقرة كانت لحصل المقصود، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم؛ قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما. ونحو ذلك روى الحسن البصريّ عن النبيّ ﷺ. ولغة بني عامر «ادعِ» وقد تقدّم[١]. و ﴿يُبَيِّنْ﴾ مجزوم على جواب الأمر. ﴿مَا هِيَ﴾ ابتداء وخبر. وماهِيّة الشيء: حقيقته وذاته التي هو عليها.

قوله تعالى: ﴿قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فارضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ في هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل؛ لأنه لما أمر ببقرة اقتضى أيّ بقرة كانت، فلما زاد في الصفة نسخ الحكم الأوّل بغيره؛ كما لو قال: في ثلاثين من الإبل بنتُ مَخَاض، ثم نَسَخه بابنة لَبُون أو حِقّة. وكذلك ها هنا لما عيّن الصفة صار ذلك نسخاً للحكم المتقدّم. والفارض: المُسِنّة. وقد فَرَضت تَفْرِض فروضاً؛ أي أسَنّت. ويقال للشيء القديم فارض؛ قال الراجز:

شَيّبَ أصداغِي فرأسِي أبيضُ مَحامِلٌ[٢] فيها رجال فُرّضُ

يعني هَرْمَى؛ قال آخر:

لعَمْرُك[٣] قد أعطيتَ جارك فارضاً تُساق إليه ما تقوم على رِجْلِ

أي قديماً؛ وقال آخر:

يا رُبّ ذي ضِغْن عليّ فارِض له قُروء كقُروء الحائِض

---

(١) راجع ص ٤٢٣.

(٢) في الصحاح للجوهري: «محافل» بالفاء، وفيه رواية أخرى رواها ابن الأعرابي هي:

محامل بيض وقوم فرض

يريد أنهم ثقال كالمحامل. راجع اللسان مادة «فرض».

(٣) رواية اللسان: «لعمري لقد» وذكر أنه لعلقمة بن عوف، وقد عَنَى بَقَرة هَرِمَةً.

أي قديم. و «لا فارضٌ» رفع على الصّفة لبقرة. «ولاَ بِكْرٌ» عطف. وقيل: «لا فارضٌ» خبر مبتدأ مضمر؛ أي لا هي فارض وكذا «لا ذلول»، وكذلك «لاَ تَسْقِي الحَرْثَ» وكذلك «مُسَلَّمَةٌ» فاعلمه. وقيل: الفارض التي قد ولدت بطوناً كثيرة فيتّسع جَوْفها لذلك؛ لأن معنى الفارض في اللغة الواسع؛ قاله بعض المتأخرين. والبِكر: الصغيرة التي لم تحمل. وحكى القُتَبِيُّ أنها التي ولدت. والبكر: الأوّل من الأولاد؛ قال:

يا بِكْرَ بِكْرَيْنِ ويا خِلْبَ الكَبِدْ أصبحت مِنّي كذراع مِن عَضُدْ

والبِكْرُ أيضاً في إناث البهائم وبني آدم: ما لم يَفْتَحِلْه الفحل؛ وهي مكسورة الباء. وبفتحها الفَتِيّ من الإبل. والعَوَان: النَّصَف التي قد ولدت بطناً أو بطنين؛ وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، بخلاف الخيل؛ قال الشاعر يصف فرساً:

كُمَيْت بَهِيم اللّوْنِ ليس بفارِضٍ ولا بِعَـوان ذاتِ لَـوْن مُخَصَّـفِ

فرس أَخْصَف: إذا ارتفع البَلَق من بطنه إلى جنبه. وقال مجاهد: العَوَان من البقر هي التي قد ولدت مَرّة بعد مَرّة. وحكاه أهل اللغة. ويقال: إن العَوَان النّخلةُ الطويلة؛ وهي فيما زعموا لغة يمانية. وحَرْبٌ عَوَانٌ: إذا كان قبلها حَرْب بِكْرٌ؛ قال زُهير:

إذا لَقِحــتْ حــربٌ عَــوانٌ مُضِــرّةٌ ضَروسٌ تُهِرّ[1] الناسَ أنيابُها عُصْلُ

أي لا هي صغيرة ولا هي مُسِنّة؛ أي هي عَوان، وجمعها «عُوْنٌ» بضم العين وسكون الواو؛ وسُمع «عُوُن» بضم الواو كَرُسل. وقد تقدم. وحكى الفَرّاء من العوان عَوّنَت تَعْويناً.

قوله تعالى: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فما تركوه. وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء؛ وهو الصحيح على ما هو مذكور في أصول الفقه، وعلى أن الأمر على الفَوْر؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضاً. ويدلّ على صحة ذلك أنه تعالى استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أُمِروا به فقال:

---

(١) في الأصول: «تهز» بالزاي. والتصويب عن شرح الديوان. ومعنى «تهر الناس» أي تصيّرهم يهرّونها؛ أي يكرهونها. ولقحت: اشتدت. ومضرة: ملحة. وضروس: عضوض سيئة الخلق. وعصل: كالحة مِعْوَجة.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾. وقيل: لا، بل على التراخي؛ لأنه لم يعنّفهم على التأخير والمراجعة في الخطاب. قاله ابن خُوَيْزِ مَنْداد.

[٦٩] ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُها﴾ «ما» استفهام مبتدأ و «لونها» الخبر. ويجوز نصب «لونها» بـ «يبيّن»، وتكون «ما» زائدة. واللون واحد الألوان، وهو هيئة كالسواد والبياض والحمرة. واللَّوْن: النَّوع. وفلان مُتَلَوِّن: إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد؛ قال:

كلّ يوم تتلوّنْ غير هذا بك أجْمَلْ

ولَوّن البُسْرُ تلويناً: إذا بدا فيه أثر النُّضج. واللّوْن: الدَّقَل، وهو ضرب من النخل. قال الأخفش: هو جماعة، واحدها لِينة.

قوله: ﴿صَفْرَاءُ﴾ جمهور المفسرين أنها صفراء اللون، من الصُّفرة المعروفة. قال مكيّ عن بعضهم: حتى القَرْن والظِّلْف. وقال الحسن وابن جُبير: كانت صفراء القرن والظِّلْف فقط. وعن الحسن أيضاً: «صفراء» معناه سوداء؛ قال الشاعر(١):

تلك خَيْلي منه وتلك رِكابِي هنّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبِيبِ

قلت: والأوّل أصح لأنه الظاهر؛ وهذا شاذّ لا يُستعمل مجازاً إلا في الإبل؛ قال الله تعالى: ﴿كأنّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ وذلك أن السُّود من الإبل سوادها صُفرة. ولو أراد السواد لما أكّده بالفُقُوع، وذلك نَعْتٌ مختصّ بالصّفرة، وليس يوصف السواد بذلك؛ تقول العرب: أسودُ حالِكٌ وحَلَكُوك وحُلْكُوك، ودَجُوجِيّ وغِرْبيب، وأحمرُ قانِىء، وأبيضُ ناصعٌ، ولَهِقٌ ولِهَاق ويَقِق، وأخضرُ ناضرٌ، وأصفرُ فاقِعٌ؛ هكذا نصَّ نَقَلة اللغة عن العرب. قال

---

(١) القائل هو الأعشى؛ كما في اللسان.

الكسائي: يقال فَقَع لَوْنُها يَفْقَع فُقوعاً إذا خَلَصت صُفْرته. والإفقاع: سوء الحال. وفواقع الدهر بوائقه. وفَقّع بأصابعه إذا صوّت؛ ومنه حديث ابن عباس: نهى عن التفقيع في الصلاة؛ وهي الفرقعة، وهي غمز الأصابع حتى تُنْقِض[١]. ولم ينصرف «صفراء» في معرفة ولا نكرة؛ لأن فيها ألف التأنيث وهي ملازمة فخالفت الهاء؛ لأن ما فيه الهاء ينصرف في النكرة، كفاطمةٍ وعائشةٍ.

قوله تعالى: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ يريد خالصاً لونها لا لَوْن فيها سوى لون جلدها. ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ قال وهب: كأنّ شُعاع الشمس يخرج من جلدها؛ ولهذا قال ابن عباس: الصفرة تسرّ النفس. وحضّ على لباس النِّعال الصُّفر؛ حكاه عنه النقاش. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من لبس نعلي جلد أصفرَ قلّ هَمّه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿صَفْرَاءُ فاقِعٌ لَوْنُهَا تُسَرُّ النَّاظِرِينَ﴾؛ حكاه عنه الثعلبي. ونَهَى ابن الزبير ومحمد بن أبي كثير عن لباس النعال السود؛ لأنها تُهِمّ. ومعنى «تسرّ» تُعجِب. وقال أبو العالية: معناه في سَمْتها ومنظرها فهي ذاتُ وصفين، والله أعلم.

[٧٠] ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ سألوا سؤالاً رابعاً، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان. وذكّر البقر لأنه بمعنى الجمع، ولذلك قال: ﴿إِنّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ فذكّره للفظ تذكير البقر. قال قُطْرُب: جمع البقرة باقر وباقور وبقر. وقال الأصمعي: الباقر جمع باقرة، قال: ويجمع بقر على باقورة؛ حكاه النحاس. وقال الزجاج: المعنى إن جنس البقر. وقرأ الحسن فيما ذكر النحاس، والأعرج فيما ذكر الثعلبي «إن البقر تَشّابه» بالتاء وشدّ الشين؛ جعله فعلاً مستقبلاً وأنّثه. والأصل تتشابه، ثم أدغم التاء في الشين. وقرأ مجاهد «تَشَّبه» كقراءتهما،

(١) كل صوت لمفصل وأصبع فهو نقيض.

إلا أنه بغير ألف. وفي مصحف أُبَيّ «تشّابهت» بتشديد الشين. قال أبو حاتم: وهو غلط؛ لأن التاء في هذا الباب لا تُدغم إلا في المضارعة. وقرأ يحيى بن يَعمر «إن الباقر يشابه» جعله فعلاً مستقبلاً، وذكّر البقر وأدغم. ويجوز «إن البقر تَشَابَهُ» بتخفيف الشين وضمّ الهاء؛ وحكاها الثعلبيّ عن الحسن النحاس، ولا يجوز «يشابه» بتخفيف الشين والياء، وإنما جاز في التاء لأن الأصل تتشابه فحذفت لاجتماع التائين. والبقر والباقر والبَيْقور والبَقِير لغاتٌ بمعنىً، والعرب تذكّره وتؤنّثه، وإلى ذلك ترجع معاني القراءات في «تشابه». وقيل: إنما قالوا: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لأن وجوه البقر تتشابه؛ ومنه حديث حُذيفة بن اليَمان عن النبيّ ﷺ أنه ذكر «فِتَناً كقِطَع الليل تأتي كوجوه البقر». يريد أنها يشبه بعضها بعضاً. ووجوه البقر تتشابه، ولذلك قالت بنو إسرائيل: إن البقر تشابه علينا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ استثناء منهم؛ وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابةٌ مّا وانقياد، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر. وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لو ما استثنوا ما اهتدوْا إليها أبداً»(١). وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله. فقدّم على ذكر الاهتداء اهتماماً به. و «شاء» في موضع جزم بالشرط، وجوابه عند سيبويه الجملة «إن» وما عمِلت فيه. وعند أبي العباس المبرّد محذوف.

[٧١] ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ قرأ الجمهور «لا ذلولٌ» بالرفع على الصفة لبقرة. قال الأخفش: «لا ذلول» نعتُه ولا يجوز نصبه. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِي «لا ذلولَ» بالنصب على النفي والخبر مضمر. ويجوز لا هي ذلول، لا هي تسقي الحرث، هي مُسَلّمة. ومعنى «لا ذلول» لم يذلّلها العمل؛ يقال: بقرة مذلّلة بيّنة الذِّل (بكسر الذال). ورجل ذليل بيّن الذُّلّ (بضم الذال). أي هي بقرة صعبة غير رَيّضة لم تذلّل بالعمل.

(١) في نسخة من الأصل: «لولا» وروي الحديث من طرق بلفظ: «لو لم يستثنوا».

قوله تعالى: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ «تُثير» في موضع رفع على الصفة للبقرة؛ أي هي بقرة لا ذَلُولٌ مُثيرة. قال الحسن: وكانت تلك البقرة وحْشِيّة، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث، أي لا يُسْنَى بها لَسقْي الزرع ولا يُسقى عليها. والوقف هاهنا حسن. وقال قوم: «تثير» فعل مستأنف، والمعنى إيجاب الحرث لها، وأنها كانت تحرث ولا تسقي. والوقف على هذا التأويل «لا ذلول». والقول الأوّل أصح لوجهين: **أحدهما** ـ ما ذكره النحاس عن عليّ بن سليمان أنه قال: لا يجوز أن يكون «تثير» مستأنفاً؛ لأنّ بعده «ولا تسقي الحرث»، فلو كان مستأنفاً لما جمع بين الواو و «لا». **الثاني** ـ أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذلّلتها، والله تعالى قد نفى عنها الذّل بقوله: ﴿لا ذلول﴾.

قلت: ويحتمل أن تكون ﴿تثير الأرْضَ﴾ في غير العمل مرحاً ونشاطاً؛ كما قال أمرؤ القيس:

يُهِيل ويُذرِي تُرْبَه ويُثيره إثارةَ نَبَاث[1] الهواجرِ مُخْمِسِ

فعلى هذا يكون «تثير» مستأنفاً، «ولا تسقي» معطوف عليه؛ فتأمله. وإثارة الأرض: تحريكها وبحثها؛ ومنه الحديث: «أثِيروا القرآن فإنه[2] عِلْم الأوّلين والآخِرين» وفي رواية أخرى: «من أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن» وقد تقدّم[3]. وفي التنزيل: ﴿وأثاروا الأرض﴾ أي قلَبوها للزراعة. والحرث: ما حُرِث وزُرِع. وسيأتي.

مسألة ـ في هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته، وإذا ضُبط بالصفة وحُصر بها جاز السَّلَم فيه. وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعيّ واللّيث والشافعيّ. وكذلك كل ما يُضبط بالصفة ؛ لوصف الله تعالى البقرة في كتابه وصفاً يقوم مقام التعيين ؛ وقال رسول الله ﷺ : « لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها » . أخرجه مسلم. فجعل النبيّ ﷺ الصّفةَ تقوم مقام الرؤية ، وجعل ﷺ دِيَة الخطأ في ذِمّة من أوجبها عليه دَيْناً إلى أجل ولم يجعلها على الحلول. وهو يرد قول

---

(١) قوله «نباث الهواجر» يعني الرجل الذي إذا اشتدّ عليه الحر هال التراب ليصل إلى ثراه. والمُخْمِس: صاحب الإبل التي ترد خمساً.

(٢) في نهاية ابن الأثير: «فإن فيه». (٣) راجع ص ٤٤٦.

الكوفيين أبي حنيفة وأصحابِه والثوريّ والحسن بن صالح حيث قالوا: لا يجوز السَّلَم في الحيوان. ورُوِي عن ابن مسعود وحُذيفة وعبد الرحمن بن سَمُرة؛ لأن الحيوان لا يوقف على حقيقة صفته من مشي وحركة، وكل ذلك يزيد في ثمنه ويرفع من قيمته. وسيأتي حكم السَّلَم وشروطه في آخر السورة في آية الدَّيْن[1]، إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي هي مُسَلّمة. ويجوز أن يكون وصفاً؛ أي أنها بقرة مُسَلّمة من العَرَج وسائر العيوب؛ قاله قتادة وأبو العالية. ولا يقال: مُسَلّمة من العمل لنفي الله العمل عنها. وقال الحسن: يعني سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل.

قوله تعالى: ﴿لاَ شِيَةَ فِيهَا﴾ أي ليس فيها لَوْن يخالف معظم لونها، هي صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد؛ كما قال: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾. وأصل «شِيَة» وَشِي، حُذفت الواو كما حذفت من يشي، والأصل يوشي؛ ونظيره الزِّنَة والعِدَة والصِّلَة. والشِّيَة مأخوذة من وَشْي الثوب إذا نُسج على لونين مختلفين. وثَوْر مُوَشًّى: في وجهه وقوائمه سواد. قال ابن عرفة: الشِّيَة اللّون. ولا يقال لمن نمّ: واشٍ، حتى يُغَيّر الكلام ويُلَوِّنه فيجعله ضروباً ويزيّن منه ما شاء. والوَشْيُ: الكثرة. ووَشَى بنو فلان: كثروا. ويقال: فَرَسٌ أبلقُ، وكَبْشٌ أَخْرَجُ، وتَيس أَبْرَقُ، وغرابٌ أَبْقَعُ، وثور أَشْيَهُ. كل ذلك بمعنى البُلْقَة؛ هكذا نصّ أهل اللغة.

وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم، ودِين الله يُسْرٌ، والتعمّق في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم، نسأل الله العافية. وروي في قِصص هذه البقرة روايات تلخيصها: أن رجلاً من بني إسرائيل وُلد له ابن، وكانت له عجلة فأرسلها في غَيْضة. وقال: اللهمّ إني أستودعك هذه العجلة لهذا الصبي. ومات الرجل، فلما كبر الصبي قالت له أمّه ــ وكان بَرّاً بها ــ: إن أباك أستودع الله عجلة لك فأذهب فخذها؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها ــ وكانت مستوحِشة ــ فجعل يقودها نحو أمّه؛ فلقيَه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التي أمِروا بها؛ فساموُه فاشتطّ عليهم. وكان قيمتها على

(١) راجع ٣/٣٧٧ فما بعدها.

ما رُوي عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتَوْا به موسى عليه السلام وقالوا: إن هذا أشتطّ علينا؛ فقال لهم: أرْضُوه في مِلكه، فاشترَوْها منه بوزنها مَرّة؛ قاله عَبيدة. السُّدِّيّ: بوزنها عشرِ مرات. وقيل: بملء مَسْكِها دنانير. وذكر مَكّيّ: أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض. فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي بيّنت الحق؛ قاله قتادة. وحكى الأخفش: «قالوا الآن» قطع ألفَ الوصل؛ كما يقال: يا ألله. وحكى وجهاً آخر «قالوا لاَنَ» بإثبات الواو. نظيره قراءة أهل المدينة وأبي عمرو «عاداً لُولي». وقرأ الكوفيون «قالوا الآن» بالهمز. وقراءة أهل المدينة «قالُ لآن» بتخفيف الهمز مع حذف الواو لالتقاء الساكنين. قال الزجاج: «الآن» مبنيّ على الفتح لمخالفته سائر ما فيه الألف واللام؛ لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد؛ تقول: أنت إلى الآن هنا؛ فالمعنى إلى هذا الوقت. فبُنيت كما بُنِيَ هذا، وفُتحت النون لالتقاء الساكنين. وهو عبارة عما بين الماضي والمستقبل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أجاز سيبويه: كاد أن يفعل؛ تشبيهاً بعسى. وقد تقدّم أوّل السورة[1]. وهذا إخبار عن تثبيطهم في ذبحها وقلّة مبادرتهم إلى أمر الله. وقال القُرَظيّ محمد بن كعب: لغلاء ثمنها. وقيل: خوفاً من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم؛ قاله وهب بن مُنَبِّه.

[٧٢] ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ هذا الكلام مقدّم على أوّل القصة، التقدير: وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها. فقال موسى: إن الله يأمركم بكذا. وهذا كقوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً. قَيِّماً﴾ أي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قَيِّماً وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً؛ ومثله كثير، وقد بيّناه أوّل القصة.

---

(١) راجع ص ٢٢٢ من هذا الجزء.

وفي سبب قتله قولان: **أحدهما** ـ لابنة له حسناء أحب أن يتزوّجها ٱبنُ عَمّها فمنعه عَمُّه؛ فقتله وحمله من قريته إلى قرية أخرى فألقاه هناك. وقيل: ألقاه بين قريتين. **الثاني** ـ قتله طلباً لميراثه، فإنه كان فقيراً وٱدّعى قتله على بعض الأسباط. قال عِكرمة: كان لبني إسرائيل مسجد له ٱثنا عشر باباً لكل باب قوم يدخلون منه، فوجدوا قتيلاً في سِبط من الأسباط، فادّعى هؤلاء على هؤلاء، وٱدّعى هؤلاء على هؤلاء؛ ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ الآية. ومعنى «ادّارَأْتُمْ»: ٱختلفتم وتنازعتم؛ قاله مجاهد. وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء في الدال؛ ولا يجوز الابتداء بالمدغم؛ لأنه ساكن فزيد ألف الوصل. ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ﴾ ابتداء وخبر. ﴿مَا كُنتُم﴾ في موضع نصب بـ «مُخرِج»؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة. ﴿تَكْتُمُونَ﴾ جملة في موضع خبر كان، والعائد محذوف؛ التقدير تكتمونه.

وعلى القول بأنه قتله طلباً لميراثه لم يَرِث قاتلُ عمدٍ من حينئذ؛ قاله عَبِيدة السَّلْمانيّ. قال ٱبن عباس: قَتل هذا الرجلُ عمَّه ليرثه. قال ٱبن عطية: وبمثله جاء شرعنا. وحكى مالك رحمه الله في «مُوَطَّئه» أن قصة أُحَيْحَة بن الجُلاَح في عَمّه هي كانت سبب ألا يَرِث قاتلٌ؛ ثم ثبّت ذلك الإسلام كما ثبّت كثيراً من نوازل الجاهلية. ولا خلاف بين العلماء أنه لا يَرِث قاتلُ العمدِ من الدِّية ولا من المال، إلا فرقة شذّت عن الجمهور كلهم أهل بدع. ويَرِث قاتل الخطأ من المال ولا يرث من الدّية في قول مالك والأوزاعي وأبي ثور والشافعي؛ لأنه لا يُتَّهم على أنه قتله ليرثه ويأخذ ماله. وقال سفيان الثَّوْرِيّ وأبو حنيفة وأصحابه، والشافعي في قول له آخر: لا يرث القاتل عمداً ولا خطأً شيئاً من المال ولا من الدِّية. وهو قول شُريح وطاوس والشَّعْبِيّ والنَّخَعِيّ. ورواه الشَّعْبِيّ عن عمر وعليّ وزيد قالوا: لا يرِث القاتل عمداً ولا خطأً شيئاً. وروي عن مجاهد القولان جميعاً. وقالت طائفة من البصريين: يَرِث قاتل الخطأ من الدّية ومن المال جميعاً؛ حكاه أبو عمر. وقول مالك أصح، على ما يأتي بيانه في آية المواريث[1] إن شاء الله تعالى.

(١) راجع ٥/ ٥٥ فما بعدها.

[٧٣] ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ قيل: باللسان لأنه آلة الكلام. وقيل: بعَجْب الذَّنَب؛ إذ فيه يُركّب خَلْق الإنسان. وقيل: بالفخذ. وقيل: بعظم من عظامها؛ والمقطوع به عضو من أعضائها؛ فلما ضُرِب به حَيِيَ وأخبر بقاتله ثم عاد ميتاً كما كان.

مسألة ـ استدل مالك رحمه الله في رواية ٱبن وهب وٱبن القاسم على صحة القول بالقَسَامة بقول المقتول: دمي عند فلان، أو فلانٌ قتلني. ومنعه الشافعي وجمهور العلماء، قالوا: وهو الصحيح؛ لأن قول المقتول: دمي عند فلان، أو فلان قتلني، خبر يحتمل الصدق والكذب. ولا خلاف أن دم المدّعَى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين، ولا يقين مع الاحتمال؛ فبطل ٱعتبار قول المقتول دمي عند فلان. وأما قتيل بني إسرائيل فكانت معجزة وأخبر تعالى أنه يحييه، وذلك يتضمّن الإخبارَ بقاتله خبراً جزماً لا يدخله ٱحتمال؛ فافترقا. قال ٱبن العربيّ: المعجزة كانت في إحيائه؛ فلما صار حيّاً كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم في القبول والرد. وهذا فَنٌّ دقيق من العلم لم يتفطّن له إلا مالك، وليس في القرآن أنه إذا أخبر وجب صدقه، فلعله أمرهم بالقسامة معه. وٱستبعد ذلك البخاريّ والشافعيّ وجماعة من العلماء فقالوا: كيف يُقبل قوله في الدّم وهو لا يُقبل قوله في درهم.

مسألة ـ اختلف العلماء في الحُكْم بالقَسامة؛ فرُوِيَ عن سالم وأبي قِلَابة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عُيَيْنة(١) التَوَقُّف في الحُكم بها. وإليه مال البخاري؛ لأنه أتى بحديث القَسامة في غير موضعه. وقال الجمهور: الحُكْم بالقسامة ثابت عن النبيّ ﷺ، ثم ٱختلفوا في كيفيّة الحُكم بها؛ فقالت طائفة: يبدأ فيها المدّعون بالأيمان فإن حلَفوا ٱستحقُّوا، وإن نَكَلُوا حلَف المدّعَى عليهم خمسين يميناً وبَرَءُوا. هذا قول أهل المدينة واللَّيث والشافعي وأحمد وأبي ثور. وهو مقتضى حديث حُوَيِّصَة ومُحَيِّصة، خرّجه الأئمة مالك وغيره. وذهبت

---

(١) في نسخة: «الحكم بن عتيبة».

طائفة إلى أنه يبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم فيحلفون ويبرءون. رُوِيَ هذا عن عمر بن الخطاب وَالشَّعْبِي والنَّخَعِي، وبه قال الثَّوْرِي والكوفيّون؛ وٱحتجُوا بحديث شعبة بن عبيد عن بُشير بن يسار؛ وفيه: فبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم وهم اليهود. وبما رواه أبو داود عن الزُهْرِي عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبيّ ﷺ قال لليهود وبدأ بهم: «أيحلف منكم خمسون رجلاً». فأبوا؛ فقال للأنصار: «ٱستحقّوا» فقالوا: نحلف على الغيب يا رسول الله! فجعلها رسول الله ﷺ دِيَةً على يهود؛ لأنه وُجد بين أظهرهم. وبقوله عليه السلام: «ولكن اليمين على المدّعَى عليه» فعُيِّنُوا[1]. قالوا: وهذا هو الأصل المقطوع به في الدعاوى الذي نَبّه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام: «لو يُعْطَى الناسُ بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمين على المدّعى عليه[2]». رَدّ عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا: حديث سعيد بن عُبيد في تبدية اليهود وَهَم عند أهل الحديث، وقد أخرجه النسائي وقال: ولم يتابع سعيد في هذه الرواية فيما أعلم، وقد أسند حديث بُشير عن سهل أن النبيّ ﷺ بدأ بالمدّعين يحيى بنُ سعيد وٱبنُ عُيينة وحمّاد بن زيد وعبدُ الوهاب الثَقَفيّ وعيسى بنُ حماد وبشر بن المفضّل؛ فهؤلاء سبعة. وإن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ، وهو أصح من حديث سعيد بن عُبيد. قال أبو محمد الأصيلي: فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة، مع أن سعيد بن عُبيد قال في حديثه: فَوَداه رسول الله ﷺ مائةً من إبل الصدقة؛ والصدقةُ لا تعطَى في الدّيات ولا يُصالح بها عن غير أهلها، وحديث أبي داود مرسل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة، وأجابوا عن التمسك بالأصل بأن هذا الحكم أصل بنفسه لِحُرْمة الدماء. قال ٱبن المنذر: ثبت أن رسول الله ﷺ جعل البيّنة على المدّعِي واليمينَ على المدّعَى عليه، والحُكم بظاهر ذلك يجب، إلا أن يخصّ الله في كتابه أو على لسان نبيّه ﷺ حكماً في شيء من الأشياء فيُستثنى من جملة هذا الخبر. فمما دلّ عليه الكتاب إلزام القاذف حدّ المقذوف إذا لم يكن معه أربعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمي به المقذوف. وخصّ

(١) هذه الكلمة ساقطة في بعض النسخ.

(٢) كذا ورد هذا الحديث في بعض نسخ الأصل و «صحيح مسلم». قال ابن الملك: إنما ذكر اليمين فقط لأنها هي الحجة في الدعوى آخراً، وإلا فعلى المدعي إقامة البينة أولاً.

مَن رمى زوجته بأن أسقط عنه الحدّ إذا شهد أربع شهادات. ومما خصّته السُنَّة حكم النبيّ ﷺ بالقَسَامة. وقد روى ٱبن جُريج عن عطاء عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «البيّنةُ على مَن ٱدّعى واليمينُ على مَن أنكر إلاّ في القَسَامة». خرّجه الدّارَقُطْنِيّ. وقد ٱحتج مالك لهذه المسألة في مُوَطَّئه بما فيه كفاية؛ فتأمّله هناك.

مسألة ـ وٱختلفوا أيضاً في وجوب القَوَد بالقسامة؛ فأوجبت طائفة القَوَد بها؛ وهو قول مالك واللَّيث وأحمد وأبي ثَوْر؛ لقوله عليه السلام لحُوَيِّصة ومُحَيِّصة وعبد الرحمن: «أتحلفون وتستحقون دمَ صاحِبِكم». وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ ﷺ قتل رجلاً بالقَسَامة من بني نضر بن مالك. قال الدّارَقُطْنِي: نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه صحيحة؛ وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصحّح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به. وقال البخاري: رأيت عليّ بن المدِيني وأحمد بن حنبل والحُمَيْدِي وإسحاق بنَ رَاهْوُيْه يحتجّون به؛ قاله الدارقطني في السنن. وقالت طائفة: لا قَوَد بالقسامة، وإنما توجب الدّية. رُوي هذا عن عمر وٱبن عباس؛ وهو قول النَّخَعي والحسن، وإليه ذهب الثَّوْري والكوفيون والشافعي وإسحاق، وٱحتجوا بما رواه مالك عن ٱبن أبي ليلى بن عبد الله عن سهل بن أبي حَثْمة عن النبيّ ﷺ قوله للأنصار: «إما أن يَدُوا صاحبَكم وإما أن يؤذنوا بحرب». قالوا: وهذا يدل على الدّية لا على القَوَد؛ قالوا: ومعنى قوله عليه السلام: «وتستحقّون دَمَ صاحِبِكم» دِية دمِ قتيلِكم؛ لأن اليهود ليسوا بأصحاب لهم؛ ومن ٱستحق دية صاحبه فقد ٱستحق دمه؛ لأن الدّية قد تؤخذ في العمد فيكون ذلك ٱستحقاقاً للدم.

مسألة ـ الموجب للقسامة اللَّوْثُ ولا بُدّ منه. واللّوْثُ: أمارة تغلب على الظن صدق مدّعي القتل؛ كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل، أو يرى المقتول يَتَشَحّط[١] في دمه، والمتَّهم نحوه أو قُرْبه عليه آثار القتل. وقد ٱختلف في اللّوْث والقول به؛ فقال مالك: هو قول المقتول دمي عند فلان. والشاهد العدل لوث. كذا في رواية ٱبن القاسم عنه.

---

(١) يتشحط في دمه: أي يتخبط فيه ويضطرب ويتمرّغ.

وروى أشهب عن مالك أنه يُقسم مع الشاهد غير العدل ومع المرأة. وروى ٱبن وهب أن شهادة النساء لَوث. وذكر محمد عن ٱبن القاسم أن شهادة المرأتين لَوث دون شهادة المرأة الواحدة. قال القاضي أبو بكر بن العربي: ٱختلف في اللّوث ٱختلافاً كثيراً؛ مشهور المذهب أنه الشاهد العدل. وقال محمد: هو أحبّ إليّ. قال: وأخذ به ٱبن القاسم وٱبن عبد الحكم. ورُوِي عن عبد الملك بن مروان: أن المجروح أو المضروب إذا قال دمي عند فلان ومات كانت القَسَامة. وبه قال مالك واللّيث بن سعد. وٱحتج مالك بقتيل بني إسرائيل أنه قال: قتلني فلان. وقال الشافعيّ: اللَّوْث الشاهد العدل، أو يأتي ببيّنة وإن لم يكونوا عدولاً. وأوْجب الثورِيّ والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط، وٱستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد، قالوا: إذا وُجد قتيل في مَحلّة قومٍ وبه أثرٌ حلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عَقْلُه عليهم؛ وإذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شيء إلا أن تقوم البيّنة على واحد. وقال سفيان: وهذا مما أُجمع عليه عندنا؛ وهو قول ضعيف خالفوا فيه أهل العلم، ولا سلف لهم فيه، وهو مخالف للقرآن والسُّنة؛ ولأن فيه إلزامَ العاقلة مالاً بغير بيّنة ثبتت عليهم ولا إقرارٍ منهم. وذهب مالك والشافعيّ إلى أن القتيل إذا وُجد في مَحلّة قومٍ أنه هَدَر، لا يؤخذ به أقرب الناس داراً؛ لأن القتيل قد يُقتل ثم يُلقى على باب قوم ليلطخوا به؛ فلا يؤاخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التي شرطوها في وجوب القسامة. وقد قال عمر بن عبد العزيز: هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضي الله فيه يوم القيامة.

مسألة ـ قال القاسم بن مسعدة قلت للنّسائي: لا يقول مالك بالقسامة إلا باللَّوْث، فلم أوْرَد حديث القسامة ولا لَوث فيه؟ قال النسائي: أنزل مالك العداوة التي كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث، وأنـزل اللّوث أو قول الميـت بمنزلة العداوة . قال ٱبن أبي زيد : وأصل هذا في قصة بني إسرائيل حين أحيـا الله الذي ضُـرب ببعض البقـرة فقال : قتلني فلان ؛ وبأن العداوة لَوْث. قال الشافعي: ولا نرى قول المقتول لوثاً؛ كما تقدّم. قال الشافعي:

إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التي كانت بين الأنصار واليهود، ووجد قتيل في أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وجَبَت القسامة فيه.

مسألة ـ واختلفوا في القتيل يوجد في المحلة التي أكراها أربابها؛ فقال أصحاب الرأي: هو على أهل الخِطّة وليس على السكان شيء، فإن باعوا دُورهم ثم وُجد قتيل فالدّيَةُ على المشتري وليس على السكان شيء، وإن كان أرباب الدُّور غُيَّباً وقد أكروا دُورهم فالقسامة والدية على أرباب الدور الغُيَّب وليس على السكان الذي وُجد القتيل بين أظهرهم شيء.

ثم رجع يعقوب من بينهم عن هذا القول فقال: القسامة والدّية على السكان في الدُّور. وحكي هذا القول عن ابن أبي ليلى، واحتج بأن أهل خَيْبَر كانوا عُمَّالاً سُكَّاناً يعملون فوُجِد القتيل فيهم. قال الثوري ونحن نقول: هو على أصحاب الأصل، يعني أهل الدور. وقال أحمد: القول قول ابن أبي ليلى في القسامة لا في الدية. وقال الشافعي: وذلك كله سواء، ولا عَقْل ولا قَوَد إلا ببيّنة تقوم، أو ما ما يوجب القسامة فيُقسم الأولياء. قال ابن المنذر: وهذا أصح.

مسألة ـ ولا يحلف في القسامة أقل من خمسين يميناً؛ لقوله عليه السلام في حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة : « يُقسم خمسين منكم على رجل منهم » . فإن كان المستحقّون خمسين حلف كل واحد منهم يميناً واحدة ، فإن كانوا أقل من ذلك أو نَكَل منهم من لا يجوز عفوه رُدّت الأيمان عليهم بحسب عددهم . ولا يحلف في العمد أقل من اثنين من الرجال، لا يحلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء، يحلف الأولياء ومن يستعين بهم الأولياء من العَصَبة خمسين يميناً. هذا مذهب مالك واللّيث والثّوْري والأوزاعيّ وأحمد وداود. وروى مُطَرِّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدّعَى عليه أحدٌ ويحلف هم أنفُسهم ـ كما لو كانوا واحداً فأكثر ـ خمسين يميناً يبرئون بها أنفسهم؛ وهو قول الشافعي. قال الشافعي: لا يُقسم إلا وارث، كان القتل عمداً أو خطأً. ولا يحلف على مال ويستحقه إلا من له الملك لنفسه أو من جعل الله له المِلك من الورثة؛ والورثةُ يُقسمون على قدر مواريثهم. وبه قال أبو ثَوْر واختاره ابن المنذر وهو الصحيح؛ لأن من لم يدّع عليه لم يكن له سبب يتوجّه عليه فيه يمين. ثم مقصود هذه

الأيمان البراءة من الدعوة ومن لم يُدّع عليه بريء. وقال مالك في الخطأ: يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء، فمهما كملت خمسين يميناً من واحد أو أكثر استحق الحالف ميراثه، ومَن نَكَل لم يستحق شيئاً؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب ميراثه. هذا قول مالك المشهور عنه؛ وقد رُوِيَ عنه أنه لا يرى في الخطأ قسامة.

وتتميم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور في كتب الفقه والخلاف، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق.

مسألة ـ في قصة البقرة هذه دليل على أن شَرْع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا؛ وقال به طوائف من المتكلمين وقومٌ من الفقهاء، واختاره الكرخي ونصّ عليه ابن بُكير القاضي من علمائنا، وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب: هو الذي تقتضيه أصول مالك ومَنازعه في كتبه، وإليه مال الشافعي، وقد قال الله: ﴿فبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ على ما يأتي[1] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى﴾ أي كما أحْيَا هذا بعد موته كذلك يحيى الله كل من مات. فالكاف في موضع نصب، لأنه نعت لمصدر محذوف. ﴿ويُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي علاماته وقدرته. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تعقلوا. وقد تقدّم[2]. أي تمتنعون من عصيانه. وعقلتُ نفسي عن كذا أي منعتها منه. والمعاقل: الحصون.

[٧٤] ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ القسوة: الصلابة والشدّة واليُبْس. وهي عبارة عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى. قال أبو العالية وقتادة وغيرهما:

(١) راجع ٧/ ٣٥. (٢) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء.

المراد قلوب جميع بني إسرائيل. وقال ابن عباس: المراد قلوب ورثة القتيل؛ لأنهم حين حَيِيَ وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله، وقالوا: كَذَب؛ بعد ما رأوا هذه الآية العظمى؛ فلم يكونوا قط أعمى قلوباً، ولا أشدّ تكذيباً لنبيّهم منهم عند ذلك، لكن نفذ حكم الله بقتله. روى الترمذي عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي». وفي مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «أربعة من الشقاء جمود العين وقساء[1] القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا».

قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أو قيل: هي بمعنى الواو، كما قال: ﴿آثماً أَوْ كَفُوراً﴾. ﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ وقال الشاعر:

نال الخلافة أو كانت له قدرا

أي وكانت. وقيل: هي بمعنى بل؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[2] المعنى بل يزيدون. وقال الشاعر:

بدتْ مِثل قَرْن الشمس في رَوْنق الضحى وصورِتها أو أنت في العين أملح[3]

أي بل أنت. وقيل: معناها الإبهام على المخاطب؛ ومنه قول أبي الأسود الدُّؤَلِيّ:

أحِبّ محمداً حبّاً شديداً وعبّاساً وحمزة أو عِليّا
فإن يك حبّهم رشداً أصِبْه ولستُ بمخطىء إن كان غيّا

ولم يشك أبو الأسود أن حبهم رشد ظاهر، وإنما قصد الإبهام. وقد قيل لأبي الأسود حين قال ذلك: شككت! قال: كلا؛ ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[4] وقال: أوَ كان شاكّاً من أخبر بهذا! وقيل: معناها التخيير، أي شبهوها بالحجارة

(١) القساء (بالفتح والمد): مصدر، مثل القسوة والقساوة.
(٢) راجع ١٥/١٣٠.
(٣) راجع البيت في خزانة الأدب في الشاهد ٨٩٥.
(٤) راجع ١٤/٢٩٨.

تصيبوا، أو بأشد من الحجارة تصيبوا؛ وهذا كقول القائل: جالس الحسن أو ابن سيرين، وتعلّم الفقه أو الحديث أو النحو. وقيل: بل هي على بابها من الشك، ومعناها عندكم أيها المخاطبون وفي نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم: أهي كالحجارة أو أشدّ من الحجارة؟ وقد قيل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إلى مِائَة أَلْفٍ أَوْ يَزِيدونَ﴾. وقالت فرقة: إنما أراد الله تعالى أن فيهم مَن قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشدّ من الحجر. فالمعنى: هم فرقتان.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ «أشد» مرفوع بالعطف على موضع الكاف في قوله ﴿كالحِجارَة﴾؛ لأن المعنى فهي مثل الحجارة أو أشدّ. ويجوز أو «أشدَّ» بالفتح عطف على الحجارة. و ﴿ قَسْوَةً ﴾ نصب على التمييز . وقرأ أبو حَيْوَةَ « قساوة » والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿وإنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهارُ وإنَّ مِنها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنهُ المَاءُ﴾ قد تقدّم معنى الانفجار[1]. ويشقّق أصله يتشقق، أدغمت التاء في الشين؛ وهذه عبارة عن العيون التي لم تَعْظُم حتى تكون أنهاراً، أو عن الحجارة التي تتشقّق وإن لم يجر ماء منفسح. وقرأ ابن مُصَرِّف «ينشقق» بالنون، وقرأ «لمّا يتفجر» «لمّا يتشقّق» بتشديد «لما» في الموضعين. وهي قراءة غير متّجهة. وقرأ مالك بن دينار «ينفجِر» بالنون وكسر الجيم. قال قتادة: عذر الحجارة ولم يعذِر شقيّ بني آدم. قال أبو حاتم: يجوز لما تتفجر بالتاء، ولا يجوز لما تتشقق بالتاء؛ لأنه إذا قال تتفجر أنّثه بتأنيث الأنهار؛ وهذا لا يكون في تشقق. قال النحاس: يجوز ما أنكره على المعنى؛ لأن المعنى وإن منها لحجارةً تتشقق؛ وأما يشقق فمحمول على لفظ ما. والشّق واحد الشُقوق؛ فهو في الأصل مصدر، تقول: بيد فلان ورجليه شقوق، ولا تقل: شقاق؛ إنما الشُّقاق داء يكون بالدواب، وهو تشقّق يصيب أرساغها وربما ارتفع إلى وظيفها[2]؛ عن يعقوب. والشّق: الصبح. و «ما» في قوله:

---

(١) راجع ص ٤١٩ من هذا الجزء.

(٢) الوظيف: مستدق الذراع والساق. وقيل: ما فوق الرسغ إلى الساق.

﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ﴾ في موضع نصب؛ لأنها اسم إنّ واللام للتأكيد. «منه» على لفظ ما، ويجوز منها على المعنى؛ وكذلك ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ منه الْمَاءُ﴾. وقرأ قتادة «وإنْ» في الموضعين، مخففة من الثقيلة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ يقول: إنّ من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم؛ لخروج الماء منها وتردّيها. قال مجاهد: ما تردّى حجر من رأس جبل، ولا تفجّر نهر من حجر، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله؛ نزل بذلك القرآن الكريم. ومثله عن ابن جُرَيح. وقال بعض المتكلمين في قوله: ﴿وإن منها لما يَهْبِط مِن خشيةِ اللهِ﴾: البَرَد الهابط من السحاب. وقيل: لفظة الهبوط مجاز؛ وذلك أن الحجارة لما كانت القلوب تعتبر بخلقها، وتخشع بالنظر إليها، أضيف تواضع الناظر إليها؛ كما قالت العرب: ناقة تاجرة؛ أي تبعث من يراها على شرائها. وحكى الطبريّ عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة؛ كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله: ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾، وكما قال زيد الخيل(١):

لما أتى خبر الزبير تواضعت سورُ المدينة والجبالُ الخُشّعُ

وذكر ابن بحر أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وإنّ مِنها﴾ راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة؛ أي من القلوب لما يخضع من خشية الله.

قلت: كل ما قيل يحتمله اللفظ، والأوّل صحيح؛ فإنه لا يمتنع أن يعطي بعض الجمادات المعرفة فيعقل، كالذي رُوِيَ عن الجِذع الذي كان يستند إليه رسول الله ﷺ إذا خطب، فلما تحوّل عنه حنّ؛ وثبت عنه أنه قال: «إنَّ حجراً كان يسلّم عليّ في الجاهلية

---

(١) نسب هذا البيت في كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد في ترجمة الزبير بن العوام وفي كتاب سيبويه إلى جرير. ويلاحظ أن زيد الخيل توفي على عهد رسول الله ﷺ أو في آخر خلافة عمر رضي الله عنه. فوفاته إذا قبل وفاة الزبير. وقد وصف مقتل الزبير بن العوام حين انصرف يوم الجمل وقتل في الطريق غيلة. يقول: لما وافى خبره المدينة (مدينة رسول الله ﷺ) تواضعت هي وجبالها وخشعت حزناً له.

إني لأعرفه الآن». وكما روي أن النبيّ ﷺ قال: «قال لي ثَبِير[١] اهبط فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله». فناداه حراء: إليّ يا رسول الله. وفي التنزيل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ على السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والجِبالِ﴾[٢] الآية. وقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[٣] يعني تذلُّلاً وخضوعاً، وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «سبحان»[٤] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «بغافل» في موضع نصب على لغة أهل الحجاز، وعلى لغة تميم في موضع رفع. والياء توكيد. ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها عليكم؛ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[٥]. ولا تحتاج «ما» إلى عائد إلا أن يجعلها بمعنى الذي فيحذف العائد لطول الاسم؛ أي عن الذي تعملونه. وقرأ ابن كَثير «يعملون» بالياء؛ والمخاطبة على هذا لمحمد عليه السلام.

* * *

تمّ الجزء الأوّل من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثاني، وأوّله قوله تعالى: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآية.

---

(١) ثبير: جبل معروف عند مكة.

(٢) راجع ١٤/ ٢٥٣.

(٣) راجع ١٨/ ٤٤.

(٤) راجع ١٠/ ٢٦٧.

(٥) راجع ٢٠/ ١٥٠.

فهرس الجزء الأول

تفسير سورة الفاتحة

تفسير سورة البقرة

□□□